موسوعة الخطب المنبرية

خطب الجمعة و العيدين

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء



دار التوفيقية للتراث



خطب الجمعة و العيدين

سلسة خطب الجمعة و العيدين و الدار الآخرة و علامات الساعة الصغرى و الكبرى

لاغنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطاب

المجموعة الثالثة

الجزء الأول

تأليف

سعد يوسف محمود أبو عزيز

دار التوفيقية للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾

اسم الكتاب: موسوعة الخطب المنبرية
المجموعة الثالثة جـ ١

اسم المؤلف : سعد يوسف أبو عزيز
رقم الإيداع : ٢٠١٠/٢١٢٦٨
النـــاشــر : دار التوفيقية للتراث

دار التوفيقية للتراث

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر – القاهرة
تليفون : ٢٥١٠٥٦٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تنبيهات مهمة

قبل إعداد خطبة الجمعة

التنبيه الأول: قال الإمام ابن القيم - رَحِمَهُ الله - في «زاد المعاد» (١/ ١٨٨): «كان مدار خطبته ﷺ على حمد الله والثناء عليه بآلائه، وأوصاف كماله ومحامده، وتعليم قواعد الإسلام، وذكر الجَنَّة والنار والمعاد، والأمر بتقوى الله، وتبيين موارد غضبه، ومواقع رضاه، فعلى هذا مدار خطبه. ولم يكن يخطب خطبةً إلا افتتحها بحمد الله، ويتشهد فيها بكلمتي الشهادة» ا.هـ.

هذا؛ واشترط الفقهاء لخطبة الجمعة شروطًا لا تصحّ الخطبة بدونها، ومن هذه الشروط: حمد الله، والصلاة على النَّبيّ ﷺ، والشهادتان، وقراءة آية من القرآن، والوصية بتقوى الله..

والراجح: أن ما ذكر من هذه الأمور لا تعد شروطًا للخطبة، لأن الأحاديث الواردة في ذلك لا تدلّ على الشرطية، إنما هي مستحبات ومكملات لها.

وأما الشرطية فلا، ويستثنى من ذلك: الشهادتان، فهما شرط، وذلك لحديث النبي ﷺ: «**الخطبة التي ليس فيها شهادة كاليد الجذماء**»[1] ا.هـ[2].

قال العلَّامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله -: «وأمَّا اشتراط تلك الشروط بين الخطبتين: الحمد، والصلاة على رسول الله ﷺ، وقراءة آية من القرآن، فليس على اشتراط ذلك دليل.

والصواب: أنه إذا خطب خطبةً يحصل بها المقصود والموعظة أن ذلك كاف... نعم

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٤٨٤١)، والترمذي (١١٠٦)، وصححه الألباني.

(٢) «تمام المنة» للعزازي (٢/ ١٨).

مِن كمال الخطبة الثناء فيها على الله وعلى رسوله ﷺ، وأن تشتمل على قراءة شيء من كتاب الله، وأمَّا كون هذه الأمور شروطًا لا تصحّ إلا بدونها سواء تركها عمدًا أو خطأ أو سهوًا؛ ففيه نظر ظاهر» ا.هـ[1].

وفي «الروضة الندية» (ص١٣٧): «الوعظ في خطبة الجمعة هو الذي يساق إليه الحديث، فإذا فعله الخطيب فقد فعل الأمر المشروع، إلا أنه إذا قدَّم الثناء على الله وعلى رسوله ﷺ أو استطرد في وعظه القوارع القرآنية كان أتمّ وأحسن» ا.هـ.

قلت: وهذا ما حاولت ذكره في هذه السلسلة - بفضل الله تعالى - قدر استطاعتي، وعلى الأخ الخطيب أن يستكمل ما يراه ناقصًا، هذا للعلم.

التنبيه الثاني: هذه السلسلة مهمّتها مساعدة الخطيب في اختيار الموضوع، وعلى الخطيب أن يضيف أو يحذف ما يراه مناسبًا، ويحاول ربط الأحداث بالواقع المعاشي، حتى لا يعيش بمعزلٍ عن الزمن الذي يعيش فيه.

التنبيه الثالث: لا يشترط ذِكر الخُطب مسلسلة كما هو مدوّن، فالأفضل التنويع، بمعنى إلقاء خطبة عن نبيّ من الأنبياء، أو صحابيّ من الصحابة مثلًا، والخطبة التي تليها تكون عن خُلُقٍ من أخلاق الإسلام، أو تذكيرٍ بالموت وما بعده، وذلك حتى لا يسأم المستمع.

وقد حاولت بناء خطب كثيرة على مواقف ومواعظ عديدة.

وأخيرًا...

أسأل الله تعالى أن أكون قد وُفِّقتُ فيما أردتُ، وعلى الله قصد السبيل.

كتبه

سعد يوسف محمود أبو عزيز

---

(١) «المختارات الجلية» (ص٧٠).

الخطبة الأولى

أسبابُ الخشوع فِي الصّلاة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

ثُمَّ أمّا بعد:

فإن الخشوع روحُ الصلاة.. فالقدر الَّذِي يحضر فيه القلبُ في الصلاة هو القدر المقبول عند الله.

عَنْ عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عنه قَالَ: سمعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «إِنَّ الرجلَ لَيَنْصَرِفُ[1]، وما كُتِبَ له إِلَّا عُشْرُ صَلاتِهِ، تُسعُهُا ثُمنُها، سُبُعُها، سُدُسُها، خُمسُهَا،

(١) يعني من صلاته.

رُبُعَها، ثُلُثُها، نِصْفُها»[١].

وقال عبد الواحدُ بْنُ زيد - رحمه الله -: «أجمعت العلماء على أنه لَيْسَ للعبد من صلاته إلَّا ما عَقَلَ منها»[٢].

لذا فخطبة اليوم تدور حول خمسة أمور:

الأمر الأول: تعريف الخشوع.

والثاني: حكمه.

والثالث: بعض فضائله.

والرابع: بعض الأسباب المعينة عليه.

والخامس: لقطات من حياة أهل الخشوع.

وأسأل الله - تَعَالَى - أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته.

عباد الله...

ما هو الخشوع؟

الخشوع: قيام القلب بَيْنَ يدي الرّبِّ - سبحانه - بالخضوع والذلّ.

وهو: انقيادُ الجوارح وانكسارُها بَيْنَ يدي خالقها وسيّدها.

وَقَالَ الجُنَيْد: «تذلل القلوب لعلّام الغيوب».

وهو: حياةُ القلب، وسِرُّ صلاحِهِ وفلاحِهِ، إذَا رحل عنه مات.

قلتُ: لذا كَانَ النبيُّ ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوة لا تُسْتَجاب**»[٣].

والخشوع: أوّل شيء يرفع من هذه الأمة: فعن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عنه عَنْ

---

(١) صحيح: رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦١).

(٣) رواه مسلم.

النبيّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ شيءٍ يُرْفَعُ من هذه الأمة: الخشوع، حتى لا ترى فيها خاشِعًا»[١].

وإذا رُفع الخشوع من القلب، مات وَقَسَا وتَحَجَّر، وتفجّرت منه ينابيع الشّر، وصار بيتًا للشيطان.

والخشوع نوعان: خشوع الإيمان، وخشوع النفاق.

أَمَّا خشوع الإيمان: فَقَدْ سبق تعريفه، وهو ثمرة الإيمان.

قَالَ الْإِمَام الغزالي - رحمه الله -: «اعلم أن الخشوع ثمرة الإيمان ونتيجة اليقين الحاصل بجلال الله عز جل، ومن رُزق ذَلِكَ فإنه يَكُون خاشعًا فِي الصلاة وَفِي غير الصلاة، بل فِي خلوته وَفِي بيت المال عند الحاجة، فإن موجب الخشوع معرفة اطلاع الله تَعَالَى عَلَى العبد ومعرفة جلاله ومعرفة تقصير العبد فمن هذه المعارف يتولّد الخشوع وليست مختّصة بالصلاة» ا.هـ[٢].

وَأَمَّا خشوع النفاق: فهو تكلّف إسكان الجوارح تصنّعًا ومراءاة، ونفسه فِي الباطن ذات شهوات وإرادات، فهو يتخشّع فِي الظاهر، وحيّة الوادي بَيْنَ جنبيه.

قَالَ أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْه: استعيذوا بالله من خشوع النفاق. قالوا: وَمَا خشوع النفاق؟ قَالَ: أن ترى الجسدَ خاشعًا والقلب لَيْسَ بخاشع.

ورأى عمرُ بْنُ الخطاب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْه رجلًا طأطأ رقبته فِي الصلاة، فَقَالَ: «يا صاحب الرّقبة، ارفع رقبتك، لَيْسَ الخشوع فِي الرِّقَاب، إِنَّمَا الخشوع فِي القلوب».

فمن أظهر خشوعًا غير ما فِي قلبه، فإنما هو نفاق عَلَى نفاق.

أَمّا حكْمُ الخشوع: فالراجح فِي حكم الخشوع أنه واجب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل فِي جميع صلاته كيف يَكُون مقيمًا للصلاة لِذِكْرِه؟

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير».

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٧١).

قال تعالى: ﴿ وَلاَ تَكُن مِّنَ الغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠٥].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. وصلاة الغافل لا تمنع من الفحشاء والمنكر[(١)].

وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ عن النبيّ ﷺ قَالَ: «رُبَّ صائم لَيْسَ له من صيامه إلّا الجوعُ، وَرُبَّ قائم لَيْسَ له من قيامه إلّا السَّهَرُ»[(٢)]. وما أراد بهذا إِلاَّ الغافل.

أما فضائل الخشوع: ففضائل الخشوع كثيرة، منها: التخلّق بأخلاق الأنبياء: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لاَ تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الوَارِثِينَ* فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

ومنها: أن الخشوع طريق الفلاح: قَالَ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ* الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١، ٢].

ومنها: أن الخشوع طريق إِلَى مغفرة الذنوب ودخول الجنة: قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْـمُسْلِمَاتِ وَالْـمُؤْمِنِينَ وَالْـمُؤْمِنَاتِ وَالْـقَانِتِينَ وَالْـقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْـخَاشِعِينَ وَالْـخَاشِعَاتِ وَالْـمُتَصَدِّقِينَ وَالْـمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْـحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْـحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٣٥].

عباد الله...

ما هي الأسباب الَّتِي تعين عَلَى الخشوع فِي الصلاة؟

الأسباب كثيرة، نذكر منها:

السّببُ الْأَوَّل: إِذَا سمعتَ النِّداء، فاذكر - واستحضر بقلبك - نداءَ يوم القيامة. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ* يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْـحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الخُرُوجِ* إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ* يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٥٩).

(٢) صحيح: رواه البيهقي، وصحّحه الألباني في«صحيح الجامع» برقم (٣٤٨٨).

حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ [ق: ٤١- ٤٤].

ودخل طاوس اليماني - رحمه الله - عَلَى أمير المؤمنين هشام بن عَبْدُ الملك فَقَالَ لَهُ: اتق الله يوم الأذان. قَالَ هشام: وَمَا يوم الأَذان؟ قَالَ: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. فصعق هشام، فَقَالَ طاوس[1]: «هذا ذُلّ الصِّفَة، فكيف بذلّ المعاينة؟»[2].

السبب الثَّانِي: إِذَا غسلت أعضاء وضوئك، فهذه طهارة الظاهر، فأين طهارة الباطن؟

الناس ينظرون إِلَى ظاهرك.. والقلب محلّ نظر الرّب. فلا تجعل ربَّك أهون الناظرين إِلَيْكَ.

قَالَ أحد طلبة العلم لأستاذه: أوصني؟ قَالَ: «إذا جلستَ إِلَى الناس، فاعلم أنهم ينظرون إِلَى ظاهرك، والله مُطّلع عَلَى باطنك».

السبب الثالث: إِذَا دخلت بيت الله، فاخلع الدنيا مع نعليك، وقل بانكسار كما ثبت عن النَّبِيّ ﷺ: «**بسم الله، والصَّلاةُ والسّلام على رَسُول الله**»، «**اللهم افْتَحْ لي أبواب رَحْمَتِك**»، «**أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وَسُلْطَانِه القديم من الشَيطان الرجيم**».

السبب الرابع: إِذَا وقفت بَيْنَ يدي الله، تذكّر وقوفك بَيْنَ يديه يوم القيامة. عن عدي بن حاتم - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قَالَ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ اللَّهُ يَوْمَ القيامة، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ فَيَنْظُرُ أَيْمَنَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ، فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْه، فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ، ولو بكلمة طيّبة**»[3].

ولله دَرُّ القَائل:

تذكّر وقوفك يوم الحشر عُرْيَانا مُسْتَوْحِشًا قَلِقَ الأحشاءِ حَيْرَانا

---

[1] أي: عندما ترى ذَلِكَ عيانًا.

[2] «كتاب الكبائر» للذهبي. «كبيرة الظلم» (ص ١٢١).

[3] رواه أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم.

والنارُ تَلْهَبُ من غَيْظٍ ومن حنق عَلَى العصاة وربُّ العرش غَضْبَانا
اقرأ كتابك يا عبدي عَلَى مَهل فهل ترى فيه حَرفًا غَيْرَ ما كانا
فَلَمَّا قرأتَ ولم تنكرْ قراءتَه وأقررتَ إقرارَ من عَرف الأشياء عرْفَانَا
نادى الجليلُ خذوه يا ملائكتي وامْضُوا بعبدٍ عَصَى للنار عَطْشَانا
المشركون غدًا فِي جَهَنَم يَلْتَهِبوا والموحّدون بدارِ الْخُلْدِ سُكَّانا

السبب الخامس: اطمئن فِي صلاتك، وإياك أن تسرق منها: - قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «أي: خاشعين ذليلين مستكنين بَيْنَ يديه» ا.هـ[(١)].

وَعَنْ أبي قتادة - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أسوأُ الناس سرقةً، الَّذِي يسرقُ من صلاته». قالوا: يا رَسُولُ الله، كيف يسرق من صلاته؟ قَالَ: «لا يُتمُّ ركوعَها، وَلَا سجودَها» أو قَالَ: «لا يقيمُ صُلْبَه فِي الركوع والسّجود»[(٢)].

هَذَا، واعلم أن الله تَعَالَى لَا يزال مقبلاً عَلَى العبد فِي صلاته ما لم يلتفت.

فعن أبي ذرّ - رضي الله عنه - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لا يزالُ اللَّهُ مُقْبِلًا على العبد في صلاته ما لم يلتفت، فإذا صَرَف وَجْهَه انْصَرف عنه»[(٣)].

السبب السادس: اذكر الموت فِي صلاتك، فإن ذَلِكَ من أسباب الخشوع. قَالَ ﷺ: «اذكر الموتَ في صلاتك، فإن الرّجَل إذا ذكر الموت في صلاته لحريّ أن يُحْسن صلاته، وَصَلِّ صلاة رجلٍ لا يظن أنه يُصلّي غيرها»[(٤)].

وَقَالَ ﷺ: «إذا قُمْتَ في صَلَاةٍ، فَصَلِّ صَلاةَ مُودِّع»[(٥)].

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٢٨٦) ط- المكتبة التوفيقية.

(٢) صحيح: رواه أحمد والطبراني وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٥٢٥).

(٣) حسن: رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وحسّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» برقم (٥٥٥).

(٤) انظر: «السلسلة الصحيحة» للألباني (١٤٢١).

(٥) رواه أحمد، وانظر «صحيح الجامع» (٧٤٢).

السّببُ السّابع: اقرأ القرآن بترتيل - اعْط كلّ حرفٍ حقّه ومستحقّه - وتدبّر معاني الآيات، قَالَ تَعَالَى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩].

قَالَ رجل من قيس يكنى أبا عَبْدُ الله: بتنا ذات ليلةٍ عند الحسن فقام من الليل فصلّى فلم يزل يردد هذه الآيات حَتَّى السَّحَر: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فلَمَّا أصبح قلنا: يا أبا سعيد لم تكد تجاوز هذه الآية سائر الليل؟

قَالَ: «أرى فِيهَا معتبرًا، ما أرفعُ طَرْفًا وَلَا أردّه إِلَّا وقع علي نعمة، وَمَا لا يُعلم من نعم الله أكثر».

السبب الثامن: التنويع فِي السور والآيات والأذكار الثابتة عن النبيّ ﷺ في الصلاة. فهذا يحرّك القلوب، ويستجلب الخشوع، ويعين على التدّبر.

السبب التاسع: انظر إلى موضع سجودك، فإن ذَلِكَ يعين على استجماع القلب.

عَنْ عائشة - رَضِيَ اللّهُ عنها- قالت: كَانَ رَسُول الله ﷺ إذا صلّى طأطأ رأسه، ورمى ببصره نحو الأرض[١].

وجاء عَنْ النَّبِيّ ﷺ أنه كَانَ إذا جَلَس للتشهد يشير بأَصْبعه التي تلي الإبهام إِلَى القبلة وَيَرْمي ببصره إليها[٢]. وفي رواية: وأشار بالسبابة ولم يجاوز بَصَره إشارته.

أما: إذا كَانَ في موضع سجود المصلّي وفي قبلته زخارف تشغله، فيستحب في هَذَا الحال تغميض العينين.

قَالَ ابن القيم - رحمه الله -: «وقد اختلف الفقهاء في كراهة تغميض العينين، فكرهه الإمام أحمد وغيره وقالوا: هو فعل اليهود، وأباحه جماعة ولم يكرهوه.. والصواب أن يقال: إن كَانَ تفتيح العين لا يُخلّ بالخشوع فهو أفضل، وإن كَانَ يحول بينه وبين الخشوع لما في قبلته من الزخرفة والتزويق أو غيره ممّا يشوش عليه قلبه فهنالك

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة، وإسناده صحيح.
(٢) رواه أحمد (٤/ ٣)، وأبو داود (٩٩٠).

لا يكره التغميض قطعًا، والقول باستحبابه فِي هَذَا الحال أقرب إِلَى أصول الشرع ومقاصده من القول بالكراهة، والله أعلم» ا.هـ[١].

السبب العاشر: تذلّل لله تَعَالَى وانكسر بَيْنَ يديه فِي حال ركوعك وسجودك، وتدبّر ما تقرأ من أذكار.

قَالَ الْإِمَام الغزالي – رحمه الله –: «فتمكّن أعزّ أعضائك وهو الوجه من أذلّ الأشياء وهو التراب. وإن أمكنك أن لَا تجعل بينهما حائلاً فتسجد عَلَى الْأَرْض فافعل فإنه أَجْلَبُ للخشوع وأدلّ عَلَى الذلّ. وَإِذَا وضعت نَفْسَك موضع الذّلّ فاعلم أنّك وضعتها مَوْضِعها ورددتَ الْفَرْعَ إِلَى أَصْلِه فإنّك من التراب خُلِقْتَ وإليه تعُود» ا.هـ[٢].

عباد الله...

هذه عشرة أسباب تعين عَلَى الخشوع فاجعلوها نُصب أعينكم.

هَذَا، وَقَدْ قَالَ الْإِمَام ابن القيم – رحمه الله –: «الناس في الصلاة على مراتب خمس:

إحداها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط: وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقيتها وحدودها وأركانها.

الثانية: من يحافظ على مواقيتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكن قد ضيع مجاهدة نفسه في الوسوسة فذهب مع الوساوس والأفكار.

الثالثة: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوساوس والأفكار. فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها واستغرق قلبه مراعاة حدودها وحقوقها لئلا يضيِّع شيئًا منها، بل همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها قد استغرق قلبه شأن الصلاة وعبودية ربه تبارك وتعالى فِيهَا.

الخامسة: من إذا قام إلى الصلاة قام إليها كذلك، ولكن مع هذا قد أخذ قلبه ووضعه بين يدي ربه ﷻ ناظرًا بقلبه إليه مرتقبًا له ممتلئًا من محبته وعظمته كأنه يراه

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٢٩٣) ط- دار الرسالة.

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ١٦٩).

يشاهده وقد اضمحلت تلك الوساوس والخطوات وارتفعت حجبها بينه وبين ربه، فهذا بينه وبين غيره في الصلاة أفضل وأعظم مما بين السماء والأرض، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به.

فالقسم اَلْأَوَّل: معاقب.

والثاني: محاسب.

والثالث: مكفر عنه.

والرابع: مثاب.

والخامس: مقرب من ربه لأن له نصيبًا ممن جعلت قرة عينه في الصلاة، فمن قرت عينه بصلاته في الدنيا قَرَّتْ عينه بقربه من رَبِّه ﷻ في الآخرة، وقرت عَيْنُه أيضًا به في الدنيا ومن قرت عَيْنُه بالله قَرَّتْ به كُلُّ عين، ومن لم تقر عينه بالله تعالى تقطّعت نَفْسُه على الدنيا حسرات». [١] ا.هـ.

اللّهم إنّا نعوذُ بك مِنْ عِلْمٍ لَا ينفع، وقلبٍ لَا يخشع، ومن نفسٍ لَا تشبع، ومن دعوة لَا تُستجاب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام عَلَى عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فَقَدْ تقدم معنا أن الخشوع ثمرة الإيمان.. فخشوع كلّ واحد منا عَلَى قدر إيمانه، لذا كَانَ سلفنا أشدّ الناس خشوعًا بَعْدَ الأنبياء والمرسلين.

كَانَ عَبْدُ الله بن الزبير - رَضِيَ اللَّهُ عنهما - إِذَا قام فِي الصلاة كأنه عود، وَكَانَ إِذَا سجد وقفت العصافير عَلَى ظهره تحسبه جذع شجرة!!

---

(١) «الوابل الصيّب» (٣٢، ٣٣).

وَكَانَ منصور بن المعتمر - رحمه الله -[1] يصلّي في سطحه، فلما مات قَالَ غلام لأمّه: يا أُمّاه الجِذْعُ الَّذِي كَانَ في سطح آلِ فلانٍ ليسَ أراه، قالت: يا بنيَّ لَيْسَ ذَلِكَ جذعًا، ذاكَ مَنْصُور، قَدْ مات مَنْصُور[2]!!

اللّهم أعنّا عَلَى ذِكْرِكَ، وشكرك، وحسن عبادتك

اللّهم اجعلني أُحبُّك بقَلْبِي كُلِّه، وأُرْضِيك بِجَهْدِي كُلِّه

۞۞۞۞۞

(١) هو الحافظ الثبت القدوة، التابعي، توفي ١٣٢هـ.

(٢) «أحاسن المحاسن» لأبي إسحاق إبراهيم الختلي (٤٣١).

الخطبة الثانية

القلبُ وعاء العقائد

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أَمَّا بَعْد:

فإن معرفةَ القلب وحقيقةَ أوصافه، أصلُ الدين، وأساسُ طريق السالكين[١].

لماذا؟ لأن القلب وعاءُ العقائد.

فيه يستقر الإيمان: قَالَ الله تَعَالَى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْـيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢، ٣).

قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾.. الآية [المجادلة: ٢٢].

وفيه يستقر الكفر: قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا**﴾ [النحل: ١٠٦].

وعلى القلب تُعرض الفتن، فتن الشهوات اَلَّتِي تثير فِي الإنسان الغريزة الحيوانية فِي البطن والفرج. وفتن الشبهات: اَلَّتِي تعكّر صفو الاعتقاد الصحيح.. وَرُبَّمَا هاجت فِي القلب وتمكنت منه.. فأطفأت فيه نور الإيمان.

عن حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - عن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ:**

قلبٍ أسود مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ. وقلبٍ أبيضَ فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتْ السموات وَالْأَرْضُ»[1].

فقسّم النَّبِيّ ﷺ القلوب عند عرض الفتن عليها إِلَى قسمين:

الأوّل: قلب إذا عرضت عليه فتنة أشربها - كما يشرب الإسفنج الماء - فنكتت فيه نكتة سوداء، فلا يزال يشرب كلّ فتنة تُعرض عليه حتى يَسْوَدّ وينتكس، وهو معنى قوله: «كالكوزِ مُجَخِّيًا» أي: مكبوبًا منكوسًا.

فَإِذَا اسودّ وانتكس عرض لَهُ من هاتين الآفتين مَرَضان خَطِران تراميان به إِلَى الهلاك.

المرض الْأَوَّل: اشتباه المعروف عَلَيْهِ بالمنكر، وَرُبَّمَا استحكم عَلَيْهِ هَذَا المرض حَتَّى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، والسّنة بدعة والبدعة سنّة والحقّ باطلاً والباطل حقًا.

المرض الثَّانِي: تحكيمه هواه عَلَى ما جاء به الرسول ﷺ وانقياده للهوى واتباعه له.

القسم الثَّانِي: قلب أبيض: قَدْ أشرق فيه نور الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فَإِذَا عرضت عَلَيْهِ الفتنة أنكرها وردّها، فازداد نورُه وإشراقه وقوته.

---

(١) رواه أحمد (٥/ ٤٠٥)، ومسلم (١٤٤).

وَهَذَا القلب الأبيض الَّذِي يردّ الفتن، هو القلب الصالح الَّذِي هو آنية الله فِي أرضه.. لَا حلولاً وَلَا اتحادًا، ولكن معرفة ومهابة وخشية وإجلالاً.

عن أبي عِنَبَةَ الْخَوْلَانيّ - رضي الله عنه - عن النَّبِيّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ لله تَعَالَى آنيةً من أهل الأرض، وآنيةُ ربكم: قلوبُ عبادِه الصالحين، وأحبُّها: أَلْينُها وأرقُّها**»[١].

قَالَ المناوي - رحمه الله -: قوله ﷺ: «**إن لله تَعَالَى آنية**» جمع إناء وهو وعاء الشيء «**من أهل الأرض**» من الناس أو من الجِنَّة والناس أو أعم «**وآنية ربكم**» فِي أرضه «**قلوب عباده الصالحين**» أي القائمين بما عليهم من حقوق الحق والخَلْق، بمعنى أن نور معرفته تملأ قلوبهم حَتَّى تفيض عَلَى الجوارح، وَأَمَّا حديث: «ما وسعني أرضي وَلَا سمائي ووسعني قلبُ عبدي المؤمن» فلا أصل لَهُ «**وأحبها إليه**» أي أكثرها حبًّا عنده «**ألينها وأرقها**» فإن القلب إِذَا لان ورقّ وانجلى صار كالمرآة الصقيلة، فَإِذَا أشرقت عَلَيْهِ أنوار الملكوت أضاء الصّدر وامتلأ من شعاعها فأبصرت عين الفؤاد باطن أمر الله فِي خلقه فيؤديه ذَلِكَ إِلَى ملاحظة نور الله تَعَالَى فَإِذَا لاحظه فذلك قلب استكمل الزينة والبهاء بما رُزِقَ من الصَّفاء فصار محلّ نظر الله من بَيْنَ خَلْقه فكلما نظر إِلَى قلبه زاده به فرحًا وله حُبًّا وعِزًّا واكتنفه بالرّحمة وأراحه من الزّحْمَةَ وملأه من أنوار العلوم» ا.هـ[٢].

قَالَ خالد بن مَعْدان - رحمه الله -: «ما من آدميّ إِلَّا وله أربعُ أعين: عينان فِي رأسه يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان فِي قلبه يُبْصِر بهما أمْرَ الآخرة، فَإِذَا أراد الله بعبد خيرًا فتح عينيه اللّتين فِي قلبه، فأبصر بهما ما وُعِدَ بالغيب، فأمِنَ الغَيْبَ بالغيْب، وَإِذَا أراد الله بالعبد خلاف ذَلِكَ ترك القلب عَلَى ما هو عَلَيْهِ[٣]، فتراه ينظر فلا ينتفع»، ثُمَّ قرأ: ﴿**أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [مُحَمَّد: ٢٤].

عباد الله...

وصاحب هَذَا القلب الأبيض.. لَا يصبر عن الله طرفة عين.

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وَقَالَ الهيثمي: إسناده حسن، ووافقه الألباني فِي «صحيح الجامع» (٢١٦٣).

(٢) «فيض القدير» (٢/ ٦٢٩).

(٣) يعني: أعمى العينين.

فها هو ذا داودُ الطائيّ[١] - رحمه الله - كَانَ يجالس أبا حنيفة - رحمه الله -، فَقَالَ لَهُ أبو حنيفة: يا أبا سليمان، أَمَّا الأَداةُ[٢] فَقَدْ أحكمناها. قَالَ داودُ: فأيُّ شيءٍ بَقِيَ؟

قَالَ: بقي العملُ به. فاشتغل داود بالتعبد والتهجّد.

قَالَتْ امرأةٌ: كَانَ بيننا وبين داودَ الطائيّ حائطٌ قصير فكنتُ أسمع حِسَّه عامّة الليل لَا يَهْدأ، وَرُبَّمَا سمعتُهُ يقول فِي جوف الليل: «اللّهمّ هَمُّكَ عَطَّل عليّ الهموم، وَحَالَفَ بيني وبين السُّهَاد[٣]، وشوقي إِلَى النظر إِلَيْكَ أوثق منِّي الشهوات، وَحَالَ بَيْنِي وبين اللّذّات، فأنا فِي سِجْنِك أيها الكريم مطلوب».

قَالَتْ: وَرُبَّمَا تَرَنّم بالآيةِ فأَرَى أن جميعَ نَعِيمِ الدُّنْيَا جُمِعَ فِي تَرَنّمه[٤].

عباد الله...

وَلَا يزال قلبُ المسلم يرتقي فِي مدارج الكمال حَتَّى يسجد بَيْنَ يدي الله، وللقلب سجدة، لو سجدها لَا يرفع رأسه منها إِلَى يوم اللقاء.

قَالَ الْإِمَام ابن القيم - رحمه الله - فِي وصف السابقين المقربين: «وجملة أمرهم: أنهم قوم امتلأت قلوبهم من معرفة الله، وغمرت بمحبته وخشيته وإجلاله ومراقبته، فسرت المحبة فِي أجزائهم فلم يبق فِيهَا عِرْقٌ وَلَا مِفْصَل إِلَّا وَقَدْ دَخَله الحب.

قَدْ أنساهم حُبُّه ذِكْر غَيْرِهِ، وأَوْحَشهم أُنْسهم به ممّن سواه.

قد فنوا بحبه عن حب من سواه، وبذكره عن ذكر من سواه وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه والتوكل عليه والإنابة إليه والسكون إليه والتذلل والانكسار بين يديه عن تعلق ذَلِكَ منهم بغيره. فَإِذَا وضع أحدهم جنبه عَلَى مضجعه صعدت أنفاسه إِلَى إلهه ومولاه واجتمع همه عَلَيْهِ متذكرًا صفاته العلى وأسماءَه الحسنى مشاهدًا لَهُ فِي أسمائه وصفاته، قَدْ تجلت عَلَى قلبه أنوارها فانصبغ قلبه بمعرفته ومحبته، فبات

(١) الإمام الفقيه، القدوة، الزاهد، أحد الأولياء، تُوفي سنة (١٦٢هـ).

(٢) أي: أداة العلم.

(٣) أي: النّوم.

(٤) «أحاسن المحاسن» (٤٤٣).

جسمه فِي فراشه يتجافى فِي مضجعه، وقلبه قَدْ أوى إِلَى مولاه وحبيبه فآواه إليه، وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كل جهة من جهاته.

فيا لها سجدة ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء.

وقيل لبعض العارفين: أيسجد القلب بين يدي ربه؟ قَالَ: إي والله بسجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم القيامة»ا.هـ[١].

أيها المسلمون...

وَإِذَا كَانَ هَذَا حالُ قلوب الصالحين، فكيف بقلوب الأنبياء والمرسلين؟

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: نمتُ عند خالتي ميمونة زوج النبيِّ ﷺ ورسولُ الله عندها تلك الليلة، فتوضأ رسولُ الله ﷺ ثم قام فَصَلَّى فقمتُ عن يساره، فأخذني فجعلني عن يمينه، فَصَلَّى في تلك الليلة ثلاث عشرة ركعة ثم نام رسول الله ﷺ حتى نَفَخَ وكان إذا نام نَفَخَ ثم أتاه المؤذّن فخرج فَصَلَّى ولم يتوضأ[٢].

وعن أبي سلمة قال: سألتُ عائشةَ - رضي الله عنها - كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان، قالت: «مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً، يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلْ عَنْ طُولِهِنَّ وحُسْنِهِنَّ، ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ؟ فَقَالَ: «يَا عَائِشَةُ، إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي»[٣].

وفي حديث الإسراء من حديث أنس: «جَاءَهُ ثَلَاثَةُ نَفَرٍ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَقَالَ أَوَّلُهُمْ: أَيُّهُمْ هُوَ؟ فَقَالَ أَوْسَطُهُمْ: هُوَ خَيْرُهُمْ، وَقَالَ آخِرُهُمْ: خُذُوا خَيْرَهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ فَلَمْ يَرَهُمْ حَتَّى جَاءُوا لَيْلَةً أُخْرَى فِيمَا يَرَى قَلْبُهُ وَالنَّبِيُّ ﷺ نَائِمَةٌ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ وَكَذَلِكَ الْأَنْبِيَاءُ تَنَامُ أَعْيُنُهُمْ وَلَا تَنَامُ قُلُوبُهُمْ»[٤].

---

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (٢٢٣، ٢٢٤).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

قال الشيخ الحافظ/ قطب الدِّين محمد الخضري الشافعيّ - رحمه الله -: «فصريح هذه الأحاديث دليل على اختصاصه هو والأنبياء بذلك، قال ابْنُ عبد البر[١]: هذا من علياء مراتب الأنبياء صلوات الله عليهم كما روي: «**إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**» ولهذا قال ابن عباس - رضي الله تعالى عنهما - رؤيا الأنبياءِ وَحْيٌ، لأن الأنبياء يفارقون سائر البشر في نوم القلب ويساوونهم في نوم العين فلو سلّط النوم على قلوبهم كما يصنع بغيرهم لم تكن رؤياهم إلا كرؤيا من سواهم وقد خَصّهم اللَّهُ تعالى من فضله بما شاء أن يخصهم به ومن هذا كان رسول الله ﷺ ينام حتى ينفخ ثم يُصَلّي ولا يتوضأ لأن الوضوء إنما يجلب لغلبة النوم على القلب لا على العين فكان ﷺ يساوي أمته في الوضوء من الحَدَث ولا يساويهم في الوضوء من النوم كما لم يساويهم في وصال الصوم وغيره مما جرت عاداتهم به، **فإن قيل**: كان رسول الله ﷺ يتوضأ من النوم، **قيل له**: كان يتوضأ لكل صلاة وما جاء عنه قط أنه قال وضوئي هذا من النوم وليس ببعيد أن يتوضأ إذا خامر النوم قلبه وذلك نادر كنومه في سفره عن صلاة الصبح ليسن لأمته أن الصلاة لا يسقطها خروج الوقت وإن كان معلومًا بنوم أو نسيان وهذا واضح وروى حماد بن سلمة عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول الله ﷺ نام حتى سمع غطيطه ثم صَلَّى ولم يتوضأ»[٢] قال عكرمة كان رسول الله ﷺ محفوظًا وإن ذلك كان منه نادرًا «ليسن لِأُمّته» كما سَنّ في مَنْ نام أو نسي وكما قال ﷺ: «**إني لأنسى أو أنسى لأسنّ**»[٣].

فإن قيل: إذا كان نومه ﷺ يساوي نومنا في انطباق الجفن وعدم السماع حتى إنه نام عن الصلاة فما أيقظه إلا حر الشمس فما الفرق بيننا وبينه في النوم؟ **أجيب** بأن النوم يتضمن أمرين:

أحدهما: راحة البدن وهو الذي شاركنا فيه.

والثاني: غفلة القلب.

وقلبه ﷺ «متيقِّظ» إذا نام سليمًا من الأحلام والشغل بتلقي الوحي والتفكر في

(١) في «التمهيد» (٥/ ٢٠٨).
(٢) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٦) من حديث ابن مسعود، وعزّاه لأحمد.
(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٠).

لصالح على مثل حال غيره إذا كان منتبهًا فما يتعطل قلبه بالنوم عما وضع له كما يتعطل قلب غيره ألا ترى إلى حاله ﷺ في نزول الوحي عليه كيف كان يغشى عليه وهي حالة لو أصابت غيره «لانتقض» وضوؤه وهو ﷺ في تلك الحال حافظ محفوظ من غلبة الطبع البشري عليه واسترخاء مخارج الحدث فهو غائب عنا بحال والله سبحانه يسر إليه حينئذ ما شاء.

فإن قلت: يشكل عليَّ ما تقدم «أنه ﷺ نام في الوادي عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس»[1] ولو كان غير نائم القلب لما أخر صلاة الصبح عن وقتها.

قلت: فقد أجيب عن هذا الإشكال بأجوبة:

أحدها: كما قَالَ فِي (شرح المهذب): إنه المشهور فِي كتب المحدثين والفقهاء. أنه لا مخالفة بينهما فإن القلب يقظان يحس بالحدث وغيره مما يتعلق بالبدن ويشعر به القلب وليس طلوع الفجر والشمس من ذلك ولا هو مما يدرك بالقلب وإنما يدرك بالعين وهي نائمة.

ثانيها: حكاه الشيخ أبو حامد في تعليقه عن بعض أصحابنا. قال كان للنّبيّ ﷺ نومان:

أحدهما: ينام قلبه وعينه.

والثاني: عينه دون قلبه وكان يوم الوادي من النوع الأول.

قال في شرح مسلم والصحيح المعتمد هو الأول. والثاني ضعيف وهو كما قال - رحمه الله -.

فإن قلت: هنا بحث يتعلق بالجواب الأول وهو أن يقال القلب وإن كان لا يدرك ما يتعلق بالعين من رؤية الفجر مثلاً لكنه يدرك إذا كان يقظان مرور الوقت الطويل فإن من ابتداء طلوع الفجر إلى أن حميت الشمس مدة طويلة لا تخفى على من لم يكن مستغرقًا. قلت: يحتمل أن قلبه ﷺ يستغرق حالته إلقاء الوحي في اليقظة وتكون الحكمة في ذلك بيان التشريع بالفعل لأنه أوقع في النفس كما في قصة سهوه في الصلاة

---

(١) رواه مسلم في «صحيحه» من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وقريب من هذا ما أجاب به ابن المنير أن القلب قد يحصل له السهو في اليقظة لمصلحة التشريع ففي النوم بطريق الأولى أو على السواء ورأيت في كلام ابن عبد البر نحوًا مما ذكرته. فإنه قال وأما نومه حتى طلعت الشمس فيحتمل أمرين:

أحدهما: إن أريد بذلك التشريع لنا لنعلم ما حكم الله تعالى فيمن سها وغفل عن الصلاة كما بين الله تعالى لنا حكمه عند عدم الماء فأعدمه نبيه ﷺ حتى أنزل عليه التيمم. ونومه ﷺ في ذلك الوقت عن صلاة الصبح حتى طلعت الشمس أمر خارج عن عادته وطباع الأنبياء قبله وإنما كان نومه ذلك ليكون سُنَّة وليعلم المؤمنون كيف حكم من نام عن الصلاة أو نسيها حتى يخرج وقتها وهو من باب قوله: «**إني لأنسى أو أنسى لأسن**» والذي كان جبلته وعادته ﷺ أن لا يخامر النوم قلبه ولا يخالط نفسه وإنما كانت تنام عينه.

وقد ثبت عنه أنه قال: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**» وهذا على العموم لأنه قد جاء عنه: «**إنا معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا**»[1] ولا يجوز أن يكون مخصوصًا بذلك لأنها خصلة لم تعهد في الخمس التي أوتيها ولم يؤتها أحد قبله من الأنبياء فلما أراد الله منه ما أرادِ ليس لأمته قبض روحه وروح من معه في نومهم ذلك وصرفها إليهم بعد طلوع الشمس ليتبين لهم مراده على لسان رسول الله ﷺ وعلى هذا التأويل جماعة أهل الفقه والأثر وهو واضح والمخالف فيه مبتدع ثم قال:

والثاني: أنه وقع له ذلك لتنكشف له علوم تخصه من المعارف فعطلته عن القيام بحقوق الظواهر لاشتغال باطنه المقدس بآداب التلقي فقد عبر بلسان قاله عن حاله من ملكه ذكر محبوبه حتى أذهله عن مطلوبه كما قال القائل فوالله ما أدري إذا ما ذكرتها اثنتين صليت العشاء أم ثمانيًا. انتهى.

وهو كلام حسن يؤدي إلى ما قررناه.

ثالثها: أن معنى قوله «**لا ينام قلبي**» أي لا تخفى عليه حالة انتقاض وضوئه.

رابعًا: أن معناه لا يستغرق النوم حتى يوجد منه الحدث وهذا قريب من الذي قبله

---

(١) رواه ابن سعد كما في «كنز العمال» برقم (٣١٩٩٣) عن عطاء مرسلاً.

قال ابن دقيق العيد كأن قائل هذا أراد تخصيص يقظة القلب بإدراك حالة الانتقاض وذلك بعيد وذلك أن قوله ﷺ: «**إن عيني تنامان ولا ينام قلبي**» خرج جوابًا عن قول عائشة أتنام قبل أن توتر وهذا كلام لا تعلق له بانتقاض الطهارة الذي تكلموا فيه وإنما هو جواب يتعلق بأمر الوتر فتحمل يقظته على تعلق القلب باليقظة للوتر وفرق بين من شرع في النوم مطمئن القلب به وبين من شرع فيه متعلقًا باليقظة قال: وعلى هذا فلا إشكال ولا تعارض في حديث النوم حتى طلعت الشمس لأنه يحمل على أنه اطمأن في نومه لما أوجبه تعب السَّير معتمدًا على من وَكله بكلاءة الفجر. انتهى.

ومحصّل هذا تخصيص اليقظة المفهومة من قوله: «**ولا ينام قلبي**» بإدراكه وقت الوتر إدراكًا معنويًّا لتعلّقه به وأن نومه في حديث الوادي كان نومًا مستغرقًا ويؤيده قول بلال: «أخذ بنفسي الذي أخذ بِنَفْسِك» كما في حديث أبي هريرة عند مسلم[1] ولم ينكر عليه ومعلوم أن نوم بلال كان مستغرقًا وقد اعترض عليه بأن ما قاله يقتضي اعتبار خصوص السبب وأجاب بأنه يعتبر إذا قامت عليه قرينة وأرشد إليه السياق وهو هنا كذلك.

خامسها: وهو ضعيف؛ قول من قال كان قلبه يقظان وعلم بخروج الوقت لكن ترك إعلامهم بذلك عمدًا لمصلحة التشريع.

سادسها: وهو ضعيف أيضًا قول من قال المراد بنفي النوم عن قلبه أنه لا يطرأ عليه أضغاث أحلام كما يطرأ على غيره بل كل ما يراه في نومه حق ووحي والله أعلم» ا.هـ[2].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) في كتاب «المساجد» باب: قضاء الفائتة.

(٢) اللفظ المكرم بخصائص النبيّ المعظم (١٨٥ – ١٨٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

وخلاصة ما سبق: أن طهارة القلوب وصلاحها صلاح لسائر أعمال الإنسان. فالقلب هو مستَقر العقيدة، ومصدر الأعمال، وبصلاحه يتم صلاح سائر الجسد، وبفساده يكون فساد سائر الجسد. بل بصلاحه يتم صلاح الدنيا والآخرة، وبفساده يكون فساد الدنيا والآخرة.

لذا كانت نظرة الإسلام إليه من أدقّ ما تكون، لأن عليه مدار العمل كله.

قال الله تعالى: ﴿**يَوْمَ لاَ يَنفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

بل إنَ الإيمان نفسه لا يستقيم. إلاّ إذا كان التصديق نابعًا من القلب السليم.

قال رسول الله ﷺ: «**لا يستقيمُ إيمانُ عَبْدٍ حتى يستقيم قَلْبُه**»(١).

وقال - صلوات ربي وسلامه عليه -: «**ألا وإن في الجسد مُضْغة إذا صَلَحت صلح الجسد كلّه، وإذا فَسَدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**»(٢).

واحرصوا - عباد الله - على طهارة قلوبكم، واعلموا أن القلب محلُّ نظر الرّبّ، فاحذروا أن يرى فيه ما يكره.

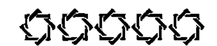
اللّهم إنا نسألك إيمانًا دائمًا، وقلبًا خاشعًا، ورزقًا واسعًا، وعملاً متقبلاً، وشفاء من كل داء.

---

(١) رواه أحمد وابن أبي الدنيا .

(٢) رواه البخاري .

اللَّهم إنا نسألك الثبات في الأمر، والعزيمةَ على الرُّشْد، ونسألك شكرَ نعمتِك، وحسن عبادتِك، ونسألك قَلْبًا سليمًا، ولسانًا صادقًا، ونسألك من خير ما تَعْلَم، ونعوذ بك من شرّ ما تعلم، ونستغفرك ممّا تَعْلم، وأنت عَلاّمُ الغيوب.



الخطبة الثالثة

عاقبةُ الحَمْقَى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أما بعد...

فإن الحماقة أعيت من يداويها.

روى ابْنُ الجوزيِّ - رحمه الله - في كتابه: «أخبار الحمقى والمغفلين» (ص ٧) عن الأوزاعيّ - رحمه الله - أنه قال: بلغني أنه قيل لعيسى ابن مريم عليه السلام: يا روح الله، إنك تُحيي الموتى؟ قال: نعم، بإذن الله. قيل: وتُبرئ الأكمه؟ قال: نعم، بإذن الله. قيل: فما دواءُ الْحُمْق؟ قال: هذا الذي أعياني.

- وقد نظّم هذا المعنى بعضهم فقال:

لكـــلِّ داءٍ دواءٌ يُـــسْتَطبُّ بـــه ... إلاّ الحماقــةَ أعْــيَتْ مَــنْ يُـداوِيها

عباد الله...

إن الحماقة مرضٌ فتّاك، وداءٌ عُضال، وخُلُقٌ منفر، وسلوك مدمّر. فالأحمق عدوّ نفسه.. وعدوّ أهله.. وعدوّ المجتمع الذي يعيش فيه، بل وعدوّ الدِّين لأنه يشوّهه. هذا في الدنيا. أمّا في الآخرة: فالنار دار الأغبياء والحمقى والمغفّلين.

قال تعالى - عن أهل الجحيم -: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

- ولخطورة هذا المرض الفتّاك، تدور خطبة اليوم حول ثلاثة أمور:

الأول: تعريف الحُمْق.

والثاني: علاماته.

والثالث: صور ومواقف من حياة أهل الحماقة.

وأسأل الله تعالى أن يعيذني وإياكم من الابتلاء بهذا الداء، إن ربي لطيف لما يشاء.

عباد الله...

ما هو الحُمْق؟ ما هي العلامات التي يُعرف بها الأحمق؟

قال العلاّمةَ المناويّ - رحمه الله -: «الحُمْق: فسادُ العقل» ا.هـ.

وقال الإمام النوويّ - رحمه الله -: « الأحمق الذي يعمل ما يضرّه مع علمه بقبحه» ا.هـ[1].

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ١٣٦).

يعلم قبح ما يفعل ومع ذلك يركبُ رأسه في الباطل، ويصرّ على الخطأ، ويتبع هواه بغير هدًى من الله.

وقال الإمام ابن الجوزيِّ - رحمه الله -: «الحمق: هو الغلط في الوسيلة والطريق إلى المطلوب مع صحة المقصود؛ **فمن ذلك**: أن طائرًا طار من أمير فأمر أن تغلق أبوابُ المدينة! فمقصود هذا الرجل حفظ الطائر، ولكنه أخطأ في الوسيلة» ا.هـ[1].

ومعلوم أن الطائر لا يلجأ إلى الخروج من الباب أو النافذة إلاّ إذا كان في حُجرة لها سقف!! ولكن ماذا نقول؟

لكل داء دواءٌ يُستَطبُّ به إلاّ الحماقةَ أعْيَتْ من يداويها

ما هي علامات الحماقة؟ «العلامات التي يُعرف بها الأحمق».

يجيب عن هذا السؤال الحافظ أبو حاتم بن حبان فيقول:

«**علامة الحمق**: سرعةُ الجواب، وتركُ التثّبت، والإفراطُ في الضّحك، وكثرةُ الالتفات، والوقيعةُ في الأخيار، والاختلاط بالأشرار».

والأحمق: إن أَعْرَضْتَ عنه اغْتَمَ «عَبَس»، وإن أقبلت عليه اغْتَرّ، وإن حَلُمْتَ عنه جَهل عَلَيْك، وإن أحْسَنْتَ إليه أساءَ إليك، ويظلمك إذا أنْصَفْتَهُ. ا.هـ[2].

وأضاف بعضُ الحكماء: علاماتٍ أخرى، منها: إن استغنى بطر، وإن افتقر قنط، ولا يفرّق بين عدّوه وصديقه.

ومع كل ذلك يتوهّم أنه أعقل الناس!!

فماذا نقول:

لكل داء دواءٌ يُستَطبُّ به إلاّ الحماقةَ أعْيَتْ من يداويها

عباد الله...

وأوّل الحمقى، وأكبر المغفّلين: إبليس. رفض السجود لآدم.. وهذا من غبائه، لأنّه لو

(١) «أخبار الحمقى والمغفّلين» (٧).
(٢) «أخبار الحمقى والمغفلين» (١٣، ١٤).

تدبّر الأمر لعلم أن قدر الله لا يُردّ. إذ قال - سبحانه للملائكة: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨، ٢٩].

فهذا قدر الله، لكن إبليس - كما قال ابن الجوزيّ -: «جَهِلَ الْقَدَر، وَنَسِيَ المقدار»[(١)].

ثم ازدادت حماقته.. عندما طلب من الله الإنظار إلى يوم القيامة: ﴿أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [الأعراف: ١٤].

لماذا؟ ليضلّ بني آدم!! ولم يَدر بِخَلَدِه أنه سيتحمّل وزر كُلِّ من أضلّه إلى يوم القيامة!!

فماذا نقول؟

لكـــل داء دواءٌ يُـــستَطبُ بـــه   إلاّ الحماقــةَ أَعْـيَتْ مــن يـداويها

- ومن أكابر الأغبياء، وأئمة الحمقى: فرعون.

هذا الغبيّ الذي قال لوزيره «هامان» كما حكى القرآن: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

أيّ صرح هذا الذي يدخل الإنسان بسببه على الله!!

وازدادت حماقته عندما حشر فنادى فقال: أنا ربكم الأعلى!! لماذا أنت ربّهم الأعلى؟ يعلّل ذلك بقوله - كما حكى القرآن -: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ [الزخرف: ٥١].

وتأمّل في قوله: «تجري من تحتي»، لم يقل: «أجريتُها». فمن الذي أجراها أيها المغفّل؟ إن الذي أجراها هو الله.

﴿أَمَّن جَعَلَ الأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٦١].

قال الإمام ابن الجوزيّ - رحمه الله -: «فافتخر بساقية لا هو أجراها ولا يدري

---

(١) «أخبار الحمقى والمغفلين» (٢٩).

منتهاها ولا مبتداها» ا.هـ[١].

ولكن ماذا نقول:

لكـــل داء دواءٌ يُـــسْتَطبُ بـــه إلاّ الحماقــةَ أعْـيَتْ مــن يــداويها

وكل من عبد غير الله فهو أحمق ومغفّل. وكذلك كلّ من ضل من هذه الأمّة من أهل الأهواء، أحمق ومغفّل.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ﴾ [الروم: ٢٩].

عباد الله...

وصور الحماقة أكثر من أن تحصى:

منها: الضلالة بعد الهدى: فقد يبدأ الإنسان شبابه متعبّدًا، متنسّكًا، تاليًا للقرآن.. فإذا تقدّمت به السّن.. وقارب المنزل «الموت».. ساء خلقُهُ.. وانحرف سلوكه.. وخاصم ربّه.. وختم له بسوء!!

قال بعض الصّالحين: «أغبى الناس، من ضلّ في آخِر سَفَره، وقد قارب المنزِل».

ومن صور الحماقة: أن يرى الإنسان حسناته يوم القيامة في ميزان غيره بسبب غشمه وظلمه، وفحشه، وبذاءة لسانه.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**أتدرون من المفلس؟**». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «**إن المفلس من أمّتي من يأتي يوم القيامة بصلاةٍ وصيام وزكاةٍ، ويأتي وقد شتم هذا، وقَذَف هذا، وأكل مالَ هذا، وسفك دَمَ هذا، وضرب هذا، فَيُعْطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فَنِيَتْ حسناتُه قبل أن يُقْضى ما عليه، أُخِذَ من خطاياهم، فطُرِحت عليه ثم طرح في النار**»[٢].

وروي عن الحسن - رحمه الله - أن رجلاً قال له: إن فلانًا قد اغتابك، فبعث إليه رطبًا على طبق، وقال: «قد بلغني أنك أهْدَيْتَ إليّ من حسناتك فأردتُ أن أكافئك

---

(١) «أخبار الحمقى» (٣١).

(٢) رواه مسلم (٢٥٨١).

عسيها فاعْذُرْني فإنِّي لا أقدر أن أُكافئك على التمام»[١].

- ومن صور الحماقة: خراب البيت على أسباب تافهة.

عن مجاهد، قال: كنتُ عند ابن عباس، فجاء رجلٌ فقال: إنّه طلّق امرأته ثلاثًا، قال: فسكت حتى ظننتُ أنّه رادُّها إليه، ثم قال: ينطلقُ أحدُكم فيركبُ الحموقة ثم يقول: يا ابن عباس، يا ابن عباس، وإن الله قال: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢]. وإنك لم تتق الله فلم أجد لك مخرجًا، عَصَيْتَ رَبَّك، وبانَتْ منك امرأتُك، وإن الله قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾ [الطلاق: ١] في قُبُل عدّتهن[٢].

ومن صور الحماقة: حسد الناس على ما آتاهم الله من فضله:

قال القرطبيّ - رحمه الله -: «الحسد مذموم، وصاحبه مغموم: وقال الحسن: ما رأيتُ ظالمًا أشبه بمظلوم من حاسد؛ نَفس دائم، وَحُزْن لازم، وعَبرة لا تنفد».

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا تعادوا نعم الله»، قيل له: ومن يعادي نِعم الله؟ قال: «الذين يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله».

ولمنصور الفقيه:

ألا قُلْ لِمَنْ ظلَّ لي حَاسِدًا أتدري على مَنْ أسأت الأدبْ

أسأت عَلَى الله فِي حُكْمه إذَا أنْتَ لَمْ تَرْضَ لِي ما وَهَب

ويقال: الحسد أوّل ذنب عُصي الله به فِي السماء، وأوّل ذنب عُصي به فِي الْأَرْضُ؛ فأما فِي السماء فحسدُ إبليس لآدم، وَأَمَّا فِي الْأَرْضُ فحسدُ قابيل هابيل ا.هـ[٣].

ومن صور الحماقة: اتخاذ قرارات خاطئة تهدد مصير الأمّة: في عهد الدولة العباسية، امتدت الفتوحات الإسلامية، إلى بلاد ما وراء النهر، وكانت «بخارى» و«سمرقند» و«قزوين»، و«تركستان» و«أذربيجان» و«نيسابور» و«أرمينية الكبرى» بلادًا إسلامية، تحت سيطرة السلطان «خوارزم شاه».

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٥٤).
(٢) صحيح: رواه أبو داود (٢١٩٧)، وصحّحه الألباني.
(٣) «تفسير القرطبي» (٥/ ٢١٧).

وكان العالم الإسلامي يموج بفتن وحروب - داخلية - أوهنت قوّته.. وأضعفت شوكته.

وفي هذه الأثناء ظهر التتار.. والتتار: قوم كانوا يسكنون بلاد ما وراء النهر من أطراف الصِّين.. وكانوا يسجدون للشمس عند طلوعها، ولا يُحرِّمون شيئًا، ويأكلون جميع الدواب وبني آدم، ولا يعرفون نكاحًا - فكل الفروج مباحة -، ونساؤهم يقاتلن كرجالهم.

وكان ملكهم «جنكيز خان»، اعتقدوا فيه الإلهية، وبالغوا في طاعته، وكان تحت إمرته جيش يسدّ عين الشمس.

واستطاع «جنكيز خان» إخضاع الصِّين كلّها في زمن وجيز.. وترامت أنباءُ حروبه إلى البلاد الإسلامية ففزع أمراؤها.

ومع هذه القوة.. كان جنكيز خان يعمل للمسلمين ألف حساب، فأرسل إلى سلطان المسلمين «خوارزم شاه» رسلاً وهدايا كثيرة، وقال لرسوله: «إن القان الأعظم يُسلِّم عليك ويقول لك: ليس يخفى عليَّ عِظَمُ شأنِك، وما بلغت من سلطانك ونفوذ حُكمك على الأقاليم، وأنا أرى مساعدتك من جملة الواجبات، وغير خافٍ عنك أنني تملكتُ الصِّين، وأنت أخبر الناس ببلادي، وأنها مثارات العساكر والخيول، ومعادن الذهب والفضة وفيها كفاية عن غيرها، فإن رأيت أن تعقد بيننا مهادنة، وتأمر التجّار بالسفر لتعمّ المصلحتين فعلت».

فأجابه «خوارزم شاه» إلى مُلْتَمسَه وبشّر جنكيز خان بذلك.

واستمرت المهادنة إلى أن وصل من بلاده تجّار، وكان خال خوارزم شاه ينوب على بلاد ما وراء النهر، ومعه عشرون ألف فارس، فَشَرِهَتْ نفسه إلى أموال التجّار، وكاتب السلطان يقول «كذبًا»: «إن هؤلاء قد جاءوا بزيّ التجار وما قصدهم إلاّ التجسس، فإن أذنت لي فيهم. فأذن له، فقبض عليهم، وقتلهم وأخذ أموالهم[1]!!

فوردت رسلُ جنكيز خان إلى خوارزم شاه - برسالة من جنكيز - تقول: «إنك

(١) قال الشيخ محمد الخضري في كتابه «الدولة العبّاسية» (٤٣٨) : «وكانوا زهاء(٤٠٠ نفس) ا.هـ.

أعطيت أمانك التجّار فغدرت، والغدر قبيح، وهو من سلطان الإسلام أقبح، فإن زعمت أن الذي فعله خالُك بغير أمرك فسلِّمه إلينا، وإلاّ سوف تشاهد مني ما تعرفني به».

فحصل عند خوارزم شاه من الرعب ما خامر عقله، فتجلّد، وأمر بقتل الرسل[1] فقتلوا.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلاً جيدًا»[2] ا.هـ.

ثم سار خوارزم شاه بنفسه وجنوده إلى جنكيز خان، فوجد التتار مشغولين بقتال كشلي خان»، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم، فرجعوا وقد انتصروا على عدوّهم.

وازداد التتار حنقًا وغيظًا فأقبلوا إليه فاقتتلوا معه أربعة أيام قتالاً لم يُسْمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم، والمسلمون عن أنفسهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، وكان جملة من قُتل من المسلمين نحوًا من عشرين ألفًا، ومن التتار أضعاف ذلك.

ثم تحاجز الفريقان وولّى كلّ منهم إلى بلاده، ولجأ «خوارزم شاه» وأصحابه إلى «بخارى» و«سمرقند» فحصّنها، وترك بها عشرين ألف مقاتل، ورجع «خوارزم شاه» إلى بلاده[3] ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار «بخارى» وحاصرها «جنكيز» ثلاثة أيام فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم - مكرًا وخديعة - وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، ثم فتحها قسرًا في عشرة أيام، فقتل من بها.

ثم عاد إلى البلد فأحلها لجنده، فقتلوا من أهلها خلقًا لا يعلمهم إلاّ الله ﷻ، وأسروا الذرية، والنساء، وفعلوا معهن الفواحش، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى ومدارسها ومساجدها فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها[4].

ثم كروا راجعين عنها قاصدين «سمرقند» فحاصرها «جنكيز خان» في أوّل المحرم

---

(١) والرسل لا تُقتَل.

(٢) «البداية» (٨/ ٥٩٠) . وقال الشيخ الخضري في كتابه «الدولة العباسية» (٤٣٨) : «فلم يكن من الأحمق خوارزم شاه إلاّ أن قتل الرسول» ا.هـ.

(٣) مدينة خوارزم.

(٤) «البداية» (٨/ ٥٩٠) باختصار.

من نفس السنة[١]، وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا[٢]، وبرز إليهم سبعون ألفًا من العامّة فَقَتَل الجميع في ساعة واحدة، وألقى إليه الخمسون ألف السَّلَم فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم واستباح البلد فقتل الجميع وأخذ الأموال وسبى الذريّة.

وأرسل «جنكيز» السرايا إلى البلدان فبعث سريّة إلى بلاد خراسان، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفًا قال: «اطلبوه فأدركوه ولو تعلّق بالسماء».

فساروا وراءه فأدركوه بينهم وبينه نهر «جيحون».. فلم يشعر بهم «خوارزم شاه» إلاّ وقد خالطوه، فهرب منهم إلى «نيسابور» ثم منها إلى غيرها وهم في أثره لا يمهلونه يجمع لهم، فصار كلّما أتى بلدًا ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم، حتى ركب في بحر «طبرستان» وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وملكت التتار حواصله، فوجدوا في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره، وعشرون ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئًا كثيرًا، وكان له عشرة آلاف مملوك كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كلّه في أقلّ من سنة[٣]!!

وفاة خوارزم شاه:

قال الإمام السيوطي - رحمه الله -: «انجفل خوارزم شاه عن جيحون إلى نيسابور، ثم ساق إلى برج همذان رعبًا من التتار، فأحدق به العدوّ، فقتلوا كل مَنْ معه، ونجا هو بنفسه، فخاض الماء إلى جزيرة، ولحقته علّةُ ذات الجَنْبِ، فمات بها وحيدًا فريدًا، وكفّن في شاش فراشٍ كان معه، وذلك في سنة سبع عشرة»[٤] ا.هـ.

وقال الإمام الذهبي - رحمه الله -: «سار خوارزم شاه إلى الاستدار وهي أمنع ناحية في مازندران، ثم سار إلى حافة البحر، وأقام ينوّر المسجد ويصلّي فيه إمامًا بجماعة، ويقرأ القرآن، ويبكي، فلم يلبث حتى كبسه التتار، فهرب، وركب في مركب،

(١) سنة سبع عشرة وستمائة.

(٢) جبنوا.

(٣) «البداية» (٨/ ٥٩٦) باختصار.

(٤) «تاريخ الخلفاء» (٤٧٠).

ـ قع فيه النشاب، وخاض خلفه طائفة، فصدّهم عمق الماء عن لحوقه، فبقى في لجّة ـ حتنه علّةِ ذات الجنب، فقال: «سبحان الله مالك الملوك، لم يبق لنا من مملكتنا مع ـعته قَدْر ذراعين فدفن فيها، فاعتبروا يا أولي الأبصار».

فتمّ وصل إلى الجزيرة التي هناك، أقدم بها طريدًا وحيدًا، والمرض يزداد به، ثم ـ ت وكفّن في شاش فراش كان معه في سنة سبع عشرة»[1] ا.هـ.

ولم يجد التتارُ أحدًا في وجههم، فطاروا في البلاد قتلاً وسبيًا إلى أن وصلوا إلى همذان» فملكوها، ثم إلى «زنجان» فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا «قزوين» فنهبوها وقتلوا من أهلها نحوًا من أربعين ألفًا[2].

عباد الله...

وتتبع جرائم التتار يصعب استقصاؤه، وما ذكرناه غيض من فيض، فيا ترى من ـسبب؟ السبب: الحماقة.

لكن ماذا نفعل؟

**لكـــلِّ داءٍ دواءٌ يُـــستَطبُّ بِـــه	إلاّ الحماقـــةَ أعْـــيَتْ مَـــنْ يُـــدَاوِيها**

أقول قولي هذا، وأستغفرالله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فمن كانت فيه صفات أهل الحماقة فاحذروه، وإياكم أن تصاحبوه.

قال الحسن: «هُجران الأحمق قربة إلى الله ﷻ»[3].

---

١) «تاريخ الإسلام» (٤٤/ ١٦) ط - المكتبة التوفيقية.

٢) «البداية» (٨/ ٥٩٧).

٣) «أخبار الحمقى» (١٤).

وقال جعفر بن محمد: «الرجال أربعة:

- رجل يعلم ويعلم أنه يعلم فذاك عالم فتعلّموا منه.
- ورجلٌ يعلم ولا يعلم أنه يعلم فذاك نائم فأنبهوه.
- ورجلٌ لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم فذاك جاهل فعلّموه.
- ورجلٌ لا يعلم ولا يعلم أنه لا يعلم فذاك أحمق فاجتنبوه» ا.هـ.

وعنه - رحمه الله - قال: أوصاني أبي، قال: لا تصحبن خمسة ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق.

قال: قلتُ: جُعلتُ فداءك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟

قال: لا تصحبنّ فاسقًا فإنه يبيعك بأكلةٍ فما دونها.

قال: قلتُ: يا أبت وما دونها؟

قال: يطمع فيها ثم لا ينالها.

قال: قلتُ: يا أبتِ ومن الثاني؟

قال: لا تصحبن البخيل فإنه يقطع بك في ماله أحوج ما كنت إليه.

قال: قلت: يا أبت ومن الثالث؟

قال: لا تصحبنّ كذّابًا فإنه بمنزلة السَّراب يبعد منك القريب ويقرّب منك البعيد.

قال: قلت: يا أبت ومن الرابع؟

قال: لا تصحبنّ أحمقَ فإنه يريد أن ينفعك فيضرّك.

قال: قلت: يا أبتِ ومن الخامس؟

قال: لا تصحبنّ قاطِعَ رَحِم فإنّي وجدتُه ملعونًا في كتاب الله في ثلاثة مواضع».

أيها المسلمون...

إن العقل نعمة، فاشكروا الله عليها، والفهم منّة، فاحمدوا الله عليها.

واعلموا أن الله تعالى أنزل الشرائع لتسوس العقل، وتصونه من الضلال والانحراف. فاضبطوا أقوالكم وأفعالكم، وبواطنكم بما أنزل الله على رسولكم ﷺ

تنجو وتسعدوا.

اللَّهُمَّ احْرُسْنَا بعينك التي لا تنام، واكنفنا بِرُكنِكَ الذي لا يُرَام، واحفظنا بقدرتك علينا. فلا نهلك وأنت رجاؤنا.

اللَّهُمَّ لا تَكِلْنَا إلى أنفسِنَا فَنَعْجِزَ، ولا إلى النَّاس فَنَضِيع

۞۞۞۞۞

الخطبة الرابعة

منازل المصلين بعد صلاة العشاء

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أما بعد:

فإن المسلمين - في هذا العصر - ينقسمون إلى قسمين: مصلّين. وغير مصلّين.

وحديثي اليوم مع المصلِّين، لأن من الواجب عليهم أن يكونوا من أقوم الناس سلوكًا، وأصدقهم حديثًا، وأحسنهم أخلاقًا، لقوله تعالى: ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْـمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥]. فالله تعالى شرّف جباهَهم بالسجود بين يديه، وأبدانَهم بالقيام إليه، وقلوبَهم بالإقبال عليه.

فيهم أقرب الناس إلى الله تعالى.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «**أقربُ ما يكون العبدُ من ربِّه وهو ساجد فأكثروا الدّعاء**»[1].

هذا، والمصلّون يصدرون[2] بعد صلاة العشاء عن ثلاث منازل:

منهم مَنْ عليه ولا له. ومنهم مَنْ له ولا عليه. ومنهم مَنْ لا عليه ولا له.

وهذا التقسيم ورد به أثرٌ صحيح عن صحابيّ فقيه وهو: «سلمان الفارسيّ» رضي الله عنه.

ونصّ الأثر: عن طارق بن شهابٍ[3] أنه باتَ عند سلمان - رضي الله عنه - لِيَنْظُرَ اجتهادَهُ.

قال: فقام يُصَلّي من آخِر اللّيل فكأنه لَمْ يَرَ الذي كان يظنُّ[4]، فذكر ذلك له، فقال سلمان: «حافظوا على هذه الصلواتِ الخَمْس، فإنَّهُنّ كَفّاراتٌ لهذه الجراحَاتِ مالم تُصَبِ المقتلة. فإذا صَلّى الناسُ العِشَاءَ صَدَروا عن ثلاث منازل:

منهم: مَنْ عليه ولا له.

ومنهم: مَنْ له ولا عليه.

ومنهم: من لا له ولا عليه.

فرجل اغتنم ظُلْمَة الليلِ وغفلةَ النّاسِ، فَركِبَ فَرَسَه في المعاصي، فذلك عليه ولا له.

ومن له ولا عليه: فرجلٌ اغتنم ظلمة الليل وغفلة الناس فقام يُصَلِّي فذلك له ولا عليه.

ومن لا له ولا عليه: فرجُلٌ صَلَّى ثم نام فذلك لا لَهُ وَلاَ عَلَيْه.

---

(١) رواه مسلم وغيره.

(٢) ينصرفون ويرجعون.

(٣) صحابيّ، رأى النبي ﷺ وغزا مع أبي بكر رضي الله عنه.

(٤) لعلّه كان يظن أنه يقوم عامة الليل.

إِيَّاكَ والْحَقْحَقَةَ[١]، وعليك بالْقَصْدِ وَدَوامِه»[٢].

عباد الله...

هذا أثر عظيم، وله حكم الرَّفع - والله أعلم - لأن مثله لا يُقال من جهة الرأي.

ويشتمل على جملة من الفوائد:

الفائدة الأولى:

بيات طارق بن شهاب - رضي الله عنه - عند سلمان - رضي الله عنه - لماذا؟ «لينظر ما اجتهاده». أي: ليرى حاله بالليل مع ربِّه. وفي هذا دليل على حرص الصحابة - رضي الله عنهم - على الخير، وشدّة اهتمامهم بأمر آخرتهم.

فقارن بين زيارتهم وزيارتنا اليوم!!

الفائدة الثانية:

قيامُ سلمان - رضي الله عنه - من آخر اللَّيل يصلِّي. لماذا؟ لأنه وقت النزول الإلهي.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا كُلَّ لَيْلَةٍ حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ، فيقول: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، من يسألني فأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي، فَأَغْفِرَ لَهُ**»[٣].

وهو وقت يضحك الله تعالى فيه للقائمين:

وعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «**ثلاثةٌ يُحبهم الله، وَيَضْحَكُ إليهم، وَيَسْتَبْشِرُ بهم:**

الذي إذا انكشفت فئةٌ قاتل وراءَها بنفسه لله ﷻ، فإما أن يُقْتَلَ، وإمّا أن يَنْصُرَه اللَّهُ ﷻ ويكفيه فيقول: انظروا إلى عبدي هذا كيف صَبَرَ لي بنفسه؟

---

(١) الحقحقة: أشدّ السَّيْر، وقيل: هو أن يجتهد في السَّير، ويلحّ فيه حتى تعطب راحلته، أو تقف.

(٢) صحيح: قال المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٨٩٧) : رواه الطبراني في «الكبير» موقوفًا بإسناد لا بأس به، ورفعه جماعة. قلت: والأثر صححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (٦٢٩).

(٣) رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

والذي له امرأةٌ حَسَنَةٌ، وفراشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فيقومُ من اللَّيل فيقول: يَذَرُ شَهْوَتَهُ، ويذكرني، ولو شاء رَقَد.

والذي إذا كان في سَفر، وكان معه رَكْبٌ فَسَهِرُوا، ثم هَجَعُوا فقام من السَّحَر في ضَرّاءَ وسرّاءَ»[1].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ أَوْ ثُلُثَاهُ يَنْزِلُ اللَّهُ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَيُعْطَى؟ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَيُسْتَجَابُ لَهُ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَيُغْفَرُ لَهُ؟ حَتَّى يَنْفَجِرَ الصُّبْحُ»[2].

قال الحافظ في «الفتح»: «والفرق بين الثلاثة المذكورة وهي الدعاء والسؤال والاستغفار: أن المطلوب: إمّا لدفع المضار أَوْ جَلْب المسارّ وذلك إمّا ديني وإمّا دنيوي، ففي الاستغفار إشارة إلى الأول، وفي السؤال إشارة إلى الثاني، وفي الدعاء إشارة إلى الثالث»[3] ا.هـ.

عباد الله...

كان هذا حالُ سلمان - رضي الله عنه - باللّيل مع ربِّه - بل هو حال المتقين على مرّ الدهور وكرّ العصور:

قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في وصف المتقين: «ألا إن لله عبادًا كمن رأى أهل الجنّة في الجنة مخلّدين، وأهلَ النار في النار معذّبين، شرورهم مأمونة، وقلوبُهم محزونة، وأنفسهم عفيفة، وحوائجهم خفيفة، صَبَرُوا أيامًا قليلة، لِعُقْبَى راحة طويلة.

أَمّا الليل فصافّون أقدامهم تجري دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى الله في فكاك رقابهم.

وأمّا النهار فظماء حُلماء، بَرَرَة أتقياء كأنّهم القِدَاح، ينظر إليهم الناظر ويقول

(١) حسن: قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٨٩٢) : رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن، ووافقه الألباني كما في «صحيح الترغيب» (٦٢٥) .

(٢) رواه مسلم.

(٣) «فتح الباري» (٣/ ٣٨) .

مَرْضى، وما بالقوم من مَرضٍ، وخولطوا وقد خالط القومَ أمرٌ عظيم».

الفائدة الثالثة: الاقتصاد في العبادة:

يدلّ على ذلك: قول طارق بن شهاب - رضي الله عنه - عن سلمان: «فقام يُصلّي من آخر الليل».

يقول الراوي: «فكأنه لم ير الذي كان يظنّ». لعلّ طارق بن شهاب كان يظن أنّ سلمان يقوم الليل كلّه! فلما رآه يصلّي من آخر الليل، ذكر ذلك له، فقال سلمان: «**حافظوا على هذه الصّلوات الخمس، فإنهن كفّارات لهذه الجراحات**[١] **ما لم تُصِبِ المُقْتَلَة**»[٢].

يشير - رضي الله عنه - إلى فضل الصّلوات الخمس وأهميتها.

فالصّلوات الخمس يكفّر الله تعالى - بها صغائر الذنوب إذا اجْتُنبت الكبائر.

وهذا ما أشار إليه النبيُّ ﷺ في قوله:«**الصَّلواتُ الخُمْسِ، والجمعةُ إلى الجمعة، كفّارةٌ لما بينهنَّ ما لم تُغْشَ الكبائر**»[٣].

وممّا سبق يتبيّن لنا: أن سلمان - رضي الله عنه - كان يُصلِّي وينام، وهذا اقتصاد في العبادة، وهو من الهَدْي.

ثم شرع - رضي الله عنه - يبيّن منازل المصلّين بعد صلاة العشاء، قائلاً:

«فإذا صلّى الناس العشاء صدروا عن ثلاث منازل: **فمنهم من عليه ولا له. ومنهم من له ولا عليه. ومنهم من لا له ولا عليه**.

ثم بيّن - رضي الله عنه - ما ذكر، قائلاً: «فرجل اغتنم ظُلْمَة الليل وغفلةَ النّاسِ، فَركِب فَرَسَه في المعاصي، فذلك عليه ولا له»».

أي: ليله شرّ ليل، لأنه يمحو بسيئات الليل حسنات النهار.

وللأسف: هذا حالُ كثير من المصلّين.. ينصرف بين يدي الله، إلى بين يدي الشيطان!! وهذا من أعجب العجب.

---

(١) المقصود - هنا -: صغائر الذنوب.

(٢) المقتلة: الكبائر.

(٣) رواه مسلم وغيره من حديث أبي هريرة.

فأين ثمرة صلاته؟! إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله -: «أخبر - تعالى - حُكمًا منه بأن الصلاة تنهى صاحبها وممتثلها عن الفحشاء والمنكر؛ وذلك لما فيها من تلاوة القرآن المشتمل على الموعظة. والصلاة تشغل كلّ بدن المصلّي، فإذا دخل في محرابه وخشع وأخبت لربّه وذكر أنه واقف بين يديه، وأنه مطّلع عليه ويراه، صلحت لذلك نفسه وتذلّلت، وخامرها ارتقاب الله تعالى، وظهرت على جوارحه هيبتها، ولم يكد يفتر من ذلك حتى تظلّه صلاة أخرى يرجع بها إلى أفضل حالة».

قلت[1]: لا سيّما وإن أشعر نفسه أن هذا ربّما يكون آخر عمله، وهذا أبلغ في المقصود وأتمّ في المراد؛ فإن الموت ليس له سنّ محدودة ولا زمن مخصوص، ولا مرض معلوم، وهذا ممّا لا خلاف فيه.

وروي عن بعض السّلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واصفرّ لونه، فكلّم في ذلك فقال: «إني واقف بين يدي الله تعالى، وحقّ لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك!».

فهذه صلاة تنهى ولابّد عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلاته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكّر ولا فضائل، كصلاتنا[2] - وليتها تجزي - فتلك تترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاص تبعده من الله تعالى تركته الصّلاة يتمادى على بعده» ا.هـ[3].

عباد الله...

هذا هو الرجل الأوّل.

والرجل الثاني: «ورجل اغتنم ظلمة اللّيل وغفلة الناس، فقام يُصلّي، فذلك له ولا

---

(١) القائل: القرطبي رَحِمَهُ الله.

(٢) قال القرطبي: هذا عن صلاته، فماذا نقول نحن اليوم عن صلاتنا؟!

(٣) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢١).

عليه». لأنه يواصل حسنات النهار بحسنات الليل، فليله خير ليل.

قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧].

وقال ﷺ: **«من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين»**(١).

أما الرجل الثالث: وهو:

«مَنْ لا له ولا عليه: فرجلٌ صلَّى ثم نام فذلك لا له ولا عليه». أي: لم يكسب في ليله حسنة ولا سيئة.

قلت: لكن لو نام ناويًا قيام الليل.. ثم ضربه النوم، كُتب له قيام ليله، وكان نومه صدقة عليه من ربّه – سبحانه –:

فعن أبي الدرداء قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«مَنْ أتى فراشه، وهو ينوي أن يقوم يُصَلّي من اللّيل، فغلبته عينُه حتى أصبح، كُتب له ما نوى، وكان نومُه صَدَقة عليه من رَبِّه»**(٢).

عبَاد الله...

هذه منازل المصلّين بعد صلاة العشاء، ففي أيّ المنازل أنتم؟

أسأل الله أن يجعلنا ممّن يصلون حسنات النهار بحسنات الليل

❁❁❁❁❁

---

(١) **حسن:** رواه أبو داود وغيره.

(٢) **صحيح:** رواه النسائي وابن ماجه وغيرهما، وصحّحه الألباني والأرناؤوط.

الخطبة الخامسة

جبالُ البرِّ والنّور

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أما بعد...

فيقول الإمام جعفر الصَّادق – رحمه الله تعالى –: «إن الله تعالى خَلَقَ خَلْقًا من رحمته برحمته لرحمته، وهم الذين يقضون حوائج الناس، فمن استطاع منكم أن يكون منهم فليكن».

بهذه الكلمات التي تكتب بماء الذهب، نبدأ خطبة اليوم – بإذن الله تعالى –.

عباد الله...

إن لله تعالى عبادًا اختصّهم بالنّعم لمنافع العباد...

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال: «**إن لله أقوامًا اختصَّهم بالنِّعم لمنافع العباد، يقرُّهم فيها**[١] **ما بذلوها، فإذا منعوها نزعها منهم فحوَّلَها إلى غيرهم**»[٢].

وعنه - رضي الله عنه -: أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الناسِ أحبّ إلى الله؟

فقال: «**أحبُّ النّاس إلى الله أنفعهُمُ للناس، وأحبُّ الأعمال إلى الله ﷻ سرورٌ تُدْخِلُهُ على مسلم، تكشف عنه كَرْبةً، أو تَقْضِي عنه دينًا، أو تطرد عنه جُوعًا، ولأن أَمْشِي مع أخ في حاجةٍ أحبُّ إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد - يعني مسجد المدينة - شهرًا، وَمَنْ كظم غيْظَه، ولو شاء أن يُمْضِيَهُ أَمْضَاه، ملأ اللَّهُ قَلْبَه يَوْمَ القيامة رضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقْضِيَهَا له، ثبَّت اللَّهُ قَدَمَيْه يومَ تزولُ الأقدام**»[٣].

عباد الله...

إن فضائل الإحسان لا تُعدّ. وفضائل الصّدقة لا تحدّ. وفضائل السّخاء لا تُحصى. وها هي ذي آيات القرآن تهيّج الخير في نفوس المؤمنين، وتحرّك أيديهم بالبذل والعطاء:

١ - قال تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾ [البقرة: ٢٤٥].

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: لما نزلت: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا**﴾ قال أبو الدحداح: يا رسول الله، إن الله يريد منا القرض؟

قال: «**نعم يا أبا الدحداح**».

قال: أرنا يدك. قال: فناوله يده.

قال: قد أقرضتُ ربي حائطي - وحائطه فيه ستمائة نخلة -.

فجاء يمشي حتى أتى الحائط، وأم الدحداح فيه وعيالها، فنادى: يا أم الدحداح. قالت: لبيك.

---

(١) وفي رواية: «ويقرُّها فيهم ما بذلوها».

(٢) حسن: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع».

(٣) حسن: رواه ابن أبي الدنيا، والأصبهاني، واللفظ له، وحسّنه الألباني.

قال: اخرجي فقد أقرضته رَبِّي[1].

ثم ماذا؟

يقال: «إن فوق كل بِرٍّ بِرٌّ حتى يبذل العبدُ دمه فإذا فعل ذلك فلا برّ فوق ذلك».

وقال الشاعر في معنى البر:

الجُـودُ بالمـاءِ جُـود فـيه مَكْـرُمة والجـود بالـنَّفْسِ أقْـصى غايـة الجُـود

«وكما قدم ثابت أبو الدحداح في يوم أُحُد عن مدى استعداده دائمًا لله أيضًا..».

وقصة استشهاده في يوم أُحُد تكشف عن مدى استعداده دائمًا للتضحية.. للبذل.. لإعطاء حياته وهي أغلى ما يملك..

كان يوم «أُحُد» مزدحمًا بالدروس الإلهية.. الرسول القائد أعد خطة الدفاع والهجوم.. وعهده برجاله ألا يخالفوا له أمرًا.. ولكن لحكمة عليا خالف الرماة الخمسون الذين صفهم الرسول ﷺ في ثغرة بالجبل أمره.. فأصيب أصحاب الرسول بهزيمة مفاجئة.. غير متوقعة.. وحاول بعض المشركين قتل الرسول.. رماه عبد الله بن قمئة فدخلت حلقتان من المغفر في وجنته، ووقع الرسول ﷺ في حفرة حفرها المشركون فأخذ علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله.. حدث كل هذا للرسول في يوم أُحُد حتى ظن المشركون أنه قُتل وأشاعوا ذلك بين المسلمين لينالوا من عزائمهم، وليثبطوا من هممهم، وليردوهم عن دينهم إن استطاعوا.. ولكن المسلمين كانوا أثبت جنانًا رغم مرارة الهزيمة، ورغم كثرة الشهداء، ورغم ما حاق بهم من اضطراب.. فوقف ثابت بن الدحداح ينادي بصوت جلجل في كل أرجاء الجبل: يا معشر الأنصار.. إليّ.. إليّ.. إن كان محمد قد قتل، فإن الله حيّ لا يموت. فقاتلوا عن دينكم.. قوموا وموتوا على ما مات عليه الرسول.. وما إن فرغ من ندائه حتى نهض إليه نفر من الأنصار وراحوا يقاتلون المشركين في استماتة واستبسال.. ولكنهم كانوا في مواجهة جيش كثيف السلاح يتقدمه خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعكرمة بن

(١) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٥٧٩٢): رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات، ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

أبي جهل – قبل إسلامهم – فدار قتال عنيف بين الأنصار والمشركين.. بيد أن خالد بن الوليد تمكّن بكفاءته القتالية من أن يطعن ثابت بن الدحداح بالرمح طعنة نافذة، وقع على أثرها شهيدًا.

وعندما قام المسلمون بدفن الشهداء.. قال رسول الله ﷺ: «**ما من جريح يجرح في الله إلا والله يبعثه يوم القيامة وَجُرْحه يدمي اللون لون الدَّم، والريح ريح المسك**»[1].

وهكذا قدّم ثابت نفسه وكل ما يملك لله، ليكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ [التوبة: ١١١].

٢- وقال تعالى: « **لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ** » [آل عمران: ٩٢].

روى البخاري ومسلم عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل وكان أحبُّ أمواله إليه «بَيْرحاء» وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشربُ من ماء فيها طيب».

قال أنس: فلما نزلت هذه الآية: ﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾. قام أبو طلحة إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿**لَن تَنَالُوا البِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾ وإن أحب أموالي إليَّ «بيرحاء»، وإنها صدقة لله أرجو برَّها وَذُخْرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله.

قال: فقال رسول الله ﷺ: «**بخ بخ، ذلك مالٌ رابح، وقد سمعتُ ما قلتَ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين**».

فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

هذا، وقد شهد أبو طلحة – رضي الله عنه – المشاهد كُلّها مع رسول الله ﷺ لا يتخلّف عن غزوة ولا يقعد عن قتال.

---

(١) هذا الحديث ثابت في «الصحيحين» من غير هذا الوجه.

فلما انتقل رسولُ الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى، سرد أبو طلحة الصوم أربعين سنة، لا يفطر إلاّ في العيدين أو في سفر أو مرض.

عن أنس، قال: «وكان أبو طلحة بعد النبيّ ﷺ لا يفطرُ إلاّ في سفر أو مرض».

ثم ماذا؟

كَرَّت السنون.. وكبرت سِنُّ أبي طلحة.. وقبل إحدى الغزوات.. قال له بنوه: قد غزوتَ على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، فنحن نغزو عنك، فأبى، فغزا في البحر، فمات.

وعن أنس: أن أبا طلحة قرأ سورة «براءة» فأتى على هذه الآية: ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ [التوبة: ٤١].

فقال: ألا أرى ربي يستنفرني شابًا وشيخًا، جهِّزوني، فقال له بنوه: قد غزوتَ مع رسول الله ﷺ حتى قبض، وغزوت مع أبي بكر حتى مات، وغزوت مع عمر، فنحن نغزو عنك.

فقال: جهِّزوني، فركب البحر فمات، فلم يجدوا له جزيرة يدفنوه فيها إلا بعد سبعة أيام فلم يتغيّر[1]!!

عباد الله...

وقد ورد في فضائل الصدقة والجود أحاديث كثيرة، منها:

١- عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «**ما من يوم طلعت شمسه إلاّ وبجنبيها مَلَكَان يناديان نداءً يسمعه خلق الله كلهم غير الثَّقلين**[2]»[3].

يا أيها الناسُ هلمُّوا إلى ربكم، إنّ ما قلّ وكفى خيرٌ مما كَثُر وألهى.

ولا آبت الشمسُ إلاّ وكان بِجَنْبَيْها مَلَكَان يناديان نداءً يسمَعُهُ خَلْقُ الله كُلّهم غير الثقلين.

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع» (١٥٧٣٠): رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) **الثقلان**: الإنس والجن.

(٣) **صحيح**: رواه البيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٩٠٨).

اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا، وأنزل الله في ذلك قرآنًا في قول المَلَكَيْن: في سورة يونس: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

وأنزل في قولهما: اللهم أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا، وَأَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنثَى﴾ إلى قوله: ﴿لِلْعُسْرَى﴾ [الليل: ١- ١٠].

٢- وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْب طَيِّبٍ، وَلَا يقبل اللَّهِ إِلَّا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ[1] حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»[2].

ايها المسلمون...

عرف أهل الله هذا ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

انطلقت الأيدي بالبذل والعطاء.. والجود والسخاء. فأجرى الله على أيديهم الكرامات، وصرف عنهم السوء والبليات، وَخُتِمَ لهم بالصّالحات الطيِّبات ﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلَّا الإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فها هو ذا أبو هريرة - رضي الله عنه - يروي عن رسول الله ﷺ حديثًا عجبًا. يقول: قال رسول الله ﷺ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِفَلَاةٍ مِنْ الْأَرْضِ، فَسَمِعَ صَوْتًا فِي سَحَابَةٍ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ، فَتَنَحَّى ذَلِكَ السَّحَابُ، فَأَفْرَغَ مَاءَهُ فِي حَرَّةٍ[3]، فَإِذَا شَرْجَةٌ[4] مِنْ تِلْكَ الشِّرَاجِ قَدْ اسْتَوْعَبَتْ ذَلِكَ الْمَاءَ كُلَّهُ فَتَتَبَّعَ الْمَاءَ، فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ فِي حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الْمَاءَ بِمِسْحَاتِهِ، فَقَالَ لَه:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، مَا اسْمُكَ؟ قَالَ: فُلَانٌ، لِلِاسْمِ الَّذِي سَمِعَ فِي السَّحَابَة، فَقَالَ لَهُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لِمَ سألتني عَنْ اسْمِي؟

---

(١) وفي رواية: «فَصِيلَه» والفصيل: ولد الناقة إلى أن يفصل عن أمّه، والفلوّ: هو المُهر أول ما يولد.

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٣) الحرة: أرض فيها حجارة سود.

(٤) سيل الماء إلى الأرض السهلة.

قَالَ: سَمِعْتُ صَوْتًا فِي السَّحَابِ الَّذِي هَذَا مَاؤُهُ يَقُولُ: اسْقِ حَدِيقَةَ فُلَانٍ لِاسْمِكَ فَمَا تَصْنَعُ فِيهَا؟ قَالَ: أَمَا إِذْ قُلْتَ هَذَا، فَإِنِّي أَنْظُرُ إِلَى مَا يَخْرُجُ مِنْهَا فَأَتَصَدَّقُ بِثُلُثِهِ، وَآكُلُ أَنَا وَعِيَالِي ثُلُثه، وَأَرُدُّ ثُلُثَهُ»[١].

وها هو ذا عبد الله بن المبارك - رحمه الله - يصف دواءً عجيبًا لمريض فشل الطبُّ في علاجه: جاء رجلٌ، فقال: يا أبا عبد الرحمن، قُرحةٌ خرجت في ركبتي منذ سبع سنين، وقد عالجت بأنواع العلاج، وسألت الأطباء فلم أنتفعَ به.

قال: اذهب فانظر موضعًا يحتاج الناسُ الماء فاحْفُر هناك بئرًا، فإني أرجو أن تنبع هناك عينٌ، وَيُمْسَكُ عنك الدَّمُ، ففعل الرجلُ فَبَرَأ[٢].

وها هو ذا عبد الرحمن بن أبان. قال عنه مصعب بن عثمان: كان عبد الرحمن بن أبان يشتري أهل البيت[٣] ثم يأمر بهن فيكسون ويذهبون، ثم يعرضون عليه فيقول: أنتم أحرار لوجه الله أستعين بكم على غمرات الموت، قال: فمات وهو قائم في مسجده[٤]!!

وها هو ذا «عمرو بن قيس»: كان الثوري يثني عليه، ويجلس بين يديه لا يكاد يصرف بصره عنه، يتأدب برؤيته. أقام عمرو بن قيس عشرين عامًا صائمًا ما يعلم به أهله، يأخذ غداه ويغدو إلى الحانوت، فيتصدق بغدائه ويصوم وأهله لا يدرون.

قال سفيان الثوري: عمرو بن قيس هو الذي أدبني، علمني قراءة القرآن، وعلمني الفرائض، فكنت أطلبه في سوقه، فإن لم أجده في سوقه وجدته في بيته؛ إما يُصَلِّي وإما يقرأ القرآن في المصحف، كأنه يبادر أمورًا تفوته، فإن لم أجده في بيته وجدتُه في بعض مساجد الكوفة في زاوية من زوايا المسجد كأنه سارق قاعد يبكي، فإن لم أجده وجدته في المقبرة قاعدًا ينوح على نفسه.

فلما مات أغلق أهل الكوفة أبوابهم، وخرجوا بجنازته، فلما أخرجوه إلى الجبانة

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البيهقي. انظر «الترغيب والترهيب» (١٣٦٣).
(٣) يعني: من العبيد.
(٤) «المنتظم في تاريخ الأمم والملوك» لابن الجوزي (٧/ ١٢٢).

وبرزوا بسريره، كان أوصى أن يصلي عليه أبو حيان التيمي، فلما تقدم أبو حيّان وكبَّروا سمعوا صائحًا يصيح: قد جاء المُحسن، قد جاء المُحسن عمرو بن قيس.

وإذا البرية مملوءة من طير أبيض لم يُر على خلقتها وحسنها، فجعل الناس يعجبون من حسنها وكثرتها.

قال أبو حيان: من أي شيء تعجبون؟ هذه ملائكة جاءت فشهدت عمرًا[(١)].

وها هو ذا رجلٌ كان يُنْظِرَ المُعْسِر، يحكي لنا النبيُّ ﷺ قصّته:

عن حُذَيْفَةَ قال: «أُتِيَ الله بعبد من عباده، آتاهُ الله مالاً. فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟ قال: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢].

قال: يا رب! آتيتني مالَكَ. فكنتُ أبايعُ الناسَ. فكانَ من خلقي الجوازُ، وكنتُ أتيسرُ على الموسر، وأُنظِرُ المعسر!

فقال الله تبارك وتعالى: أنا أحقُّ بذا منك، تجاوزوا عن عبدي».

فقال عقبة بن عامر الجهني، وأبو مسعودٍ الأنصاريُّ: هكذا سمعناه من فيّ رسول الله ﷺ[(٢)].

وعن أبي مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «حُوسِبَ رَجُلٌ مِمّن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيءٌ إلاّ أنّه كان يُخَالِطُ الناس، وكان مُوسِرًا، فكان يأْمُرُ غِلْمَانه: أن يتجاوزوا عن المُعْسَر. قال: قال اللَّهُ ﷻ: نحن أحَقُّ بذلك منه، تجاوزوا عنه»[(٣)].

قال القرطبي - رحمه الله - في «المفهم»: «الإنظار: التأخير. والمعسر هنا: هو الذي يتعذَّر عليه الأداء في وقت دون وقت. فندب الشَّرعُ إلى تأخيره إلى الوقت الذي يمكنُ له ما يؤدي.

وأما المعسَّرُ بالإفلاس: فتحرمُ مطالبتُه إلى أن يتبيَّنَ يسارُه. والمال: كلُّ ما يُتموَّل، أو

---

(١) نفس المرجع (٨/ ٩٩- ١٠٠).

(٢) «مختصر مسلم» (١٦٥١).

(٣) «مختصر مسلم» (١٦٥٢).

يتمنَّكَ من عينٍ، وعَرَضٍ، وحيوان، وغير ذلك.ثم قد يخصُّه أهلُ كلِّ مالٍ بها يكون غالبَ أموالهم. فيقول أصحابُ الإبل: المالُ: الإبل. وأصحاب النخل: النخل. وهكذا.

وقوله: «**ولا يكتمون الله حديثًا**» أي: لا يستطيعُ أحدٌ أن يكتمَ يوم القيامة شيئًا من عمله. فإن كتم شهدت عليه جوارحُه.

وقوله: «**وكان من خُلُقي الجواز**» أي: التجاوزُ عن حقوقه، فأمَّا من حلول الأجل فيؤخِّره، أمَّا من استيفاء الحق فيسقط بعضه، أو يسامح في الزّيف.

وقول الله تعالى: «**أنا أحقُ بذلك**» صدقٌ، حقٌّ؛ لأنه تعالى متفضِّل ببذل ما لا يستحق عليه، ومسقط بعفوه عن عبده ما يجبُ له من الحقوق عليه. ثم يتلافاه برحمته، فيكرمه. ويقرِّبه منه، وإليه. فله الحمد كِفَاءَ إنعامه، وله الشكرُ على إحسانه.

وقوله: «**حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له شيءٌ من الخير**»، هذا العمومُ مخصَّصٌ قطعًا بأنه كان مؤمنًا، ولولا ذلك لما تجاوز عنه، فـ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨].

وهل كان قائمًا بفرائض دينه من الصلاة، والزَّكاة، وما أشبهها؟ هذا هو الأليق بحاله. فإنَّ هذا الحديثَ يشهدُ بأنَّه كان ممَّن وُقي شُحَّ نفسه. وعلى هذا: فيكون معنى هذا العموم: أنه لم يوجد له شيءٌ من النوافل إلا هذا. ويحتملُ أن يكونَ له نوافلُ أخر، غير أنَّ هذا كان الأغلبَ عليه، فنودي به، وجُوزي عليه، ولم يذكر غيره اكتفاءً بهذا. والله تعالى أعلم.

ويحتملُ أن يكونَ المرادُ بالخير: المال، فيكون معناه: أنَّه لم يوجد له فِعْلُ برٍّ في المال إلا ما ذكر من إنظار المعسر. والله تعالى أعلم. والتنفيسُ عن المعسر: تأخيرُه إلى الإمكان. والوضع: الإسقاط.

وقوله: «**كان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن المعسر**» دليلٌ على جواز إذْن السيِّد لعبده في التجارة وفي الأمِّ: «**أَقْبَلُ الميسورَ، وأتجاوزُ عن المعسر**»[1]، رواية الجماعة: أقبل بالهمزة المفتوحة، وبالقاف ساكنةً، وبالباء بواحدةٍ تحتها مفتوحةً من القبول: والميسور: المُتيسِّر.

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٠).

ووقع لبعضهم: بضم الهمزة، وكسر القاف، وياء باثنتين تحتها، من الإقالة، وفيه بُعْدٌ، لأنه لا يستقيمُ المعنى حتى يكونَ الميسورُ بمعنى الموسر. ولا يعطيه قانون التصريف، ولا يعضده نقلٌ. والكُرَب: جمع كُرْبةٍ. وهي: الشِّدَّة، والفاقةُ. وكُرَب الآخرة: شدائدُها، وأهوالُها»[١].

عباد الله...

هذه بعضُ ثمرات فعل الخيرات، فحرّكوا نعم الله في مرضاته، وتقرّبوا بها إليه.

واسمعوا إلى نبيكم ﷺ وهو يقول: «**صنائعُ المعروف تقي مَصَارع السُّوء، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئ غَضَبَ الربِّ، وصلةُ الرَّحم تَزيدُ في الْعُمر**»[٢].

وفقني اللَّهُ تعالى وإياكم لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد..

وبداية الطريق إلى السّخاء، تحرير النفس من الشح، وطريق تحرير النفس من الشّح يبدأ بالزهد في الدنيا والرغبة فيما عند الله تعالى، ثم حَمْل النفس على الاقتصاد في المعيشة.

قال إبراهيم بن موسى: رأيتُ فَتْحًا الموصلي يَوْمَ عيد وقد رأى على الناس الطيالس، والعمائم، فقال لي: يا إبراهيم إنّما تَرَى ثَوْبًا وجسدًا يأكله الدود غدًا، هؤلاء أنفقوا خزائنهم على بطونهم وظهورهم ويُقدمون على ربِّهم مفاليس.

وقال الحسنُ البصري - رحمه الله -: «عجبًا لك يا ابن آدم، تُنْفق في شهواتك إسرافًا وبدارًا، وتبخل في مرضاة رَبِّك بِدِرْهم، ستعلم يا لُكَع مَقَامك عنده غدًا».

---

(١) «المفهم» (٤/ ٣٤٩، ٣٥٠).

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن. وحسنه الألباني.

فخذ - أخا الإسلام - من دنياك لآخرتك، ومن غناك ليوم فقرك، وارفع يديك إلى مولاك وقل: «**اللهم أعنا على ذِكْرِك، وشكرِك، وحُسْنِ عِبَادَتك**».

۞۞۞۞۞

الخطبةُ السّادسة

رجالٌ مِنْ سَقَطِ المتاع

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فهناك رجالٌ من سَقَطَ المتاع.

- ليس لهم في الواقع مواقع.. ولا في الوجود جهود.
- هممهم فاترة، وعزائمهم خائرة، ونفوسهم حائرة.
- وجودهم كعدمهم، وحضورهم كغيابهم، وحياتهم كمماتهم.
- شعارهم التفاهة، وسلاحهم السفاهة والوقاحة.

- هم كالشجر بلا ثمر.
- وكالعبد الكلّ على مولاه أينما يوجّهه لا يأتِ بخير.
- هَمَجٌ رعاع، أتباعُ كُلِّ ناعق، يميلون مع كل ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجئوا إلى ركن وثيق.
- يؤتمنون وهم خونة، ويُصدَّقون وهم كَذَبة.
- إنهم رجال من سقط المتاع.. لا تقوم بهم دنيا.. ولا يُنتصر بهم دين.

فالوالد الذي لا يغار على محارمه.. تخرج زوجته وبناته لقضاء حوائجهن حاسرات عن شعورهن.. كاشفات عن أجزاء من أبدانهن.. مائلات مميلات.. متعطّرات.. يزاحمن الرجال.. ويضاحكن الشباب.

ثم لا تفور الغَيْرةُ في أوردته. ولا تجري دماءُ الحميّةِ في شرايينه.

هذا رجلٌ من سقط المتاع.. أطفأت ذنوبُهُ نارَ الغَيْرةِ من قلبه.

قال ابن القيم - رحمه الله -: «أصل الدِّين الغَيْرة، ومن لا غَيْرة له لا دين له.

فالغيرة تحمي القلب فتحمَى له الجوارح، فتدفع السّوء والفواحش.

وعدم الغيرة تميت القلب فتموت له الجوارح، فلا يبقى عندها دفع ألبتة. ومثل الغَيْرة في القلب مثل القوّة التي تدفع المرض وتقاومه، فإذا ذهبت القوّة وَجَد الدّاء المحلّ قابلاً، ولم يجد دافعًا، فتمكّن فكان الهلاك.

ومثلها مثل صياصي الجاموس التي تدفع بها عن نفسه وولده، فإذا كسرت طمع فيه عدوّه»[1] ا.هـ.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة: العاقُّ لوالديه، والديّوثُ، وَرَجُلَةُ النّساء**»[2].

وقال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «كُلّ أُمّةٍ فقدت الغَيْرةَ في رجالها، فقدت الصّيانة

---

(١) «الداء والدواء» (٧٩، ٨٠).

(٢) صحيح: رواه النسائي، والبزار، والحاكم.

في نسائها»[١] ا.هـ.

ومن جعل نفسه عَظْمًا أكلته الكلاب.

والموظّف الذي رفع شعار: مُرّ علينا بعد أُسبوع.. ليواري كسله، ويتستر على همله. يقتل وقته في الأكل والشرب، ومقابلة الأصحاب، وقراءة الجرائد قليلة الفوائد. وأصحاب المصالح المهملة.. والمعاملات المعطّلة.. يكتوون بنار الانتظار، ويعانون من مرارة الاصطبار. وربما يتعمد تأخيرهم، ويتقصد تعطيل أعمالهم.. ليسمع رجاء الناس وتوسّلاتهم، ويمتع عينه برؤيتهم أذلة بين يديه.

وربما تعمّد تأخير قضاء مصالحهم لينال رِشْوَة حقيرة، تأكل السعادة من قلبه.. وتورث التعاسة في ولده، ثم يكون بعد ذلك حطبًا لجهنم.

هذا رجل من سقط المتاع.

قال رسولُ الله ﷺ: «**يسّروا ولا تُعسّروا، وبشّروا ولا تنفّروا**»[٢].

وقال ﷺ: «**اللّهم مَنْ وَلِيَ مِن أَمْر أُمتّي شيئًا فشَقّ عليهم، فاشْقُق عليه، وَمَنْ وَلِيَ من أَمْرِ أمّتي شيئًا فَرَفق بهم فارْفعْه به**»[٣].

والطبيب الذي يرى المريض يقاوم الآلام، ويصارع الأسقام.. يسمع أنينه وحنينه.. ويبصر زفراته وآهاته.. ويرى توجّعه وتألمه.. ثم لا يُحرّك ساكنًا.. ولا يُسكن ألمًا.. ينظر إليه بتبلّد وجمود، ويعامله بصلف وصدود، ويخاطبه بتكبر وجحود..

هذا رجلٌ من سَقَطِ المتاع.

عن عمرو بن حبيب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**خابَ عَبْدٌ وَخسِر لم يجعل اللَّهُ في قلبه رَحْمَةً للبشر**».

أين الاحتساب يا ذوي الألباب؟! إن دعوة المريض لكم غنيمة.

قال ابن مسعود - رضي الله عنه -: «اغْتَنِمْ دَعْوَة المُبْتَلى».

---

(١) «الإحياء» (٣/ ١٦٨).

(٢) رواه مسلم (١٧٣٣).

(٣) رواه مسلم (١٨٢٨).

وها هو ذا رسولُ الله ﷺ يبيّن فضل تنفيس الكُرب عن المكروبين فيقول: «مَنْ نفّس عن مؤمن كُرْبةً من كُرب الدنيا، نَفَّس اللَّهُ عنه كُربة من كُرَب يوم القيامة، ومن يسَّر على مُعْسِر، يسَّر اللَّهُ عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مُسْلِمًا، ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عونِ العَبْدِ، ما كان العبدُ في عَوَنِ أخيه»[1].

والمعلّم الذي يرى التعليم وظيفة، وليس رسالة.. فلا أثر له في قلوب تلاميذه، ولا دور له في تهذيب سلوكهم، وتقويم أخلاقهم، وحلّ مشاكلهم، وتغيير مفاهيمهم.

يراقب مديره الحازم، ويخشى من موجّهه الصارم، ثم بعد ذلك ضميره غائب! يسُبّ مَنْ تحته، وينافق مَنْ فوقه!!

هذا الرجل من سَقط المتاع.

نسي أن التعليم مهمّة الأنبياء، ورسالة الحكماء..

عن أبي أمامة الباهليّ - رضي الله عنه - قال: ذُكِرَ لرسول الله ﷺ رجلان: أَحَدُهُما عابدٌ والآخرُ عالِمٌ، فقال - عليه الصلاة والسلام -: «إن الله وملائكته، وأهْلَ السموات والأرض، حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِها، وَحَتّى الحوتَ لَيُصلُّون على مُعلِّم النَّاسِ الخير»[2].

ولله دَرُّ القائل:

تــذوقت أنــواعَ الــشراب فلــم يــسغ — بحَلْقــي أشْــهى مــن حــلال المكاســب

ونمــتُ علــى ريــش الـنّعام فلـم أجـد — فراشًــا وَثِــيرًا مــثل إتمــام واجــبي[3]

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنّ الله تعالى يُحبُّ إذا عَمِل أحدُكم عملاً أن يُتْقِنَه»[4].

والصُّحُفيّ الذي لا همّ له إلاّ تتبع العورات، وكشف المخبوء والسموات.. وقد

---

(١) حسن: رواه الدولابي في «الكنى»، وأبو نعيم في «المعرفة» وغيرهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٢٠٥).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٢٦٩٤)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٧٨).

(٣) القروي.

(٤) حسن: رواه البيهقي في «الشعب» وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٨٠).

ينسج قصصًا من الخيال، ويختلق أحداثًا يشغل بها البال.

هذا رجل مِنْ سَقَط المتاع.

عن أبي برزة الأسلميّ- رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا معشرَ مَنْ آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمانُ قَلْبَه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتّبعوا عَوْراتِهم، فإنّه من تتبّع عورة أخيه المسلم، تتبّع اللّهُ عَوْرَته، ومن تتبّع اللّهُ عَوْرَته، يفضحْه ولو في جَوْفِ بيته**»(١).

ولله در القائل:

وما من كاتب إلاّ سَيَفْنى ... ويبقى الدّهر ما كَتَبت يداه

فلا تكتب بخطّك غَيْرَ شيءٍ ... يَسرُّك في القيامةِ أن تراه(٢)

والشاعر الذي يهجو بشعره الأخيار، ويمدح به الأشرار والفجّار.

ويصف أحوال النساء. ويدعو إلى الرذيلة والمنكر.

هذا الرجل من سقط المتاع.

قال تعالى: ﴿**وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الغَاوُونَ* أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ* وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ* إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الشعراء: ٢٢٤-٢٢٧].

والواعظ الذي يقدّم الإسلام مشوّهًا.. ولا يتحرّى الدّقة فيما ينقل.. ويختلق حكايات يبني عليها دينًا.. ويُصدر فتاوى عرجاء أو عمياء.. يُضلّ بها المسلمين.

هذا رجل من سقط المتاع.

قال تعالى: ﴿**فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ**﴾ [البقرة: ٧٩].

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ البَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الكِتَابِ أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ**﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠].

(١) **صحيح**: رواه أحمد وأبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٨٤).

(٢) الرياشي.

وطالب العلم الذي شغل نفسه بالوقيعة في العلماء.. وتتبّع عثراتهم.. وحصر فلتات ألسنتهم.

هذا طالب من سقط المتاع.

يعيش جاهلاً.. ويبعث يوم القيامة مفلسًا. قال ابن عساكر - رحمه الله -: «لحوم العلماء مسمومة، وعادة الله في هتك منتقصيهم معلومة، من أطال لسانه في العلماء بالثلب، ابتلاه الله قبل موته بموت القلب».

والمتكلّم في السياسة - وهو في الأصل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري - ينفخ في السيئات، ويورّم الأحداث، ويضخّم العورات.. ويرمي بالظن.

هذا رجل من سقط المتاع.

أضاع عمره فيما لا ينفع.. وهيّج فتنًا.. وأوغر صدورًا.. وأشعل نارًا، وحارب في غير ميدانه، هذا رجل من سقط المتاع.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**سيأتي على الناس سَنواتٌ خدَّاعاتٌ، يُصَدَّقُ فيها الكاذب، ويَكَّذب فيها الصّادق، ويؤتمن فيها الخائن، وَيُخوَّن فيها الأمين، وَيَنْطِقِ فيها الرُّوَيْبِضة**». قيل: وما الرويبضة؟ قال: «**الرجلُ التافِهُ يتكلّم في أَمْرِ العامّة**»[(١)].

والغنيّ الذي جمع مالاً وعدَّده، يحسب أن ماله أخلده، يرفُه في النعيم، ويتقلّب فيه ظهرًا لبطن، وينفق على شهواته إسرافًا وبدارًا، ليكسر قلوب الفقراء، ويتباهى على الضعفاء.

جفّت أصابعُ يديه عن العطاء.. وجفّت من قلبه ينابيعُ السّخاء. فلا يرحم يتيمًا، ولا يعطف على مسكين.

هذا رجل من سقط المتاع.

وعن معاذ بن أنس - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ : «**مَنْ تَرك اللِّباس**

(١) صحيح: رواه أحمد في المسند، والحاكم، وغيرهما، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (١٨٨٨).

تواضعًا لله، وهو يَقْدر عليه دعاهُ اللَّهُ يَوْمَ القيامة على رءوس الخلائق حتى يُخيِّره من أيِّ حُلَل الإيمان يلبسها»[1].

وقال أبو الدرداء - رضي الله عنه -: «ويلٌ لكلّ جمّاع فاغرٍ فاهُ كأنه مجنون، يرى ما عند الناس ولا يرى ما عنده، لو يستطيع لوصل اللّيلَ بالنّهار، ويلٌ له من حساب غليظ، وعذابٍ شديد»[2].

وتلا الحسن البصريّ - رحمه الله - يومًا قول الله تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا**﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم قال: «إن قومًا غَدَوْا في المطارف[3] العتاق، والعمائم الرِّقاق، يطلبون الإمارات، ويضيّعون الأمانات يتعرضون للبلاء وهم منه في عافية حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العفّة، وظلموا مَنْ تحتهم من أهل الذّمّة، أهزلوا دينَهم، وأسمنوا براذِينهم - دوابّهم -، ووسعوا دورهم، وضيّقوا قبورهم، ألم ترهم قد جدّدوا الثياب وأخلقوا الدّين؟!

يتكئ أحدهم على شمال فيأكل من غير ماله، يدعو بحلو بعد حامضٍ، وبحارّ بعد بارد، وبرطب بعد يابس..

حتى إذا أخذته الكظّة «الشبع» تجشأ من البشم «امتلاء البطن» ثم قال:

يا جاريتي هاتي حلو ما يهضم الطعام!!

يا أُحيمق: والله ما يُهضَمَ إلاّ دينك.. أين جارك؟ أين يتيمك؟ أين مسكينك؟ أين ما أوصاك اللَّهُ ﷻ به؟

والفقير الذي لم يرض بقسمة الله.. وأظهر الذّلة والمسكنة أمام الغني، وانكسر أمام ماله.

---

(١) «صحيح سنن الترمذي» (٢٠١٧).

(٢) «أحاسن المحاسن» (١٩٠).

(٣) المطارف: أثواب من خز.

هذا رجل من سقط المتاع.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ [البقرة: ٢٧٣].

وصاحِبُ القوّة والصّحة الذي ترك التكسّب كسلاً أو هملاً.. أو تواكلاً.. ثم رضي أن يعيش عالة على غيره!

هذا رجل من سقط المتاع.

قال النبيّ ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تحلُّ الصَّدقة لِغَنِيّ، ولا لِذِي مِرَّةٍ سَوِيّ».

وقال أبو سليمان الدّاراني: «لا خير في قلبٍ يتوقّعُ قرع الباب، يتوقّع إنسانًا يُعطيه شيئًا»[1].

والمريض الذي يسب المرض، ويسخط القدر، ويشكو ربّه لخلقه!!

هذا رجل من سقط المتاع.

عن صهيب - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ: «عَجَبًا لأمر المؤمن، إنّ أمْرَه كلَّه له خير، وليس ذلك لأحدٍ إلاّ للمؤمن، إن أصابَتْهُ سَرَّاءُ شكر وكان خيرًا، وإن أصابتهُ ضرّاءُ صبر فكان خَيْرًا له»[2].

عباد الله...

إن المعالي مهرها غالٍ!

قــد هيــئوك لأمــر لــو فطــنت لــه ... فَارْبــأْ بنفْسِك أن تَرْعَـى مـع الْهَمَـل

فاحذر - أيها المسلم - أن تكون من سقط المتاع.

ومــن طلــب العُــلا مــن غــير كــدٍّ ... أضــاع العمــر في طلــب الْمُحَــالَ[3]

فاشحذ همّتك.. واستعن بربِّك..

---

(١) «أحاسن المحاسن» (٦٠٨).

(٢) رواه أحمد ومسلم.

(٣) أمية بن أبي الصّلت.

ومـــن يتهـــيّب صـــعود الجـــبالِ يَعِـــشْ أَبَـــدَ الدَّهْـــر بـــين الْحُفَـــر

وفقني الله وإياكم لطاعته..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

وبعد..

عن الحسين بن عليّ - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ الله تعالى يُحِبُّ: معالِيَ الأمورِ، وأشرافَها، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَها**»[1].

قال العلّامةُ المناوي - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «**إن الله تعالى يحب معالي الأمور وأشرافها**» وهي الأخلاق الشرعية والخصال الدينية لا الأمور الدنيوية؛ فإن العلوّ فيها نزول « **ويكره سفسافها**» بفتح أوله أي حقيرها ورديئها، فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبّه، ومن تحلّى بالأوصاف الرديئة كرهه، وشرف النفس صونها عن الرذائل والدنايا والمطامع القاطعة لأعناق الرجال فيربأ بنفسه أن يلقيها في ذلك»[2] ا.هـ.

عباد الله...

علم سلفنا الصالح هذا فأحبّوا ما يحبّه الله، وكرهوا ما يكرهه. أحبّوا معالي الأمور وأشرافها، وكرهوا سَفْسافها.

فها هو ذا «عمرو بن عتبة» - رحمه الله -: كان يخرج على فرسه ليلاً فيقف على القبور فيقول: «يا أهل القبور، قد طُوِيت الصُّحف، وَجَفَّتَ الأقلام، وَرُفِعَت الأعمال».

ثم يبكي، ثم يصفُّ بين قدميه حتى يُصبح!! فكان من ثمرة ذلك: أن أجرى الله على يديه الكرامات.

---

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» (١٨٩٠).
(٢) «فيض القدير» (٢/ ٣٧٥).

قال مولى له: استيقظنا يومًا حارًّا في ساعة حارّة فطلبنا عمرو بن عتبة فوجدناه في جبل وهو ساجدٌ وغمامةٌ تظلّه[1]!!

وها هو ذا «عُتبة الغُلام[2]» – رحمه الله –: قال سُليمٌ الحنيف: رمَقتُ عُتبة ذات ليلة على البحر، فما زاد حتى أصبح على هذه الكلمات: إن تعذبْني فإني لك مُحبٌّ، وإن ترحمني. فإني لك مُحبٌّ، فلم يزل يُردِّدها ويبكي حتى طلع الفجرُ.

وكان – رحمه الله – يأكل خُبزة بالملح ويقول: «العُرسُ في الدّار الأُخرى»[3].

خرج – رحمه الله – للجهاد ضد الروم وعليه حُلَّة جديدة بيضاء.. يتملاَّها ويتأملها طويلًا. ثم يقول: «ما أحسن الدم يتحدَّر على هذه!! وإني سألت الله ثلاثًا، فأعطاني اثنتين وأنا أنتظر الثالثة:

- سألته أن يزهدَّني في الدنيا، فما أبالي ما أقبل منها وأدبر.
- وسألته أن يقويني على الصلاة – يعني الإكثار منها – فرزقنيها.
- وسألته الشهادة في سبيله فأنا أنتظرها وأرجوها.

ثم اقتحم المعركة كالإعصار، حتى إذا أصابه أول جراحها نظر إليه فقال: «إنك جرح صغير، وقد يبارك الله في الجُرح الصغير»!! يعني أنه قد يكون سببًا كافيًا للاستشهاد.

ونال في ذلك اليوم ما تمنى، لقي الله في عُرْس المتقين..!!

وكان قد اشترى قبل خروجه للقتال فرسًا بثمن مرتفع أربعة آلاف درهم، فلاموه على ذلك، فكان جوابه: «إن خطوة واحدة يخطوها في سبيل الله ويقربني بها من أعدائه أحبَّ إليَّ من أربعة آلاف درهم»[4].

---

[1] «أحاسن المحاسن» (٤١٨).
[2] سُمِّي الغلام لجدِّه واجتهاده.
[3] «أحاسن المحاسن» (٥٢٨).
[4] «الموعد الله» للأستاذ/ خالد محمد خالد (١٣٤، ١٣٥).

عباد الله...

كان هذا حالُ سلفنا، فأين نحن منهم؟

اللهم إنا نسألُ حبَّك، وَحُبّ من أحَبّك

وحُبّ كُلّ عملٍ يقرِّبنا من حُبِّك

۞۞۞۞۞

الخطبة السّابعة

نساءٌ مِنْ سَقَطِ المتاع

إنّ الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا. من يَهْدِه اللهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فكما في الرجال رجالٌ من سقط المتاع - لا وزن لهم ولا قيمة - ففي النساء - أيضًا - نساءٌ من سقط المتاع - لا وزن لهنّ ولا قيمة.

فالمرأة التي تستأثر بزوجها:آخر حدود نظرها عند منتهى مصلحتها، تمكّنت الأنانيةُ من نفسها. امرأة من سقط المتاع. لا تحب إلاّ نفسها، وتسعى في قطع رحم زوجها، وهذا كله مذموم: قال ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «إنّ الله تعالى خَلق الخَلقَ حتى إذا فرغ منهم قامت الرَّحِمُ، فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، أما تَرْضَيْن أن أَصِلَ مَنْ وَصَلَك، وأقطعَ من قطعك؟ قالت: بلى. قال: فذاكَ لَكِ».

ثم قال رسولُ الله ﷺ: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣][1].

والمرأة التي لا تشكر لزوجها:

امرأة من سقط المتاع.. تكفر العشير، وتكفر الإحسان.

قال رسول الله ﷺ: «لا يشكر الله من لا يشكر الناس»[2].

وقال ﷺ: «لا يَنظر اللَّهُ - تبارك وتعالى - إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تَسْتَغْنى عنه»[3].

وفي «الصحيحين» عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يا معشر النساء تصدَّقن، فإني رأيتكن أكثر أهل النار». فقلن: ولِمَ ذلك يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعن، وَتكْفُرن العشير». أي: يكفرن إحسان الأزواج لهن، لو أحسن الزوج لزوجته - طوال عمره - ثم بدت منه سيئةٌ واحدةٌ، قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قطّ!!

والمرأة المسرفة: التي لا ترضى بالقليل.. وتنفق من مال زوجها إسرافًا وبدارًا.. امرأة من سقط المتاع. لماذا؟

لأنها لا تعين الزمان على زوجها، ولا تُعين زوجها على الزمان. وربّما دفعت زوجها إلى أخذ ما لا يحلّ تحت ضغط الإسراف، وقلة ذات اليد. لذا قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤] أي: على دينكم.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند»، وأبو داود، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٧٧١٩).

(٣) رواه النسائي والبزار بإسنادين أحدهما رواة الصحيح.

قال مجاهد: ﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ قال: يحمل الرجل على قطيعة رحم أو معصية ربّه فلا يستطيع الرجل مع حبّه إلاّ أن يطيعه[1].

وروى الخطابي في العزلة، والبيهقي بسند ضعيف[2] عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«يأتي على النّاسِ زمانٌ يكون هلاكُ الرَّجُلِ على يَدِ زوجته وأبويه، وولده، يُعَيِّرونَه بالفقر. ويكلِّفونه ما لا يطيق، فيدخل المداخل التي يَذْهَبُ فيها دِينه فيهلك».

والمرأة التي تُفْشِي أَسْرَارَ بيتها، وتديم الشكوى من زوجها: امرأة من سقط المتاع. لماذا؟

لأن النبيّ ﷺ قال: «المجالسُ بالأمانة»[3].

وفي رواية: «المجالس بالأمانة إلاّ ثلاثة مجالس: سَفْكُ دَمٍ حَرام، أَوْ فَرْجٍ حرام، أو اقتطاعُ مالٍ بغيرَ حَقّ»[4].

قال المناوي - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «المجالس بالأمانة» أي: لا يشيع حديث جليسه إلاّ فيما يحرم ستره من الأضرار بالمسلمين ولا يبطن غير ما يظهر؛ ذكره جمال الإسلام أبو بكر محمد العامري الواعظ البغدادي في شرح «الشهاب»؛ قال: وفيه إشارة إلى مجانسة أهل الأمانة وتجنّب أهل الخيانة. ا.هـ.

وقال العسكري: أراد المصطفى ﷺ أن الرجل يجلس إلى القوم فيخوضون في حديث، وربّما كان فيه ما يكرهون فيأمنونه على سرّهم فذلك الحديث كالأمانة عنده فمن أظهره فهو قتّات[5].

وقال ابن الأثير: هذا ندب إلى ترك إعادة ما يجري في المجلس من قول أو فعل فكان ذلك أمانة عند من سمعه أو رآه، والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٢).

(٢) ومعناه صحيح.

(٣) حسن: رواه أحمد في «المسند»، وأبو داود، وغيرهما، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٦٧٨).

(٤) رواه أبو داود، وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير» (٩١٧٤).

(٥) القَتّات: هو النّمام.

والأمان وقد جاء في كل منها حديث»[١] ا.هـ.

ويزداد الإثم إذا تعلّق إفشاء السّر بما يدور بين الزوجين على الفراش:

ففي الحديث الصحيح: «إنَّ من شَرِّ النّاس عند الله مَنْزِلَةً يوم القيامة: الرجل يُفْضِي إلى امرأته وَتُفْضِي إليه، ثم يَنْشُرَ أحدُهما سِرَّ صاحبه».

وقال ﷺ: «إنّما مَثَلُ ذلك مثلُ شيطان لَقِي شَيْطَانة فغشيها، والناس ينظرون».

والمرأة التي تخرجُ مُتَبَرِّجة متعَطّرة: تتكسّر في مِشْيتها، تكلّم الرجال وتضاحكهم.. امرأة من سقط المتاع.

فقدت حياءها، وأجلبت العار إلى أهلها، وأحدثت الفساد في مجتمعها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩].

وقال ﷺ: «صِنفان من أهل النار لم أَرَهُمَا: قومٌ معهم سياط كأذناب البقر يَضربون بها الناس. ونساءٌ كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لاَ يَدْخُلنَ الجنّة ولا يَجدْن رِيحَها، وإن ريحها لتوجد مِنْ مسيرة كذا وكذا»[٢].

والمرأة التي تلهث وراء أزياء الموضة، تقليدًا للكافرات: امرأة من سقط المتاع.

جهلت أمر ربّها، وزهدت في دينها، وقد ورد التحذير من التشبّه بغير المسلمين:

قال ﷺ: «ومن تشبّه بقومٍ فهو منهم»[٣].

وقال: «مَنْ لبس ثَوْبَ شُهْرة أَلْبَسَه اللَّهُ ثوبَ مَذَلّة يوم القيامة، ثم ألهب فيه نارًا».

عباد الله...

اعلموا أن قيمة المرء في دينه، وليست في ثوبه:

عن أبي ذر - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «انظر أرفعَ رجُلٍ في

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٣٤٠).

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) رواه أحمد.

ـسجد». قال: فنظرتُ، فإذا رجلٌ عليه حُلّة، قلت: هذا، قال: قال لي: «انظر أوضع
رجل في المسجد».

قال: فنظرتُ فإذا رجلٌ عليه أخلاق، قال: قلتُ هذا. قال: فقال رسول الله ﷺ:
«هذا عند الله خيرٌ يَوْمَ القيامة مِنْ مِلْءِ الأرض مِثْل هذا»[1].

والمرأة الجاهلة بأحكام دينها: امرأة من سقط المتاع.

أعرف نساءً يعشن ويمتن لا يعرفن شيئًا عن الدِّين، في حين يحفظن أغنيات
عدة!! وهذا والله هو الموت قبل الموت:

وفي الجهـلِ قَـبْلَ المـوتِ مَـوْتٌ لأهْلِـه	وأجـــسامُهم قَـــبْلَ القـــبور قـــبورُ
وأرواحُهـم في وحـشةٍ مـن جـسومهم	ولـــيس لهـــم حتـــى النّـــشورِ نـــشورُ

عباد الله..

وليس كل النّساء - من سقط المتاع - فهناك نساءٌ: مؤمنات، قانتات، عابدات،
سائحات، ثيبات وأبكارًا.

هنا: عاقلات، زاهدات، حافظَات للغيب بما حفظ الله. وهنّ بحمد الله - كثيرات:

- احتشمن في زمن العُري.
- والتزمن بالدين في زمن التحلّل والتفلّت.

بارك الله فيهنّ، وثبَّت على الحق قلوبهن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي وللمؤمنين والمؤمنات.

الخطبة الثانية

الحمد لله، وَحْده، والصّلاةُ والسّلامُ على مَنْ لا نبيّ بعده، سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه أجمعين.

---

(1) رواه أحمد بأسانيد رواتها محتج بهم في «الصحيح»، وابن حبان في «صحيحه»، قاله المنذري في «الترغيب» (4537).

وبعد..

فقد يقول قائل: هذه خطبة خاصّة بالنساء فما الفائدة التي تعود علينا؟

والجواب:

فوائد كثيرة، منها: أن المرأة الفاسدة خرجت من بيت فاسد، قائده فاشل.

قال الغزاليّ – رحمه الله – في «الإحياء» (٣/ ١٦٨): «كُلّ أمّةٍ فقدت الغَيْرَة في رجالها، فقدت الصِّيانة في نسائها» ا.هـ.

الفائدة الثانية: أن صلاح الأمّة بصلاح نسائها

الأمّ مدرسـة إن أعـددتها أعـددت شـعبًا طـيب الأعـراق

الفائدة الثالثة: أن الله تعالى ضرب مثلاً للذين آمنوا بامرأة صالحة، وهي آسية – زوجة فرعون – فقال تعالى:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

اللّهم اجعلنا مِنْ أحبّ خلقِك إليك، وَمِن المقربين لديك

❖❖❖❖❖

الخطبة الثامنة

من ثمرات الطاعة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فإن الناس أمام طاعة الله تعالى ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

قسم: تمرّد على طاعته سبحانه ظاهرًا وباطنًا: وهؤلاء قائدهم وإمامهم: إبليس - لعنه الله -.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤].

ثم اليهود - عليهم لعنة الله -. قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [النساء: ٤٦]. ثم سائرُ الكفار.

وهذا القسم: قد بَيّن اللهُ مآلَه وعاقِبةَ أمره، فقال ﷻ: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

والقسم الثاني: أطاع الله ظاهرًا وتمرّد عليه باطنًا: وهؤلاء هم المنافقون حقًا. قال تعالى - عنهم -: ﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١].

والنفاق: اختلاف الظاهر والباطن، والمدخل والمخرج.

والمنافق: أظهر الإيمان وأبطن الكفر.

وقد بين الله - تعالى - مآل هذا القسم وعاقبة أمره، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٥، ١٤٦].

والقسم الثالث: أطاع الله ظاهرًا وباطنًا. وهؤلاء هم المؤمنون حقًا. حققوا العبودية لله - كما يحب الله ويرضى -.

والطاعة: الفعل الواقع على حسب ما أراده المريد. وهذا القسم متفاوت في درجات الطاعة، فهو بالنسبة للطاعة إلى **ثلاثة أقسام:**

قسم ظالم لنفسه: فرّط في بعض الأوامر، واقتحم بعض المناهي - مع صحة اعتقاد في الجملة -.

وهذا القسم: مآله الجنة - إن ختم له بالتوحيد - وإن عُذّب بالنار.

وقسم مقتصد: أدّى الفرائض، واجتنب كبائر الإثم والفواحش إلاّ اللّمم. واللّمم: الصغائر، وفرّط في أداء النوافل.

وقسم سابق بالخيرات بإذن الله: أدّى الفرائض، واجتنب الكبائر، وتقرّب إلى ربّه بسائر أنواع القربات، واجتناب سائر المكروهات. وقد بين الله تعالى - مآل هؤلاء

ـين أطاعوا الله ظاهرًا وباطنًا - فقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْـخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَضْلُ الكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ المُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر: ٣٢- ٣٥].

عباد الله...

وللطاعة ثمرات وبركات، يذوق الإنسان طعمها في الدنيا والآخرة. من هذه الثمرات:

الثمرة الأولى: قبول الأعمال الصالحة:

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: لا ينقصكم من أجوركم شيئًا[(١)].

والثمرة الثانية: البركة في الأعمار والدِّيار والأولاد:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقال ابن عطاء الله السكندري - رحمه الله -: «رُبَّ عُمر اتّسعت آمادُهُ وَقَلَّتْ أَمْدَادُه، وَرُبَّ عُمُرٍ قليلةٌ آمادُه، كثيرةٌ أَمْدَادُه».

وقال - رحمه الله -: «مَنْ بورِكَ له في عُمُره أدرك في يسير من الزَّمن من مِنَنِ الله تعالى ما لا يدخل تحت دوائر العبَارة ولاَ تَلْحَقُهُ الإشَارَةَ»[(٢)].

والثمرة الثالثة: الإصلاح بين الراعي والرعية، بين الحاكم والمحكوم:

قال مالك بن دينار - رحمه الله -: قرأت في الحكمة: يقول الله تعالى: «أنا الله، مالكُ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٠٧).
(٢) «الحكم العطائية» (٤١).

الملك، وملكُ الملوك، قلوب الملوكِ بيدي، إن العباد إذا أطاعوني حوّلتُ قلوب ملوكهم عليه بالرأفة والرحمة، وإن هم عصوني حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالسّخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبِّ الملوك، واشغلوا أنفسكم بطاعتي أكفكم ملوككم».

والثمرة الرابعة: دخول الجنة:

أخرج الطبراني وغيره بسند صحيح عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أن رجلاً أتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أحبّك، حتى إني أذكرك، فلولا أني أجيء فأنظر إليك ظننتُ أن نفسي تخرج، وأذكر أني إن دخلتُ الجنة صرتُ دونك في المنزلة، فيشق عليّ، وأحبّ أن أكون معك في الدرجة.

فلم يردّ عليه شيئًا، فأنزل الله: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّنَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُوْلَئِكَ رَفِيقًا * ذَلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

عباد الله...

إن إعلان حالة التمرّد على الله، يُجلب الفقر، ويقصم الظهر، ويورث الحسرة والندامة، بل ويستوجب غضب الله ودخول النار.

فالمعاصي بريد الكفر، والإصرار عليها دليل على الغباء، وشاهد على جهل الإنسان بربّه.

إن الجمادات والحيوانات وسائر المخلوقات تسبّح بحمد ربّها، وتسجد لعظمته: اقرأ:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كنتُ عند النبيّ ﷺ فأتاه رجلٌ فقال: إني رأيت البارحة - فيما يرى النائم - كأني أصلي إلى أصل شجرة، فقرأت السجدة فسجدت، فسجدت الشجرة بسجودي، فسمعتها تقول: «اللّهم احْطُطْ عَنِّي وِزْرًا،

و كتبْ لي بها أَجْرًا، واجْعَلْهَا لي عندك ذُخْرًا»[١].

قال ابن عباس: فرأيتُ النبيَّ ﷺ قرأ السَّجْدةَ فَسَجَدَ، فسمعتُه يقول في سُجودِه مثل الذي أَخْبَرَهُ الرَّجُلُ عن قولِ الشجرة[٢].

وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح أن أبا سعيد الخدْريّ - رضي الله عنه - رأى رؤيا أنه يكتب «ص» [٣]، فلمّا بلغ إلى الآية التي يسجد بها رأى الدواة والقلم وكلّ شيء بحضرته انقلب ساجدًا، قال: فقصّها على النبيّ ﷺ فلم يزل يسجد بها بعد[٤].

عباد الله...

هذه مخلوقات، تُسبّح بحمد ربِّها، وتسجد لعظمته، أفلا يستحيي العاصي أن يكون نغمة نشاز في كون مسبّح؟!

رَبِّ إنّ الْهُدى هُدَاك وآياتك حقّ تهْدي بها من تشاء.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصّلاةُ والسَّلامُ على من لاَ نَبيَّ بَعْده، سَيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد...

فقد روى البخاري[٥] عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: «كان جِذْعٌ

---

(١) وفي رواية: «اللهم اكتب لي بها عندك أجرًا، وضعْ عَنِّي بها وزرًا، واجعلها لي عندك ذُخرًا، وتقبّلها مني كما تقبلتها مِنْ عَبْدِك داود». رواه الترمذي (٢/ ٤٧٣)، والحاكم (١/ ٢١٩) وصححه، ووافقه الذهبي.

(٢) **حسن**: رواه ابن ماجه (١٠٦٢)، وحسنه الألباني.

(٣) يعني سورة (ص).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ٧٨).

(٥) برقم (٩١٨).

يقوم إليه النبيُّ ﷺ فلمّا وُضِعَ له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العِشار[1] حتى نزل النبيُّ ﷺ فوضع يده عليه».

وفي رواية الإسماعيلي من طريق يحيى بن السّكن عن معاذ: فأتاه فاحتضنه فسكن فقال ﷺ: «**لو لم أفعل لما سكن**».

وفي حديث ابن عباس – عند الدارميّ –: «**لو لم أحتضنْه لحنّ إلى يوم القيامة**».

عباد الله...

كان الحسن البصري – رحمه الله – إذا حدَّث بهذا الحديث يقول: يا معشر المسلمين، الخشبة تحنّ إلى رسول الله ﷺ شوقًا إلى لقائه، فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه.

وعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا – أَنَّ امْرَأَةً مِنْ الْأَنْصَارِ، قَالَتْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَجْعَلُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ؟ فَإِنَّ لِي غُلَامًا نَجَّارًا. قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ**».

فَعَمِلَتْ لَهُ الْمِنْبَرَ. فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ قَعَدَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى الْمِنْبَرِ الَّذِي صُنِعَ فَصَاحَتْ النَّخْلَةُ الَّتِي كَانَ يَخْطُبُ عِنْدَهَا حَتَّى كَادَتْ تَنْشَقُّ، فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى أَخَذَهَا فَضَمَّهَا إِلَيْه، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصَّبِيِّ الَّذِي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ. قَالَ: «**بَكَتْ عَلَى مَا كَانَتْ تَسْمَعُ مِنْ الذِّكْرِ**»[2].

فيا معشر المسلمين: الخشبة تبكي على ما كانت تسمع من الذِّكْر!!

فماذا يقول الغافلون؟

اللهم إنا نسألك إيمانًا دائمًا، وقلبًا خاشعًا

ولسانًا ذاكرًا، وعلمًا نافعًا، وشفاء من كل داء

❁❁❁❁❁

(١) **العشار**: جمع عشراء، والعشراء: الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة.

(٢) أخرجه البخاري (٢٠٩٥).

الخطبة التاسعة

التعاون على البرّ والتقوى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقد أمرنا الإسلامُ أن نتحرّك كتلة واحدة.. كالجسد الواحد، وكاليد الواحدة.

مترابطين، متماسكين، متعاونين على البرّ والتقوى لا على الإثم والعدوان.

قال الله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

قال الماوردي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «ندب الله - سبحانه - إلى

التعاون بالبرّ وقرنه بتقواه، لأن في التقوى رضا الناس، ومن جمع بين رضا الله تعالى ورضا الناس، فقد تمّت سعادتُه، وعمّت نعمته» ا.هـ.

وقال ابن خويز منداد في «أحكامه»: «والتعاون على البرّ والتقوى يكون بوجوده: فواجب على العالِمِ أن يعين الناس بعلمه فيعلّمهم، ويعينهم الغنيُّ بماله، والشجاعُ بشجاعته في سبيل الله، وأن يكون المسلمون متظاهرين كاليد الواحدة: «المؤمنون تتكافأ دماؤهم وَيَسْعَى بذمتهم أدناهم، وهم يَدٌ على مَنْ سواهم»[1].

ويجب الإعراض عن المعتدي وترك النُّصرة له وردّه عمّا هو عليه، ثم نهى فقال: ﴿وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ﴾[2] [المائدة: ٢] ا.هـ.

وعن أبي موسى الأشعريّ - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**» ثم شبّك بين أصابعه[3].

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «**مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثلُ الجُسَد إذا اشتكى منه عُضْوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالسّهر والحُمّى**»[4].

عباد الله...

والمجتمع الذي هذا حاله.. لا يشعر فيه يتيمٌ بيتمه، ولا فقيرٌ بفقره. مجتمع متماسك البنيان، لا ينال منه عدوّ، ولا يشعر الإنسان فيه بضيم. مجتمع تمت سعادتُهُ، وعمّت نعمتُهُ، وساد الدنيا.

وارجِعْ بذاكرتِك إلى عهد النبوة والخلافة الراشدة، تجد هذا واضحًا وضوح الشمس في رائعة النهار.

ويحدِّثنا النبيُّ ﷺ وهو الصادق المصدوق - عن التعاون.

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٩٩١- ٩٩٣) مسند علي - رضي الله عنه -.

(٢) «تفسير القرطبي».

(٣) رواه البخاري (٦٠٢٦)، ومسلم (٢٥٨٥).

(٤) رواه البخاري (٦٠١١)، ومسلم (٢٥٨٦).

ويحدثنا القرآن الكريم – عن تعاون أصحاب النبيّ ﷺ فيقول: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله تعالى – في تفسيره لهذه الآية:

يخبر تعالى عن محمد ﷺ أنه رسوله حقًّا بلا شك ولا ريبة فقال: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾ وهذا مبتدأ وخبر وهو مشتمل على كل وصف جميل ثم ثنى بالثناء على أصحابه – رضي الله عنهم – فقال: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ كما قال ﷻ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدًا عنيفًا على الكفار رحيمًا برًّا بالأخيار، غضوبًا عبوسًا في وجه الكافر ضحوكًا بشوشًا في وجه أخيه المؤمن كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة وهي خير الأعمال، ووصفهم بالإخلاص فيها لله ﷻ والاحتساب عند الله تعالى جزيل الثواب وهو الجنة المشتملة على فضل الله ﷻ وهو سعة الرزق عليهم ورضاه تعالى عنهم وهو أكبر من الأول كما قال جل وعلا ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢].

وقوله جل جلاله: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس – رضي الله عنهما –: سيماهم في وجوههم يعني السمت الحسن وقال مجاهد وغير واحد: يعني الخشوع والتواضع.

وقال بعض السلف: من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار.

وقال أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه: ما أسر أحدٌ سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه؛ فالمؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله تعالى أصلح الله ﷻ ظاهره

للناس كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من أَصْلَح سريرته أصلح اللَّهُ تعالى علانيته.

وروى الإمام أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ قال: « **إن الْـهَدْيَ الصّالح والسَّمْت الصّالح والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءًا من النبوة**»[(١)] ورواه أبو داود.

فالصحابة - رضي الله عنهم - خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم. وقال مالك رضي الله عنه: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة - رضي الله عنهم - الذين فتحوا الشام يقولون: والله لهؤلاء خير من الحواريين فيما بلغنا، وصدقوا في ذلك فإن هذه الأمة معظمة في الكتب المتقدمة وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله ﷺ وقد نوّه الله تبارك وتعالى بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ولهذا قال سبحانه وتعالى ههنا: ﴿**ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاة**﴾.

ثم قال ﴿**وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ**﴾ أي فراخه ﴿**فَآزَرَهُ**﴾ أي شده ﴿**فَاسْتَغْلَظَ**﴾ أي شب وطال ﴿**فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ**﴾ أي فكذلك أصحابَ رسول الله ﷺ آزروه وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطء مع الزرع ﴿**لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ**﴾ ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمة الله عليه - في رواية عنه بتكفير الروافض الذين يبغضون الصحابة - رضي الله عنهم - قال: لأنهم يغيظونهم ومن غاظ الصحابة - رضي الله عنهم - فهو كافر لهذه الآية ووافقه طائفة من العلماء - رضي الله عنهم - على ذلك والأحاديث في فضل الصحابة - رضي الله عنهم - والنهي عن التعرض بمساويهم كثيرة ويكفيهم ثناء الله عليهم ورضاه عنهم.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم**﴾ (من) هذه لبيان الجنس ﴿**مَّغْفِرَةً**﴾ أي لذنوبهم ﴿**وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ أي ثوابا جزيلاً ورزقًا كريمًا ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل وكل من اقتفى أثر الصحابة - رضي الله عنهم - فهو في حكمهم ولهم الفضل والسبق والكمال الذي لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة

---

(١) **حسن**: انظر «صحيح الجامع» (١٩٩٣).

- رضي الله عنهم - وأرضاهم وجعل جنات الفردوس مأواهم وقد فعل[(١)].

ويحدِّثنا النبيُّ ﷺ عن تعاون أصحابه، وينبئنا عن فضلهم فيقول - كما روى أبو موسى الأشعريّ - عنه: «**إن الأشعريين[(٢)] إذا أرْمَلوا في الغزو[(٣)] أو قَلّ طَعَامُ عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوْبٍ واحد، ثم اقتسموا بينهم في إناء واحد بالسّوية فهم مني وأنا منهم**»[(٤)].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَبَعَثَ إِلَى نِسَائِهِ فَقُلْنَ: مَا مَعَنَا إِلَّا الْمَاء.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَنْ يَضُمُّ - أَوْ يُضِيفُ - هَذَا؟**»[(٥)].

فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْأَنْصَارِ: أَنَا.

فَانْطَلَقَ بِهِ إِلَى امْرَأَتِهِ فَقَالَ: أَكْرِمِي ضَيْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَتْ: مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوتُ صِبْيَانِي.

فَقَالَ: هَيِّئِي طَعَامَكِ وَأَصْبِحِي سِرَاجَكِ[(٦)] وَنَوِّمِي صِبْيَانَكِ[(٧)] إِذَا أَرَادُوا عَشَاءً.

فَهَيَّأَتْ طَعَامَهَا وَأَصْبَحَتْ سِرَاجَهَا وَنَوَّمَتْ صِبْيَانَهَا، ثُمَّ قَامَتْ كَأَنَّهَا تُصْلِحُ سِرَاجَهَا فَأَطْفَأَتْهُ فَجَعَلَا يُرِيَانِهِ أَنَّهُمَا يَأْكُلَانِ فَبَاتَا طَاوِيَيْنِ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**ضَحِكَ اللَّهُ اللَّيْلَةَ أَوْ عَجِبَ مِنْ فَعَالِكُمَا فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[(٨)] وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾**[(٩)] [الحشر: ٩].

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣٩٥، ٣٩٦).

(٢) قوم أبي موسى الأشعري رَضِيَ الله عَنْهُ.

(٣) **أرملوا في الغزو**: فني طعامهم.

(٤) رواه البخاري (٢٤٨٦)، ومسلم (٢٥٠٠).

(٥) أي: من يؤوي هذا فيضيفه؟

(٦) أي: أوقديه.

(٧) أي: علليهم بشيء.

(٨) **الخصاصة**: الفاقة.

(٩) رواه البخاري (٣٧٩٨)، ومسلم (٢٠٥٤).

أيها المسلمون...

ويتجلّى إيثار الصحابة في السّراء والضرّاء وحين البأس: اسمعوا إلى هذه القصّة:

عن حذيفة العدويّ، قال: انطلقتُ يومَ اليرموك[١] أطلبُ ابن عَمٍّ لي ومعي شيءٌ من ماء وأنا أقول: إن كان به رَمَقٌ سَقَيْتُهُ ومسحتُ به وَجْهَه، فإذا أَنَا بهِ، فقلت: أَسْقِيك؟ فأشار إليَّ أَنْ نَعَم. فإذا رجلٌ يقول: آه. فأشار ابْنُ عمّي إليّ أن انطلق به إليه، فجئتُه فإذا هو هشامُ بْنُ العاص[٢]، فقلتُ: أَسْقِيك؟ فسمع به آخر، فقال: آهٍ، فأشار هشامٌ: انطلق به إليه فجئتُه فإذا هو قَدْ مَاتَ. فَرَجَعْتُ إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابْنِ عمي فإذا هو قد مات[٣]!

مات الثلاثة، وبقيت شربةُ الماء.

أيها المسلمون...

ونحن اليوم لن نصل إلى هذا التعاون إلاّ إذا أخذنا بعدّة أسباب:

الأول: الاعتصام بحبل الله تعالى، ونبذ العصبية والفُرْقة..

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ* وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ* يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ* وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣- ١٠٧].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى- في تفسيره لهذه الآيات: قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا

---

(١) معركة فاصلة دارت رحاها بين المسلمين والروم في عهد أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - انتصر فيها المسلمون.

(٢) أخو عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٨).

بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ قيل ﴿بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ أي بعهد الله كما قال في الآية بعدها ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٨] أي بعهد وذمة وقيل ﴿بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني القرآن.

وقد ورد في ذلك حديث خاص بهذا المعنى فقال الإمام الحافظ أبو جعفر الطبري عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**»[١].

وقال عبد الله بن مسعود: إنّ هذا الصراط محتضر يحضره الشياطين: يا عبد الله هذا الطريق، هلم إلى الطريق فاعتصموا بحبل الله فإن حبل الله القرآن.

وقوله: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة. وقد وردت الأحاديث المتعددة بالنهي عن التفرق والأمر بالاجتماع والائتلاف كما في صحيح مسلم من حديث سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويسخط لكم ثلاثًا، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم، ويسخط لكم ثلاثًا: قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال**»[٢] وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا. وخيف عليهم الافتراق والاختلاف وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلمة من عذاب النار؛ وهم الذين على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣] إلى آخر الآية، وهذا السياق في شأن الأوس والخزرج فإنه قد كان بينهم حروب كثيرة في الجاهلية، وعداوة شديدة، وضغائن وإحن ودخول، طال بسببها قتالهم والوقائع بينهم، فلما جاء الله بالإسلام فدخل فيه من دخل منهم صاروا إخوانًا متحابين بجلال الله، متواصلين في ذات الله متعاونين على البر

(١) صحيح: رواه أحمد وابن جرير، وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٤٤٧٣).
(٢) أخرجه مسلم (١٧١٥).

والتقوى قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْـمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾(١) [الأنفال: ٦٢، ٦٣] إلى آخر الآية وكانوا على شفا حفرة من النار بسبب كفرهم فأنقذهم الله منها أن هداهم للإيمان، وقد امتن عليهم بذلك رسول الله ﷺ يوم قسم غنائم حنين فعتب من عتب منهم بما فضل عليهم في القسم بما أراه الله فخطبهم فقال: «**يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالًا فهداكم الله بي؛ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؛ وعالة فأغناكم الله بي؟**» فكلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمنّ.

وقد ذكر محمد بن إسحاق بن يسار وغيره: أن هذه الآية نزلت في شأن الأوس والخزرج. وذلك أن رجلاً من اليهود مرّ بملأ من الأوس والخزرج فساءه ما هم عليه من الاتفاق والألفة فبعث رجلاً معه وأمره أن يجلس بينهم ويذكرهم ما كان من حروبهم يوم بعاث وتلك الحروب ففعل فلم يزل ذلك دأبه حتى حميت نفوس القوم وغضب بعضهم على بعض وتثاوروا ونادوا بشعارهم وطلبوا أسلحتهم وتوعدوا إلى الحرة فبلغ ذلك النبي ﷺ فأتاهم فجعل يسكنهم ويقول: «**أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟**» وتلا عليهم هذه الآية فندموا على ما كان منهم واصطلحوا وتعانقوا وألقوا السلاح - رضي الله عنهم -.

وذكر عكرمة: أن ذلك نزل فيهم حين تثاوروا في قضية الإفك والله أعلم» (٢)ا.هـ.

السبب الثاني: النصيحة: المتمثّلة في الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر.

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيِّ ﷺ قال: «**المؤمنُ مرآةُ المؤمن، والمؤمنُ أخو المؤمن، يَكف عليه ضَيْعَتَه، ويحوطُه مِنْ وَرَائِه**»(٣).

السبب الثالث: إفشاء السّلام:

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبيّ ﷺ قال: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا،**

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٣، ٣٧٤) ط- المكتبة التوفيقية.

(٣) حسن: رواه أبو داود (٤٩١٨).

.. تؤمنون حتى تحابُّوا، ألا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفْشُوا السَّلام بينكم»[١].

وعن ابن الزبير – رَضِيَ الله عَنْهُ – أن رسول الله ﷺ قال: «دَبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم: البغضاءُ والحسدُ، والبغضاءُ هي الحالقة ليسَ حالقة الشَّعْر، ولكنْ حالقةُ الدِّين، والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنّة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ألا أُنبِّئُكُمُ بما يُثْبِتُ لكم ذلك، أفْشُوا السَّلام بينكم»[٢].

السبب الرابع: مواساة المحتاجين، والسّعي في تفريج الكرب عن المكروبين:

والأحاديث الواردة في فضل ذلك مشهورة ومنشورة.

قصة: قضى ابن شبرمة حاجة لبعض إخوانه كبيرة، فجاء بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسْدَيْتَه إليّ. قال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أَخَاك حاجةً فلم يجهد نفسه في قضائها، فتوّضأ للصّلاة وكَبِّر عليه أربع تكبيرات، وعدّه في الموتى[٣].

السبب الخامس: النظر في سِيَرِ أهل الإيثار: وقد تقدّم بعض ذلك.

نسأل الله – تعالى – التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصّلاةُ والسلامُ على مَنْ لا نبيّ بعده، سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

فقد ذكرتُ خمسة أسباب، بتحقيقها في الواقع المعاشي، تثمر تعاونًا على البر والتقوى.

وعندما ترى هذه الأسبابُ النور، يسعد المجتمع دنيا وآخرة، وصدق الله العظيم

(١) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

(٢) قال المنذريّ في «الترغيب» (٣٨٥٧) : رواه البزّار بإسناد جيد.

(٣) «إحياء علوم الدين» (٢/ ١٧٥) .

إذ يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨].

اللّهم أعِنّا على ذِكْرِك، وشكرك، وَحُسْنِ عبادتك

الخطبة العاشرة

الدُّنْيا لأربعةِ نَفَر

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فقد روى الترمذيُّ وأحمد وغيرهما - بإسناد صحيح -:

عَنْ أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ - رضي الله عنه - أنه سَمِعَ رسولَ الله ﷺ يَقُولُ: «ثَلَاثٌ أُقْسِمُ عَلَيْهِنَّ، وَأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ».

قَالَ: «مَا نَقَصَ مَالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقَة، وَلَا ظُلِمَ عَبْدٌ بِمَظْلَمَةٍ صَبَرَ عَلَيْهَا إِلَّا زَادَهُ اللَّهُ عِزًّا، ولا فتح عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْه بَابَ فَقْرٍ» - أو كلمة نحوها - «وأُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا فَاحْفَظُوهُ».

قَالَ: «إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةِ نَفَرٍ:

عَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ ﷻ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ عِلْمًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا فَهُوَ صادقُ النيَّة يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالاً لعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فهو بنيّته فأجرُهما سواء.

وَعَبْدٌ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا، يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، ولَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ.

وَعَبْدٌ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّهُ مَالًا، وَلَا عِلْمًا، فَهُوَ يَقُولُ: لَوْ كَانَ لِي مَالٌ لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ، فهِيَ بنيَّتِه، فَوِزْرُهُمَا سَوَاء»[1].

حديث عظيم الشأن، ينبغي على كل مسلم أن يجعله نصب عينيه، فها هوذا النبيُّ ﷺ يُقْسِمُ - وهو الصادق المصدوق - وهو الصادق بغير قَسَم، لأنه كما قال ربّهُ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣].

يُقسمَ ﷺ فيقول: «ثلاثٌ أقسم عليهن: ما نَقَصَ مالُ عَبْدٍ مِنْ صَدَقة»:

وَقَسَمُ النبيّ ﷺ هذا: إعلان حرب على شح الأنفس، ودعوة إلى تطهيرها من داء البخل. وفي هذا الفلاح والنجاح.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

كما أنه دعوة إلى تجارة لن تبور، بل تزيد: قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية - ما مختصره -:

هذا مثل ضَرَبَه اللَّهُ تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق في سبيله وابتغاء مرضاته، وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، فقال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ

(١) صحيح: رواه الترمذي (٢٣٣٢)، وصحّحه الألباني.

فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾.

قال سعيد بن جبير: يعني في طاعة الله. وقال مكحول: يعني به الإنفاق في الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك. وقال ابن عباس: الجهاد والحجّ يضعّف درهم فيهما إلى سبعمائة ضعف[١]؛ لهذا قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ﴾ وهذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمّيها اللَّهُ ﷻ لأصحابها، كما يُنَمّى الزَّرْع لِمَنْ بَذَره في الأرض الطيّبة، وقد وردت السُّنة بتضعيف الحَسَنة إلى سَبْعمائة ضعف.

عن خريم بن فاتك - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ أَنْفَق نفقةً في سبيل الله كُتِبَتْ بسَبْعِمائة ضِعْف**»[٢].

وقوله تعالى هنا: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ ﴾ أي: بحسب إخلاصه في عمله ﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: في فضله واسع كثير أكثر من خلقه، عليم بمن يستحق ومن لا يستحق، سبحانه وبحمده»[٣] ا.هـ.

والقَسَم الثاني: «ولا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلَمة صَبَر عليها إلاّ زاده اللَّهُ عِزًّا»:

دعوة إلى كظم الغيظ، والعفو عن الناس: وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، من صفات المتقين: قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤].

وقد بيّن النبيُّ ﷺ فضل كظم الغيظ في أحاديث منها:

عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا مِنْ جُرْعة يتجرّعها العبدُ خَيْرٌ له وأَعْظم**

(١) قال السّعديّ: قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ الله ﴾ أي: في طاعته ومرضاته، وأولاها إنفاقها في الجهاد في سبيله» ا.هـ. «تفسير السعدي» (١١٣) . قلت: وهذا التفسير يجمع بين الأقوال المتقدمة.

(٢) **صحيح**: رواه النسائي، والترمذي، وقال: حسن. وانظر: «صحيح الجامع» (٦١١٠).

(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٧٢- ٤٧٤) باختصار.

أَجْرًا من جُرْعة غيظ في الله»[١].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهنيّ عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال: **«من كَظَم غَيْظًا وهو يستطيع أَنْ ينفذه، دعاه اللَّهُ يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يُخَيِّره في أَيْ الحورِ شاء!»**[٢].

وَرُوِيَ عن ميمون بن مِهْران أن جاريته جاءت ذات يوم بصحفة فيها مرقة حارّة، وعنده أضياف فعثرت فصبّت المرقة عليه، فأراد ميمون أن يضربها، فقالت الجارية: يا مولاي، استعمل قول الله تعالى: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الغَيْظَ﴾ قال لها: قد فعلت. فقالت: اعمل بما بعده: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. فقال: قد عفوتُ عنك. فقالت الجارية: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال ميمون: قد أحسنتُ إليك، فأنت حرّة لوجه الله تعالى[٣].

عباد الله...

فإذا اتصف المسلم بصفة الصّبر عن وقوع ظُلْم عليه، زاده اللَّهُ – تعالى – عزًّا.

قالِ العرجي:

وإذا غَضبتَ فكن وَقُورًا كاظمًا ... للغيظ تَبْصُر ما تقول وَتَسمع

فكفى به شرفًا تَصَبُّر ساعةٍ ... يَرْضَى بها عنك الإلهُ وَتُرْفع

والقَسَم الثالث: «ولا فتح عَبْدٌ بَابَ مَسْأَلَةٍ إلاّ فتح اللَّهُ عليه بابَ فَقْر».

تحذير من التسوّل، ودعوة إلى صيانة الوجه عن ذلّ السؤال.

أيها المسلم...

لا تَحْسَبَنّ الموت مَوْت الْبِلَى ... فإنّما الموت سُؤال الرّجال

كلاهما مَوْتٌ ولكن ذا ... أشدّ من ذاك لذلّ السؤال

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤١٨٩)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح، رجاله ثقات.

(٢) حسن: رواه أحمد وابن ماجه والترمذي (٢٤٩٣)، وقال: حسن غريب.

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٩٦).

ولقد كان سلفنا الصّالح - رضوان الله عليهم - يعدّون المسألة ذُلاً للنفس، ومنقصة للكرامة، وإخلالاً للمكانة.

قال منصور بن المعتمر - رحمه الله -: «إن الرجل لَيَسْقِني الشّربة من الماء فَيَدُقّ بها ضِلَعًا من أضْلاعي!»[١].

هذا، وقد تكاثرت النُّصُوص النبويّة الداعية إلى القناعة والاستعفاف، ومنها:

عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَزَلت به حَاجَة فأنزلها بالله ﷻ، أَوْشَكَ أن يأتيه اللّهُ إمّا عَاجلاً أو آجلاً**»[٢].

وعن هلال بنِ حصن، قال: أتيتُ المدينة فنزلتُ دارَ أبِي سعيد فَضَمَنَّي وإيّاه مجلسُ فَحدث أنّه أصبح ذات يومٍ وليس عنده طعامٌ، وأصبح قد عصب على بطْنِهِ حَجَرًا من الجوع، قال: فقالت امرأَتي: ائْت النبيَّ ﷺ فَسَلْهُ، فقد أتاه فلانٌ فأعطاه، وأتاه فلانٌ فأعطاه، فأبَيْتُ، وقلتُ: حتى ألْتمس شيئًا، فذهبتُ أطْلب فَانْتَهيتُ إلى النبيّ ﷺ وهو يخطب ويقول: «**مَنْ يَسْتَعففْ يُعفه اللهُ، ومن يَسْتَغْنَ يُغْنه اللهُ، وَمَنْ سَأَلنا شيئًا فَوَجَدْناه أَعْطَيْنَاهُ، وَوَاسَيْنَاه، ومن اسْتَعفَّ عَنّا واسْتَغْنى فهو أَحَبَّ إلَينا مِمَّن سَأَلنا**»، قال: فرجعتُ وما سألتُ شيئًا، فرزقنا اللّهُ تعالى حتى ما أَعْلَم أَهْل بَيْتٍ من الأنصار أكثر أموالاً مِنّا[٣].

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ نَزِلت به حَاجَة، فأنزلَها الناسَ لم تسدّ فَاقته، فإن أنزلها بالله أوشك اللّهُ بآجل حَاضر، أو رزقٍ عَاجِل**»[٤].

فيا أخا الإسلام:

لا تخضعنّ لمخلوق على طَمَع ... فإن ذاك مُضرَ منك بالدّين

واسترزق الله مِمّا في خَزَائِنِه ... فإنّما هي بَيْن الكافِ والنّون

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفف» (٣٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد (١/ ٤٤٢).

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٤).

(٤) صحيح: رواه ابن أبي الدنيا في «القناعة والتعفُّف» (٨٠)، وأحمد بنحوه، وغيرهما.

ومن الآثار: قيل لأبي أسيد الفزاريّ: من أين تعيش؟ فكبّر الله وحمده، وقال: يرزق الله القرد والخنزير، ولا يرزق أبا أسيد:

إن المقاديـــر لا تـــناولها الأوهـــام لطفًـــا ولا تـــراها العـــيون

ســـيجري علـــيك مـــا قَـــدّر الله ويأتـــيك رزقُـــك المـــضمون

وقال سفيان الثوري - رحمه الله -: «اتق الله، فما رأيتُ تَقيًّا مُحْتَاجًا».

قلت: وهذا القول منتزع من قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فتسربل برداء القناعة، واعلم أن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها.

عباد الله...

ثم يقول الصادقُ المصدوق - صلواتُ ربي وسلامُه عليه -: «**وأُحدِّثكم بحديث فاحفظوه: إنما الدنيا لأربعة نفر:**

عبدٌ رزقه اللَّهُ مالاً وعلمًا، فهو يَتَّقي فيه رَبَّه، ويَصِلُ فيه رَحِمه، ويعلمُ لله فيه حَقًّا».

أين مكانه يا رسول الله؟

«**فهذا بأفضل المنازل**».

فالغني ليس مذمومًا لذاته، شريطة أن يكون محروسًا بالعلم، مصونًا بالتقوى، متوّجًا بالإنفاق.

عن سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله ﷻ يُحبُّ العبدَ التَّقيَّ الغَنيّ الخَفِيّ**»[(١)].

وعن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**نِعِمَّا المالُ الصّالح للرّجُلِ الصّالح**»[(٢)].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد ومسلم.

(٢) **صحيح**: رواه أحمد والطبراني، وقال الحافظ العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء (٣/ ٢٣٤): إسناده صحيح.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الدُّنيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، فَمَنْ أخذَها بِحَقِّها بارك اللَّهُ له فيها، وَرُبَّ مَتَخَوِّضٍ فِيما شاءتْ نَفْسُهُ لَيْس له يَوْم القيامة إلا النَّارُ**»[1].

وعن حكيم بن حزَام - رضي الله عنه - قال: سألتُ رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم قال: «**يا حَكيمُ، هذا المالُ خَضِرٌ حُلْوٌ، فَمَنْ أَخَذَه بسخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فيه، وَمَنْ أَخَذَه بإشْراف نَفْسٍ لَـمْ يُبَارَكْ له فيه، وكان كالذي يأكلُ ولا يَشْبَعُ، واليدُ العُلْيا خَيْرٌ من الْيَد السُّفْلى**»[2].

فالإسلام ليسَ عدوًّا للغنى كما يشاع! كيف؟ وبه:

يُصان الوجه عن ذلّ السّؤال. وتقضى به المصالح، وتجهزّ به الجيوش، وتداوى به الأجسام، وهو أحد أسباب تفريج الكروب. ويستغنى به عن اللئيم، وينال به أعلى المنازل كما في الحديث.

وقد كان أيوب السختياني - رحمه الله - يقول: «الْزَمِ السّوق، فإن الغِنى مِنَ العافية»[3].

إنما ذَمَّ الإسلام الغِنى الذي كُوِّن من سُحْتٍ، وأُنفق إسرافًا وبدارًا، وتقرّب صاحبه به إلى الشيطان.

والعبدُ الثاني: «وعبدٌ رزقه اللَّهُ عِلْمًا ولم يرزقه مالاً، فهو صادق النيّة، يقول: لو أن لِي مالاً لعملتُ بعمل فلان - يعني بعمل الغني العالم - فهو بنيّته فأجْرُهما سواء».

ما هو العلم؟

العلم: معرفة الحق بدليله. فكل إنساني يدّعي أنه على الحق.. فهل نسلّم له.. لا.. إلاّ إذا أتى بدليل من كتاب الله أو من سُنّة رسول الله ﷺ أو منهما معًا.

(١) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٤١٠).
(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.
(٣) «حلية الأولياء» (٣/ ١٠).

والعلم بالله، يجعل الإنسان ينظر إلى باطن الدنيا حين ينظر الناسُ إلى ظاهرها.

فقارون عندما اغْتَرّ بماله، و: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [القصص: ٧٩].

ماذا قال أهل العلم؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَّ الصَّابِرُونَ﴾ [القصص: ٨٠].

وهذا العالِمُ الذي لم يؤته الله مالاً، أخذ أجر الغنيّ العالِم بحسن نيّته.

والعبد الثالث: «وعبد رزقه اللَّهُ مالاً ولم يرْزقه عِلْمًا».

فماذا يفعل الغِنى مع الجهلة؟

يقول ﷺ: «**يخبِطُ في ماله بغير عِلْم، ولا يتَّقي فيه رَبَّه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقًّا**».

فأين مكان هذا المنحوس؟

فهذا بأخبث المنازل.

هذا مكان كلّ من استخدم نِعم الله تعالى في محاربة المُنْعِم - سبحانه وتعالى -.

وهذا جزاء الأغنياء الذين أعماهم غناهم عن رؤية الآخرة، ودفعهم إلى الْبَطَر والأَشَر والإسراف، وفعل المعاصي وارتكاب الموبقات.

وهذا جزاء من قطع بسبب غناه الأرحام، ومنع الزكاة والصدقات عن المساكين والفقراء وأهل الحاجات.

والعبد الرابع: «ولم يرزقه الله مالاً ولا علمًا».

اجتمع عليه بلاءان: بلاءُ الفقر، وبلاء الجهل، فما هي أمنية هذا الفقير الجهول؟

يقول ﷺ: «**فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان** - أي: بعمل الغنى الجاهل - **فهو بِنِيَّته فوْزرُهما سواء**».

فانظر - يا أخي - كيف هبط هذا الفقيرُ الجاهل بسبب سوء نيّتِهِ وخبثَ طويّته إلى أخبث المنازل.

إن الله يرفعَ بحسن النوايا أهلَ الإخلاص إلى أفضل المنازل. ويضع بسوءِ النوايا أهل الشر إلى أخبث المنازل.

فأحسنوا نيّاتكم، وأصلحوا أعمالكم، وطهّروا سرائركم، واعلموا أن سفر الدنيا يقطع بالأقدام، وسَفَر الآخرة يُقْطع بالقلوب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبيّ بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد..

فقد علم الصالحون قَدْرَ الصَّدقات، وأَثَرَها في تطهير النفس وتزكيتها، ورفع قدر العبد بها، فكان من أمرهم العجب العجاب.

وهذه بعضُ أحوالهم:

جاء سائلٌ إلى «شُعْبة بن الحَجّاج» وليس عنده شيءٌ، فنزع خشبة من سقف بيته ثم اعتذر إليه[1]!!

ودخل سائل يومًا على «معروف الكرْخِي» فلم ير عنده ما يعطيه غير نعله، فأعطاه إيّاه، ثم بلغ معروفًا بعد ذلك أنه - أي السائل - باع النّعل واشترى بثمنها فاكهة، فقال معروف: «الحمد لله، لعلّه كان يشتهي الفاكهة فواسيناه بثمنها».

وقال عباس بن دَهْقَان: ما خرج أحد من الدُّنْيَا كما دَخَلَها إلاّ بِشْر بن الحارث، فإنه أتاه رجلٌ في مرضه فشكا إليه الحاجة، فنزع قميصه وأعطاه إيّاه، واستعار ثوبًا فمات فيه!!

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٢٧٣).

«اللّهم اقذف في قلوبنا رجاءك، واقطع رجاءنا عمّن سواك، حتى لا نرجو أَحَدًا غَيْرَك، فأنت مَوْلاَنا، ووليُّنا في الدنيا والآخرة، يا ذا الجلال والإكرام».

اللّهُمَّ ارْزُقنا حَلالاً من غير كَدٍ، ولا كِبْرٍ، ولا مَنٍّ مِنْ أحَدٍ

ولا عارٍ في الدنيا، ولا مَنْقَصَةٍ في الآخرة

۞۞۞۞۞

الخطبة الحادية عشرة

أسباب رحمة الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فإن الرحمة سببٌ واصلٌ بين الله وبين عباده، وبها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه. وبها هداهم، وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده:

نعمة الإيجاد والإمداد: فالله تعالى: خلق ورزق. قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود: ٦].

فما دام أجلك باقيًا، فإن رزقك آتٍ.

قِصّة:

كان أبو الحسن البصري النحوي - رحمه الله - يأكل يومًا مع بعض أصحابه طعامًا، فجاء قطّ، فرموا له شيئًا فأخذه وذهب سريعًا ثم أقبل، فرموا له شيئًا أيضًا فانطلق به سريعًا ثم جاء فرموا له شيئًا أيضًا، فعلموا أنه لا يأكل هذا كله، فتبعوه فإذا هو يذهب به إلى قطّ آخر أعمى في سطح هناك، فتعجبوا من ذلك، فقال الشيخ:

«يا سبحان الله، هذا حيوان بهم قد ساق الله إليه رزقه على يد غيره أفلا يرزقني وأنا عبده وأعبده!»[١].

ومن مظاهر رحمة الله تعالى بعباده:

نعمة الهداية: هداية الدَّلالة، وهداية التوفيق والإعانة:

قال تعالى: ﴿**أَوَ مَن كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٢].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لهذه الآية: «هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتًا أي في الضلالة هالكًا حائرًا فأحياه الله أي: أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ووفّقه لاتباع رسله ﴿**وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ**﴾ أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرّف به، والنور: هو القرآن كما قال ابن عباس، وقال السُّدِّي: الإسلام، والكلّ صحيح ﴿**كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ**﴾ أي: الجهالات والأهواء والضلالات المتفرّقة ﴿**لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا**﴾ أي: لا يهتدي إلى منفذ ولا مخلص مما هو فيه.

وفي مسند الإمام أحمد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله خَلَق خَلْقه في ظُلْمة، ثم رَشّ عليهم مِنْ نوره، فمن أصابه ذلك النور اهْتَدى، ومن أخْطَأَه ضَلّ**»[٢].

وقوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ أي: حسّنا لهم ما كانوا فيه من

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٦٠٠).

(٢) **صحيح**: صححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤/ ١٧٦٤).

حبيئة والضلالة قدرًا من الله وحكمة بالغة لا إله إلّا هو وحده لا شريك له»[1] ا.هـ.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى:

إمهال العصاة:

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً ﴾ [فاطر ٤٥].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا ﴾ يعني من الذنوب. ﴿مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ قال ابن مسعود: يريد جميع الحيوان ممّا دَبّ وَدَرَج.

قال قتادة: وقد فُعل ذلك زمن نوح - عليه السلام -.

قال ابن مسعود: كادَ الْجُعَل أن يُعَذب في جُحْره بذنب ابن آدم.

وقال يحيى بن أبي كثير: أمر رجل بالمعروف ونهى عن المنكر، فقال له رجل: عليك بنفسك؛ فإن الظالم لا يضرّ إلاّ نفسه. فقال أبو هريرة: كذبت؟ والله الذي لا إله إلاّ هو - ثم قال - والذي نفسي بيده إن الحُبَارَى لتموتُ هُزْلاً في وَكْرها بِظُلْم الظالم.

وقال يحيى بن سلام - في هذه الآية -: يحبس الله المطر فيهلك كُلُّ شيء.

﴿وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾.

قال مقاتل: الأجل المسمى هو ما وعدهم في اللوح المحفوظ.

وقال يحيى: هو يوم القيامة. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ ﴾ أي: بمن يستحق العقاب منهم ﴿بَصِيراً ﴾»[2] ا.هـ.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى:

أنْ شَرَعَ التوبةَ، وَقَبِلَها. ثم جعلها ماحية لما سلفَ من الذنوب:

قال تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٧٦١، ٧٦٢) باختصار.

(٢) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٢٣) باختصار.

يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً ﴾ إلى آخر الآية..

قال: دعا الله تعالى إلى مغفرته من زعم أن المسيح هو الله ومن زعم أن المسيح هو ابن الله ومن زعم أن عزيرًا ابن الله ومن زعم أن الله فقير ومن زعم أن يد الله مغلولة ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٤]. ثم دعا إلى التوبة من هو أعظم قولاً من هؤلاء، من قال أنا ربكم الأعلى وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - من آيس عباد الله من التوبة بعد هذا فقد جحد كتاب الله ﷻ، ولكن لا يقدر العبد أن يتوب حتى يتوب الله عليه»[1] ا.هـ.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى - بهذه الأمة: وضع عنها إصرها والأغلال التي كانت عليها. خفّف الأحكام عليها مراعاة للأحوال والظروف. فمن ذلك:

أ- قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ القِصَاصُ فِي القَتْلَى الحُرُّ بِالحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَى بِالأُنثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٧٨].

ب- وقال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ القُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

جـ- وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [النساء: ١٠١].

د- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: بينما النبيُّ ﷺ يخطب، إذا هو برجل

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٦١).

قائم في الشمس، فسأل عنه، قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أن يقوم، ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلّم، ويصوم، قال: «مُرُوهُ فليتكلّم، وَلْيَسْتَظِلّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمّ صَوْمَهُ»(١).

هـ- وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه -: أن رسول الله ﷺ رأى رَجُلاً يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْه في الحج، فسأل عنه، فقالوا: نَذَر أن يمشي، فقال: «إنّ الله لغنيٌّ عن تعذيب هذا نَفْسَهُ» وأمره أن يَرْكَبَ(٢).

والأدلة في هذا المقام كثيرة.

وبالجملة: فالشريعة كلّها مبنية على الرحمة في أصولها وفروعها.

ومن مظاهر رحمة الله تعالى:

إرساله محمدًا ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ* فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨، ١٢٩].

هذا، وما حجب الله - تعالى - من رحمته أكثر وأكبر مما أنزل: عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «جَعَلَ اللَّهُ الرحمةَ مائةَ جُزْءٍ، فأَمْسَكَ عنده تسعةً وتسعين، وأنزل في الأرض جُزْءًا واحدًا، فمِنْ ذلك الجزء تتراحمُ الخلائقُ حتى ترفع الدّابةُ حَافِرَها عن ولدِها خشيةَ أن تُصِيبَه»(٣).

عباد الله..

وقد وجّه الإسلامُ الأمرَ إلى أهله بالتراحم فيما بينهم، وأوصاهم بذلك، وحثّهم عليه. وبين الإسلامُ أن ما أصاب المسلمين من ذلّ وشقاق وخلاف وأمراض، إنما سببه جفاف منابعُ الرحمةِ من قلوبهم. وهذه بعض الأحاديث الدالة على ذلك.

---

(١) صحيح: رواه البخاري، وأبو داود (٣٣٠٠).
(٢) صحيح: رواه البخاري ومسلم، وأبو داود (٣٣٠١).
(٣) رواه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢) واللفظ له.

عن النّعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادِّهم وتعاطُفهم كمثل الْـجَسَد إذا اشتكى عُضْوٌ تداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَر والحُمَّى»(١).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النبيّ ﷺ فقال: تُقَبِّلُونَ الصِّبْيَان فما نُقَبِّلُهُم، فقال النبيُّ ﷺ: «أَوَ أَمْلِكُ لك أنْ نَزَعَ اللَّهُ من قَلْبِك الرّحمة»(٢).

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إذا باع، وإذا اشْتَرَى، وإذا اقْتَضَى»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارْحَمُوا أَهْلَ الأرضِ يرحمكم مَنْ في السّماء»(٤).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: سمعت أبا القاسم ﷺ يقول: «لا تُنْزَعُ الرّحْمةُ إلاّ مِنْ شَقِيٍّ»(٥).

وعن جرير بن عبد الله - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لاَ يَرْحَمُ الله من لاَ يَرْحمُ النّاس»(٦).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لن تؤمنوا حتى تَرْحموا». قالوا: كلّنا رحيمٌ يا رسول الله، قال: «إنه ليس برحمةِ أحدِكم صاحِبَهُ، ولكنَّها رَحْمَةُ النَّاسِ، رحمةُ العامَّة»(٧).

عباد الله..

إن الذلَّ الذي غشينا، والبلاءَ الذي أحاط بنا، والهمَّ الذي رَكِبَنا، لن يُرفع إلاّ

---

(١) رواه البخاري (٦٠١١) واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٦).

(٢) رواه البخاري (٥٩٩٨)، ومسلم (٢٣١٧).

(٣) رواه البخاري (٢٠٧٦).

(٤) صحيح بشواهده: رواه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤).

(٥) حسن: رواه الترمذي (١٩٢٣)، وأبو داود (٤٩٤٢) وحسّنه الألباني.

(٦) رواه البخاري (٧٣٧٦)، ومسلم (٢٣١٩).

(٧) قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٤٥٣): أخرجه الطبراني ورجاله ثقات.

حسن الذلّ لله - تعالى - والانكسار لَه.

قِصَّة:

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «قحط الناس أيام القاضي منذر البلوطي - رحمه الله - قاضي قضاة الأندلس فأمر الملك أن يستسقي للناس، فلما جاءته الرسالة مع البريد قال لحاملها: كيف تركْتَ الملك؟ قال: تركته أخشع ما يكون وأكثره دعاءً وتضرعًا فقال: سقيتم والله وإذا خشع جبارُ الأرض رحمه جبارُ السماء. ثم قال لغلامه: ناد في الناس: الصلاة، فجاء الناس إلى محل الاستسقاء وجاء القاضي منذر فصعد المنبر والناس ينظرون إليه ويسمعون ما يقول، فلما أقبل عليهم كان أول ما خطبهم به قال: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤]، ثم أعادها مراراً فأخذ الناس في البكاء والنحيب والتوبة والإنابة فلم يزالوا كذلك حتى سقوا ورجعوا يخوضون في الماء»[(١)].

فانكِسروا لله - يرحمكم الله - حتى يرفع الله عنّا الغمّة، ويفرّج ما ألمّ بنا من كَرْب.

وهاهو ذا ربّكم - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿فَلَوْلاَ إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَـهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

أسأل الله أن يرزقنا قلوبًا خاشعة وأبدانًا للحق خاضعة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فقد بان لنا - فيما تقدم - الطريق إلى رحمة الله.. ويمكننا إجمال ما تقدم في جملة واحدة وهي: «تحقيق العبودية لله تعالى».

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٣٦٩).

والعبادة: اسمٌ جامع لكل ما يحبّه الله ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة. فهيّا - معشر المسلمين - إلى تحقيق العبودية لله وحده، فهذا هو طريق السعادة الأبدية.

أمّا التمّرد على الله، فلا يجني العاصي منه إلاّ تعاسة الدارين، وذلّ الحياتين ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

اللهّم أحسن عاقبتنا في الأمور كلّها

وأجِرْنا من خِزْيِ الدنيا وعذاب الآخرة

الخطبة الثانية عشرة

من دروس الإسراء والمعراج

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمّا بعد..

فإن حادث الإسراء والمعراج فيه دروس كثيرة، نذكر منها درسًا واحدًا لم يأخذ حظّه عند المصنّفين والمتحدِّثين. هذا الدرس العظيم هو: «**تصْديقُ النّبيِّ ﷺ فيما أَخْبَرَ**».

وتصديق النبي ﷺ فيما أخبر: دليل على إيمان عميق، وتقوى راسخة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٣٣].

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم - رحمه الله تعالى -: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ﴾ هو

رسول الله ﷺ ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ قال: المسلمون[1].

ما لهم يا رب؟

﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الزمر: ٣٤، ٣٥].

لمّا أُسري برسول الله ﷺ من مكّة إلى بيت المقدس، ثم عُرج به منه إلى السموات العلى، ثم إلى سدرة المنتهى: ﴿عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى* مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى* لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٥-١٨].

ثم عاد في نفس اللّيلة، صدّقه المسلمون وكذّبه المشركون.

والتصديق - أيها المسلمون -: أوّل درجات الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

فأوّل درجات الإيمان: تصديقُ النبيِّ ﷺ فيما أخبر، وإن كان فوق قدرة العقل، لأن الإيمان لا يكون إلاّ بشيء غيبيّ. ومن هذا المنطلق، قال علماؤنا: «لا اجتهادَ في مَوْرد النّص»، وقالوا: «إذا صحَّ الأثرُ، بَطَلَ النَّظَرُ».

فالنّص - إذا صحّ - حاكم على العقل. وعلى كل حال: لا يتعارض نقلٌ صريح مع عقلٍ صحيح.

ولذلك نجد من أنكر نصوصًا صحيحةً من السّنة - كالنصوص التي أخبرت بنزول عيسى ابن مريم - عليه السلام - آخر الزمان، كالنصوص التي أخبرت بظهور الدجّال والمهدي المنتظر، وأثبتت عذابَ القبر ونعيمَه، وأثبتت حدَّ الرِّدة على المرتدّ، وحدَّ الرّجمِ على الزاني المُحْصَن، بحجّة أنها أحاديث آحاد لم تبلغ حدّ التواتر، وأتوا باعتراضات تُضْحك الثكلى، وهؤلاء أوتوا من قِبَلِ فهمهم، وعليهم أن يعيدوا حساباتهم. بل عليهم أن يجدّدوا إيمانهم[2]، لأن الإيمان يَبْلَى في الصُّدور. لماذا؟ لأن

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٥٥).

(٢) عن أبي هريرة قال: قال رسولُ الله ﷺ: «جَدِّدوا إيمانكم» قيل: يا رسول الله، وكيف نجدِّد =

حديث الآحاد: حُجّة بنفسه في العقائد والأحكام[١].

عباد الله...

لّما حسُنَ إسلامُ الصّحابة، وَصَحَّ إيمانُهم، أيقنوا بصدق ما جاء به النبيُّ ﷺ وصدَّقوا بكل ما قال بلا ريب، والأدلة على ذلك أكثر من أن تُحصى.

ونكتفي - هنا - بذكر قصتين:

القصة الأولى: قصَّةُ إسلام عَدِيّ بْنِ حَاتِم الطّائي رضي الله عنه:

قال ابْنُ الأثير - رحمه الله تعالى -: «وفد عَدِيٌّ على النبي ﷺ سنة تسع في شعبان، وقيل: سنة عشر، فأَسلم وكان نَصْرَانيًا.

أخبرنا أبو الفضل عبد الله بن أحمد بن عبد القاهر، أخبرنا أبو محمد جعفر بن أحمد القارئ، أخبرنا علي بن المحسن التنوخي، حدثنا عيسى بن علي بن عيسى بن داود، أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، حدثنا إسحاق بن إبراهيم المروزي، حدثنا حماد ابن زيد، عن أيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي عُبَيْدَة بن حُذَيْفة، قال: كنت أسأَل عن حديث عَديّ بن حاتم، وهو إلى جنبي، فقلت: ألا آتيه فأَسْأَله؟ فأَتيته فسأَلته، فقال: بُعِث رسول الله ﷺ حين بُعِثَ، فكَرِهْتُه أشدَّ ما كَرِهْتُ شيئًا قط، فانطلقت حتى إذا كنت في أقصى الأرض مما يلي الروم، فكَرِهْت مكاني ذلك مثلما كرهته أو أشد، فقلت: لو أتيتُ هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يَخْفَ عليّ، وإن كان صادقاً اتبعتُه؟ فأقبلتُ، فلما قدمت المدينة اسْتَشْرَفني الناسُ وقالوا: عديُّ بن حاتم! عدي بن حاتم!

فأتيته، فقال لي: «**يا عَدِيُّ بن حاتم، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**». قلت: إن لي دينًا. قال: «**أَنَا أَعلم بدينِك منْك**». قلت: أَنت أَعلم بديني مني؟ قال: «**نعم**»، مرتين أو ثلاثًا، قال: «**أَلست ترأَس قومَكَ؟**» قال، قلت: بلى. قال: «**أَلَسْتَ رَكُوسِيًّا؟ أَلست تأْكل المِرْبَاع؟**» قلت: بلى. قال: فإن ذلك لا يَحِلّ في دينك. قال: فَتَضَعْضَعْتُ لذلك، ثم قال: «**يا عَدِيُّ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ**».

= إيماننا؟ قال: «أكثروا من قول: لا إله إلا الله». رواه أحمد، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢١٨٥): إسناد أحمد حسن.

(١) للشيخ الألباني - رحمه الله - رسالة لطيفة بهذا العنوان، فانظرها للأهمية.

قال: قد أَظُنُّ - أَوْ: قَدْ أَرى، أَوْ: كَمَا قال رسول الله ﷺ: «**أنه ما يمنعك أَنْ تُسْلِمَ إلا غَضَاضَةٌ تراها مِمَّنْ حَوْلِي، وإنك ترى الناس علينا إلْبًا واحدًا**». قال: «**هل أَتيت الحيرة**»؟ قلت: لم آتها، وقد علمت مكانها، قال: «**يوشك الظَّعِينَةَ أَنْ تَرْتَحِل من الحِيرَة بغير جوَار، حتى تطوف بالبيت، ولتُفْتَحنَّ علينا كنوز كِسْرَى بن هُرْمُز**». قال: قلت: كِسْرَى بن هُرْمُز! قال: «**كسرى بن هُرْمُز**»، مرتين أو ثلاثًا، «**وَلَيَفِيضَنَّ المال حتى يُهِمَّ الرجل من يقبل صدقته**».

قال عدي: قد رأَيت اثنتين: الظَّعِينةُ تَرْتَحِل بغير جوَار حتى تطوف بالبيت، وقد كنت في أول خيل أَغارت على كنوز كسرى بن هرمز؛ وأَحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله ﷺ[1]»[2].

فانظر - **أيها المسلم** - إلى يقين عديّ رضي الله عنه وهو يقول: «وأحلف بالله لتجيئن الثالثة أنه قال رسول الله ﷺ».

وفي رواية: «والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول الله ﷺ قالها».

القصّة الثانية: قِصَّةُ دعاءِ النبيِّ ﷺ لأنس رضي الله عنه:

يُحدِّثنا أنس بن مالك عن يوم مبارك حدث في حياته فيقول:

قدم رسولُ الله ﷺ المدينة وأنا ابنُ ثماني سنين، فأخَذَتْ أُمِّي بيدي، فانطلقت بي إليه فقالت: يا رسول الله لم يبق رجلٌ ولا امرأة من الأنصار إلاّ وقد أتحفك بتُحفة وإني لا أَقْدرُ على ما أتحفك به إلاّ ابني هذا، فخُذْه، فليخدُمك ما بدا لك.

وفي رواية لمسلم: قالت: يا رسول الله! هذا «أُنَيْسٌ» ابني أتيتك به يخدُمك، فادع الله له. فقال: «**اللّهم أكْثر مالهُ وولَدَهُ**». فوالله إنَّ مالي لكثير، وإن ولدي وولد ولدي يتَعادُّون على نحو من مائة اليوم!!

---

(١) رواه أحمد (٤/ ٢٥٧) ، والدارقطني (٢/ ٢٢١) ، والبيهقي في «الدلائل» (٥/ ٣٤٣) ، ورواه أحمد أيضًا (٤/ ٣٧٧) ، وابن حبان (٦٦٧٩- الإحسان) ، وغيرهم وإسناده صحيح أو حسن.
ومِرْباع القوم: ربع غنائمهم. والظعينة: هي المرأة في الهودج، ثم قيل للمرأة وحدها.

(٢) «أسد الغابة» (٤/ ٧- ٥) .

وفي رواية: دعا لي رسول الله ﷺ فقال: «**اللهم أكثر ماله وولده، وأطل حياته**»، فالله أكثر مالي حتى إن كَرْمًا لي لتحملُ في السنة «مرتين»!! وَوُلِدَ لصلبي مائة وستة[١].

وفي رواية أنه قال: جاءت بي أمي إلى رسول الله ﷺ وأنا غلام فقالت: يا رسول الله خويدمك أُنَيْس فادع الله له. فقال: «**اللّهم أكثر ماله وولده وأدخله الجنة**».

قال: فقد رأيت اثنتين وأنا أرجو الثالثة.

قال أبو العالية: كان له - أي لأنس رضي الله عنه بستان، يحمل في السَّنة الفاكهة مرتين، وكان فيها رَيْحان يجيءُ منه ريحُ المِسكْ!!»[٢].

عباد الله...

أوّل درجات الإيمان: التصديق بما أخبر به النبيُّ ﷺ .

وثاني درجات الإيمان: النُّطق باللِّسان:

الإخبار عمّا استقر في القلب من إيمان. ولا يُقبل إسلامُ عبدٍ حتى يُعلن عن إيمانه بلسانه[٣]، فقد ذم القرآن الكريم فرعون وملئه، فقال: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا**﴾ [النمل: ١٤].

وثالث درجات الإيمان: العمل الصّالح:

فالإيمان كما عرّفه علماءُ العقيدة «عقيدة أهل السنة»: اعتقاد بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان. «يدلّ على ذلك: قولُ النبيّ ﷺ : «**الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه**»[٤]؛ فهذا قول القلب.

أمّا عمل القلب واللسان والجوارح؛ فدليله: قولُ النبيّ ﷺ : «**الإيمان بضع وسبعون شعبة: أعلاها: قول: لا إله إلاّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[٥]؛ فهذا قول اللسان وعمله وعمل الجوارح، والحياء عمل قلبي، وهو

(١) **إسناده حسن**: أخرجه ابن عساكر (٣/ ٨٠ ب)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٦٥٣) بنحوه.
(٢) **رجاله ثقات**: أخرجه الطيالسي، والترمذي (٣٨٣٣) وحسنه.
(٣) ما لم يمنعه خرس.
(٤) جزء من حديث طويل: رواه مسلم (٨).
(٥) رواه مسلم (٣٥) بهذا اللفظ، وقد أخرجه البخاري (٩) بلفظ: «**الإيمان بضع وستون شعبة،**
=

انكسار يصيب الإنسان ويعتريه عند وجود ما يستلزم الحياء»[١].

هذا، والعمل سبب لابد منه لدخول الجنة. قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢].

ولا يعارض هذه الآية حديثُ النبيّ ﷺ الذي قال فيه: «**لن يدخل أحدكم الجنّة بعمله**». قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «**ولا أنا، إلاّ أن يتغمّدني اللّهُ منه بفضل ورحمة**»[٢]. أو كما قال ﷺ.

قال الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى -: «واعلم أن هذا الحديث قد يُشكل على بعض الناس، ويتوهَّمُ أنه مخالفٌ لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ونحوها من الآيات والأحاديث الدالَّة على أن دخول الجنة بالعمل، وقد أُجيب بأجوبة؛ أقربها إلى الصواب: أن الباء في قوله في الحديث: «**بعمله**» هي باء الثمنية، والباء في الآية باء السببيَّة، أي أنّ العمل الصالح سبب لابدّ منه لدخول الجنة، ولكنه ليس ثمنًا لدخول الجنة، وما فيها من النعيم المقيم والدرجات»[٣] ا.هـ.

أيها المسلمون...

والإيمان إذا صحّ، واستوفى شروطه، حَرّك الأعضاءَ لعمل الصالحات، وقبضها عن اقتراف المحرّمات. لذا رأينا أصحابَ النبيّ ﷺ أسرع الناس استجابة لله والرسول، لم يتردّد واحد منهم، ولم يتوقف ليعرف الحِكمْةَ من الأَمْر والنهي».

وهذه بعض أحوالهم:

روى الإمام البخاري عن البراء رضي الله عنه قال: «لما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة صلّى نحو بيت المقدِس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، وكان يحبّ أنْ يُوَجَّه إلى الكعبة، فأنزلَ الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا﴾ [البقرة: ١٤٤].

= والحياء شُعبة من الإيمان».

(١) «شرح العقيدة الواسطية» لابن عثيمين (٢/ ٢٣١).

(٢) رواه البخاري ومسلم وأحمد وابن ماجه.

(٣) «السلسلة الصحيحة» (المجلد السادس - القسم الأول - ص ١٩٨).

فَوُجِّه نحو الكعبة، وصلّى معه رجل العصر، ثم خرج فمرّ على قوم من الأنصار فقال: «وهو يشهد أنه صلّى مع النبي ﷺ وأنّه قد وُجِّه إلى الكعبة». فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر»[١].

ما أسرعهم تأسيًا بالرسول الحبيب الكريم، صلوات ربي وسلامه عليه! سمعوا خبرًا عنه ﷺ فلم يتردّدوا في التمسّك به، بل لم ينتظروا رفع رؤوسهم من الركوع، وبادروا بالتوجه إلى حيث توجه الحبيب الكريم ﷺ - إلى الكعبة المشرّفة - وهم ركوع.

وروى الإمام البخاري - أيضًا - عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة رضي الله عنه، وكان خمرهم يومئذ الفضيخ، فأمر رسول الله ﷺ مناديًا ينادي: «ألا إنّ الخمر قد حُرّمت». قال: فقال لي أبو طلحة: «اخرج فاهرقها». فخرجت فهرقتها. فجرت في سكك المدينة»[٢].

فلم يكن هناك من المحبّين الصّادقين - رضي الله عنهم - إلاّ إراقة الخمر تنفيذًا لأمر رسول الله ﷺ، ولذا جرت في سكك المدينة. وفي هذا يقول الحافظ ابن حجر: «وفيه إشارة إلى توارد منْ كانت عنده من المسلمين على إراقتها حتى جرت في الأزقة من كثرتها»[٣].

وتم هذا كله من غير قيل وقال، وتردّد واستفسار، فقد روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟». فقالوا: «وما ذاك؟». قال: «حرّمت الخمر». قالوا: «أهرق هذه القلال يا أنس». قال: «فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل»[٤].

يا له من استسلام مطلق، وانقياد كامل[٥]!

---

(١) رواه البخاري (٧٢٥٢).

(٢) رواه البخاري (٢٤٦٤).

(٣) «فتح الباري» (١٠/ ٣٩).

(٤) رواه البخاري (٤٦١٧).

(٥) «حبّ النبي ﷺ وعلاماته» د. فضل إلهي (ص ٦٥).

عباد الله...

هكذا كانوا، وأين نحن اليوم منهم؟

«اللهم اغفر وارحم، واعف وتكرّم، وتجاوز عمّا تعلم، إنّك أنت الأعزّ الأكرم».

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

وتصديقنا بما أخبر به نبيُّنا ﷺ يجعلنا نوقن بأن الإسراء كان بالروح والجسد، لا بالروح وحدها كما زعم العقلانيون. والآيات والأحاديث دالّة على ذلك، والمؤمن أمام قدرة الله تعالى لا يقول: كيف؟

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ* فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٢، ٨٣].

«اللهم إنا نسألك إيمانًا لا يَرْتَدُّ، ونعيمًا لا ينفد، وقرّة عينٍ لا تنقطع، ونسألك مرافَقَةَ نبيّك سَيِّدنا محمد ﷺ في أعلى جِنَانِ الخُلْد».

۞۞۞۞۞

الخطبة الثالثة عشرة

المظهريَّةُ الْجَوْفَاء صِنَاعة شيطانية

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فإن الناسَ يَزِنُ بَعْضُهم بعضًا في هذه الحياة بميزانها - يعني بميزان الدنيا -. يوزن الإنسان - هنا - بما عنده من مال، أو بما وصل إليه من منصب، أو بما ارتقى إليه في سُلَّم الجاه. ويوزن الإنسان - كذلك - في هذه الحياة بحسبه أو بنسبه. حتى يقال: ما أظرفه، ما أعقله، وليس في قلبه مثقالُ حبّة خردل من إيمان!!

وهذه الموازين ستسقط يوم القيامة، يومُ يُكْشَفُ عن المخبوء، يوم تبلى السرائر،

وتظهر الفضائح. ويدل على ذلك:

أ- قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١].

ب- وقال ﷺ: «مَنْ بَطَّأَ به عَمَلُه، لم يُسْرِعْ به نَسَبُهُ»(١).

جـ- وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «يأتي الرجلُ العظيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القيامة فلا يَزِنُ عند الله جَناحَ بَعوضة». وقال: «اقرءوا إن شئتم: ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾»(٢) [الكهف: ١٠٥].

د- وعن أُبيّ بن كعب رضي الله عنه: أن رجلين تفاخرا عند النبيّ ﷺ فقال أحدُهما للآخر: أنا فلان ابنُ فلان، فمن أنت لا أُمّ لك؟ فقال النبيُّ ﷺ: «افتخر رَجُلاَن عند موسى - عليه السّلام - فقال أَحَدُهما: أنا فلان ابْنُ فلان حتى عَدّ تسْعةً، فأوحى اللَّهُ تعالى إلى موسى - عليه السلام -: قُلْ للذي افتخر: بل التّسْعَةُ من أهل النار وأنت عاشِرُهُم»(٣).

إذًا: الموازين التي وضعها البشر، ستسقط حتمًا لا محالة، ويظهر ميزان واحد لم يكن لكثير من الناس على بال. هذا الميزان هو: «ميزان التقوى».

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣].

وعن رفاعة بن رافع رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال لعمر: «اجمع لي قومك» - يعني قريشًا، فجمعهم فقال: «إن أوليائي المتّقون، فإن كنتم أولئك فذاك وإلاّ فانظروا، يأتي الناسُ بالأعمالَ يَوْمَ القيامة وتأتون بالأثقال فيعرض عنكم»(٤).

فيا أخا الإسلام..

لَعَمْـرُكَ مـا الإنــسان إلاّ بديــنه   فـلا تترك التقوى اتّكَالاً على النَّسَبِ

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥).
(٣) صحيح: قال العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين (٣/ ٥١٩): أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» من حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه بإسناد صحيح، ورواه أحمد موقوفًا على معاذ بقصة موسى - عليه السلام - فقط.
(٤) صحيح: أخرجه البزار، وقال الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٦) رجال البزار ثقات.

لقد رفع الإسلامُ سَلْمَانَ فارس وَقَدْ وَضَعَ الشِّرْكُ النَّسِيب أَبَا لَهَب

عباد الله...

إن المظهرية الجوفاء.. لا قيمة لها عند الله.. لماذا؟ لأنها صناعة شيطانية: وهذه أدلة تبرهن على ما نقول:

عن كعبْ بْنِ عُجْرَة رضي الله عنه قال: مرّ على النبيَّ ﷺ رجلٌ فرأى أصحابُ رسول الله ﷺ من جلده ونشاطه، فقالوا: لو كان هذا في سبيل الله. فقال رسولُ الله ﷺ : «**إن كان خَرَج يَسْعى على ولده صغارًا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن خرج يسعى على نفسهِ يُعِفُّها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرةً فهو في سبيل الشيطان**»[1].

وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال: «**فراشٌ للرّجل، وفراشٌ لامْرَأَتِهِ، والثالث للضَّيْفِ، والرابع للشيطان**»[2].

قال المناويُّ - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: قوله ﷺ «**فراش للرجل وفراش لامرأته**» قال الطّيبي: فراش مبتدأ مخصصه محذوف يدلّ عليه قوله: «**والثالث للضيف**» أي: فراش واحد كاف للرجل وهكذا «**والرابع للشيطان**» لأنه زائد على الحاجة وسرف واتخاذه مماثل لعرض الدنيا وزخارفها فهو للمباهاة والاختيال والكبر وذلك مذموم وكل مذموم يضاف إلى الشيطان لأنه يرتضيه ويحث عليه فكأنه له، أو هو على ظاهره، وأن الشيطان يبيت عليه ويقيل[3]»[4] ا.هـ.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**الخيلُ ثلاثة: فرسٌ للرحمن، وفرسٌ للإنسان، وفرسٌ للشيطان، فأمّا فرسُ الرّحمن: فالذي يُرْتَبَطُ في سبيل الله ﷻ فَعَلَفُهُ**

---

(١) **صحيح**: رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤٢٨) .

(٢) رواه أحمد ومسلم والنسائي.

(٣) ثبت أن الشيطان يبيت في بيت من دخل بيته فلم يسمّ الله عند دخوله، ولا عند عشائه، وثبت أن الشيطان لا يقيل - خلافًا لما ذكر المناوي - قال ﷺ : «**قيلُوا؛ فإن الشياطين لا تقيل**» رواه الطبراني وأبو نعيم، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٦٤٧) .

(٤) «فيض القدير» (٤/ ٥٥٨) .

وَبَوْلُهُ وَرَوْثُهُ، وَذَكَرَ ما شاء الله، وأمّا فرسُ الشيطان، فالذي يُقَامَرُ عليه ويُرَاهَنُ، وأمّا فرسُ الإنسان، فالفرس يَرْتَبِطُها الإنسانُ يلتمِسُ بَطنَها، فهي سِتْرٌ مِنْ فَقْرٍ»(١).

إذن.. المظهرية الجوفاء.. صناعة شيطانية. وكم كلّفتنا هذه المظهرية من أموال أُنْفِقت في غير موضعها، وباتت بطون اليتامى والأرامل والفقراء والمساكين تشكو لربّها ظلم العباد.

قال الحسن البصري - رحمه الله تعالى -: «عجبًا لك يا ابن آدم، تنفق في شهواتك إسْرافًا وبِدَارًا، وتبخل في مرضاة رَبِّك بِدِرْهَم، ستعلم يا لكع مقامكَ عنده غدًا».

عباد الله...

إن قيمة المرء ليست في ثيابه ولا في ماله، ولا في منصبه، ولا في جاهه. إن قيمة الإنسان تكمن في تقواه ومعرفتِه بالله.

إن ابن مسعود رضي الله عنه كان نحيفَ البدن، ضعيفَ البِنْية، أسودَ اللَّون، قصير القامة. فهل هذا يدلّ على خِفّة ميزانه يوم القيامة.. وهو صاحب رسول الله ﷺ؟

اسمعوا...

عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: أمر رسولُ الله ﷺ ابن مسعود، فصعد شجرةً يأتيه منها بشيء(٢)، فنظر أصحابه إلى ساق عبد الله، فضحكوا من حُموشة ساقيه - أي: من نحافتها ودقتها -، فقال رسول الله ﷺ: **«ما تضحكون؟ لَرِجْلُ عبد الله أثقلُ في الميزان يوم القيامة من أُحُدٍ»**(٣).

إنها التقوى يا مسلمون. إنه الإيمان العميق يا معشر الموحّدين. إنه الإخلاص أيها الناس.

كان مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان أحد قادة الفتح الإسلامي الكبار، وفي يوم من

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد بإسناد حسنه المنذري كما في «الترغيب» (١٨١١)، وصححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (٣٣٥٠).

(٢) في رواية: أنه صعد شجرة أراك يجتني منها سواكًا.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ١١٤).

أيام جهاده حاصر حصنًا من حصون الروم، فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد! وجاء رجل من عُرض الجيش فدخله ففتحه الله على المسلمين ونادى مسلمة: أين صاحب النَّقْب؟ فما جاءه أحد، فنادى إني قد أمرت الآذنَ بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاَّ جاء، وجاء رجل فقال للآذن: «استأذن لي على الأمير!»، فقال له: «أنت صاحب النقب؟». قال الرجل: «أنا أخبركم عنه».

وأتى الآذن مسلمة، فأخبره عن الرجل، فأذن له، فقال: «إنَّه صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثًا: ألا تسوِّدوا اسمه في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو». قال مسلمة: «فذاك له».

قال الرجل: «أنا هو»، فكان مسلمة لا يُصَلِّي بعدها صلاة إلا قال: «اللَّهُمّ اجعلني مع صاحب النَّقْب».

لقد مات صاحب النقب في أجله الموعود، فنسيه الناس ولم يعرف بموته أحد، ولكن الله سبحانه وتعالى يعرفه ولا ينساه.

وأين معرفةُ الناس وذِكرُهم من معرفة الله وذكره[1]؟!

أيها المسلمون..

كان هذا حال سلفنا: إيمان عميق، وإخلاص يفوح شذاه في الحياة وبعد الممات: إنهم كانوا - كما قال ابْنُ الجوزيِّ - رحمه الله تعالى -:«رجال مؤمنون، ونساءٌ مؤمنات، يحفظ الله بهم الأرض، بواطنهم كظواهرهم بل أجلى، وسرائرهم كعلانيتهم بل أحلى، وهممهم عند الثريا بل أعلى، إن عُرفوا تذكروا، وإن رُئِيَتْ لهم كرامة أنكروا، فالناس في غفلاتهم، وهم في قطع فلاتهم، تحبّهم بقاعُ الأرض، وتفرح بهم ملائكةُ السماء، نسأل الله تعالى التوفيق لاتِّباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم»[2].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) «أقباس روحانية» للواء الركن: محمود شيت خطاب (٩٦، ٩٧).
(٢) «صيد الخاطر» (١٦، ١٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى. وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وحده لا شريك له. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

وبعد...

فالخير ليس في ثياب المرء. إنما الخير، قابع في الفؤاد، يفيض أثرُه على الوجه والجوارح.

قال ابن رشد: «كان العلم في الصدور، واليوم صار في الثياب»[(١)].

وقال لقمان الحكيم: «وقفتُ يومًا أمام حَقْلٍ من حقول القمح واسترعت نظري سنابل تتطاولت في خُيَلاء، وسنابل حنت رأسَها في تواضع وحياء، ولكم عجبتُ حين تلمستُها إذْ رأيتُ الأولى فارغة، ووجدتُ الثانية مَلأى بحبّات القمح!! فقلت: كم في حقولِ الحياة من سنابل رفيعة الرأس فارغة».

۞۞۞۞۞

---

(١) «خلاصة الأثر» للمحبي (١/ ٢٧٥).

الخطبة الرابعة عشرة

عَلاَمَةُ الصَّومِ المَقْبُول

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فقد سألني بعضُ الأفاضل: ما هي علامة الصوم المقبول؟

فأجبتهُ: علامة الصوم المقبول: الاستقامة بعده.

قال بعض السلف: «من علامة قبول الحسنة: الحسنة بعدها».

وقد بيّن الله تعالى الحكمة من الصوم، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «و ﴿تَتَّقُونَ﴾ قيل: معناه هنا: تضعفون؛ فإنه كلما قلّ الأكل ضعفت الشهوة، وكلما ضعفت الشهوة قلّت المعاصي. وهذا وجه مجازيّ حسن. وقيل: لتتقوا المعاصي. وقيل: هو على العموم؛ لأن الصيام كما قال عليه السلام: «الصَّومُ جُنَّة»[١].

وكما قال ﷺ: «مَن استطاع الباءَة فليتزوّج، فإنه أَغَضُّ للبصر، وأحْصَنُ للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصّوم، فإنه له وجاء[٢]»[٣].

وسبب تقوى؛ لأنه يُميتُ الشّهوات»[٤] ا.هـ.

عباد الله...

فما معنى التقوى؟ وما هي علامات أهلها؟ وما هي ثمراتها؟

اختلفت عبارات السّلف في تعريف التقوى.

قال عليٌّ رضي الله عنه: «التقوى: هي الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وقال **طَلْقُ بْنُ حبيب** - رحمه الله تعالى -: «التقوى: العمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، والتقوى: تركُ معاصي الله، على نور من الله، مخافة عذاب الله»[٥].

والتقوى: وصية الله للأوّلين والآخرين: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١].

ومحل التقوى: القلب. قال النبيّ ﷺ: «**التقوى هاهنا** - ويشير إلى صدره ثلاث مرّات -»[٦].

والقلب مَلكُ الأعضاء، فإن طاب الملك، طابت جنودُه.

---

(١) جزء من حديث طويل رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) «وجاء»: هو رضّ الخصيتين. والمراد هنا أن الصوم يقطع الشهوة كما يفعل الوجاء.
(٣) رواه البخاري (١٩٠٥)، ومسلم (١٤٠٠).
(٤) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٥٧).
(٥) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٩٠).
(٦) رواه مسلم.

قال النبيُّ ﷺ: «ألا وإن في الجَسَدِ مُضغةً إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسَدُ كُلُّه ألا وهي القلب»[١].

والمتقون هم أولياء الله.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ من عباد الله عبادًا ما هم بأنبياءَ ولا شهداءَ، تَغْبِطهم الأنبياءُ والشهداءُ يوم القيامة لمكانهم مِنَ الله تعالى».

قيل: يا رسول الله، خبِّرنا مَنْ هم، وما أعمالهم فلعلّنا نحبّهم؟ فقال: «هم قومٌ تَحَابُّوا في الله على غير أرحام بينهم، ولا أموالٍ يتعاطَوْن بها، فوالله إن وجوههم لنَور، وإنهم على منابر من نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»[٢]، ثم قرأ: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]. فالمتقون: هم أولياء الله، يدلّ على ذلك قول الله تعالى بعد هذه الآية في وصفهم: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٣]. والمتقون: هم أولى الناسِ بالنبيِّ ﷺ:

عن معاذ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ أَوْلَى النّاسِ بي المتقون، مَنْ كانوا، وَحَيْثُ كانوا»[٣].

عباد الله...

وقد بين الله تعالى صفات المتقين في مواطن عدة من كتابه الكريم من هذه المواطن:

قوله تعالى - في سورة البقرة -: ﴿ذَلِكَ الكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٢- ٥].

وقوله تعالى في سورة البقرة - أيضًا -: ﴿لَيْسَ البِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ المَشْرِقِ

(١) رواه البخاريّ ومسلم.

(٢) رواه أحمد (٢٢١٤١)، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) صحيح: رواه أحمد، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٠١٢).

وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقال تعالى - في سورة آل عمران -: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ* وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ* أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦].

وقال تعالى - في سورة الذاريات -: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ* كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ* وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ* وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٥- ١٩].

عباد الله...

هذه بعضُ صفات المتقين، فما هي ثمرات التقوى؟ ثمرات التقوى يصعَب حصرُها، ونذكر - هنا - بعضها:

الثمرة الأولى: أن المتقين ظفروا بمعية الله:

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: ١٢٨].

الثمرة الثانية: أن المتقين ظفروا بمحبة ربهم:

قال ﷺ في الحديث الصحيح: «إن الله تعالى: يُحِبُّ العبدَ التَقيَّ الغنيَّ الخفِيَّ»[(١)].

الثمرة الثالثة: أن المتقين ينجيهم الله تعالى من كلّ كرب، ويُيَسّر لهم كُلّ مُعْسِر:

---

(١) رواه الإمام أحمد ومسلم.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].
وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً ﴾ [الطلاق: ٤].

الثمرة الرابعة: أن المتقين يكفّر الله عنهم سيئاتهم، ويضاعف لهم حسناتهم:

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾ [الطلاق: ٥].

الثمرة الخامسة: أن المتقين ينجيهم الله من عذاب جهنم:

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْماً مَّقْضِياًّ* ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِياًّ ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره: «قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أي: إذا مرّ الخلائق كُلّهم على النار وسقط فيها من سقط من الكفّار والعصاة ذوي المعاصي بحسبهم، نجّى الله تعالى المؤمنين المتقين منها بحسب أعمالهم...»[1] ا.هـ.

الثمرة السادسة: أن المتقين يجعل الله لهم نورًا يمشون به:

وهذا النور يكشف لهم الطريق، فيميّزون بين الحق والباطل، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحديد: ٢٨].

الثمرة السابعة: دخول الجنة:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ* فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

عباد الله...

هذه بعض ثمرات التقوى، فاحرصوا على نَيْلها والظّفر بها، واستعينوا بالله ولا تَعْجِزوا.

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٦٤).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فمما سبق يتبيّن لنا: أن الاستقامة: علامة قبول الصّيام. فالزموا - **عباد الله** - طريق الهدى، ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلاقُوهُ ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

جعلني الله وإياكم من عباده المتقين، وحشرني وإياكم في زمرة الصالحين.

«اللهم اجعلنا من أَحَبِّ خلقك إليك. ومن المقربين لديك».

۞۞۞۞۞

الخطبةُ الْخَامِسَة عَشَرة

دروسٌ مِنْ تحويل الْقِبْلة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فقد كان النبيُّ ﷺ يُصلّي في مكة وبعد الهجرة إلى المدينة بستة عشر أو سبعة عشر شهرًا تجاه بيت المقدس[١]. وكان يتمنى لو وجّهه الله تعالى إلى المسجد الحرام - إلى الكعبة المشرفة[٢] - زادها الله تعظيمًا وتشريفًا، ومهابة وبرًّا. وطلب هذا بلسان الحال،

(١) قال ابن عباس: «كان النبي ﷺ يصلّي - يعني بمكة - إلى بيت المقدس، لكنه لا يستدبر الكعبة بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس» انظر: «فتح الباري» (١/ ١١٩).
(٢) قبلة أبيه إبراهيم - عليه السلام -.

لا بلسان المقال، فكان يدير وجهه في السماء متمنيًّا ذلك. فماذا حدث؟

نال النبيّ ﷺ ما تمنى، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: ١٤٤].

وأوّل صلاة صلاها النبيّ ﷺ هي: صلاة العصر في المسجد النبوي، وصلاة الظهر في مسجد بني سلمة[١].

ومرّ رجلٌ من بني سلمة ممّن صلّى مع النبيّ ﷺ تجاه الكعبة، على قوم يصلون الصّبح «بِقُبَاء» تجاه بيت المقدس، فنادى: «ألا إن القبلة قد حُوِّلت». فمالوا كما هم نحو القبلة. يعني: لم يتردّدوا، ولم ينتظروا حتى يفرغوا من صلاتهم، ثم يتبيّنوا!!

وهذه أحاديث تدّل على ما ذكرنا:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرًا أو سبعة عشر شهرًا[٢]، وكان يُعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلّى - أول صلاة صلّاها - صلاة العصر[٣]، وصلّى معه قوم فخرج رجلٌ ممن كان صلى معه فمرّ على أهل المسجد وهم راكعون قال: «أشهدُ بالله لقد صلّيتُ مع النبيّ ﷺ قِبَلَ مكة، فداروا كما هم قِبَلَ البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تحوّل قبل البيت رجالٌ قتلوا لم ندر ما نقولُ فيهم[٤]، فأنزل الله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣][٥].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: بينما الناسُ في صلاة الصّبح بقُبَاء إذ جاءهم آتٍ، فقال: إنّ رسولَ الله ﷺ قد أنزل عليه اللّيلة، وقد أُمِرَ أن يستقبل الكعبةَ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٢٠).

(٢) يعني بعد الهجرة.

(٣) يعني في المسجد النبوي كما قال ابنُ حجر.

(٤) سيأتي بعد قليل مزيد إيضاح.

(٥) رواه البخاري (٤٤٨٦).

فـ ستقبلوها وكانت وجوهُهُمْ إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يُصلِّي نحو بيت المقدس، فنزلت: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فمرّ رجلٌ من بني سلمة وهم ركوع في صلاة الفجر، وقد صلّوا ركعة، فنادى: «ألا إن القبلة قد حُوِّلَتْ» فمالوا كما هم نحو القبلة[٢].

أيها المسلمون...

ولما أمر اللَّهُ - تعالى - النبيَّ ﷺ بالتوجّه إلى الكعبة، قال الصحابة: يا رسول الله، كيف بإخواننا الذين ماتوا وهم يصلّون إلى بيت المقدس؟ [٣] فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[٤] [البقرة: ١٤٣].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله -: «فسمّى الصلاة إيمانًا لاشتمالها على نيّة وقولٍ وعملٍ. وقال مالك: إني لأذكر بهذه الآية قول المرجئة: إن الصلاة ليست من الإيمان!!

وقال محمد بن إسحاق: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: بالتوجّه إلى القبلة وتصديقكم لنبيّكم؛ على هذا معظم المسلمين والأصوليين:

وروى ابن وهب وابن القاسم وابن عبد الحكم وأشهب عن مالك: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ قال: صلاتكم»[٥] ا.هـ.

ولمّا وُجِّه النبيّ ﷺ بأمرٍ من ربّه إلى الكعبة قبلة أبيه إبراهيم: هاج **اليهود** وماجوا،

---

(١) رواه مسلم (٥٢٦).

(٢) رواه مسلم (٥٢٧).

(٣) **قال الحافظ** - رحمه الله -: «الذين ماتوا بعد فرض الصلاة وقبل تحويل القبلة من المسلمين عشرة أنفس.. ولم أجد في شيء من الأخبار أن أحدًا من المسلمين قُتل قبل تحويل القبلة، لكن لا يلزم من عدم الذكر عدم الوقوع، فإن كانت هذه اللفظة محفوظة فَتُحْمَل على أن بعض المسلمين ممّن لم يُشْتهر قُتل في تلك المدّة في غير الجهاد، ولم يضبط اسمه لقلة الاعتناء بالتاريخ إذ ذاك» «فتح الباري» (١/ ١٢١).

(٤) رواه الترمذي، وقال: حديث صحيح، وهو بمعناه في «الصحيحين».

(٥) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٤٧).

وقالوا: «خالف قبلة الأنبياء، ولو كان نبيًا لَمَا خالف».

وقال **الكفار**: «رجع محمدٌ إلى قبلتنا، وسيرجع إلى ديننا، فإنه علم أنّا على حق».

وقال أهل **النفاق**: «إن كان أوّلاً على الحق فالذي انتقل إليه باطل، وكذلك بالعكس»[١].

فلما كثرت الأقاويل، أنزل الله تعالى: ﴿**سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا**﴾ [البقرة: ١٤٢].

والسفيه: الخفيف العقل.

وقال المؤرِّج: البهَّات الكذَّاب، المتعمِّد خلاف ما يعلم.

وقال قُطْرب: الظلوم الجهول[٢].

فردّ عليهم ربُّنا - سبحانه وتعالى -: ﴿**قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرة: ١٤٢].

المشرق لله، والمغرب لله، والكون كلّه لله. وإنّا لله، وأينما تولّوا فَثَمَّ وَجْهُ الله.

والمؤمن يدور مع الأمر حيث دار، لا تتوقّف طاعته حتى يعرف العلّة:

﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

فالمراد إذن: الطاعة لله، والامتثال لأمره، لذلك قال الله تعالى:

﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٢١).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢/ ١٣٨).

والمعنى: ليس البرّ كله أن تصلّوا ولا تعملوا غير ذلك، ولكن البرّ - أي ذا البر - من آمن بالله، إلى آخرها؛ قاله ابن عباس وغيره.

والبرّ - هاهنا - اسم جامع للخير[١].

قال القرطبيُّ: - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية: «قال علماؤنا: هذه آية عظيمة من أمّهات الأحكام؛ لأنها تضمّنت ست عشرة قاعدة:

الإيمان بالله وبأسمائه وصفاته، والنشر والحشر والميزان والصراط والحوض والشفاعة والجنة والنار، والملائكة والكتب المنزلة وأنها حقّ من عند الله، والنبيين وإنفاق المال الواجب والمندوب، وإيصال القرابة وترك قطعهم وتفقّد اليتيم وعدم إهماله والمساكين كذلك، ومراعاة ابن السبيل - قيل: المنقطع به، وقيل: الضيف - والسّؤال وفكّ الرقاب، والمحافظة على الصلاة وإيتاء الزكاة والوفاء بالعهود والصبر في الشدائد. وكل قاعدة من هذه القواعد تحتاج إلى كتاب» ا.هـ[٢].

وقد روى عبد الرزاق وغيره من طريق مجاهد: أن أبا ذرّ رضي الله عنه سأل النبيَّ ﷺ عن الإيمان، فتلا عليه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ﴾ إلى آخرها[٣].

عباد الله...

وفي تحويل القبلة، فوائد عظيمة، نذكر منها:

الفائدة الأولى: بيانُ شرف المصطفى ﷺ وكرامته على رَبِّه لإعطائه له ما أَحَبَّ من غير تصريح بالسّؤال. وذلك في قوله تعالى:

﴿**قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ**﴾ [البقرة: ١٤٤].

الفائدة الثانية: الردّ على المرجئة في إنكارهم تسمية أعمال الدِّين إيمانًا[٤].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٢٣).

(٢) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٢٥).

(٣) قال الحافظ في «الفتح» (١/ ٦٦): رجاله ثقات.

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٢١).

والمرجئة: فرقة ضالّة تقول: لا يضرّ مع الإيمان ذنب. وبالتالي: ينكرون أن الإيمان يزيد وينقص، وهذا يصادم كلام ربّ العالمين.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢].

وَسُئل الإمام أحمد - رحمه الله تعالى - عمّن قال: الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: «هذا برئ من الإرجاء»[١].

الفائدة الثالثة: قبول خبر الواحد: في العقائد والعبادات.

خلافًا لمن قال: خبر الواحد لا يُقْبَل في أمور الاعتقادات!! فهذا قول يهدم جانبًا كبيرًا من الإسلام. «وقد نصّ على أن خبر الواحد يفيد العلم: الإمام مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة وداود بن علي وأصحابه كابن حزم[٢] ونصّ عليه الحسين بن علي الكرابيسي، والحارث المحاسبي»[٣].

وقال القاضي أبو يعلى: «خبر الواحد يوجب العلم إذا صحّ سنده، ولم تختلف الرواية فيه، وتلقته الأمّةُ بالقبول» ا.هـ[٤].

الفائدة الرابعة: بيان ما كان في الصحابة من الحرص على دينهم والشفقة على إخوانهم:

يدلّ على ذلك: سرعة استجابتهم لأمر الله تعالى، حين أداروا أنفسهم وهم ركوع لمّا نادى المنادي: «ألا إن القبلة قد حُولِّت». فكيف حالنا اليوم مع أوامر الله؟ تفريط. وتضييع. وتكاسل. وإلى الله المشتكى.

الفائدة الخامسة: تسلية أهل الإيمان المتمسكين بإسلامهم:

فإذا هوجموا من قِبل الكافرين والمنافقين، والجهلة والزائفين، وأهل الأهواء

---

(١) «السنة» للخلال (٥٨١).

(٢) انظر: «أحكام الأحكام» لابن حزم (١/ ١١٩- ١٣٨).

(٣) راجع لزامًا رسالة: «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين» للشيخ الألباني - رحمه الله - ط. الدار السلفية - الكويت.

(٤) «وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة» (٢٤).

مُبتدعين. علموا أن هذا شيء تعرّض له الأوائل، لذا قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٢]. يعني: في كل عصر[1].

في بداية الإسلام قالوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾. واليوم: يتندّرون ويسخرون ويستهزئون مِنْ تمسّك أهل الإيمان بإسلامهم. ويعيبون عليهم حتكامهم للأدلة الشرعية فيما يأتون، وفيما يذرون!!

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَنْ لا نبيّ بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد...

مما ينبغي الإشارة إليه، والتنويه عليه: أنه لم يرد في فضل النصف من شعبان حديث صحيح، فجميع الأحاديث التي رُويت في فضائل النصف من شعبان تتأرجح بين الضعف والوضع.

وبالتالي لا يُبْنى عليها عمل، ولا تنشأ عليها عبادة. **ومن هذه الأحاديث:**

حديث: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها». إسناده ضعيف لضعف ابن أبي بسرة، وقال فيه أحمد وابن معين: يضع الحديث. ا.هـ.

وحديث: «إنّ الله ليطّلع ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلاّ لمشرك أو مشاحن». هذا الحديث: من رواية ابن لهيعة وقد تكلّم في جرحه وكذبه كثير من أئمّة هذا العلم، وفي سنده الضحّاك بن أيمن الكلبي، يقول الذهبيّ عنه: لا يدري من هو؟

---

(١) قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره (٢/ ١٣٨): و﴿**سيقول**﴾ بمعنى قال؛ جعل المستقبل موضع الماضي، دلالة على استدامة ذلك وأنهم يستمرون على ذلك القول» ا.هـ.

قال الشيخ عبد الفتاح إبراهيم سلامة[١] - في تعقبه على هذا الحديث -: «وتأمّل هذا الحديث ثانية وما يفهمه السذّج والبسطاء منه: «إن الله يغفر لجميع خلقه في هذه الليلة إلاّ لمشرك أو مشاحن»، ومعنى هذا: أن الخطايا التي اقترفتها الأيدي الآثمة، والذنوب التي واقعتها النفوس المجرمة، والموبقات والكبائر فيها سوى الشحناء والشرك تمحوها ليلةُ النصف من شعبان، وليلة النصف فقط بلا توبة وبلا إنابة وبلا ندم وحسرة على ما فرّط المفرّطون في جنب الله، والبون شاسع بين مفهوم الحديث ومفهوم الآية الكريمة، فالآية الكريمة تقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. والمشيئة - هنا - هي مشيئة العادل الحكيم العليم الذي لا يَظْلِمُ أبدًا» ا.هـ.

عباد الله...

وممّا أحدث الناس في ليلة النصف: الصلاة الألفية، مائة ركعة بالإخلاص[٢] عشرًا عشرًا بالجماعة.

ولم يأت بها خبر ولا أثر إلاّ ضعيف أو موضوع. قال العراقي: حديث صلاة ليلة النصف باطل، وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات».

وصلاة السّت ركعات في ليلة النصف بنية دفع البلاء وطول العمر والاستغناء عن الناس، وقراءة يس والدعاء بين ذلك لاشك أنه حدث في الدين، ومخالفة لسنة سيّد المرسلين[٣].

فأقيموا دينكم - أيها المسلمون - على ما وَرَدَ وَثَبت، فالعبادات توقيفية.

«اللهم أرِنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتباعِه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعلهُ مُلْتَبِسًا علينا فَنَضِلّ».

❁❁❁❁❁

---

(١) في مقال له بعنوان: «شعبان ونصف شعبان» نشرته مجلة التوحيد المصرية في عددها الصادر في شهر شعبان سنة (١٤٧٧هـ) .

(٢) أي: سورة الإخلاص.

(٣) «السنن والمبتدعات» للشيخ/ محمد أحمد الشقيري (ص ١٢٨) .

الخطبةُ السَّادِسة عشرة

عُلُوُّ الهِمّة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فإن «عُلوّ الهمّة» خلقٌ كريمٌ يُحبّه اللَّهُ تعالى ويرضاه.

روى الطبراني في «الكبير» عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ أنه قال: **«إنَّ اللهَ تعالى يُحبُّ معاليَ الأمورِ وأشرافَهَا، ويكره سَفاسفها»**[1] يعني حقيرها ورديئها.

---

(١) **حسن**: رواه الطبراني في «الكبير» ورمز إليه السيوطي بالحسن في «الجامع الصغير» (١٨٨٩).

قال المناويُّ - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: «فمن اتصف من عبيده بالأخلاق الزكية أحبّه، ومن تحلّى بالأوصاف الرديئة كرهه» ا.هـ[(١)].

وقال بعض السلف: «إن النّفسَ جَوَّالة، فإن زَكَتْ وَصَفَتْ، طافت حول العرش، وإن هي تَدنَّست وتلوّثَت، طافت حول الحُشّ[(٢)]» أو كما قال.

عباد الله...

وعلوّ الهمة في طاعة الله تعالى خُلق اتصف به الأنبياء ومن اتّبع هداهم إلى يوم الدين.

فها هو ذا نبيّ الله «نوح» - عليه السلام - ظلّ يدعو قومه ألف سنة إلاّ خمسين عامًا، لم تهن له عزيمة ولم تلن له قناة، فما هو حصاد سنوات دعوته: قال تعالى: ﴿**وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ**﴾ [هود: ٤٠].

ولا ضير في ذلك، فالنتائج على الله. إن الله ابتلانا بالعمل، ولم يكلفنا النتيجة.

وكل الأنبياء تحمّلوا المشاق، واستعذبوا العذاب في سبيل الله، ويدلّ على ذلك: قولُ الله - تعالى - لنبيّه ﷺ: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف: ٣٥]. وقولُه - سبحانه -: ﴿**مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ**﴾ [فصلت: ٤٣].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لمّا كان يومُ حُنَيْن آثَر النبيُّ ﷺ أُناسًا في القِسمةِ: فأعْطَى الأقرعَ بْنَ حابس مائةً من الإبل، وأعطى عُيينة مِثْلَ ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم يومئذٍ في القسمة، قال رجل، والله إن هذه القِسْمة ما عُدِلَ فِيها، وما أُرِيدَ بها وَجْهُ الله، فقلت: والله لأخبرنَّ النبيَّ ﷺ، فأتيتُه فأخبرتُه فقال: «**فَمَن يَعْدِلُ إذا لم يعدلِ اللَّهُ ورسولُهُ رَحِم اللَّهُ موسى، فقد أوذِي بأكثرَ من هذا فصبر**»[(٣)].

عباد الله...

ثم جاء أتباعُ الأنبياء، فحملوا الأمانةَ، وأدّوها على الوجه المَرْضِيّ، وجاهدوا

---

(١) «فيض القدير» (٢/ ٣٧٥).
(٢) **الـحُشّ**: هي الكُنف.
(٣) روه البخاري (٣١٥٠)، واللفظ له، ومسلم (١٠٦٢).

أنفسهم في طاعة الله تعالى، فعطّروا صحائف أعمالهم، وبقيت آثارهم في عَقِبهم وَعُقْبَاهم، نورًا لمن اهتدى.

فها هو ذا «حَبيبَ النجّار» عاش في قرية تُسمّى «أنطاكية»، كان أهلها يعبدون الأصنام. أرسل الله إليها رسولين فكذّبوهما، فأمدّهما بثالث، ودار بين الرسل وبين أصحاب القرية هذا الحوار - الذي سجله القرآن في سورة يس - قالت رُسُلُهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ البَلاغُ المُبِينُ* قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٤- ١٩].

وفي هذه الأثناء جاء «حبيب النجار» من أقصى المدينة يسعى. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [يس: ٢٠].

قال ابن عباس رضي الله عنه وغيره: «إن أهل القرية همّوا بقتل رسلهم فجاءهم رجلٌ من أقصى المدينة يسعى لينصرهم من قومه قالوا: وهو حبيب». وفي رواية عن ابن عباس، قال: «اسم صاحب يس: حبيب النّجار».

وقال قتادة: «كان يتعبّد في غار هناك».

﴿قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا المُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ٢٠] يحضّ قومه على اتباع الرسل الذين أتوهم. ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْراً ﴾ أي: على إبلاغ الرسالة ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] فيما يدعونكم إليه من عبادة الله وحده لا شريك له.

﴿وَمَا لِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ أي: وما يمنعني من إخلاص العبادة للذي خلقني وحده لا شريك له ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢] أي: يوم المعاد.

﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع: ﴿إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلاَ يُنقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣] أي: هذه الآلهة التي تعبدونها من دونه لا يملكون من الأمر شيئًا، فإن الله تعالى لو أرادني بسوء ﴿فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ ﴾ [يونس: ١٠٧]. وهذه الأصنام لا تملك دفع ذلك ولا منعه ولا ينقذوني ممّا أنا فيه ﴿إِنِّي إِذاً لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ أي: إن اتخذتُها آلهة من دون الله.

ثم قال حبيب رضي الله عنه كما أخبر القرآن: ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ قيل: خاطب بذلك الرسل وقال لهم: اسمعوا قولي لتشهدوا لي بها أقول لكم عند ربّي إني آمنتُ بربّكم واتبعتكم[١].

وقال ابن إسحاق - فيما بلغه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وكعب ووهب: «فلما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجلٍ واحد فقتلوه ولم يكن له أحد يمنع عنه».

وقال قتادة: جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول: «اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون» فلم يزالوا به حتى أقعصوه وهو يقول كذلك فقتلوه - رحمه الله -».

ويخبرنا الحق - سبحانه - عن حاله بعد استشهاده، فيقول: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

قال محمد بن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنهم وطئوه بأرجلهم حتى خرج قصبه[٢] من دبره وقال الله له: ﴿ادْخُلِ الْجَنَّةَ﴾ فدخلها فهو يرزق فيها قد أذهب الله عنه سقم الدنيا وحزنها ونصبها.

وقال قتادة: لا تلقى المؤمن إلاّ ناصحًا، لا تلقاه غاشًّا، لمّا عاين - حبيب - ما عاين من كرامة الله تعالى: ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧]. تمنى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هجم عليه.

وقال ابن عباس: «نصح قومه في حياته بقوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ وبعد مماته في قوله: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾. بإيماني بربّي وتصديق المرسلين».

ومقصوده: أنهم لو اطلعوا على ما حصل لي من الثواب والجزاء والنعيم المقيم لقادهم ذلك إلى اتباع الرسل - فرحمه الله ورضي عنه - فلقد كان حريصًا على هداية قومه[٣].

---

(١) واستظهر هذا المعنى الحافظ ابن كثير في «تفسيره» انظر: «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٢).
(٢) قصبه: أمعاؤه.
(٣) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ١٩٣).

ثم يخبر - تعالى - عمّا حلّ بقومه بعد قتله، فيقول: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ * إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٨، ٢٩].

فبادوا عن وجه الأرض فلم يبق منهم باقية.

وهاهي ذي: «السيدة نفيسة» من سلالة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: ظلّت تدعو سنوات أن تموت وهي صائمة.

ولمّا حان أجلُها، حان في نهار رمضان، فعرضوا عليها حين حضرتها الوفاة الفطر، فرفضت، وظلّت تقرأ في المصحف، ولمّا وصلت إلى قول الله تعالى في سورة الأنعام: ﴿لَـهُمْ دَارُ السَّلامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٧]. فاضت روحُها إلى ربّها، ونالت المشتاقةُ ما كانت تتمنى.

وها هو ذا «خالدُ بْنُ مَعْدَان» التابعيُّ الجليل، أدرك سبعين من أصحاب النبيّ ﷺ. كان أوّل الخارجين للعدوّ إذا نادى المنادي: حيّ على الجهاد. ويحكي سلمة بن شبيب عن عبادة خالد فيقول: «كان خالد بن معدان يُسبِّح في اليوم أربعين ألف تسبيحة سوى ما يقرأ من القرآن، فلما مات، وُضِع على سَريرِه ليُغَسّل، جعل بأصبعه كذا يُحَرِّكُهَا - يعني بالتَّسْبِيح -»[١].

قال يزيد بن هارون: «مات خالد بن مَعدان وهو صائم». إنها الكرامة: ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٤].

ورحم الله أبا عليٍّ الكاتب حين قال: «روائح نسيم المحبّة تفوح من المحبين وإن كتموها، وتظهر عليهم دلائلها وإن أخفوها، وتبدو عليهم وإن ستروها». فجاهدوا أنفسكم - عباد الله - في طاعة مولاكم، واعلموا أن لعلوّ الهمة في الطاعة ثمرات:

أول هذه الثمرات: نَيْلُ محبَّة الله تعالى، وهذا شرف عظيم، ومقام كبير، ويدلّ على ذلك: قول الله - تعالى - في الحديث القدسي «الصحيح»: «ولا يزال عبدي يتقرب إليّ

(١) «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٤٠)، و«حلية الأولياء» (٥/ ٢١٠).

بالنّوافل حتى أُحِبّه، فإذا أحببته، كنتُ سَمْعَه الذي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَه الذي يُبْصر به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بها، وَرِجْلَه التي يمشي بها، ولئن سَألني لأُعْطينّه، ولئن استعاذني لأُعيذَنّه».

ومن أحبّه اللّهُ أحبّه جبريلُ وأحبته ملائكةُ السماء، ثم يُوضَعُ له القَبُول في الأرض: فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال:

«إنّ الله إذا أَحَبّ عبدًا دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أُحبّ فلانًا فأحبّه، قال: فيحبه جبريل، قال: ثم ينادي في أهل السماء إن الله يحب فلانًا فأحبوه، قال: فيحبّه أهلُ السماء ثم يُوضع له القبول في الأرض.

وإن الله إذا أبغض عَبْدًا دعا جبريل فقال: يا جبريل إني أبغض فلانًا فَأَبْغِضْه قال: فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغضَ فلانًا فأبغضوه قال: فيبغضه أهلُ السماء ثم يوضع له البغضاء في الأرض»[1].

ومن ثمراتُ علوّ الهِمّة: دخول الجنة: فعند الصباح يحمد القومُ السُّرى، وعند الممات يحمد القوم التُّقَى، وقد تقدّم من أحوال الصالحين عند الموت وبعد الموت ما يدلّ على ذلك.

نسأل الله التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

وبعد...

وفي مقابل علوّ الهمّة: دناءة الهمّة. سفولُ الهمّة، انحطاط الهمّة. يترك الإنسانُ معالي الأمور إلى سفاسفها، فتجول نفسُهُ حول الحُشّ، وتهيج عليه شهواتُ الغَيّ في بطَنه وفرجه. ومن كان هذا حاله: تَرك الصَّلاةَ، وقطعَ الأرحام، وأسَاء الجوار، وأطلق

(١) رواه البخاري (٦٠٤٠)، ومسلم (٢٦٣٧).

يَدَه في أموال الناس بغير حق، وفَرْجَه في الفروج المحرّمة، وعاقر الخمر، وسائر كبائر الإثم والفواحش، ومن هبط إلى هذا الدّرك، أغضب ربّه وجنى على نفسه.

فيا أخا الإسلام..

كـــن كالـــصّقور علـــى الـــذُّرا تَـــصْغَى لِوَسْوَسَـــة القمـــرْ

لا كالغـــراب يُطـــارد الـــ جَـــيفَ الحقـــيرة في الْحُفَـــرْ

«اللهم أعنّا على ذِكْرِك، وشكركَ، وحُسْنَ عبادتك».

«اللهم يا وليّ الإسلامِ وأهْلِهِ، مَسِّكْنا بالإِسلامِ حتى نلقاك».

۞۞۞۞۞

الخطبة السابعة عشرة

الدُّعاءُ هو العبادة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتُها، وكلّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة، وكلّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فقد روى الإمام ابن جرير وابن أبي حاتم بإسناد له شاهد[1] عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه: أن أعرابيًا قال: يا رسول الله ﷺ أقريب ربُّنا فنناجيه، أم بعيد فنناديه؟

فسكت النبيُّ ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

(١) عند رزين.

آية كريمة من كتاب كريم، هي بمثابة سوط يُلْهِب ظهورَ أولئك الذين تعلّقت قلوبهم بالقبور، يذكرون أمامها، ويتمرّغون على ترابها، ويسجدون على أعتابها، ويتخذون أهلها آلهة تُعبد من دون الله!!

والله تعالى يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ [الإسراء: ٥٦].

ويقول - جلّ وعلا -: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

عباد الله...

والدعاء: هو العبادة. والعبادة غاية الذلّ مع غاية الحبّ. عن النعمان بن بشير - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[١]، ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

أما الوسائط فهي كما قال القرطبيُّ - رحمه الله -: «في قبضته -سبحانه- ومسخّرة بتسخيره» ا.هـ[٢].

ثم اسمع إلى هذا الحديث الذي يَقْطُر رحمةً وشَفَقَةً: عن سلمان الفارسيّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّ ربكم حَيّي كريم، يَسْتَحيي مِنْ عبده إذا رفع يديه إليه أن يردّهما صِفْرًا ليس فيهما شيءٌ**»[٣].

وفي رواية: «**أن يردَّهُما صفْرًا خائِبَتَيْن**»[٤].

وحديث آخر تتفجر الرحمة من جوانبه: عن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**ما مِنْ مُسْلم يدعو بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحم إلاّ أعطاه اللّهُ بها**

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (١٤٧٥)، والترمذي (٣٢٤٧)، وغيرهما.
(٢) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩٠).
(٣) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٥٦)، وأبو داود (١٤٨٨) وغيرهما.
(٤) صحيح: رواه الترمذي.

إحدى ثلاث: إمّا أن يُعَجِّل له دعوته. وإمّا أن يَدّخِرَها له في الآخرة. وإمّا أن يصرَف عنه من السّوء مِثْلَهَا».

قالوا: إذًا نكثر. قال: «اللهُ أكثر»(١).

وحديث ثالث يَقْطرُ شَهْدًا: عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «من نزلت به فاقةٌ فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُهُ، ومن نزلت به فاقةٌ فأنزلها بالله فَيُوشِكُ اللَّهُ له بِرزْقٍ عاجلٍ أو آجِلٍ»(٢).

عباد الله...

وللدعاء - كما قال ابن عطاء - أركان، وأجنحة - يطير بها، وأوقات، وأسباب.

فأركانه: حضور القلب، والاستكانة والخشوع:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ادْعُوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعْلَموا أنَّ الله لا يستجيبُ دعاءً مِنْ قلبٍ غافلٍ لاَهٍ»(٣).

وروى شهرُ بن حَوْشَب أن أم الدرداء قالت له: يا شهر، ألا تجد القشعريرة؟ قلت: بلى. قالت: فادع الله فإن الدعاء مستجاب عند ذلك(٤).

وأجنَحتُه: الصِّدْق: قال تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خفيًا﴾ [مريم: ٢، ٣].

قال بعضُ المفسِّرين: إنما أخفى دعاءه لأنه أحبّ إلى الله كما قال قتادة في هذه الآية: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خفيًا﴾ إن الله يعلم القلب التقيّ، ويسمع الصوت الخفيّ(٥).

---

(١) قال المنذريّ في «الترغيب» (٢٣٤٧) : رواه أحمد والبزار وأبو يعلى بأسانيد جيدة، والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥٦٦) ، وقوله: «يوشِكُ» أي: يُسرع.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٤٧٩) ، والحاكم (١/ ٤٩٣) ، وقال: حديث مستقيم الإسناد.

(٤) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩١) .

(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٥٣٩) .

وقال عطاءُ السُّلَميّ - رحمه الله -: مُنِعْنَا الغَيْثَ[1] فخرجنا نستسقي[2] فإذا نحن بسعدون[3] في المقابر فنظر إليَّ فقال: يا عطاء، أهذا يوم النشور؟ أو بعثر ما في القبور؟ فقلت: لا، ولكنا منعنا الغيث فخرجنا نستسقي. فقال يا عطاء: بقلوب أرضية أم بقلوب سماوية؟ فقلت: بل بقلوب سماوية. فقال: هيهات، يا عطاء، قل للمتبهرجين لا تتبهرجوا فإن الناقد بصير.

ثم رمق السماء بطرفه وقال: إلهي وسيّدي ومولاي، لا تهلك بلادك بذنوب عبادك، أسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك الْعُليا، أن تسقنا ماءً غدقًا فراتًا تحيي به العباد، وتروي به البلاد، يا من هو على كل شيء قدير.

قال عطاء: فما استتم الكلام حتى أرعدت السماء وأبرقت وجادت بمطر كأفواه القرب، فولّى وهو يقول:

أفلـــح الـــزَاهدون والعابـــدونا	إذْ لـــــولاهم أجاعـــوا الـــبطونا
أسْـــهَروا الأعــينَ الْعِلَــيلة حُــبًّا	فانقــضى لــيلُهم وهــم سَــاهِرونا
شـــــغلتهم عـــبادةُ الله حتـــــى	حَـسِبَ الـناسُ أن فـيهم جُنونا! [4]

أمَّا أوقاتُ الدُّعَاء: فالأسْحار: ووقت السَّحر: وقت النزول الإلهي: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«ينزل رَبُّنا كلّ ليلة إلى سماء الدنيا حين يَبْقَى ثلثُ اللّيل الآخر، فيقول: مَنْ يَدْعُوني فأستجيبَ له؟ من يسألُني فأعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفرُني، فأغفِرَ له؟»[5].

وفي رواية: «إذا مضى شَطْرُ اللَّيل أو ثلثاه ينزلُ اللَّهُ تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيقول: هل مِنْ سائلٍ فَيُعْطَي، هل من داع فيُسْتَجابَ له، هل مِن مستغفرٍ فيغفَر له؟ حتى

---

(١) أي المطر.

(٢) يصلون صلاة الاستسقاء.

(٣) أحد الزاهدين العابدين.

(٤) «إحياء علوم الدين» (١/ ٣٠٨).

(٥) رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

يَنْفَجرَ الصُّبْحُ»[١].

وهناك أزمان وأوقات وأحوال أخرى يستحب فيها الإكثار من الدعاء: كيوم عرفة، ورمضان، وليلة القدر، ويوم الجمعة، والليل، وبين الأذان والإقامة، وحال السجود، ودبر الصلوات، وعند إفطار الصائم، وعند وقوع الظلم، وهذه جملة من الأحاديث تدلّ على ذلك.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«الدّعاءُ لا يُرَدَ بَيْنَ الأذَان والإقَامَة»**[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أقْرَب ما يكونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّه وهو ساجِدٌ فأكثِروا الدُّعاء»**[٣].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إنّ في الجُمُعة لسَاعةً لا يُوافِقُها مُسْلِمٌ يَسْأَلُ الله فيها خَيْرًا إلا أَعْطَاه إيَّاه»**، قال: **«وهي ساعةٌ خَفِيفةٌ»**[٤].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثُ دَعَوات مُسْتجَابَاتٍ لا شَكَّ فِيهنّ: دعوةُ الوالد، ودعوةُ المُسَافِر، ودعوةُ المُظْلوم»**[٥].

وعنه أيضًا رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا تُردّ دعوتُهم: الصّائمُ حتى يُفْطر، والإمامُ العادل، ودعوةُ المظلوم يرفَعُها اللَّهُ فَوْق الغَمَام ويَفْتَحُ لها أَبْوابَ السَّمَاء ويقول الرَّبُّ: وعِزَّتي لأنْصُرنّك ولو بعد حين»[٦].

وأمَّا أسبابُ الدُّعَاء: فالصّلاة على سَيِّد الأنبياء ﷺ:

فعن فضالة بن عبيد الأوسي رضي الله عنه قال: سَمِعَ رسولُ الله ﷺ رَجُلاً يدعو

---

(١) رواه مسلم.

(٢) حسن: رواه الترمذي (٢١٢)، وغيره، وحسّنه الحافظ.

(٣) رواه مسلم (٤٨٢).

(٤) رواه البخاري (٩٣٥)، ومسلم (٨٥٢) واللفظ له.

(٥) حسن: رواه أبو داود (١٥٦٣) وغيره.

(٦) حسن: رواه الترمذي (٣٥٩٨) وغيره.

في صلاته لم يُمجِّد الله ولم يُصَلِّ على النبيّ ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «عَجِلْتَ أيُّها المُصَلِّي».

ثمّ علمّهم رسولُ الله ﷺ: وسمع رسولُ الله ﷺ رجلاً يُصلّي فَمَجَّد الله وَحَمِدَهُ وصلّى على النبيّ ﷺ فقال رسولُ الله ﷺ: «ادْعُ تُجَبْ، وَسَلْ تُعْطَ»[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن الدّعاءَ مَوْقوفٌ بين السّماء والأرضِ لا يَصْعَدُ منه شيءٌ حتى تُصَلِّي على نَبيِّك ﷺ[٢].

عباد الله...

وللدعاء موانع تمنعه من الوصول إلى السماء: من هذه الموانع:

المانع الأول: كثرة المعاصي:

قال تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٥].

قال القرطبيُّ - رحمه الله -: «وكلّ مصر على كبيرة عالمًا بها أو جاهلاً فهو معتد، وقد أخبر - سبحانه - أنه لا يحب المعتدين فكيف يستجيب له؟» ا.هـ[٣].

وقال - رحمه الله - أيضًا: «والمعتدي: هو المجاوز للحدّ ومرتكب الخطر. وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه».

وثبت عن أبي نعامة: أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول: «اللهم إنِّي أسألُك القَصْرَ الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتُها». فقال: أي بُنيّ، سَلِ الله الجنة وَعُذْ بِهِ من النار، فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**سيكون قوم يعتدون في الدعاء**»[٤].

والاعتداء في الدعاء على وجوه:

منها: الجهر الكثير والصِّياح[٥].

---

(١) **حسن**: رواه أبو داود (١٤٨١)، والنسائي (٣/ ٤٤، ٤٥)، وغيرهما.

(٢) رواه الترمذي (٤٨٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٨٨).

(٤) **صحيح الإسناد**: رواه ابن ماجه (٣٨٦٤).

(٥) روى مسلم في «صحيحه» (٢٧٠٤) عن أبي موسى الأشعري، قال: كنا مع النبيّ ﷺ في سفر =

ومنها: أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبيّ، أو أن يدعو في محال[(١)]، ونحو هذا من الشطط.

ومنها: أن يدعو طالبًا معصية وغير ذلك.

ومنها: أن يدعو بما ليس في الكتاب والسّنة، فيتخيّر ألفاظًا مفقرة، وكلمات مسجّعة وقد وجدها في كراريس لا أصل لها ولا معوّل عليها فيجعلها شعاره ويترك ما دعا به رسوله - عليه السلام -.

وكل هذا يمنع من استجابة الدعاء» ا.هـ[(٢)].

المانع الثاني: الدعاء بإثم أو قطيعة رحم:

وقد تقدّم نَهْيُ النبيِّ ﷺ عن ذلك.

المانع الثالث: أكل الحرام:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالى طَيِّبٌ لا يَقْبَلُ إلاّ طَيِّبًا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً﴾** [المؤمنون: ٥١]، **وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾** [البقرة: ١٧٢]. **ثم ذكر الرجلَ يُطيل السَّفَر أَشْعَثَ أغبر يَمُدُّ يديه إلى السماء: يا ربِ يا ربِّ، ومطعَمُهُ حَرَام ومشربُه حرام وَمَلْبَسُهُ حرام وَغُذِيَ بالحرام، فأَنَّى يُسْتَجابُ له**»[(٣)].

قال القرطبيّ - رحمه الله -: «وهذا استفهام من جهة الاستبعاد من قبول دعاء مَنْ هذه صفته» ا.هـ.

وقال القرطبيُّ - رحمه الله -: «من شرط الداعي: أن يكون عالمًا بأنه لا قادر على

= وفي رواية: في غزاة فجعل الناس يجهرون بالتكبير، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أيها الناس اربعوا على أنفسكم إنكم لستُم تدعون أصَمّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سَمِيعًا قريبًا وهو معكم**».

(١) كأن يدعو أن يعيده الله طفلاً، أو أن يجعله نبيًا ونحو ذلك.

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٠٢).

(٣) رواه مسلم.

حاجته إلاّ الله، وأن الوسائط في قبضته ومسخّرة بتسخيره، وأن يدعو بنيّة صادقة وحضور قلب، فإن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ، وأن يكون مجتنبًا لأكل الحرام، وألاّ يمل من الدعاء» ا.هـ[١].

المانع الرابع: الاستعجال:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**لا يَزَال يُسْتَجابُ للعبدِ ما لم يَدْعُ بإثم أو قطيعةَ رحِم ما لم يَسْتعجل**»، قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: «**يقول: قد دعوتُ وقد دَعَوْتُ فلم أَرَ يستجيب لي فَيسْتَحْسِر عند ذلك وَيَدَعُ الدُّعَاء**»[٢].

أيها المسلمون...

وقيل لإبراهيم بن أدهم: ما بالنا ندعو لا يُستجاب لنا؟

قال: لأنكم عَرَفتُم الله فلم تطيعوه.

وعرفتم الرسولَ فلم تتبعوا سُنّته.

وعرفتم القرآن فلم تعملوا به.

وأكلتم نعم الله فلم تؤدّوا شكرها.

وعرفتم الجنّة فلم تطلبوها.

وعرفتم النارَ فلم تهربوا منها.

وعرفتم الشيطانَ فلم تحاربوه ووافقتموه.

وعرفتم الموتَ فلم تستعدوا له.

ودفنتم الأمواتَ فلم تعتبروا.

وتركتم عيوبكم واشتغلتم بعيوب الناس[٣].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩٠).

(٢) رواه مسلم (٢٧٣٥) وقوله ﷺ: «فيستحسر» يقال: حسر واستحسر، إذا أعيا وانقطع عن الشيء. والمراد هنا، أنه ينقطع عن الدعاء.

(٣) «تفسير القرطبي» (٢/ ٢٩٠).

عباد الله...

فإذا توفّرت في الدعاء شروطه وآدابه، وانتفت موانعه، فُتحت له أبوابُ السماء:
قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «البداية والنهاية» (٥/ ٨٨٨):

«جاء خادمُ المأمون[١] إلى أحمد بن حنبل وهو يمسح دموعه بطرْف ثوبه، ويقول:

يعزّ عليّ يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلّ سيفًا لم يسلّه قبل ذلك، وأنّه يُقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تُجبْه إلى القول «بِخَلْق القرآن»[٢] ليقتلنّك بذلك السَّيف.

قال: فجثا الإمامُ أحمد على رُكبتيه ورمق بطرفه إلى السّماء، وقال: «سيّدي، غَرَّ حِلْمُك هذا الفاجر حتى تجرأ على أوليائك بالضّرب والقتل، اللهم فإن يكن القرآن كلامك غير مخلوق فاكفنا مؤنته».

قال: فجاءهم الصّريخُ بموت المأمون في الثلث الأخير من الليل!».

وروى البيهقيُّ، أن رجلاً جاء إلى الإمام أحمد، فقال: إن أُمّي زمنةٌ مقعدة منذ عشرين سنة، وقد بعثتني إليك لتدعو لها، فكأنه غضب من ذلك وقال:

نحن أحوج أن تدعو هي لنا من أن ندعو لها.

ثم دعا الله ﷻ لها، فرجع الرجلُ إلى أُمّه، فدقّ الباب، فخرجت إليه على رجليها، وقالت: «قد وَهَبَني اللّهُ العافية»[٣].

إنها قدرة الله أيها الناس. إنه دعاء أهل الإخلاص أيها المسلمون.

نسأل الله إيمانًا دائمًا، وقلبًا خاشعًا، وعملاً متقبلاً.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) الخليفة.

(٢) «عقيدة أهل السنة»: أن القرآن كلام الله، منه خرج وإليه يعود.

(٣) «البداية والنهاية» لابن كثير (٥/ ٨٨٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصَّلاة والسّلام على مَنْ لا نبي بعده، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

وبعد...

فيقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه «الداء والدواء»[١]:

«وإذا جمع مع الدعاء حضور القلب وجمعيته بكليته على المطلوب، وصادفا وقتًا من أوقات الإجابة الستة - وهو: الثلث الأخير من الليل، وعند الأذان وبين الأذان والإقامة، وأدبار الصلوات المكتوبات، وعند صعود الإمام بيوم الجمعة على المنبر حتى تقضى الصلاة من ذلك اليوم، وآخر ساعة بعد العصر - وصادف خشوعًا في القلب؛ وانكسارًا بين يدي الرب، وذلاً له وتضرعًا ورقة، واستقبل الداعي القبلة، وكان على طهارة، ورفع يديه إلى الله، وبدأ بحمد الله والثناء عليه ثم ثنى بالصلاة على محمد عبده ورسوله ﷺ، ثم قَدَّم بين يدي حاجته التوبة والاستغفار، ثم دخل على الله، وألَحَّ عليه في المسألة، وتملّقه ودعاه رغبة ورهبة، وتوسل إليه بأسمائه وصفاته وتوحيده وقدم بين يدي دعائه صدقة، فإن هذا الدعاء لا يكاد يرد أبدًا.

ولا سيما إن صادف الأدعية التي أَخبر النبي ﷺ أنها مظنة الإجابة، أو أَنها متضمنة للاسم الأَعظم.

فمنها ما في السنن وفي صحيح ابن حبان من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقول: «اللَّهم إني أسألك بأني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد.

فقال: «لقد سأل الله بالاسْمِ الذي إذا سُئِلَ به أَعْطَى، وإذا دُعِيَ به أجاب».

وفي لفظ: «لقد سألتَ الله باسْمِهِ الأعظم»[٢].

---

(١) (ص ١٤، ١٥).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٣، ١٤٩٤)، والترمذي (٣٤٨٦)، وغيرهما.

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضًا من حديث أنس بن مالك: «أنه كان مع رسول الله ﷺ جالسًا ورجل يصلي، ثم دعا فقال: اللَّهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان بديع السموات والأرض، ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، فقال النبيّ ﷺ: «**لقد دَعَا الله باسْمِهِ العظيم، الذي إذا دُعِي به أجاب، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى**»[1].

أخرج الحديثين الإمام أحمد في مسنده.

وفي جامع الترمذي، من حديث أسماء بنت يزيد أن النبيّ ﷺ قال: «**اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين: ﴿وَإِلَـهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾** [البقرة: ١٦٣]، وفاتحة آل عمران: ﴿الـم * اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢]. قال الترمذي: هذا حديث صحيح» ا.هـ[2].

«**اللهم إنا نعوذُ بك من قلب لا يخشع، ومن عِلْمٍ لا ينفع، ومن دُعَاءٍ لا يُسْمع**».

۞۞۞۞۞

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٥)، وابن ماجه (٢٣٨٢)، وغيرهما.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (١٤٩٦)، والترمذي (٣٤٨٩)، وغيرهما.

الخطبة الثامنة عشرة

علاماتُ الصَّدَقة المقبولة

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فيقول الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١٠، ١١].

وعن بُسْر بن جَحّاش القرشي رضي الله عنه قال: بَصَقَ رسولُ الله ﷺ، ثم وَضَع عليه أصْبعه السّبّابة، ثم قال: «**يقول الله تعالى: أَنَّي تُعْجزني يا ابْنَ آدم، وقد خلقتُك مِنْ**

مثل هذه، حتى إذا سوّيتُكَ، وَعَدَلْتُك، مشيت بين ثَوْبَيْن، وللأرض منك وَئيد، ثم جَمَعْتَ وَمَنَعْتَ، حتى إذا بَلَغْت هذه[1] - وأشار بيده إلى حلقه - قلت: أتصدّق، وأين أوان الصّدقة»[2].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كان النبيُّ ﷺ أجودَ الناس بالخير، وكان أجودَ ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريلُ، وكان جبريل يلقاه كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبيُّ ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريلُ كان أجودَ بالخير من الريح المرسلة».

عباد الله...

هذه النصوص تُهيّج في النفوس خُلُقَ السّخاء، وتحرّك الأيدي بالبذل والعطاء. ولكن ينبغي أن نعلم: أن الصدقة لا تُقبل إلاّ إذا توفّرت فيها عدّة شروط:

الشرط الأول: الإخلاص:

أن يريد المتصدق بصدقته وجه الله وحده: قال تعالى - في وصف الأبرار - أنهم يقولون: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورًا * إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيرًا ﴾ [الإنسان: ٩، ١٠].

فما هي ذي ثمرة إخلاصهم؟

يقول تعالى: ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً * وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً * مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ لاَ يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلاَ زَمْهَرِيراً * وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً * وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ * قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا * وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا * عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً * وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً * وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً ﴾ [الإنسان: ١١- ٢٢].

---

(١) يعني: بلغت الروح الحلقوم.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وغيرهما.

الشرط الثاني: أن لا يُتْبع المتصَدِّق صدقته بالمنِّ والأذى:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ما هو المنّ؟

قال القرطبيُّ: «قال بعضهم: المنّ: التحدّث بما أعطى حتى يبلغ ذلك المعطى فيؤذيه. والمنّ من الكبائر... روى النسائي عن ابن عمر، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا يَنْظُرُ اللَّهُ إليهم يوم القيامة. العَاقُّ لوالديه، والمرأة المترجِّلة تتشبّه بالرِّجال، والدَّيّوث، وثلاثةٌ لا يدخلون الجنة: العاقّ لوالديه، والمُدمن الخمر، والمنّان بما أَعْطَى**» ا.هـ[١].

وما معنى الأذى؟

قال القرطبيُّ: الأذى: السّب والتشكّي، وهو أعمّ من المنّ؛ لأن المنَّ جزء من الأذى لكنه نصّ عليه لكثرة وقوعه» ا.هـ.

وقال أيضًا: «قال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمنّ أو يؤذى بها فإنها لا تُقبل. وقيل: بل وقد جعل الله لِلْمَلَك عليها أمارة فهو لا يكتبها، وهذا حَسَن» ا.هـ[٢].

الشرط الثالث: أن تكون من كَسْبٍ طَيِّب؛ وإلاّ كان المتصدّق بالحرام كمن يطهّر الثوب بالبول!!

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّق بِعدلَ تَمْرة من كَسْبٍ طيِّب، ولا يقبل الله إلاّ الطيِّب، فإن الله يقبلها بيمينه، ثم يُرَبِّيها لصاحِبها كما يُرَبِّي أحَدُكم فلُوَّه[٣] حتى تكونَ مِثلَ الجبَل**»[٤].

---

(١) **إسناده صحيح**: رواه النسائي (٢٤٠٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٣/ ٢٨٣).

(٣) **الفلوّ**: ولد الناقة أوّل ما يولد.

(٤) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

هذا، وأفضل الصّدقة: الصّدقة على ذِي الرَّحِم، خصوصًا ذي الرَّحِم الكاشِح:

عن زَيْنَبَ الثَّقَفِيَّة امرأة عبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - قالت: قالَ رسول الله ﷺ: «**تَصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ**»، قالت: فَرَجَعْتُ إلى عَبْدِ اللَّهِ بنِ مَسْعود، فقلتُ: إنَّكَ رَجُلٌ خَفِيفُ ذَات الْيَدِ، وَإنَّ رسول الله ﷺ قد أَمَرَنَا بالصدقةِ فائتِهِ فاسألْهُ، فإن كان ذلك يُجْزِئُ عني وإلاَّ صَرَفْتُهَا إلى غَيْرِكُمْ، فقال عبدُ الله بَلِ ائتِهِ أنتِ، فانْطَلَقْتُ، فإذا امرأةٌ من الأنصارِ ببابِ رسول الله ﷺ حَاجَتهَا حَاجَتِي، وكان رَسُول الله ﷺ قَدْ أُلْقِيَتْ عليهِ المَهَابَةُ، فخرجَ علينا بلالٌ رضي الله عنه فقلنا لهُ: ائْتِ رسول الله ﷺ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امْرَأَتينِ بالبابِ يسْأَلانِكَ أَتُجْزِئ الصَّدَقَةُ عَنْهُما عَلَى أزْوَاجِهِمَا وَعَلَى أَيْتَامٍ فِي حُجُورِهِمَا ولا تُخْبِرْهُ مَنْ نَحْنُ. قالت: فدخلَ بلالٌ على رسول الله ﷺ فسأَلَهُ، فقال لَهُ رسول الله ﷺ: «**مَنْ هُمَا؟**» فَقَالَ: امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، وَزَيْنَبُ، فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أَيُّ الزَّيانب؟**» قالَ: امْرَأَةُ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**لَهُمَا أَجْرَانِ، أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ**». رواه البخاري ومسلم واللفظ له.

وعن سَلْمَانَ بْنِ عَامِرٍ رضي الله عنه عَنِ النبيّ ﷺ قالَ: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وعَلَى ذَوِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ: صَدَقَةٌ، وَصِلَةٌ**»[1]. رواه النسائي والترمذي وحسنه، وابن خزيمة، وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ولفظ ابن خزيمة قال: «**الصَّدَقَةُ عَلَى الْمِسْكِينِ صَدَقَةٌ، وَعَلَى الْقَرِيبِ صَدَقَتَانِ: صَدَقَةٌ وَصِلَةٌ**»[2].

وعنَ حَكِيم بْن حزَام رضي الله عنه أنَّ رَجُلاً سَأَلَ رَسُول الله ﷺ عَنِ الصَّدَقَاتِ أَيُّهَا أَفْضَلُ؟ قالَ: «**عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْكَاشِحِ**»[3]. رواه أحمد والطبراني، وإسناد أحمد حسن.

«**الكاشح**»: بالشين المعجمة: هو الذي يضمر عداوته في كشحه، وهو خصره، يعني: أَنَّ أَفْضَل الصَّدَقَةِ عَلَى ذِي الرَّحِمِ الْقَاطِعِ الْمُضْمِرِ العَدَاوَةَ فِي بَاطِنِهِ.

---

(١) صحيح: «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٣).

(٢) صحيح: «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٣).

(٣) حسن: «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٤).

هذا، والصّدقة الجارية كُلّما طال انتفاعُ الناس بها، كلّما ازداد ثوابُها:

عن جابر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَنْ حَفَر ماءً لم تَشْرَبْ منه كَبِدٌ حَرَّى من جنٍّ ولا إنسٍ ولا طائرٍ إلاّ آجَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القيامة**»[١].

ومن آداب الصدقة: أن تكون من أحبّ المال إلى النفس: قال تعالى: ﴿**لَن تَنَالُوا** الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

قال القرطبيُّ - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية: «المعنى: لن تصلوا إلى الجنة وتُعْطَوْهَا حتى تنفقوا ممّا تُحبّون في سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات»[٢] ا.هـ.

عباد الله...

وللصدقة فوائد كثيرة، نذكر منها إحدى عشرة فائدة:

الأولى: قهر النفس واستخراج داء الشحّ منها:

وهكذا سبيل الفلاح: قال تعالى: ﴿**وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

الفائدة الثانية: دفع البلاء:

عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ - فيما يرويه عن ربّه - تبارك وتعالى - أنه قال: «**يا ابن آدم، افْرُغْ من كَنْزِك عندي، ولا حَرَق ولا غَرَق ولا سَرَق، أُوفِيكهُ، أحوجَ ما تكونُ إليه**»[٣].

الفائدة الثالثة: رفع البلاء:

«عن عليّ بن الحسن بْن شقيق قالَ: سَمِعْتُ ابْنَ الْمُبَارك، وسأَلَهُ رجُلٌ: يَا أبا عبدِ الرَّحْمنِ، قَرْحَةٌ خَرَجَتْ في رُكْبَتِي مُنْذُ سَبْعِ سنينَ، وقد عالجتُ بأنواع العلاج، وسألتُ الأطبَّاءَ فلمْ أَنْتَفِعْ به. قال: اذهب فانظُرْ مَوْضِعًا يحتاجُ النَّاسُ الماءَ فاحْفُرْ هُنَاكَ بِئْرًا فإنِّي

---

(١) صحيح: رواه البخاري في «تاريخه»، وابن خزيمة في «صحيحه»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٥٢).

(٢) «تفسير القرطبي» (٤/ ١٢٦) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه الطبراني والبيهقيّ، وصحّحه الألباني في «صحيح الترغيب» (٨٦٧).

أَرْجُو أَنْ تَنْبُعَ هناكَ عَيْنٌ، وَيُمْسَكُ عَنْكَ الدَّمُ، ففعلَ الرجلُ فَبَرَأَ.

رواه البيهقي، وقال: وفي هذا المعنى حكاية شيخنا الحاكم أبي عبد الله - رحمه الله -: فإِنَّهُ قُرِحَ وَجْهُهُ وعالجهُ بأنواعِ المُعَالَجَة فَلَمْ يَذْهَبْ، وبَقِيَ فيه قَرِيبًا مِنْ سَنَةٍ فَسَأَلَ الأُسْتَاذَ الإمامَ أبا عُثْمانَ الصَّابُونِي أَنْ يَدْعُوَ لَهُ في مجلسه يومَ الجمعةِ، فَدَعَا لَهُ وأَكْثَر الناسُ التَّأْمِينَ، فلَمَّا كانَ يومَ الجمعةِ الأُخْرى أَلْقَتِ امْرَأَةٌ في المجلسِ رُقْعَةً بأنها عادت إلى بَيْتِهَا، واجْتَهَدَتْ في الدُّعَاءِ للحاكمِ أبي عبدِ الله تلك الليْلَةَ، فَرَأَتْ في مَنَامِهَا رَسُول الله ﷺ كَأَنَّهُ يقولُ لها: قُولِي لأَبِي عَبْدِ الله يُوَسِّعَ المَاءَ على المُسْلِمينَ، فجئتُ بالرُّقْعَةِ إلى الحَاكِمِ فَأَمَرَ بِسِقَايَةٍ بُنِيَتْ على بابِ داره وحين فَرغُوا من بنائِهَا أَمَر بِصَبِّ الماءِ فيها، وَطَرْحِ الجَمْدِ في الماءِ، وأَخَذَ الناسُ في الشُّرْبِ، فَمَا مَرَّ عليهِ أُسْبُوعٌ حَتَّى ظَهَرَ الشِّفَاءُ، وَزَالَتْ تِلْكَ الْقُروحُ، وَعَادَ وَجْهُهُ إلى أَحْسَنِ ما كان، وَعَاشَ بَعْدَ ذلكَ سِنينَ.

الفائدة الرابعة: زيادة البركة:

والآيات والأحاديث في هذا كثيرة.

الفائدة الخامسة: الموت على التوحيد:

عن مصعب بن عثمان، قال: كان «عبد الرحمن بن أبان» يشتري أهل البيت[١] ثم يأمر بهم فيكسون ويذهبون، ثم يعرضون عليه فيقول: «أنتم أحرار لوجه الله، أستعين بكم على غمرات الموت». قال: فمات وهو قائم في مسجده[٢].

الفائدة السادسة والسابعة: محو الخطايا، وإطفاءُ غَضَبِ الرَّبِّ تبارك وتعالى:

عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ: إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ لَحْمٌ وَدَمٌ نَبَتَا عَلَى سُحْتٍ النَّارُ أَوْلَى بِهِ. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ النَّاسُ غَادِيَانِ، فَغَادٍ فِي فَكَاكِ نَفْسِهِ فَمُعْتِقُهَا، وَغَادٍ فَمُوثِقُهَا. يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ: الصَّلاَةُ قُرْبَانٌ، وَالصَّوْمُ**

(١) من العبيد.

(٢) «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» لابن الجوزي (٧/ ١٢٢).

جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يَذْهَبُ الْجَلِيدُ عَلَى الصَّفَا». رواه ابن حبان في صحيحه[١].

وَعَن مُعَاذ بْن جَبَلٍ قالَ: كُنْتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ في سَفَرٍ فَذَكَر الْحَدِيثَ إِلَى أَنْ قَالَ فِيهِ: ثُمَّ قالَ: يَعْنِي النَّبِيّ ﷺ: «أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟». قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ الله: قالَ: الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِيءُ الْمَاءُ النَّارَ». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

الفائدة الثامنة: نيل جبال من الحسنات في الجنة:

وقد تقدم حديث: «من تصدق بِعَدل تمرة من كَسْبٍ طيب...» الحديث.

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «شبّه - سبحانه - المتصدّق بالزارع، وشبّه الصّدقة بالبذر فيعيطه الله بكلّ صدقة له سبعمائة حسنة، ثم قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ يعني على سبعمائة، فيكون مثل المتصدق مثل الزارع، إن كان حاذقًا في عمله؛ ويكون البذر جيدًا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر؛ فكذلك المتصدّق إذا كان صالحًا والمال طيبًا ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر؛ خلافًا لمن قال: ليس في الآية تضعيف على سبعمائة» ا.هـ[٢].

الفائدة التاسعة: استظلال المؤمن في ظلّ صدقته يوم القيامة:

يدلّ على ذلك: ما رُوي عن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قالَ: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «كُلُّ امْرِئٍ فِي ظِلِّ صَدَقَتِهِ حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ». قالَ يزيدُ: فكانَ أَبُو الْخَيْرِ مَرْثَدٌ لا يُخْطِئُهُ يَوْمٌ إِلَّا تَصَدَّقَ فيهِ بشيءٍ، ولو بِكَعْكَةٍ أو بَصَلَةٍ. رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

وفي رواية لابن خُزَيْمَة أيضًا عن يَزِيد بن أبي حَبِيب عن مَرْثَد بْن أبي عبد الله اليَزَنِي: أَنَّهُ كانَ أَوَّلَ أَهْلِ مِصْرَ يَرُوحُ إلى المسجدِ، وما رأيتهُ داخلاً المسجدَ قطُّ إلاّ وفي

---

(١) حسن: حسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٦١).

(٢) «تفسير القرطبيّ» (٢٧٦).

كُمِّهِ صَدَقَةٌ: إمَّا فُلُوسٌ، وإمَّا خُبزٌ، وإمَّا قَمْحٌ. قالَ: حَتَّى رُبَّمَا رأَيْتُ الْبَصَلَ يَحْمِلُهُ قالَ: فَأقولُ يا أبَا الخَيْرِ إنَّ هذا يُنْتِنُ ثِيَابَكَ، قالَ: فيقولُ: يا ابن أبي حَبيبٍ أَمَا إنِّي لَمْ أَجِدْ في البيتِ شيئًا أَتَصَدَّقُ بِهِ غَيْرَهُ، إنَّهُ حَدَّثَنِي رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ رسول الله ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ظِلُّ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صَدَقَتُهُ»[١].

الفائدة العاشرة: النجاة من عذاب القبر:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إنَّ الميِّتَ إذا وُضِعَ في قبرِه، إنَّه يَسْمَعُ خَفْقَ نِعالِهِمْ حينَ يُوَلُّوا مُدْبِرين،، فإنْ كانَ مؤمناً كانتِ الصَّلاةُ عَنْدَ رَأسِهِ، وكانَ الصِّيَامُ عَنْ يمينِهِ، وكانَتِ الزكاةُ عن شِمَالِهِ، وكانَ فِعْلُ الخَيْرَاتِ من الصَّدَقَةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى النَّاسِ عَنْدَ رِجليهِ، فَيُؤْتَى مِن قِبَلِ رأسِهِ، فتقولُ الصَّلاةُ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يُؤْتَى عن يمينه، فيقولُ الصِّيامُ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يُؤتى عن يسارِهِ، فتقولُ الزكاةُ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ، ثم يُؤْتَى من قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فيقولُ فِعْلُ الخَيْرَاتِ مِنَ الصَّدَقَةِ والصِّلَةِ والمعروفِ والإحسانِ إلى الناسِ: ما قِبَلِي مَدْخَلٌ...**»[٢] الحديث.

الفائدة الحادية عشرة: دخول الجنة:

فعن أبي ذرّ رضي الله عنه قال: سألتُ رسول الله ﷺ ماذا يُنْجِي العبدَ مِنَ النَّارِ؟ قالَ: «**الإيمَانُ بِالله**». قلتُ: يَا نَبِيَّ الله مَعَ الإيمانَ عَمَلٌ؟ قالَ: «**أَنْ تَرْضَخَ مِمَّا خَوَّلَكَ اللهُ، وَتَرْضَخَ مِمَّا رَزَقَكَ اللهُ**». قلتُ: يَا نَبِيَّ الله، فَإنْ كانَ فَقِيرًا لا يَجِدُ مَا يَرْضَخُ؟ قالَ: «**يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ**». قلتُ: إنْ كانَ لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَأْمُرَ بالمعروفِ، ولا يَنْهَى عنِ الْمُنْكَرِ؟ قالَ: «**فَلْيُعِنْ مَظْلُومًا**». قلتُ: يَا نَبِيَّ الله! أَرَأَيْتَ إنْ كانَ ضَعِيفًا لا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُعِينَ مَظْلُومًا؟ قالَ: « **مَا تُرِيدُ أَنْ تَتْرُكَ لِصَاحِبِكَ مِنْ خَيْرٍ، لِيُمْسِكْ أَذَاهُ عَنِ النَّاسِ**». قُلْتُ: يَا رَسُول الله أَرَأَيْتَ إنْ فَعَلَ هذَا يُدْخِلْهُ الجَنَّةَ؟ قالَ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ يُصِيبُ خَصْلَةً مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ إلاَّ أَخَذَتْ بِيَدِهِ حَتَّى تُدْخِلَهُ الجَنَّةَ**»[٣].

---

(١) صحيح: انظر «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٦٦).
(٢) جزء من حديث طويل: رواه الطبرانيّ في «الأوسط»، وابن حبان في «صحيحه» واللفظ له.
(٣) صحيح: رواه البيهقي، وانظر «صحيح الترغيب» (٨٦٩).

عباد الله...

هذه بعض فوائد الصدقة، فحرّكوا مال الله في التقرب إليه، تظفروا بسعادة الدارين.

وفقني اللَّهُ - تعالى - وإياكم لفعل الخيرات، واجتناب المحرّمات.

أقول قولي هذا، وأستغفرالله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى

وبعد...

فاعلموا - عباد الله - أن الله تعالى لا يقبل العمل إلاّ بشرطين:

الأول: أن يكون خالصًا.

والثاني: أن يكون صوابًا.

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢]. قال: «أخلصه وأصوبه، وقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبله، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل حتى يكون خالصًا صوابًا. قال: والخالص إذا كان لله ﷻ، والصّواب إذا كان على السُّنّة»[١].

اللّهمّ وَفّقنا لأحسن الأعمال، لا يُوفّق لأَحْسَنها إلاّ أنت، واصْرِف عَنّا سَيّئها، لا يصرف عَنّا سَيّئها إلاّ أنت.

۞۞۞۞۞

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١٥، ١٦).

الخطبة التاسعة عشرة

هل انتشر الإسلام بالسيف؟

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فخطبة اليوم نجيب فيها عن سؤالٍ تردّد كثيرًا، وهو:

هل انتشر الإسلام بالسيف؟ والجواب: لا. لماذا؟

لأن الإسلام لا يريد أن يستولي على القوالب - وفقط -، إنما يريد أن يستولي على القلوب. فالله - تعالى - لا يريد أعناقًا خاضعة، ولكن يريد قلوبًا خاشعة.

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ

يَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء: ٣، ٤].

ولأن الناس لو دخلوا في الإسلام مُكْرَهين، لدخلوه بأبدانهم، وقلوبهم على الكفر قائمة.

وهذا هو النفاق العَقَدي، الذي بيّن الله - تعالى - مآل أهله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً ﴾ [النساء: ١٤٥].

إن إكراه الناس على الدخول في الإسلام، لا يخدم دنيا، ولا يقيم دينًا. لذلك قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ٩٩، ١٠٠].

عباد الله...

ولا يخفى عليكم أن الناس لو دخلوا في دين الله مكرهين، لما رأينا مجاهدًا مشتاقًا. ولا عابدًا أوّاهًا. ولا رجلاً ذكرَ اللهَ خاليًا ففاضت عيناه.

وهذه نماذج تدلّ على أن الناس دخلوا في دين الله راغبين، ومحبّين، ومشتاقين:

النموذج الأول: سعد بن خيثمة:

وسعد بن خيثمة: صحابيّ من الأنصار، قالوا: كان أحد النّقباء الاثني عشر يوم بيعة العقبة.

قِصَّةُ اسْتِشْهَادِه:

ولَمَّا ندب رسول الله ﷺ الناس إلى غزوة بدر قال له أبوه خيثمة: إنه لابد لأحدنا أن يقيم، فآثرني بالخروج وأقم مع نسائك فأبى سعد وقال: «لو كان غير الجنة آثرتك به، إني لأرجو الشهادة في وجهي هذا».

فاستهما[1] فخرج سهمُ «سعد» فخرج فَقُتل «ببدر»[2] رضي الله عنه[3].

---

(١) استهما: اقترعا.

(٢) قتله هُبيرة بن أبي وهب المخزومي. كما في «أسد الغابة» (٢/ ١٨٢).

(٣) «الإصابة» (٤/ ١٤)، و«الاستيعاب» (٤/ ١٤٣).

وتدور الأيام.. ولمّا تجهز الرسول ﷺ لخوض معركة «أُحُد» أتى خيثمة رسولَ الله ﷺ فقال: لقد أخطأتني وقعة بدر وكنت - والله - عليها حريصًا، حتى ساهمت ابني في الخروج، فخرج - في القرعة - سهمه فَرُزق الشهادة.

وقد رأيتُ البارحة ابني في النوم في أحسن صورة، يسرح في ثمار الجنة، وأنهاره يقول: الحق بنا ترافقنا في الجنة، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًّا.

ثم قال: وقد أصبحتُ يا رسول الله مشتاقًا إلى مرافقته، وقد كبرت سني، ورق عظمي، وأحببتُ لقاء ربي: فادع الله يا رسول الله أن يرزقني الشهادة ومرافقة ابني «سعد» في الجنة.

فدعا الرسول ﷺ له. فَقُتِل شهيدًا في «أُحُد».

فمن الذي هيّج هذا الشّوق؟ إنه الإيمانُ الحيّ.

النموذج الثاني: مسروق بن الأَجْدَع:

ومسروق بن الأجدع: كوفي تابعي: قال أبو إسحاق:

«حجّ مسروق، فما بات إلاّ ساجدًا!!».

وقال سعيد بن جبير: «لقيني مسروق، فقال: يا سعيد، ما بقي شيءٌ يرغب فيه إلا أن نعفّر وجوهنا في التراب، وما آسى على شيء إلاّ السجود لله تعالى».

فمن ذا الذي حرّك هذه الهمّة في نفسه وبدنه؟

أهو الإكراه؟! لا يا سادة، إنه الإيمان اليقظ، واليقين بما أعدّ الله لعباده الصالحين.

النموذج الثالث: زين العابدين «عليّ بن الحسين»:

كان - رحمه الله - يحمل الخبز بالليل على ظهره، يتبّع المساكين في الظّلمة، ويقول: «إنَّ صَدَقَةَ السِّر تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ».

ولما مات وجدوا بظهره أثَرًا مِمّا كان ينقل الجُرُبَ بالليل إلى منازل الأرامل!!

فمن الذي حرّك هذه الهمّة في جُنح الليل بعيدًا عن أعين الناس؟ أهو الإكراه؟! لا يا سادة، إنه الإيمان الحيّ، والشوق إلى ما عند الله.

عباد الله...

فلماذا رفع الإسلام السيف إذًا؟

رفع الإسلام السيف لسببين بارزين:

الأول: رد العدوان، ورفع القهر والإذلال:

قال الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلاَّ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

السبب الثاني: إزالة العقبات التي تقف حائلاً دون وصول كلمة التوحيد إلى الناس:

وذلك ليتمكَّن المسلمون من عَرْض الإسْلاَمِ لا فَرْضه.

ومن أجلِ هذا الهدف الأسمى تحرَّكت جيوش الإسلام تجوب الدنيا شرقًا وغربًا، وشمالاً وجنوبًا، يعرض قادتها الإسلام على الملوك، فمنهم من تجاوب ومنهم من قاوم: وعن هذا يقول الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله تعالى»**[١].

عباد الله...

ولم يجعل الإسلامُ صليلَ السَّيف يطغى على المبادئ والأخلاق: ولله دَرُّ مصطفى صادق الرافعيّ عندما قال: «إن لسيوف المسلمين أخلاقًا» ا.هـ.

نعم فقد قدّم المسلمون الأوائل نموذجًا مشرِّفًا ومُشْرِقًا للجهادِ في سبيل الله - تعالى -

(١) رواه البخاري (٢٥)، ومسلم (٢٢/ ٣٦).

فلم يعرف أبناء الإسلام خسّة الطبع ولا نذالة الفعل كهؤلاء الذين يعيشون بشرعة الغاب من رعاة البقر واليهود والشيوعيين الذين سفكوا دماء الأبرياء من الشيوخ والنساء والأطفال في العراق وفلسطين، والبوسنة والهرسك وكوسوفا، وهي لا تقاتل ولا تقتل المدنيين الذين لا ينتصبون لقتال المسلمين، فهم ليسوا من أهل الممانعة والمقاتلة.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

قال ابن عباس: ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ أي: لا تقتلوا النساء والصبيان والشيخ الكبير، ولا يُقتل زَمْنَي ولا أعمى ولا راهب.

وعن سليمانَ بن بُريدة، عن أبيه، قالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ أَوْ خِلَالٍ، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ. ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللَّهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمْ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللَّهِ وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ. وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ، أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللَّهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللَّهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[(١)].

---

(١) رواه مسلم.

عباد الله...

نعم «إن لسيوف الصحابة أخلاقًا»:

فهذا أبو دجانة رضي الله عنه يوم أُحُد، ورحى الحرب دائرة ونارها مستعرة فالسيوف تنل من الرقاب والسهام تخترق الصدور، وإذا به يرى فارسًا ملثمًا يخمش الناس خمشًا[١] فهوى إليه بسيف رسول الله ﷺ الذي كان في يده فسمع صوت ولولة فعلم أنها هند بنت عتبة.. فقال: «أكرمت سيف رسول الله ﷺ أن أضرب به امرأة»[٢]..

فهذا الصحابي أكرم سيف رسول الله ﷺ أن يضرب امرأة تحمس الكفار على القتال.. فكيف إذا كانت امرأة عادية من المدنيين أو شيخًا أو طفلاً.. فترى ماذا كان سيقول أبو دجانة رَضِيَ الله عَنْهُ؟

هذه هي قيم الإسلام التي تضبط سيوفه وتحكم جيوشه بل إن الإسلام عصم دماء كل كافر تحارب دولته الإسلام إذا وُجد أعمى أو زمني أو شيخًا أو راهبًا أو أجيرًا أو فلاحًا أو عاملا ما لم ينتصب لقتالنا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «اتقوا الله في الفلاحين الذين لا يناصبوكم الحرب».

فعلّة القتال منتفية عنهم إذ إنهم لا يُحسنون القتال ولا ينتصبون له، وخاصة في هذه الأيام التي لا يملك المدنيون أسباب القتال وأدواته وتدريبه وتختص بذلك فقط الجيوش المنظمة التي تملك هذه الأدوات، فالوضع الآن يختلف عن ذي قبل حيث إن المدني في عصور الصحابة والتابعين كان بوسعه امتلاك كثير من أدوات القتال أما الآن فمن من المدنيين يملك دبابة أو عربة مدرعة أو طائرة أو صاروخًا؟

ولذلك فإن حكم تحريم قتل النساء والأطفال والفلاحين والأجراء سابقًا يحمل في طياته علة تحريم قتل كل المدنيين في أيامنا هذه.. حيث إن القتال حرفة معينة وله

---

(١) **يخمش الناس**: يحثّ المقاتلين ويشجعّهم ويحمّسهم.

(٢) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ٥٦) ، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبيّ في «التلخيص»: صحيح.

أدوات معينة وإمكانات معينة.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «إذا كان أصل القتال المشروع هو الجهاد ومقصوده هو أن يكون الدين كله لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، فمن امتنع عن هذا قوتل باتفاق المسلمين، وأما من لم يكن من أهل الممانعة أو المقاتلة كالنساء والصبيان والراهب والشيخ الكبير والأعمى والزمني فلا يقتل عند جمهور المسلمين إلا أن يقاتل بقوله أو فعله»(١).

إن الإسلام عندما يخوض غمار الحرب لا يهدف إلا إلى إصلاح الخلق ومن ثم فهو لا يبيح قتل الأنفس إلا ما يحتاج إليه هذا الغرض، ومن ثم فإن المنطق السديد والعقل السليم يدلان على أن الإسلام لا يبيح قتل المدنيين من الكفار ولا يبيح إلا قتال من يقاتله.

وليحذر أبناء الحركة الإسلامية الذين يريدون إقامة هذا الدين العظيم أن يستدرجهم الطغيان الصليبي على بلاد المسلمين أو أن تستدرجهم أخلاق الحروب القذرة التي تدور هذه الأيام على الكرة الأرضية والتي تحكمها أخلاق الوحوش الضارية.. ونقول لأبناء الحركة الإسلامية في كل مكان لا تستدرجوا بهذه الأشياء فتستبدلوا بالمعنى السامي للجهاد وهدفه النبيل الانتقام الشخصي.

لا تجعلوا سيوف المسلمين تعمل بالانتقام وأحكامه.

لا تستبدلوا أحكام الانتقام بأحكام الجهاد.. فأحكام الانتقام تسوسها شرعة الهوى.. وأحكام الجهاد تسوسها شرعة الرحمن وعدله ورحمته.

لا تجعلوا المسلمين وغير المسلمين يكرهون الجهاد وأحكامه بل والإسلام وأحكامه بوضعكم للسيف في غير موضعه.

إن المسلم الفطن في جهاده هو الذي يشهر سيفه ويشد قوسه حيث يرى مصلحة الإسلام العليا ومصلحة الأوطان العليا، وإلا غمد سيفه خشية أن يسيء إلى دينه ووطنه ودعوته وأمته» ا.هـ(٢).

---

(١) «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٨/ ١٩٥).

(٢) «فرسان النهار» د. سيد العفاني (١/ ٢٢٥، ٢٢٦).

عباد الله...

ووصية الإسلام بالأقلية غير المسلمة، في ديار الإسلام هو أكبر دليل على إن الإسلام لم يُكْره أحدًا على الدخول فيه:

وإليكم بعض الأحاديث الشريفة الذي تدلّ على ما نقول:

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ قتل مُعاهِدًا في غير كُنهه**[١]**، حَرَّم الله عليه الجنة**»[٢] وزاد النسائي: «**أن يشم ريحها**».

وعن عبد الله بن عمرو – رضي الله عنهما – قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليُوجَد من مسيرة أربعين عامًا**»[٣].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل نفسًا مُعاهَدة بغير حلِّها، حرّم الله عليه الجنة أن يشمَّ ريحها**»[٤].

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم يرح رائحة الجنة، وإن ريح الجنة ليُوجد من مسيرة مائة عام**»[٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**إذا اطمأن الرجل إلى الرجل ثم قتله بعدما اطمأن إليه نُصب له يوم القيامة لواءُ غدر**»[٦].

---

(١) قال العلامة السفاريني في «الذخائر لشرح منظومة الكبائر» (ص ١٤٦): «في غير كنهه، أي: في غير وقته الذي لا يجوز قتله فيه حين لا عهد له».

(٢) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود (٢٧٦٠)، (٣/ ١٩١)، والنسائي (٤٧٦١)، (٨/ ٣٩٣)، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٥٦).

(٣) رواه البخاري (٣١٦٦)، (٢/ ٩٧٦)، وأحمد، والنسائي، وابن ماجه.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد، والنسائي عن أبي بكرة، وكذا رواه ابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٤٥٨).

(٥) **صحيح**: رواه ابن حبان في صحيحه – كتاب إخباره عن مناقب الصحابة – باب وصف الجنة والنار -- ذكر الإخبار عن المسافة التي توجد منها رائحة الجنة – الحديث رقم (٧٣٨٢)، (١٦/ ٣٩١).

(٦) **صحيح**: رواه الحاكم عن عمرو بن الحمق، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٤٤١)، و«صحيح الجامع» (٣٥٧).

أيها المسلمون...

إن هناك عاملين وراء اندفاع الإسلام وانسياحه في الأرض:

الأول: القوّة الإيمانية التي اتّصف بها حاملو الإسلام، والإيمان: اعتقاد بالقلب. ونطق باللسان، وعمل بالأركان.

فلما رأى غيرُ المسلمين، في المسلمين صدقًا وعدلاً ورحمة، شدّ ذلك انتباههم إلى الإسلام.

العامل الثاني: عامل جذب من القوّة المخالفة التي تريد أن تنتفع بما في الإسلام من مبادئ سامية وعدالة. فالإسلام يحمل في طياته عوامل البقاء.

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى:

وبعد...

فمّما سبق يتبيّن لنا: أكذوبة قول أعداء الله: «إن الإسلام انتشر بالسيف».

بل الإسلام انتصر على السّيف، لأن السيف في الإسلام له خُلُقٌ، ولكن ماذا نقول؟ نقول كما قيل:

وكم من عائبٍ قولاً صحيحًا وآفته من الفهم السقيم

اللّهم انصر دينك، وكتابك، ونبيّك، وعبادك الصالحين.

❁❁❁❁❁

الخطبة العشرون

الذُّلُ.. أسبابه.. وكيف الخَلَاص منه

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فلا يخفى حالُ أمّتنا المسلمة - اليوم على أحد.. فأمّة الإسلام.. تآكلت أطرافها.. وأمّة الإسلام.. دَبَّ إليها داءُ الأمم قَبْلَها: الحسدُ وَالْبَغْضَاء.

وأمة الإسلام: ضربتها العصبيةُ العمياء، ففرّقت بين أبنائها، وشتت شملها.. فأصبحت شَذَر مَذَر.

وأمّة الإسلام: حَلَّ بها ما خشي النبيُّ ﷺ عليها منه:

فعن أبي بَرْزَةَ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إنّما أخشى عليكم شهواتَ الغَيِّ في بطونِكم، وفروجِكم، وَمُضَلاَّتِ الهَوَى**»[1].

فيا تُرى ما هي أسباب هذا الذلّ، وكيف الخلاص منه؟

نحيل هذين السؤالين للمعصوم ﷺ:

روى الإمام أحمد وأبو داود وغيرهما بإسناد صحيح عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إذا تَبَايَعْتُم بالعِينَةِ**[2]**، وأخذتم أذنابَ البقر، ورضيتم بالزَّرْع، وتركتم الجهاد في سبيل الله، سَلَّط اللَّهُ عليكم ذُلاً لا يَنْزِعُهُ عنكم حتى تَرْجِعُوا إلى دينكم**».

في هذا الحديث: بيّن النبيُّ ﷺ أن أسبابَ الذلّ: سوء المعاملة، والركون إلى الدنيا. ثم بين أن الخلاص في شيء واحد وهو: الرجوع إلى الدين.

فانفراج الناس عن الدِّين سبب كُلّ بلاء وشرّ:

روى ابن أبي شيبة عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: «كيف أنتم إذا انفرجتم عن دينكم كما تنفرج المرأة عن قُبلها لا تمنع من يأتيها؟».

قالوا: لا ندري.

قال: «لكني والله أدريّ، أنتم يومئذٍ بين عاجز وفاجر».

عباد الله...

ما هو الدين؟

ما هو الدين الذي أمرنا النبيُّ ﷺ بالرجوع إليه؟ احفظوا. فالدِّين شُوِّه.

شوّه من قِبَلِ قَوْمٍ أساءوا إليه.. فهمًا وتطبيقًا.

وتحقّق ما أَخبر به حذيفةُ بن اليمان.

فعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: أنه أخذ حَصَاةً بيضاء، فوضعها في كَفّه، ثم

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد والبزار والطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» برقم (٥٠).
(٢) نوع من أنواع الرِّبا.

قال: «إن هذا الدين قد استضاء إضاءة هذه الحصاة».

ثم أخذ كَفًّا من تراب، فجعل يَذَره على الحصاة حتى واراها، ثم قال: «والذي نفسي بيده، ليجيئنّ أقوامٌ يَدْفِنون الدِّين كما دَفَنْتُ هذه الحصاة!!»[1].

ما هو الدين؟

الدّين: هو الفطرة: قال الله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ [الروم: ٣٠].

الدين: هو الإسلام: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمران: ١٩].

والإسلام دين الأنبياء والمرسلين من لدن آدم إلى محمد ﷺ: قال تعالى: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ [البقرة: ١٣٦].

وهذا الدّين علّمه لنا جبريلُ – عليه السلام – في الحديث التالي:

عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَيْضًا قَالَ: «بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنْ الْإِسْلَامِ؟!

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، ﷺ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».

قَالَ: صَدَقْتَ.

فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِيمَانِ؟

قَالَ: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**».

---

(١) رواه ابن وضّاح في كتابه: «البدع والنهي عنها».

قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ الْإِحْسَانِ؟!

قَالَ: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ السَّاعَةِ؟

قَالَ: «**مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ**».

قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟

قَالَ: «**أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ، يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ**».

ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: «**يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنْ السَّائِلُ**»؟

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «**فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ**». رواه مسلم.

عباد الله...

وهذا الدين يحمل في طيّاته عوامل البقاء، لذا لم ينتشر بالسَّيف كما ادّعى الخرّاصون، إنما انتشر بأخلاقه الحميدة، ومبادئه القويمة، وقبل ذلك، بإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له. وهذا ما أخبر به «هرقل» - ملك الروم - كما في الحديث التالي:

روى البخاري في «صحيحه»: عن عَبْدَ الله بْنَ عَبَّاسٍ أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَكَانُوا تِجَارًا بِالشَّأْمِ فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ[1] فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَبًا بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَقُلْتُ: أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَبًا، فَقَالَ: أَدْنُوهُ مِنِّي وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ.

ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ: قُلْ لَهُمْ: إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ، فَوَاللَّهِ لَوْلَا الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا[2] عَلَيَّ كَذِبًا لَكَذَبْتُ عَنْهُ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ:

---

(١) أي: صالح فيها كفّار قريش في صلح الحديبية.

(٢) ينقلوا عنّي وينسبوا إليَّ كذبًا.

كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قُلْتُ: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ، قَالَ: فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ، قَالَ: أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ قُلْتُ: بَلْ يَزِيدُونَ، قَالَ: فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ قُلْتُ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَغْدِرُ؟ قُلْتُ: لَا، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لَا نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا، قَالَ: وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئًا غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ، قَالَ: فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ؟ قُلْتُ: الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ. قَالَ: مَاذَا يَأْمُرُكُمْ؟ قُلْتُ: يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ.

فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ: قُلْ لَهُ: سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقُلْتُ: لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، قُلْتُ: فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ، وَسَأَلْتُكَ: هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمْ اتَّبَعُوهُ وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الْإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الْإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ؟ فَذَكَرْتَ أَنْ لَا، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لَا تَغْدِرُ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ؟ فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ، فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ[1]، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ.

---

(١) تحملتُ مشقة الوصول إليه.

ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

«مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ وَ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٦٤].

قَالَ أَبُو سُفْيَانَ: فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ، كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ وَارْتَفَعَتْ الْأَصْوَاتُ، وَأُخْرِجْنَا فَقُلْتُ لِأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا: لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ[١]، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الْأَصْفَرِ، فَمَا زِلْتُ مُوقِنًا أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامَ.

وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْمًا خَبِيثَ النَّفْسِ[٢] فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ: قَدْ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ. قَالَ: ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً[٣] يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ؟ قَالُوا: لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلَّا الْيَهُودُ، فَلَا يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنْ الْيَهُودِ، فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ: اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لَا؟ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ وَسَأَلَهُ عَنْ الْعَرَبِ، فَقَالَ: هُمْ يَخْتَتِنُونَ، فَقَالَ هِرَقْلُ: هَذَا مُلْكُ هَذِهِ الْأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ.

---

(١) يعني: عظمُ، وأراد بـ«ابن أبي كبشة» النبيّ ﷺ، وعادة العرب إذا انتقصت نسبت إلى جد غامض.

(٢) أي: رديء النفس غير طيبها.

(٣) أي: كاهنًا.

ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ، ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الرُّومِ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ؟ فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الْأَبْوَابِ فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ وَأَيِسَ مِنْ الْإِيمَانِ قَالَ: رُدُّوهُمْ عَلَيَّ، وَقَالَ: إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفًا أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ، فَقَدْ رَأَيْتُ، فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ. رَوَاهُ صَالِحُ بْنُ كَيْسَانَ وَيُونُسُ وَمَعْمَرٌ.

هذه القصة رواها البخاري – رحمه الله تعالى – في «صحيحه» وكذلك مسلم – رحمه الله – والحديث عند الترمذي وأبي داود وأحمد في سياقات مختلفة.

عباد الله...

هذه شهادة أكبر عدوٌ للإسلام في وقته، فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فما أحوجنا اليوم إلى معرفة ديننا، فإن الإسلام شُوّه، من قِبَلِ أعدائه وأدعيائه:

ولن يُفهم الإسلام – كما ينبغي – إلاّ عن طريق أهل العلم الربّانيين. فأهل العلم هم «أَعْرَفُ النّاسِ بالحق، وأرحم النّاسِ بالخَلْق».

فالزموا – **عباد الله** – غَرْز العلماء، فإنّهم ورثة الأنبياء.

اللهم إنا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملاً متقبّلاً.

۞۞۞۞۞

الخطبة الحادية والعشرون

حقيقة الزُّهد وفضله

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد..

فعن سهل بن سعد السّاعديّ رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبّني الله وأحبّني الناس.

فقال ﷺ: «**ازْهَدْ في الدنيا يُحِبُّك الله، وازْهَدْ فيما في أيدي الناس يُحبُّك الناس**»[1].

(١) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبراني في «الكبير»، والحاكم، وغيرهم، وصحّحه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٩٢٢).

عباد الله...

اشتمل هذا الحديث «الصحيح» على وصيتين:

الأولى: الزهد في الدنيا، وأنه مُقْتضٍ لمحبة الله ﷻ لعبده.

وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة تحثّ على الزهد، وترغّب فيه، وتبيّن فضله:

فمن الآيات:

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِراً * الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ * وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ * وَزُخْرُفاً وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٣٣- ٣٥].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

ومن الأحاديث:

قوله ﷺ: «مَنْ كانت الآخرة همّه، جعل اللهُ غِنَاهُ في قلبه، وَجَمَع له شَمْلَه، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همّه، جعل الله فَقْره بين عينيه، وفَرّق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما قُدِّر له»[1].

وقال ﷺ: «من أُشْرِب حُبّ الدنيا الْتَاطَ منها بثلاث: شقاءٍ لا يَنْفَدُ عَناه، وحرصٍ لا يَبْلُغ غِناه، وأملٍ لا يَبْلُغُ مُنْتَهَاه. فالدنيا طالبةٌ ومطلوبةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الآخرةُ حتى يُدْرِكَهُ الموتُ فيأخُذهُ. ومن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يَسْتَوفِي منها رِزْقَهُ»[2].

(١) رواه الترمذي، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥١٠)، والحديث صحيح.

(٢) قال المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٤٧٢٦): رواه الطبراني بإسناد حسن.

عباد الله...

وثمرة حُبّ الدنيا: ذلَ الأبد. لأن حُبَّ الدنيا: رأس كُلِّ خطيئة.

قال الحسن: «إن قومًا أكرموا الدنيا، فَصَلَبَتْهُم على الْخُشُب، فأهينوها، فأهنأ ما تكون إذا أهنتموها».

وقال بِشْرُ بْنُ الحارث: «قُلْ لِمَنْ طَلَب الدنيا، تَهيَّأ للذُّلِّ».

وقال ابن عطاء الله: «ما بسقت أغصان ذُلّ إلاّ على بذَر طمع».

أيُّهـا البانـي قُـصُورًا طـوالاً	أيـن تبتغـي هـل تـريد السَّحَابا
إنمـا أنـت بـوادي المـنايا	إن رَمَـاك المـوتُ فـيه أصَـابَا
أيهـا البانـي لِهَـدْمِ اللّيالـي	ابْـنِ مـا شئتَ سَوْفَ تَلْقَى خَرَابا

أيها المسلمون...

اختلفت عبارات القوم في تعريف الزّهد: والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سَفَرُ القَلْب مِن وطَنَ الدنيا، وأَخْذُه في منازل الآخرة.

ومن أحسن ما قيل في الزّهد: كلام الحسن أو غيره: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال، ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة - إذا أصبت بها - أرغبَ منك فيها لو لم تُصبْك».

فهذا من أجمع كلام في الزهد وأحسنه[1].

وقال الإمام أحمد - رحمه الله تعالى -: الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل عن الله، وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من أجمع الكلام.

---

(١) «تهذيب مدارج السالكين» (٢٤٣).

ويرشدنا الإمام ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى - إلى ما يُعين على سلوك طريق الزهّاد، فيقول: «الذي يعين على الزهد ثلاثة أشياء:

أحدها: علم العبد أن الدنيا ظل زائل، كما قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

وسمّاها: «متاع الغرور».

والثاني: علمه أن وراءها دار أعظم منها، وهي دار البقاء، فالزهد في الدنيا لتلك الدار العظيمة.

والثالث: أن تعلم أن ما قُدِّر لك من الدنيا لابد أن يأتيك، فزهدك عنها لا يمنع أن يأتيك ما كُتب لك منها، كما أن حرصك عليها لا يأتيك بما لم يكتب لك منها» أ.هـ.

عباد الله...

وهذه قصّة أحد الزُّهّاد الكرام: قال ابن عيينة:

دخل «هشام»[١] الكعبة في موسم الحج، فإذا هو بسالم بن عبد الله[٢]، فقال: سلني حاجة؟ قال سالم: إني أستحيي من الله أن أسأل في بيته غيره.. فلمّا خرجا، قال: الآن فسلني حاجة؟

قال له سالم: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟

فقال: من حوائج الدنيا.

قال: والله ما سألتُ الدنيا مَنْ يملكُها، فكيف أسألُها مَنْ لا يملكها؟!

عباد الله...

وخلاصة الكلام: من أراد أن ينال حُبَّ الله تعالى له، فليزهد في الدنيا، فإن من زهد في الدنيا رغب فيما عند الله.

---

(١) هو: هشام بن عبد الملك - الخليفة الأموي

(٢) هو: سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال جابر بن عبد الله: خرجتُ مع عليّ رضي الله عنه إلى خارج المدينة فتفكرتُ في أحوال الدنيا وغرورها وفتنها، فقال: يا جابر إن الدنيا أحقر من أن يفتن بها لبيبٌ.

يا جابر إن لذّاتها في ستة أشياء: مأكول، ومشروب، وملبوس، ومنكوح، ومشموم، ومسموع.

فأما المأكول: فألين ما يؤكلُ العسلُ وهو رجيعُ ذبابة.

وأما المشروب: فألذُّ ما يشرب الماءُ وقد تساوى، فيه جميع الحيوانات.

وأما الملبوس: فأفخر ما يُلْبس الحريرُ ومخرجه من دودة.

وأما المنكوح: فمَبَالٌ في مبالٍ.

وأما المشموم: فأطيبُه المِسْك وهو دمُ دابَّةٍ.

وأما المسموع: فألذ ما يُسْمَعُ الْوَتَر وهو إثمٌ كلّه[1].

عباد الله...

وهذا رسولُ الله ﷺ عُرِضت عليه الدنيا، ومفاتيح كنوزها فلم يأخذها، واختار أن يجوع يومًا ويشبع يومًا!!

عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: دخلت عليَّ امرأةٌ من الأنصار، فرأت فراشَ رسول الله ﷺ عباءَةً مَثْنِيَّة، فرجعتْ إلى منزلها، فبعثتْ إليّ بفراشٍ حشْوُهُ الصوف، فدخل عليّ رسول الله ﷺ، فقال: «**ما هذا؟**».

فقلت: فلانة الأنصارية دخلت عليّ، فرأت فراشك، فبعثت إليّ بهذا فقال: «**رُدّيه**». فلم أردّه، وأعجبني أن يكون في بيتي، حتى قال ذلك ثلاث مرات، فقال: «**يا عائشة، رُدِّيهِ، والله لو شئت، لأجْرى الله معي جبال الذهب والفضة**»[2].

حكاية:

وحكي أن أقوامًا من الأعراب زرعوا زرعًا، فلمّا بلغ أصابته آفة فذهبت به فاشتد

(١) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (٤٥).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد.

ذلك عليهم، حتى رؤي فيهم، فخرجت أعرابية منهم، فقالت:

ما لي أراكم متغيرة ألوانكم، ميتة قلوبكم، هو ربنا فليفعل بنا ما يشاء، ورزقنا عليه، يأتي به من حيث يشاء، ثم أنشدت تقول:

لو كان في صخرة في البحر راسية ... صمّاء ململمة ملس نواحيها

رزق نفس يراها لانْفَلَقَتْ ... حتّى تؤدِّي إليه كل ما فيها

أو كان بين أطباق السبع مسلكها ... لسهّل اللّهُ في المرقى مَرَاقيها

حتى تنال الذي في اللّوح يخط لها ... فإن أتته وإلاّ سوف يَأتِيها

هذا، وبالله التوفيق، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم..

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والوصية الثانية: قوله ﷺ: «وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس»:

قال الإمام الحسن: لا تزال كريمًا على الناس ولا يزال الناس يكرمونك ما لم تعاط ما في أيديهم، فإذا فعلت ذلك استخّفوا بك وكرهوا حديثك وأبغضوك.

وقال أيوب السختياني: «لا يَنْبُلُ الرجل حتى تكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم».

وقال جبريلُ - عليه السلام - للرسول ﷺ: «**يا محمد عِشْ ما شئتَ فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مُفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّه استغناؤه عن الناس**».

وقد تكاثرت الأحاديث عن النبيّ ﷺ بالأمر بالاستعفاف عن المسألة، فمن سأل الناس ما بأيديهم كرهوه وأبغضوه لأن المال محبوب لنفوس بني آدم، فمن طلب منهم ما يحبونه كرهوه لذلك، وسقط من أعينهم.

قال بعض السلف: «هان عليك من احتاج إليك».

وأما من زهد فيما في أيدي الناس وعفّ عنهم فإنهم يحبونه ويكرمونه لذلك ويسود به عليهم.

قال أعرابي لأهل البصرة: من سيّد أهل هذه القرية؟ قالوا: الحسن. قال: بم سادهم؟ قالوا: احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دنياهم.

«اللّهم اكْفِنا بِحَلالِك عن حَرَامِك، وأغْنِنا بِفَضْلِك عَمَّن سِوَاك».



الخطبة الثانية والعشرون

أسباب خراب البيوت

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فعنوان خطبة اليوم: «أسباب خراب البيوت».

عباد الله...

هناك بيوت كثيرة، انْتُزِعَتْ منها البركة، وهَرُبَتْ منها السكينة، وودّعتها الراحة... وضربها الفقرُ وعدمُ الاستقرار، وخيّمت عليها التعاسة، وحَلَّ بساحتها البلاء والوباء... أظْلَمَّ عليها النّهار، وقد كانت لياليها مضيئة.

فيا تُرى ما هي الأسباب التي أدّت إلى هذه البلايا؟

الأسباب كثيرة، نذكر - هنا - بعضها:

السبب الأول: الظلم:

قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً﴾ [النساء: ١٦٠].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى أنه بسبب ظلم اليهود بما ارتكبوه من الذنوب العظيمة حرّم عليهم طيبات كان أحلّها لهم»[١] ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٥٢]. وإذا رأيتم ظالمًا.. كلّما ازداد ظُلْمُه... ازدادت نعم الله عنده.. فلا تغترّوا.. فإنه إمهال وليس إهمالاً:

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ * فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٤، ٤٥].

فإذا رأيتم الله - تعالى - يُعطي العبد، وهو مقيم على الذنب، فلا تغترّوا، فإنما هو استدراج:

قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢، ١٨٣].

وفي «الصحيحين» عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إنّ الله لَيُمْلِي للظّالم حَتّى إذا أَخَذَهُ لم يُفْلِته**» ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢].

قِصَّة:

وهذا «خالد بن بَرْمك» كان أميرًا للخليفة المنصور على بلاد فارس، اشْتُهر بالظلم، ورقّة الدّيانة، فسلّط الله عليه عدّوه، فأباد مملكته، وقبض عليه، وأودعه السجن مقيّد

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٥٦٠).

اليدين والرجلين ومعه ولده، وفي ظُلْمة السجن، نظر الولد إلى والده وبكى، فقال له والده «خالد»: ما يبكيك يا بنيّ؟ فقال: يا أبت بعد العزّ صرنا في القيد والحبس؟ فقال: يا بنيّ دعوة المظلوم سرت بليل غفلنا عنها ولم يغفل الله عنها»[١].

السببُ الثاني والثالث: إهمال الفرائض، واقتحام المحرمات:

قال ﷺ: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك**»[٢].

وقال الحافظ ابن رجب الحنبليّ - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «من حفظ الله في صباه وقوّته[٣] حفظه الله في حال كبره وضعف قوّته، ومتعه بسمعه وبصره وحوله وقوّته وعقله. وكان بعض العلماء قد جاوز مائة السنة وهو ممتّع بقوّته وعقله، فوثب يومًاوثبة شديدة فعوتب في ذلك فقال: «هذه جوارح حفظناها عن المعاصي في الصِّغر فحفظها الله علينا في الكبر».

وعكس هذا أن بعض السّلف رأى شيخًا يسأل الناس فقال: «إن هذا ضعيف ضيّع الله في صغره فضيّعه الله في كبره».

وقد يحفظ الله العبد بصلاحه بعد موته في ذرّيته كما قيل في قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً**﴾ الآية [الكهف: ٨٢]، أنهما حفظا بصلاح أبيهما.

قال سعيدُ بْنُ المسَيِّب لابنه: لأزيدنّ في صلاتي من أجلك رجاء أن أُحفظ فيك، ثم تلا هذه الآية: ﴿**وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً**﴾.

وقال عمر بن عبد العزيز: «ما من مؤمن يموت إلاّ حفظه الله في عَقِبِهِ وعَقِبِ عَقِبه».

وقال محمد بن المنكدر: «إن الله ليحفظ بالرجل الصّالح ولده وولد ولده، والدويرات التي حوله، فما يزالون في حفظ من الله وستر». ومتى كان العبد مشتغلاً

---

(١) «الكبائر» للذهبي (ص ١١٦).

(٢) جزء من حديث: رواه الترمذي (٢٥١٦)، وإسناده صحيح.

(٣) قال ابن رجب: «قوله ﷺ: «**احفظ الله**» يعني احفظ حدوده وحقوقه وأوامره ونواهيه، وحفظ ذلك هو الوقوف عند أوامره بالامتثال وعند نواهيه بالاجتناب وعند حدوده فلا يتجاوز ما أمر به الله في كتابه» ا.هـ.

بطاعة الله فإن الله يحفظه في تلك الحال» ا.هـ[١].

السبب الرابع: الكبر على الله، ثم على الناس:

عن عمرو بن شيبة، قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكبًا بغلة وبين يديه غلمانٌ يعنّفون الناس[٢]. ثم قال: ثم عُدت بعد حين إلى بغداد فكنت عند الجسر، فإذا أنا برجلٍ حَافٍ، حَاسِر، طويل الشَّعْر، قال: فجعلتُ أنظر إليه وأتأمّلُهُ، فقال لي: مالك تنظرُ إليَّ؟ فقلت له: شبّهتك برجلٍ رأيتهُ بمكّة، ووصفتُ له الصِّفة، فقال لي: أنا ذلك الرجل!! فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضعُ فيه الناس، فوضعني الله حيث يترفّع الناس»[٣].

السبب الخامس: أكل الحرام:

قال وَهْبُ بن مُنَبِّه: «قرأتُ في التوراة: أيّما دار بُنيت بقوّة الضعفاء جعلتُ عاقبتها الخراب، وأيّما مالٍ جُمع من غير حِلٍّ جعلتُ عاقبته الفقر».

السبب السادس: الإسراف:

الإسراف: هو إنفاقُ المال الكثير في الغرض الخسيس، وقيل: هو تجاوزُ الحدّ في النفقة، وقيل: هو أن يأكل الرجلُ ما لا يحلُّ له أو يأكل ممّا يحلُّ له فوق الاعتدال ومقدار الحاجة.

وقيل: هو تجاوزٌ في الكميّة فهو جهلٌ بمقادير الحقوق[٤]. وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة:

فمن الآيات: ﴿**وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً**﴾ [الإسراء: ٢٦، ٢٧].

ومن الأحاديث: رواه الطبرانيّ بإسناد حسن كما في «الترغيب» (٤٦١٥) عن عبد الرحمن

(١) «جامع العلوم والحكم» (٢٠٧).
(٢) يوسّعون له الطريق.
(٣) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٣٦٢).
(٤) «التعريفات» للجرجاني (٢٣، ٢٤).

ابن عوف رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبيّ ﷺ أنه قال: «قال الشيطانُ - لعنه الله -: لن يَسْلَم مِنِّي صاحبُ المال من إحدى ثلاث أغدو عليه بهنّ وأروح:

أَخْذِه من غير حِلِّه، وإنفاقِه في غيرِ حَقِّه، وَأُحَبِّبه إليه فَيَمْنعُهُ من حَقِّه».

ولله دَرّ القائل:

ثلاثـــة تـــشقى بهـــم الـــدّار   والْعُـــرْس والمـــأتم ثـــم الـــزَّار

السبب السابع والثامن: الزنا والخيانة:

قال يحيى بن أبي كثير - رحمه الله تعالى: «ثلاث لا تكون في بيت إلاّ نزعت منه البركة: السّرف، والزّنا، والخيانة»(١).

السبب التاسع: ترك الأخذ بالأسباب:

قال تعالى: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

فتحريك سلسلة الأسباب، من أسباب الرزق: ولله در القائل:

وَكُـنْ بالَـذي خـطَّ باللَّـوْحِ رَاضِـيًا   فــلا مهــربَ مِمّــا قَــضَاه وَخطَّــهُ

وإنّ مـع الـرِّزق اشـتراطُ التماسـه   وقــد تَــتَعَدَّى إن تَعَــدَّيْتَ شَــرْطَهُ

ولـو شـاء أَلْقَـى فِي فَـمِ الطَّيْـر قُـوتَهُ   ولكــنّه أَوْحَــى إلى الطّيْــر لَقْطَــهُ

السبب العاشر: الإعراض عن شكر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال بعضهم: «من لم يشكر النّعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها».

عباد الله...

هذه بعض أسباب، خراب البيوت فاجتنبوها واحذروها، وخذوا بأسباب السعادة

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٦٩).

الدنيوية والأخروية والتي منها: الإيمان والعمل الصالح.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢].

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فالبيت السعيد، هو البيت الذي تُقام دعائمه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ. هو البيت الذي يحقق رسالة الوجود في هذه الحياة، وهي تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى. فمن قام بهذه المهمّة سَعِدَ هو وأهله في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلاَ يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ * وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ * وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ * سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ١٩- ٢٤].

فهيا - عباد الله - إلى سعادة الدارين، وفقني الله تعالى وإياكم لما يُحب ويرضى.

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك، تجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وترد بها الفتن عنَّا.

الخطبة الثالثة والعشرون

التحذير من بذاءة اللِّسان

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فإن بذاءة اللِّسان يكرهها الله ولا يحبّها، ويكره صاحبها ولا يُحبّه.

قال تعالى: ﴿لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾ [النساء: ١٤٨].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في هذه الآية: «يقول: لا يُحبّ الله أن يدعو أحد على أحدٍ إلَّا أن يكون مظلومًا فإنه قد أرخص له أن يدعو على من ظلمه وذلك قوله: ﴿إِلاَّ مَن ظُلِمَ﴾ وإن صبر فهو خير له» [١].

(١) مختصر «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٥٠).

وقال الحسن البصري - رحمه الله -: «لا يدع عليه وليقل: اللّهم أعنّي عليه واستخرج حقّي منه». وفي رواية عنه، قال: «قد رخّص له أن يدعو على من ظلمه من غير أن يعتدي عليه».

وقال ﷺ: «**إيّاكم والفُحْشِ، فإنّ الله تعالى لا يُحِبّ الفُحْش ولا التَّفَحُش**»[١].

عباد الله...

ومصدر الفحش والبذاءة: خُبْث النّفس، ولؤم الطّبع، ونفاق القلب. فكلّ إناءٍ ينضح بما فيه.

قال تعالى: ﴿**وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً**﴾ [الأعراف: ٥٨].

قال مجاهد - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «يعني أنه في بني آدم الطيّب والخبيث»[٢].

وقال تعالى: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُوْلَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [النور: ٢٦].

وقال مجاهد وغيره - في تفسير هذه الآية -: «الكلمات الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، وكذا الخبيثون من الناس للخبيثات من القول، وكذا الكلمات الطيّبات من القول للطيّبين من الناس، والطيبون من الناس للطيبات من القول.

وقال النحاس في كتاب: «معاني القرآن»: وهذا أحسن ما قيل في هذه الآية» ا.هـ[٣].

وعن أبي أمامة رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبيّ ﷺ قال: «**الحياءُ والعِيّ وَقِلّة الكلام، شُعبتان من الإيمان، والْبَذَاء**[٤] **والبيان**[٥] **شعبتان من النّفاق**»[٦].

---

(١) رواه النسائي في «الكبرى» والحاكم وصحّحه، وابن حبان.
(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٠٨).
(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٩٥).
(٤) **البذاء**: قُبح الكلام.
(٥) **البيان**: فصاحة اللسان في الأمور المستقبحة أو طلاقة اللسان في الدعوة إلى المحرّمات.
(٦) **صحيح**: رواه الترمذي

هذا، والبذيء: ناقص الإيمان: قال رسولُ الله ﷺ: «**ليس المؤمن بالطّعَّان ولا للَّعَانِ، ولا الفاحشِ، ولا الْبَذِيء**»(١).

والفاحش البذيء.. يؤذي أهل النار بنتنه وشدّة عذابه على ما بهم من الأذى!!

عن شُفَيِّ بن مَاتِع الأَصْبحي رضي الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال: «**أَرْبَعَةٌ يُؤْذُونَ أَهْلَ النَّارِ عَلَى مَا بِهِمْ مِنَ الأَذَى يَسْعَوْنَ بَيْنَ الْحَمِيمِ وَالْجَحِيمِ يَدْعُونَ بِالْوَيْلِ وَالثُّبُورِ، يَقُولُ أَهْلُ النَّارِ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا بَالُ هَؤُلاءِ قَدْ آذَوْنَا عَلَى مَا بنا مِنَ الأَذَى؟ قَالَ: فَرَجُلٌ مُغْلَقٌ عَلَيْهِ تَابُوتٌ مِنْ جَمْرٍ، وَرَجُلٌ يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ، وَرَجُلٌ يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَمًا، وَرَجُلٌ يَأْكُلُ لَحْمَهُ، قَالَ: فَيُقَالُ لِصَاحِبِ التَّابُوتِ: مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بنا مِنَ الأَذَى؟ قَالَ: فَيَقُولُ: إِنَّ الأَبْعَدَ مَاتَ وَفِي عُنُقِهِ أَمْوَالٌ إِلَى النَّاسِ مَا نَجِدُ لَهَا قَضَاءً أَوْ وَفَاءً، ثُمَّ يُقَالُ لِلَّذِي يَجُرُّ أَمْعَاءَهُ: مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بنا مِنَ الأَذَى؟ فَيُقَالُ: إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ لا يُبَالِي أَيْنَ أَصَابَ الْبَوْلُ مِنْهُ. ثُمَّ يُقَالُ لِلَّذِي يَسِيلُ فُوهُ قَيْحًا وَدَمًا: مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بنا مِنَ الأَذَى؟ فَيَقُولُ: إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ يَنْظُرُ إلى كَلِمَةٍ فَيَسْتَلِذُّهَا كما يُسْتَلَذُّ الرَّفَثُ، ثُمَّ يُقَالُ للَّذِي يَأْكُلُ لَحْمَهُ: مَا بَالُ الأَبْعَدِ قَدْ آذَانَا عَلَى مَا بِنَا مِنَ الأَذَى؟ إِنَّ الأَبْعَدَ كَانَ يَأْكُلُ لُحومَ النَّاس بالْغَيبَة، وَيَمْشِي بالنَّميمَة**»(٢).

عباد الله...

وقد أفتى أهلُ العلم قديمًا وحديثًا بإبعاد الفاحش البذيء، وكلّ من يبسط يده ولسانه بالسّوء عن بيوت الله، قياسًا على آكل الثوم والبصل - وهذا القياس صحيح -.

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ**﴾ [النور: ٣٦].

قال - رحمه الله -: «قوله تعالى: ﴿**أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ**﴾ ﴿**أَذِنَ**﴾ معناه أمر وقضى. وحقيقة الإذن العلم والتمكين دون حظر؛ فإن اقترن بذلك أمر وإنفاذ كان أقوى.

---

(١) **صحيح**: رواه الترمذي.

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب «الصمت»، وفي ذمّ الغيبة، والطبراني في «الكبير» بإسناد ليّن، وأبو نعيم، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٠٨) وقال: «رواه الطبراني في الكبير» وهو هكذا في الأصل المسموع، ورجاله موثقون».

و﴿تُرْفَعَ﴾ قيل: معناه تُبْنَى وتُعلى؛ قاله مجاهد وعكرمة.

وقال الحسن البصري وغيره: معنى ﴿تُرْفَعَ﴾ تعظّم، ويرفع شأنها، وتطهر من الأنجاس والأقذار. ومما تصان عنه المساجد وتنزه عنه: الروائح الكريهة والأقوال السيئة وغير ذلك؛ وذلك من تعظيمها. وقد صح من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال في غَزْوة تَبُوك: «من أكل من هذه الشجرة - يعني الثوم - فلا يأتيَنّ المساجد»[1].

وفي حديث جابر بن عبد الله عن النبيّ ﷺ قال: «من أكل من هذه البقلة الثُّوم» وقال مرة: «من أكل البصل والثوم والكُرّات فلا يقربَنّ مسجدنا فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم».

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خطبته: «ثم إنكم أيها الناس تأكلون شجرتين ولا أراهما إلا خبيثتين، هذا البصلَ والثُّوم، لقد رأيت رسول الله ﷺ إذا وجد ريحهما من رجل في المسجد أمَر به فأخرج إلى البقيع، فمن أكلهما فَلْيُمِتْهُمَا طبخًا» أخرجه مسلم في صحيحه.

قال العلماء: وإذا كانت العلة في إخراجه من المسجد أنه يُتأذَّى به ففي القياس أن كل من تأذى به جيرانه في المسجد بأن يكون ذَرِب اللسان سفِيها عليهم، أو كان ذا رائحة قبيحة لا تَريمه لسوء صناعته، أو عاهة مؤذية كالجذام وشبهه. وكل ما يتأذى به الناس كان لهم إخراجه ما كانت العلة موجودة فيه حتى تزول. وكذلك يجتنب مجتمع الناس حيث كان لصلاة أو غيرها كمجالس العلم والولائم وما أشبهها، مَن أكل الثوم وما في معناه، مما له رائحة كريهة تؤذي الناس. ولذلك جمع بين البصل والثوم والكراث، وأخبر أن ذلك مما يتأذى به.

قال أبو عمر بن عبد البر: وقد شاهدت شيخنا أبا عمر أحمد بن عبد الملك بن هشام - رحمه الله - أفتى في رجل شكاه جيرانه واتفقوا عليه أنه يؤذيهم في المسجد

(١) رواه مسلم (٥٦١).

(٢) رواه مسلم (٥٦٤).

بلسانه ويده فشُوور فيه؛ فأفتى بإخراجه من المسجد وإبعاده عنه، وألا يشاهد معهم الصلاة؛ إذ لا سبيل مع جنونه واستطالته إلى السلامة منه، فذاكرته يومًا أمره وطالبته بالدليل فيما أفتى به من ذلك وراجعته فيه القول؛ فاستدل بحديث الثُّوم، وقال: هو عندي أكثر أذًى من أكل الثوم، وصاحبه يُمنع من شهود الجماعة في المسجد.

قلت: وفي الآثار المرسلة «أن الرجل ليكذب الكِذْبَة فيتباعد عنه المَلَك من نتن ريحه». فعلى هذا يُخرج من عُرف منه الكذب والتقوّل بالباطل فإن ذلك يؤذي» ا.هـ.

عباد الله...

ولا ننسى أن نذكّر أن المستمع للبذيء - دون إنكار عليه - شريك له:

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الأنعام: ٦٨].

قال العلاَّمةُ عبد الرحمن بن ناصر السَّعْديّ - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «المراد بالخوض في آيات الله: التكلّم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة والدعوة إليها ومدح أهلها، والإعراض عن الحق والقدح فيه وفي أهله. فأمر اللَّهُ رسولَهُ أصلاً، وأمّته تبعًا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره زال النَّهيُ المذكور. فإن كان مصلحة كان مأمورًا به، وإن كان غير ذلك كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حثّ على البحث والنّظر والمناظرة بالحق، ثم قال: ﴿ **وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ** ﴾ أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة. ﴿ **فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ يشمل الخائضين بالباطل، وكلّ متكلم بمحرّم، أو فاعل لمحرّم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته. هذا النّهي والتحريم لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرّم، أو يسكت عنهم وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشّرّ والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشّرّ أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم، ولهذا قال الله تعالى في الآية التي تليها: ﴿ **وَمَا عَلَى الَّذِينَ**

يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَكِن ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٩].

أي: ولكن يذكرهم ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى» ا.هـ(١).

فاحذروا - عباد الله - مجالسة الأشرار، حفظني الله وإياكم من شرّ كُلّ ذي شرّ.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فينبغي لمن أراد النجاة في الدنيا والآخرة، أن يمسك لسانه عن الشّر. فاللسان كما قال أبو حامد الغزالي - رحمه الله -: «من نعم الله العظيمة، ولطائف صنعه الغريبة، فإنه صغير حجمه، عظيم طاعته وجُرمه، فمن أطلق للسانه العنان، سلك به الشيطان في كل ميدان... ولا يكبّ الناس في النار على مناخرهم إلاّ حصائد ألسنتهم... ولا ينجو من شرّ اللسان إلاّ من قيده بلجام الشرع» ا.هـ.

وقال عقبة بن عامر رضي الله عنه: يا رسول الله، ما النجاة؟ فقال ﷺ: «**أَمْسِكْ عليك لِسَانَك، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُك، وابْكِ على خطيئتك**»(٢).

ووقف ابن مسعود رضي الله عنه على جبل «الصّفا» وقال: «يا لسان قُلْ خيرًا تغنم. واسكت عن شرٍّ تَسْلَم من قبل أن تندم». فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، أهذا شيء تقوله أو شيء سمعتُه؟ فقال: لا، بل سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»(٣).

اللهم أطلق ألسنتنا بِذِكْرِك والدعوة إليك، وأعْيُننا بالبكاء بين يديك، وسائرَ جوارِحنا بالتقرّب إليك.

---

(١) «تفسير السّعدي» (٢٦٠).

(٢) رواه الترمذي، وإسناده صحيح.

(٣) رواه البيهقي بسند حسن.

الخطبة الرابعة والعشرون

نُكْرانُ الْجَمِيل

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فإن نكران الجميل: خُلُقٌ سَيِّئٌ يتّصف به رُذَالة الْخَلْق، وَحُثَالة البشر. فهو دليل على لؤم الطبع، ودناءة النفس، وسوء التفكير. وهو - أي: نكران الجميل - قبيح إن كان من مخلوق لمخلوق، لأن الإسلام أمرنا أن نشكر أهل المروءة والمعروف:

فعن أسامة بن زيد - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**مَنْ صُنِع إليه معروفٌ، فقال لفاعله: جَزَاك اللَّهُ خيرًا، فقد أبلغ في الثناء**»[١].

(١) **صحيح**: رواه الترمذي والنسائي، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣٦٨).

وعن أبي سعيد الخدريّ رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ لم يشكر النّاسَ، لم يشكرِ الله**»(١).

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيِّ ﷺ قال: «**أُريتُ النّارَ فإذا أكثرُ أهلها النساء، يَكْفُرْن**». قيل: أيكفرن بالله؟ قال: «**يَكْفُرَن العشير**(٢)**، وَيَكْفُرْن الإحسان، لو أَحْسَنْتَ إلى إحداهنّ الدَّهْر، ثم رأتْ منك شيئًا، قالت: ما رأيتُ منك خَيْرًا قَطّ**»(٣).

وقال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «كُنْ من خمسة على حذر: من لئيم إذا أكْرَمْتَه. وكريم إذا أَهَنْتَه، وعاقلٍ إذا أحْرَجْتَه، وأحْمَقَ إذا مازَحْتَه، وفاجرٍ إذا مازَحْتَه»(٤).

عباد الله...

وهذا النكران من الكبائر:

قال ابن حجر الهيتمي - رحمه الله -: «ومن الكبائر: كفرانُ نعمة الخَلْق المستلزم لكفرانِ نعْمَةِ الحَقّ» ا.هـ(٥).

وفي المقابل: على المُعْطِي ألاّ يمنّ بعطيته، ولا يتكبّر على المُحْسِن إليه، فإن هذا - أيضًا - من لؤم الطبع، وهو يذهب بالأجر:

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى**﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وعن أبي ذرّ رضي الله عنه عن النبيّ قال: «**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم**».

قال أبو ذرّ: فقرأها رسولُ الله ﷺ ثلاث مرات، فقلت: خابوا وخسروا، ومن هم يا رسول الله؟ قال: «**المُسْبِلُ، والمَنَّانُ، والمنفقُ سِلْعَتَه بالحَلِف الكاذب**»(٦).

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٥١٤).

(٢) **العشير**: الزّوج.

(٣) رواه البخاري (٢٩)، ومسلم (٩٠٧).

(٤) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٣١٢).

(٥) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (٢٥٥).

(٦) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم.

عباد الله...

ونكران الجميل أقبح إن كان من مخلوق لخالقه - سبحانه -: يأكل العبد رزقه، ويعبد غيره!! خيرُ الله إلى العباد نازل، وشرُّهم إليه صاعد!! وقد بين الإسلام عاقبة هؤلاء الجاحدين لنعم الله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ * جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ**﴾ [إبراهيم: ٢٨، ٢٩].

قال الإمام القرطبي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره هذه الآية ما مختصره: قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً**﴾ أي: جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر في تكذيبهم محمدًا ﷺ حين بعثه اللهُ منهم وفيهم فكفروا، والمراد مشركو قريش وأن الآية نزلت فيهم؛ عن ابن عباس وعليّ وغيرهما... وقيل: نزلت في الأفجرين من بني قريش بني مخزوم وبني أميّة، [(١)] فأما بنو أمية فمتّعوا إلى حين؛ وأمّا بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر؛ قاله عليّ بن أبي طالب وعمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - وقال الحسن: إنها عامّة في جميع المشركين» ا.هـ[(٢)].

وقال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ [النحل: ١١٢].

وعن بسر بن جحّاش القرشي رضي الله عنه قال: بَصَقَ رسولُ الله ﷺ ثم وضع عليه أصبعه السّبابة، ثم قال: «**يقول الله تعالى: أَنَّى تُعْجِزَنِي يا ابْنَ آدم؟! وقد خَلَقْتُك مِنْ مِثل هذه، حتى إذا سوَّيتُك، وعدَلتك، مشيتَ بَيْنَ ثَوْبَيْنِ، والأرض منك وئيد، ثم جَمَعْتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت هذه** - وأشار بيده إلى حَلْقِه[(٣)] - **قلت: أَتَصَدَّق، وأين أَوَان الصَّدَقة؟!!**»[(٤)].

---

(١) رواه الحاكم في «التفسير» (٣٣٤٣) من رواية عليّ رضي الله عنه موقوفًا بلفظ: «هم الأفجران من قريش. بنو أمية وبنو المغيرة.. الحديث» وإسناده صحيح، ذكره الحافظ في «الفتح» (٨/ ٣٧٨)، وعلّق عليه.

(٢) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣١٩) باختصار.

(٣) يعني: بلغت روحه الحلقوم.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «المسند» (٢١٠٤)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وغيرهما.

عباد الله...

ومن أقبح كفران النّعم: التنكر لِلْمُنْعِم - سبحانه - بعد إنعامه على العبد: قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبيّ ﷺ يقول: «إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكاً، فَأَتَى الأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ[١]. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْناً حَسَناً. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ - أَوْ قَالَ: البَقَرُ. شَكَّ الرَّاوِي -، فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ[٢]، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَني هَذَا قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ. فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرَاً حَسَناً. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: البَقَرُ. فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلاً، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ النَّاسَ. قَالَ فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ المَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدَاً، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنْ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ البَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنْ الغَنَمِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي[٣]، فَلا بَلاغَ لِي اليَوْمَ إِلا بِالله ثمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الحَسَنَ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ، وَالمَالَ، بَعِيرَاً أَتَبَلَّغُ[٤] عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الحُقُوقَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَني أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرَاً فَأَعْطَاكَ اللهُ؟!، فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا المَالَ كَابِرٍ عَنْ كَابِرٍ!! فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبَاً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

(١) قذرني الناس: أي تباعدوا عني وكرهوني بسببه.
(٢) الناقة العشراء: هي الحامل.
(٣) انقطعت بي الحبال: أي الأسباب.
(٤) أتبلغ به: أي أبلغ به المنزل الذي أريد.

وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا. فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِباً فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَوْمَ إِلا بِالله ثمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي؟. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَالله مَا أَجْهَدُكَ[1] اليَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله ﷻ فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»[2].

عباد الله...

ومن فوائد هذه القِصَّة:

الفائدة الأولى: التحذير من كفران النعم، والترغيب في شكرها والاعتراف بها، وحمد الله عليها:

قال الشِّبلي - رحمه الله -: «الشكر: التواضع والمحافظة على الحسنات، ومخالفة الشهوات، وبذل الطاعات، ومراقبة جبّار الأرض والسموات».

الفائدة الثانية: فضل الصدقة، والحثّ على الرفق بالضعفاء وإكرامهم وتبليغهم مآربهم:

وتظهر هذه الفائدة في قول «الأعمى» الذي ردّ الله إليه بصره للسائل: «قد كنتُ أعمى فردّ اللَّهُ إلي بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله ما أجهدك اليوم بشيء أخذته لله ﷻ».

الفائدة الثالثة: الزجر عن البخل:

لأنه حمل صاحبه على الكذب، وعلى جحد نعمة الله تعالى. كما حَدَث من رَدّ الأبرص والأقرع على المَلَك. فاحذروا - **عباد الله** - نكران الجميل، فإنه - كما تقدم - خلق سيئ يتصف به رذالة البشر، وحثالة الخَلق، أعاذني الله وإياكم أن نكون منهم..

---

(١) ما أجهدك: أي: لا أشق عليك.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فإن الاعتراف بالجميل، والإقرار بالإحسان: خُلُق من أخلاق الأنبياء: فها هو نبي الله يوسف - عليه السلام - لما دعته امرأة العزيز إلى الفاحشة، وراودته عن نفسه، فماذا قال: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية:

«قوله تعالى: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ أي: أعوذ بالله وأستجير به مما دعوتني إليه، ﴿إِنَّهُ رَبِّي﴾ يعني زوجها، أي: هو سيِّدي أكرمني فلا أخونه؛ قاله مجاهد وابن إسحاق والسَّدِّي. وقال الزّجاج: أي إن الله ربِّي تولاّني بلطفه، فلا أركب ما حرّمه» ا.هـ[1].

اللهم إنا نسألك إيمانًا دائمًا، وقلبًا خاشعًا، وعلمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا، وعملاً متقبلاً.

---

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ١٤٥) باختصار.

الخطبة الخامسة والعشرون

كُفْرَانُ النِّعم

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فيقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ﴾ أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ أي: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي.

وقال الحسن: أي: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي.

والآية نصّ في أن الشكر سبب المزيد، وسُئل بعض الصلحاء عن الشكر لله، فقال: ألا تتقوّى بنعمه على معاصيه.

قلت(١): فحقيقة الشكر على هذا: الاعترافُ بالنِّعم للمنعم، وألاّ يصرفها في غير طاعته. وأنشد الهادي وهو يأكل:

أَنالَك رِزْقه لتقوم فيه بطاعته وتشكر بَعْضَ حَقِّه
فلم تَشْكُرْ لنعمته ولكن قَوِيتَ على معاصِيه بِرِزْقِه

فَغُصَّ باللُّقْمة، خنقته العَبْرَة.

﴿وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ أي: جحدتم حقّي. وقيل: نِعَمِي؛ وَعَد بالعذاب على الكفر، كما وَعَدَ بالزيادة على الشكر» ا.هـ(٢).

أيها المسلمون...

وقد ذكر القرآن الكريم قصص أقوام كفروا بنعم الله، فحوّلها عليهم عذابًا. وأصبحت مساكنهم خرابًا يَبَابًا.

ومن هؤلاء: «قوم سبأ»: اقرءوا:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٥- ١٩].

قال علماء النسب ومنهم محمد بن إسحاق: اسم سبأ عبد شمس. قالوا: وكان أول من سبى من العرب فسمي سبأ لذلك، وكان يقال له الرائش لأنه كان يعطي الناس

(١) القائل: الإمام القرطبي - رحمه الله -.
(٢) «تفسير القرطبي» (٩/ ٣٤٣) باختصار.

الأموال من قناعة.

قال السهيلي: ويقال إنه أول من تتوج، وذكر بعضهم أنه كان مسلمًا، وكان له شعر بشر فيه بوجود رسول الله ﷺ.

عن ابن عباس: «أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن سبأ ما هو أرجل أم امرأة أم أرض قال بل هو رجل ولد عشرة فسكن اليمن منهم ستة وبالشام منهم أربعة. فأما اليمانيون فمذحج وكندة والأزد والأشعريون وأنمار وحمير - وعربًا كلها - وأما الشامية فلخم وجذام وعاملة وغسان»[1].

قلت: وسكن قوم سبأ بأرض اليمن، وأغدق الله عليهم من نعمه الظاهرة والباطنة، وأصلح لهم البال والحال، وبارك لهم في الأرض والمال، ووضع عنهم الأوزار والأحمال، ونقى لهم الهواء، ونزلت عليهم بركة السماء. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ**﴾ أي: علامة دالة على كمال قدرة الله وبديع صنعه.

قال الإمام عبد الرحمن بن زيد - رحمه الله -: «إن الآية التي كانت لأهل سبأ في مساكنهم أنهم لم يروا فيها بعوضة ولا ذبابًا ولا برغوثًا ولا قملة ولا عقربًا ولا حية ولا غير ذلك وإذا جاءهم الرَّكْب في ثيابهم القُملَّ ماتت عند رؤيتهم لبيوتهم»[2]. ﴿**جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ**﴾ كان الماء يأتيهم بين جبلين وتجتمع إليه أيضًا السيول، فعمد ملوكهم الأقادم فبنوا بينهما سدًا عظيمًا محكمًا «**قلت:** وهو سد مأرب كما ذكرت الروايات الأخرى» حتى ارتفع الماء وحُكم على حافات تلك الجبلين فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار في غاية ما يكون من الكثرة والحسن، فكانت الأشجار تثمر أجود وأنضج وأحلى الثمار بقدرة العزيز الغفار.

قال غير واحد من السلف منهم قتادة أن المرأة كانت تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل وهو الذي تخترف فيه الثمار، فيتساقط من الأشجار في ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قطاف لكثرته ونضجه واستوائه.

(١) **إسناده حسن:** رواه أحمد في «المسند» (١/ ٣١٦) ، وحسنه ابن كثير كما في «البداية والنهاية» (٢/ ١٩٢) .

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٣٢٠) .

قال الشوكاني: وهاتان الجنتان كانتا عن يمين واديهم وشماله قد أحاطت به من جهتيه، وكانت مساكنهم في الوادي.

ماذا طلب الله منهم على كل هذه النعم؟

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ لم يطلب الله تعالى منهم على كل هذه النعم سوى الشكر، والإقرار بأنه المنعم وحده وبيده كل شيء. فمع ذلك الزيادة والنماء والبركة وغفران الذنوب ودوام النعمة.

فماذا حدث منهم؟

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا ﴾ قال القاسمي: «أي عن الشكر»[1].

قال الشوكاني: عن الشكر وكفروا بالله وكذبوا أنبياءه.

فماذا كانت العاقبة؟

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ العرم الشديد: أي: مطر شديدًا وماءً كثيفًا. قال مجاهد وابن أبي نجيح: العرم ماء أحمر أرسله الله في السد فشقه وهدمه، وقال ابن الأعرابي: العرم السيل الذي لا يطاق. وقال ابن الأعرابي أيضًا: العرم من أسماء الفأر.

قال العلامة ابن كثير: قال غير واحد أرسل الله على أصل السد الفأر وهو الجرذ فلما فَطَنوا لذلك أرصدوا عندها السنانير[2].

قال القرطبي في تفسيره: قال وهب فلم يتركوا فرجة بين صخرتين إلا ربطوا إلى جانبها هرة» ا.هـ. فلم تغن شيئًا إذا حم القدر ولم ينفع الحذر كلا لا وزر، فلما تحكم أصله الفساد وانهار فسلك الماء القرار فقطعت تلك الجداول والأنهار وانقطعت تلك الثمار، وحادت تلك الزروع والأشجار وتبدلوا بعدها برديء الأشجار والثمار كما قال العزيز الجبار: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾.

قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: «خمط: هو الأراك - وأثل وهو الطرفاء وقيل:

(١) «محاسن التأويل» (١٤/ ١٢).
(٢) السنّور: القط.

خمط: ثمر مر لا يؤكل وأثل شجر لا ثمر له «وشيء من سدر قليل» قلة من شجر النبق. قنت: أي نبق قليل في شوك كثير: «لا يسمن ولا يغني من جوع».

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ﴾ أي: فالجزاء من جنس العمل.

قال تعالى: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاَّ الكَفُورَ ﴾ وقال ابن كثير: «أي نعاقب هذه العقوبة الشديدة من كفر بنا، وكذب رسلنا، وخالف أمرنا، وانتهك محارمنا». ثم فرقهم الله في البلاد وأذلهم بين العباد وشردهم في كل واد.

قال تعالى: ﴿وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: «وذلك لما هلكت أموالهم وخربت بلادهم احتاجوا إلى أن يرتحلوا منها وينتقلوا عنها، فتفرقوا في غور البلاد ونجدها أيدي سبأ شذر مذر».

قال الشوكاني: «والمعنى جعلناهم ذوي أحاديث يتحدث بها من بعدهم تعجبًا من فعلهم واعتبارًا بحالهم وعاقبتهم، وفرقناهم في كل وجه من البلاد كل التفريق» ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ خَصَّ الصبَّار الشَّكور لأنهما المنتفعان بالمواعظ والآيات»[1].

فيا عباد الله...

اعتظوا، واشكروا الله تعالى على نعمه، واحمدوه على فضله. ولله دَرُّ القائل:

إذا كُنْتَ في نعْمَةٍ فَارْعَها ... فإنَّ الذُّنُوبَ تُزيلُ النِّعمِ

وَحُطْهَا بطاعةِ رَبِّ العِبَادِ ... فَرَبُّ العُبَادِ سَرِيعُ النِّقَم

وإيَّاكَ والظُّلم مَهْمَا اسْتَطعْت ... فَظُلْم العِبادِ شَدِيدُ الوَخم

وسافِرْ بقَلْبِكَ بَيْن الوَرَى ... لِتُبْصِر آثارَ مَنْ قَدْ ظَلَم

فتلك مساكنهُم بَعْدَهُم ... شُهُودٌ عَليْهِم ولا تَتَّهم

وفقني الله تعالى وإياكم للعمل بما يحب ويرضى.

---

(١) «فتح القدير» (٤/ ٣٢٢).

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٍ على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فإن من أسباب كفران النِّعم: الجهل والغفلة.

قال الإمام الحسن - رحمه الله - في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]، قال: «الكنود: هو الذي يَعُدُّ المصائب، وَيَنْسَى نِعَم الله عليه».

اللهم أعِنّا على ذِكْرِك، وشكرك، وَحُسْن عبادتك.

الخطبة السادسة والعشرون

عقوباتُ المكر السَّيئ

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فإن المكر السَّيئ.. خلق قبيح، يتصف به شرّ البريّة.

ما هو المكر؟ وما هي أنواعه، وما حكمه؟ وما هي عقوباته؟

هذا ما سوف نفصّله في خطبتنا هذه - إن شاء الله تعالى - ونسأل الله تعالى أن ينّجينا برحمته من مكر الماكرين.

عباد الله...

المكر هو: الاحتيالُ في خُفْية. قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ٥٠].

والمكر السيِّئ: هو تبييت الشّر، وإضمار المكروه للغير، وإيصاله إليه من حيث لا يشعر.

والمكر نوعان:

أحدهما: مكرٌ محمود، وذلك أن يتحرّى بذلك فِعْلَ جميلٍ، ومنه قولهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤].

والآخر: مذموم، وهو أن يتحرّى به فعل قبيح كما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣].

وأما المكر الذي وصف الله - تعالى - به نفسه، فهو صفةُ فعلٍ حقيقة على ما يليق بجلاله ومعناه مجازاتُهُ للماكرين بأوليائه ورسله، فَيقابل مكرهم السَّيئ بمكره الحسن، فيكون المكر منهم أقبح شيء، ومنه أحسن شيء، لأنه عدل ومجازاةٌ، وكذلك المخادعةُ منه جزاءٌ على مخادعة رُسُلِهِ وأوليائه، فلا أَحْسَنَ من تلك المخادعة والمكر[1].

وقال الجُرْجَانيُّ: المكر من جانب الحق - تعالى - هو إردافُ النّعم مع المخالفة، وإبقاءُ الحال مع سوءِ الأَدَب، وإظهارُ الكرامات من غير جُهْدٍ.

وقال اللغويُّ: مكر الله: إمهالُ العبدِ وتمكينُهُ من أعراض الدُّنْيَا[2].

عباد الله...

وهذا المكر من الكبائر، ذكر ذلك الذهبيُّ وابن حجر الهيتمي - رحمهما الله تعالى -: وقد احتج الذهبيُّ بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾، وبقوله ﷺ: «**المكرُ والخديعةُ في النّار**»[3].

أمّا ابن حجر فقد عدّه من كبائر الباطن، التي يُذمّ العبدُ عليها أعظم ممّا يذمّ على السرقة والزنا ونحوهما من كبائر الظاهر، وذلك لعظم مفسدتها وسوء أثرها ودوامه؛ لأن آثار هذه الكبائر الباطنة تدوم، بحيث تصير حالاً وهيئة راسخة في القلب[4].

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (٢١٣).

(٢) «التعريفات» (٢٤٥)، و«الكليات» (٧٧١).

(٣) سيأتي تخريجه بعد قليل - إن شاء الله تعالى -، وانظر: «الكبائر» للذهبي (٢٣٥).

(٤) «الزواجر» (٩٩).

هذا، والماكر: فيه شبه باليهود والمجرمين والمعاندين لرسل الله على مرّ العصور وكرّ الدهور - كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله تعالى -.

عباد الله...

وعقوبات المكر السَّيئ، لا تكاد تعدّ، نذكر منها خمس عقوبات:

العقوبة الأولى: الذِّلّةُ والصَّغَار - في الدنيا والآخرة -: فالماكر ذليل حقير في الدّارين: قال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِندَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**بُعِثْتُ بالسَّيْف بين يدي السّاعة حتى يُعْبَدَ الله وَحْدَه لا شريك له، وَجُعِلَ رِزْقِي تحت ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّة والصَّغَارُ على مَنْ خَالَف أَمري، ومن تشبَّه بقومٍ فهو منهم**»[١].

العقوبة الثانية: خراب البيوت: قال تعالى: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٢٦]، وقصَّ علينا ربنا تبارك وتعالى ما حدث لمن تآمروا على قتل نبي الله صالح عليه السلام، فقال عز وجل: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ * فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل: ٤٨- ٥٢].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسيره لهذه الآيات: «هم الذين عقروا الناقة قالوا حين عقروها: لنبيتنّ صالحًا وأهله فنقتله ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئًا وما لنا به من علم، فدمّرهم الله أجمعين»[٢].

وقال قتادة: «تواثقوا على أن يأخذوه ليلاً ليقتلوه، وذُكر لنا أنهم بينما هم معانين إلى

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠، ٩٢)، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٨٣١).
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٨٢٣).

صالح ليفتكوا به إذ بعث الله عليهم صخرة فأهمدتهم»[١].

قصّ علينا ربنا - تبارك وتعالى - أيضًا - ما حدث لمن تآمروا على قتل النبيّ ﷺ ليلة هجرته، فقال جلّ وعلا: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - عند تفسيره لهذه الآية: أن نَفَرًا من قريش ومن أشراف كل قبيلة اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة، فاعترضهم إبليسُ في صورة شيخ جليل، فلما رَأَوْه قالوا: من أنت؟ قال: شيخ من أهل نجد[٢] سمعتُ بما اجتمعتم له، فأردتُ أن أحضركم ولن يعدمكم مني رأي ونصح، قالوا: أجل، فادخل، فدخل معهم، فقال: انظروا في شأن هذا الرجل، فقال قائل: احبسوه في وثاق ثم تربّصوا به رَيْبَ المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء «زهير» و«النابغة» فإنما هو كأحدهم!!

فقال عدو الله الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، والله ليخرجنّ رأيه من محبسه إلى أصحابه[٣] فليوشكن أن يثبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه منكمَ، فما آمن عليكم أن يخرجكم من بلادكم، فانظروا غير هذا الرأي.

فقال قائل: أخرجه من بين أظهركم واستريحوا منه، فإنه إذا خرج لن يضركم ما صنع!! فقال الشيخُ النَّجْدي: والله ما هذا لكم برأي، ألم تروا حلاوةَ قوله، وطلاقة لسانه، وأخذه للقلوب بما يستمع من حديثه!! والله لئن فعلتم ثم استعرض العرب ليجتمعن عليه ثم ليسيرنَّ إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويَقْتُل أشرافكم. قالوا: صدق والله، فانظروا رأيًا غير هذا.

فقال أبو جهل: والله لأشِيرَنّ عليكم برأي ما أراكم أبصرتموه بعد، ما رأي غيره، قالوا: وما هذا؟ قال: تأخذوا من كل قبيلة وسيطًا شابًا جلدًا، ثم يعطى كل غلام منهم

(١) المرجع السابق.

(٢) **نجد**: بلاد معروفة من ديار العرب مما يلي العراق، وليست من الحجاز وإن كانت من جزيرة العرب.

(٣) وفي رواية: ليخرجن أمره من وراء الباب.

سيفًا صارمًا، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تَفَرّق دَمُهُ في القبائل كلها، فلا أظنّ هذا الحيّ من بني هاشم يقدرون على حرب قريش كلهم، وأنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل[1] واسترحنا وقطعنا عنا أذاه!! فقال النَّجْدي: هذا والله هو الرأي، القول ما قال الفتى لا أرى غيره.

فتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له فأتى جبريلُ النبيَّ ﷺ فأمره أن لا يبيت في مَضْجَعه الذي كان يبيت فيه. وأخبره بمكر القوم، فلم يبت رسولُ الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن اللهُ له عند ذلك بالخروج، وأنزل عليه بعد قدومه المدينة يذكّره نعمته عليه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾[2] [الأنفال: ٣٠].

العقوبة الثالثة: رَدُّ المكر على أهله: قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند قول الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾ [فاطر: ٤٣] أي: وما يعود وبالُ ذلك إلاّ عليهم أنفسهم دون غيرهم[3].

وقال محمد بن كعب الْقُرظيّ - رحمه الله -: «ثلاثٌ مَنْ فعلهنَ لم يَنْجُ حتى يُنْزَلَ به: مَنْ مَكَرَ أَوْ بَغَى أو نَكَثَ، وتصديقُها في كتاب الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴾، ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم ﴾ [يونس: ٢٣]، ﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ﴾ [الفتح: ١٠].

العقوبة الرابعة: لا يدخل الجنة:

فعن أبي بكر الصّديق رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**لا يدخلُ الجنَّةَ خِبٌّ، ولا مَنَّان، ولا بخيل**»[4].

العقوبة الخامسة: دخول النار:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ [فاطر: ١٠].

---

(١) العقل: الدية إبلاً كانت أو نقدًا.

(٢) والأثر: رواه ابن أبي حاتم في تفسيره (٨٩٩٤)، وغيره، وإسناده حسن.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٦٣).

(٤) رواه الترمذي (١٩٦٣)، وقال: حديث حسن. والخب: الرجل الخدّاع.

قال ابن كثير - رحمه الله -: قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ أي: يَفْسُدُ ويَبْطُلُ ويظهر زيفُهم عن قريب لأولي الأبصار والنّهى، فإنه ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلاّ أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه، وما أسرّ أحدٌ سريرةً إلاّ كساه الله تعالى داءَها إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشرّ» ا.هـ[1].

أيها المسلمون...

هذه بعض عقوبات المكر السَّيئ.. عافانا الله وإياكم من المكر وعقوباته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى.. وسلامٍ على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

لمّا علم الصالحون أضرار المكر.. وتحذير الإسلام منه.. خافوا على أنفسهم منه، فهاهو ذا قيس بن سعد بن عبادة - رضي الله عنهما - يقول: لولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «المكرُ والخديعةُ في النار» لكنتُ من أمكر الناس[2].

اللّهمّ اجْعَل لي وللمسلمين من كل هَمٍّ فَرَجًا

ومن كلِ ضيق مخرجًا ومن كل بلاءٍ عافية.

۞۞۞۞۞

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٠).

(٢) **صحيح**: رواه البيهقي، وانظر «صحيح الجامع» (٦٧٢٥).

الخطبة السابعة والعشرون

حُقُوقُ الرَّاعي

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فقد وضع الإسلام حقوقًا للراعي - السلطان المسلم - على رعيته: نذكر منها حقوق: الحق الأول: **السمع له والطاعة**: بامتثال أمره وترك نهيه ما لم يكن في ذلك معصية الله ورسوله، فإن كان في طاعة الولاة معصية لله ورسوله فلا سمع لهم ولا طاعة. قال ﷺ: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**» حديث صحيح.

وفي «الصحيحين» عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «بعث النبي ﷺ سريّة

واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار فلما خرجوا وَجَد[١] عليهم في نفسه شيئًا فقال لهم: أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعوني؟ قالوا: بلى. قال: فاجمعوا لي حطبًا. ثم دعا بنار فأضرمها فيه، ثم قال: عزمتُ عليكم لتدخلنها!!

فقال لهم شابٌّ منهم: إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها، فرجعوا إلى رسول الله فأخبروه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**لو دخلتموها ما خرجتم منها أبدًا إنما الطاعة في المعروف**».

وعن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا كُنّا بِشَرٍّ، فجاء اللَّهُ بخير، فنحن فيه، فهل مِنْ وراء هذا الخير شَرٌّ؟ قال: «نعم». قلتُ: هل وراء ذلكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قال: «نعم». قلت: فهل وراء الخير شَرٌّ؟ قال: «نعم». قلت: كيف؟ قال: «**يكون بَعْدي أئمَّةٌ، لا يَهْتَدون بِهُدَاي، ولا يَسْتَنُّون بسنَّتي، وسيقوم فيهم رجالٌ، قلوبُهم قلوبُ الشياطين في جُثْمان إنْس**».

قال: قلت: كيف أصنع – يا رسول الله – إن أدركتُ ذلك؟ قال: «**تَسْمَعُ وتُطيعُ للأمير، وإن ضَرَبَ ظهْرَك، وأخَذَ مالَك، فاسْمَع وأطِع**»[٢].

وقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله – في قوله تعالى: ﴿**وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾: «والظاهر – والله أعلم – أنها عامّة في كلّ أولي الأمر من الأُمراء والعلماء» ا.هـ[٣].

قال الإمام ابن رجب – رحمه الله تعالى – في شرح الحديث: «وأما السمع والطاعة لولاة أمور المسلمين ففيها سعادة الدنيا وبها تنتظم مصالح العباد في معاشهم وبها يستعينون على إظهار دينهم وطاعة ربهم كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الناس لا يصلحهم إلا إمام برّ أو فاجر، إن كان برًّا عَبَد المؤمنُ فيه ربه وحمل الفاجر

---

(١) أي غضب عليهم.
(٢) رواه مسلم (٣/ ١٤٧٦).
(٣) «تفسير ابن كثير» (١/ ٧٨٥).

فيها إلى أجله».

وقال الحسن في الأمراء: «هم يلون من أمورنا خمسًا: الجمعة، والجماعة، والعيد، والثغور، والحدود، والله ما يستقيم الدين إلا بهم وإن جاروا أو ظلموا والله لما يصلح الله بهم أكثر مما يفسدون، مع أن والله إن طاعتهم لغيظ وإن فرقتهم لكفر».

وخرّج الخلال في كتاب الإمارة من حديث أبي أمامة قال: «أمر رسول الله ﷺ أصحابه حين صلوا العشاء أن: «**احشدوا فإن لي إليكم حاجة**». فلما فرغوا من صلاة الصبح قال: «**هل حشدتم كما أمرتكم؟**». قالوا: نعم. قال: «**اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا هل عقلتم هذه؟**» ثلاثًا. قلنا: نعم. قال: «**فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة هل عقلتم هذه**»؟ ثلاثًا. قلنا: نعم. قال: «**اسمعوا وأطيعوا هل عقلتم هذه؟**» ثلاثًا. قلنا: نعم.

قال: فكنا نرى أن رسول الله ﷺ سيتكلم كلاما طويلاً، ثم نظرنا في كلامه فإذا هو قد جمع لنا الأمر كله».

في هذين الأصلين وصّى النبيّ ﷺ في حجة الوداع في خطبته أيضًا. كما خرّجه الإمام أحمد والترمذي من رواية أم الحصين الأحمسية قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع فسمعته يقول: **يا أيها الناس اتقوا الله وإن تأمّر عليكم عبدٌ حبشيّ مجدع فاسمعوا له وأطيعوا ما أقام فيكم كتاب الله**»[(١)].

وخرج الإمام أحمد والترمذي أيضًا من حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يخطب في حجة الوداع يقول: «**اتقوا الله وصلُّوا خَمْسَكم وصوموا شهركم وأدّوا زكاة ما لكم، وأطيعوا إذ أمركم تدخلوا جَنّة ربكم**»[(٢)].

وقوله ﷺ «**ولو تأمَّر عليكم عَبْدٌ**» وفي رواية: «**حبشيّ**» هذا مما تكاثرت به الروايات عن النبي ﷺ وهو مما اطلع عليه النبيّ ﷺ من أمر أمّته بعده وولاية العبيد عليهم.

وفي «صحيح البخاري» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة**»[(٣)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٠٢)، والترمذي (١٧٠٦).
(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٥١)، والترمذي (٦١٦).
(٣) رواه البخاري (٧١٤٢).

وفي «صحيح مسلم» عن أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليلي ﷺ أوصاني أن أسمع وأطيع ولو كان عبدًا حبشيًا مجدع الأطراف[1].

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًّا، ولا ينافي هذا قوله ﷺ: «**لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي في الناس اثْنَان**».

وقوله ﷺ: «**النّاس تبع لقريش**».

وقوله ﷺ: «**الأئمةُ من قريش**»[2] لا ولاية للعبيد. قد تكون من جهة إمام قريش، ويشهد لذلك ما أخرجه الحاكم من حديث علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**الأئمة من قريش، أبرارها أمراء أبرارها، وفجّارها أمراء فجارها، ولكل حق، فآتوا كلّ ذي حق حقه، وإن أمرت قريش فيكم عبدًا حبشيًّا مجدعًا فاسمعوا له وأطيعوا**». وإسناده جيّد ولكنه روي عن عليّ موقوفًا، وقال الدارقطني هو أشبه.

وقد قيل: إن العبد الحبشي إنما ذكره على وجه ضرب المثل ولم يصحّ وقوعه كما قال النبيّ ﷺ فيمن بنى مسجدًا ولو كمِفحص قطاة[3] ا.هـ[4].

عباد الله...

وخلاصة الكلام: أن طاعة وليّ الأمر - في غير معصية - فريضة شرعية، وضرورة بشرية: قال الحسن البصري - رحمه الله - في الأمراء: «هم يَلُونَ من أمورنا خَمْسًا: الجمعةَ، والجماعةَ، والعيدَ، والثّغور، والحدودَ. والله لا يستقيمُ الدِّين إلاّ بهم، وإن جاروا وظَلَموا، والله لَمَا يُصْلِحُ اللَّهُ بهم أكثرُ ممّا يُفْسِدون، مع أن طاعتَهم - والله - لَغِبْطَةٌ، وأنّ فُرْقَتَهم لَكُفْرٌ»[5].

وهل يُشترط أن تكون الطاعة لإمام قرشيّ فقط؟ الجواب: لا.

---

(١) روه مسلم (٦٤٨/ ٢٤٠).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٩) وغيره.

(٣) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٢٤١).

(٤) «جامع العلوم والحكم» شرح الحديث رقم (٢٨).

(٥) «آداب الحسن البصري» لابن الجوزي (ص ١٢١).

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «وقد اجتمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلّب[١]، والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حَقْنِ الدِّماء، وتسكين الدَّهْمَاء» ا.هـ[٢].

نسأل الله - تعالى - التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

وعلى ما تقدّم نعلم أنه: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**». مهما كانت درجة هذا المخلوق في الدنيا أو في الْقُربى: قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ * وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلاَ تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٤، ١٥].

وهاتان الآيتان الكريمتان نزلتا في سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كما أخبر هو بذلك: قال رضي الله عنه: «قالت أُمي: أليس الله يأمرك بصلة الرحم وبرّ الوالدين؟». والله لا آكل طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى تكفر بمحمد!! فكانت لا تأكل حتى يشجروا فَمَهَا بِعَصَا[٣] فيصبُّوا فيه الشراب!

قال شُعبة: وأراه قال: والطعام، فأنزلت: ﴿وَوَصَّيْنَا الإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً﴾ وقرأ حتى بلغ: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[٤].

---

(١) بشرط أن يكون مسلمًا.

(٢) «فتح الباري» (١٣/ ٧).

(٣) أي: يفتحوه.

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد في «المسند» برقم (١٥٦٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح.

عباد الله...

أما الحق الثاني للراعي على رعيته، فسنتكلم عنه - بالتفصيل - إن شاء الله تعالى - في الجمعة القادمة.

اللهم انْصُر الإسلامَ وأعزَّ المسلمين، وأذلَّ الشِّرك والمشركين، وأَعْلِ بفضلك كَلِمَتِي الحقِّ والدِّين.

۞۞۞۞۞

الخطبة الثامنة والعشرون

حقوق الراعي

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فنتكلم اليوم - إن شاء الله تعالى - عن الحق الثاني من حقوق الراعي - المسلم - على رعيته، وهو: «**النّصْح له**»:

عن أبي رُقيّة تميم الداري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**الدين النصيحة**» ثلاثًا. قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله ﷻ ولكتابه، ولرسوله ﷺ ولأئمة المسلمين وعامتهم**». رواه مسلم.

قال الإمام الخطابي – رحمه الله تعالى –: «النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير المنصوح له، قال: وأصل النصح في اللغة الخلوص يقال: نصحت العسل إذ خلصته من الشمع، فمعنى النصيحة لله سبحانه: صحة الاعتقاد في وحدانيته وإخلاص النية في عبادته. والنصيحة لكتابه: الإيمان به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسوله: التصديق بنبوته وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه. والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم» ا.هـ.

وقد حكى الإمام أبو عبد الله محمد بن نصر المروزي في كتاب «تعظيم قدر الصلاة» عن بعض أهل العلم أنه فسّر هذا الحديث بما لا مزيد على حسنه، ونحن نحكيه هاهنا بلفظه إن شاء الله تعالى:

قال محمد بن نصر: «قال بعض أهل العلم: جماع تفسير النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائنًا من كان وهي **على وجهين**:

أحدهما: فرض، **والآخر**: نافلة، فالنصيحة المفترضة لله هي شدة العناية من الناصح باتباع محبة الله في أداء ما افترض ومجانبة ما حرّم.

وأما النصيحة التي هي نافلة فهي إيثار محبته على محبة نفسه وذلك أن يعرض له أمران، أحدهما لنفسه والآخر لربه، فيبدأ بما كان لربه ويؤخر ما كان لنفسه، فهذه جملة تفسير النصيحة لله الفرض منه والنافلة ولذلك تفسير، وسنذكر بعضه ليفهم بالتفسير من لا يفهم بالجملة.

فالفرض منها مجانبة نهيه، وإقامة فرضه بجميع جوارحه ما كان مطيقًا له، فإن عجز عن الإقامة بفرضه لآفة حلّت به من مرض أو حبس أو غير ذلك عزم على أداء ما افترض عليه متى زالت عنه العلّة المانعة له.

قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ الآية [التوبة: ٩١]. فسماهم محسنين لنصيحتهم لله بقلوبهم لما منعوا من الجهاد بأنفسهم، وقد ترفع الأعمال كلها عن العبد في بعض الحالات ولا يرفع عنهم النصح لله، فلو كان من المرض بحال لا يمكنه عمل بشيء من جوارحه بلسان ولا غيره غير أن عقله ثابت لم يسقط عنه

نصح لله بقلبه وهو أن يندم على ذنوبه وينوي إن صح أن يقوم بما افترض الله عليه ويتجنب ما نهاه عنه وإلا كان غير ناصح لله بقلبه.

وكذلك النصح لله ولرسوله ﷺ فيما أوجبه على الناس على أمر ربه. ومن النصح الواجب لله أن لا يرضى بمعصية العاصي ويحب طاعة من أطاع الله ورسوله.

وأما النصيحة التي هي نافلة لا فرض فبذل المحمود بإيثار الله تعالى على كل محبوب بالقلب وسائر الجوارح حتى لا يكون في الناصح فضل عن غيره، لأن الناصح إذا اجتهد لمن ينصحه لم يؤثر نفسه عليه، وقام بكل ما كان في القيام به سروره ومحبته فكذلك الناصح لربه، ومن تنفّل لله بدون اجتهاد فهو ناصح على قدر عمله غير مستحق للنصح بالكمال.

وأما النصيحة لكتاب الله فشدة حبه وتعظيم قدره، إذ هو كلام الخالق وشدة الرغبة في فهمه ثم شدة العناية في تدبره، والوقوف عند تلاوته لطلب معاني ما أحب مولاه أن يفهمه عنه ويقوم له به بعد ما يفهمه.

وكذلك الناصح من العباد ويتفهم وصية من ينصحه وإن ورد عليه كتاب منه عنى بفهمه ليقوم عليه بما كتب به فيه إليه.

فكذلك الناصح لكتاب ربه يعني يفهمه ليقوم لله بما أمره به كما يحب ربُّنا ويرضى ثم ينشر ما فهم من العباد ويديم دراسته بالمحبة له والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه.

وأما النصيحة للرسول ﷺ في حياته فبذْل المجهود في طاعته ونصرته ومعاونته وبذل المال إذا أراده والمسارعة إلى محبته.

وأما بعد وفاته فالعناية بطلب سنته والبحث عن أخلاقه وآدابه، وتعظيم أمره، ولزوم القيام به، وشدة الغضب، والإعراض عن من يدين بخلاف سنته، والغضب على من ضيعها لأثرة دنيا وإن كان متدينًا بها، وحب من كان منه بسبيل من قرابة أو صهر أو هجرة أو نصرة أو صحبة ساعة من ليل أو نهار على الإسلام، والتشبه به في زيه ولباسه.

وأما النصيحة «لأئمة المسلمين» فحب صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة كلهم وكراهية افتراق الأمة عليهم والتدين بطاعتهم في طاعة الله ﷻ، والبغض

لمن رأى الخروج عليهم، وحب إعزازهم في طاعة الله ﷻ.

وأما النصيحة للمسلمين فأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه. ويشفق عليهم، ويرحم صغيرهم، ويوقر كبيرهم، ويحزن لحزنهم، ويفرح لفرحهم. وإن ضره ذلك في دنياه، كرخص أسعارهم، وإن كان في ذلك ربح ما يبيع من تجارته. وكذلك جميع ما يضرهم عامة، ويحب ما يصلحهم وألفتهم ودوام النعم عليهم. ونصرهم على عدوّهم، ودفع كل أذى ومكروه عنهم.

وقال الإمام ابن الصلاح - رحمه الله تعالى -: «النصحية كلمة جامعة تتضمّن قيام الناصح للمنصوح له بوجوه الخير إرادة وفعلاً:

فالنصيحة لله تعالى: توحيده ووصفه بصفات الكمال والجلال، وتنزيهه عمّا يضاده ويخالفها، وتجنب معاصيه والقيام بطاعته ومحابه بوصف الإخلاص، والحب فيه والبغض فيه، وجهاد من كفر به تعالى، وما ضاهى ذلك، والدعاء إلى ذلك، والحث عليه.

والنصيحة لكتابه: الإيمان به، وتعظيمه وتنزيهه، وتلاوته حق تلاوته، والوقوف مع أوامره ونواهيه، وتفهم علومه وأمثاله، وتدبر آياته، والدعاء إليه، وذب تحريف الغالين وطعن الملحدين عنه.

والنصيحة لرسوله ﷺ: قريب من ذلك الإيمان به وبما جاء به، وتوقيره وتبجيله. والتمسك بطاعته، وإحياء سنته، واستنشار علومها ونشرها، ومعاداة من عاداه وعاداها، وموالاة من والاه ووالاها، والتخلّق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة آله وأصحابه ونحو ذلك.

والنصيحة لأئمة المسلمين: معاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وتذكيرهم به. وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق، وحث الأغيار على ذلك.

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم، وتعليمهم أمر دينهم ودنياهم، وستر عوراتهم، وسدّ خلاتهم، ونصرتهم على أعدائهم، والذّب عنهم، ومجانبة الغش والحسد لهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه، ويكره لهم ما يكره لنفسه، وما شابه ذلك» ا.هـ.

عباد الله...

وقد بيّن النبيّ ﷺ طريقة النُّصح للسلطان في الحديث التالي:

قال الإمام أحمد: حدّثنا أبو المغيرة: ثنا صفوان: حدّثني شريح بن عُبيد الحضرميّ - وغيرُهُ - قال: جَلَدَ عِياضُ بْنُ غَنْم[1] صاحبَ «دَارَا» حين فُتِحَتْ، فأغْلَظ له هشامُ بن حكيم[2] القول، فاعْتذر إليه، ثم قال هشامٌ لعياضٍ: ألم تسمعْ النبيَّ ﷺ يقول: «**إنّ من أشَدِّ النَّاسِ عذابًا أشدَّهم عذابًا في الدُّنْيا للنَّاس**».

فقال عياضُ بن غنم: يا هشامُ بن حكيم! قد سَمِعنا ما سمعتَ، ورأينا ما رأيت، أولم تسمعْ رسولَ الله ﷺ يقول: «**مَنْ أرادَ أن يَنْصَحَ لسلطانٍ بأمْر فلا يُبْدِ له عَلاَنيةً، ولكنِ ليأْخُذْ بيده، فَيَخْلُو به، فإن قَبِلَ منه فَذَاك، وإلاّ كان قد أَدَّى الذي عليه له**»، وإنك يا هشامُ لأنت الجريءُ إذْ تجترئ على سلطان الله، فهَّلا خشيت أن يَقْتُلَك السلطانُ فتكونَ قتيلَ سلطانِ الله - تبارك وتعالى -» ا.هـ[3].

هذا، ويعارض ما تقدم حديث: «**أفضل الجهاد: كلمةُ حَقّ عند سلطان جائر**».

فلفظة: «**عند**» تتفق مع «**فيخلو به**».

أمّا إذا طلب السلطان النصيحة أمام قوم، فلا بأس - مع الرفق - كما سيأتي بعد، إن شاء الله تعالى.

قال الشيخ عبد العزيز بن باز - مفتي عام المملكة العربية السعودية -:

«ليس من منهج السلف التشهير بعيوب الولاة وذكر ذلك على المنابر، لأن ذلك يُفْضي إلى الفوضى، وعدم السمع والطاعة في المعروف، ويفضي إلى الخوض الذي يَضُرُّ ولا يَنْفَع. ولكن الطريقة المتّبعة عند السلف: النّصيحةُ فيما بينهم وبين السلطان، والكتابةُ إليه، أو الاتصالُ بالعلماء الذين يتّصلون به حتى يوجه إلى الخير.

وإنكار المنكر يكون من دون ذكر الفاعل، فينكرُ الزّنا، وينكر الخمر، وينكر الرِّبا،

(١) صحابي جليل، بايع بيعة الرضوان.

(٢) صحابي جليل، توفي في أوّل خلافة معاوية.

(٣) **حديث صحيح**: صححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السّنة» (٢/ ٥٢١).

من دون ذكر مَنْ فعله، ويكفي إنكارُ المعاصي والتحذيرُ منها من غير ذكر أنّ فلانًا يفعلها، لا حاكم ولا غيرُ حاكم.

ولمّا وقعت الفتنةُ في عهد عثمان، قال بعضُ الناس لأسامة بن زيد: ألا تنكر على عثمان؟ قال: أأُنْكِر عليه عند النّاس؟ لكن أُنكر عليه بيني وبينه، ولا أَفْتَحُ بابَ شَرٍّ على النّاس.

ولمّا فتحوا الشّرّ في زمن عثمان رضي الله عنه وأنكروا على عثمان جهرةً تمّت الفتنة والقتالُ والفسادُ الذي لا يزال الناسُ في آثاره إلى اليوم، حتى حصلت الفتنةُ بين علي ومعاوية، وقُتِل عثمانُ وعليٌّ بأسباب ذلك، وقُتِل جمٌّ كثيرٌ من الصحابة وغيرهم بأسباب الإنكار العلنيّ وذكر العيوب علنًا، حتى أبغض الناسُ وليَّ أمرهم، وحتى قتلوه. نسأل الله العافية» ا.هـ[1].

عباد الله...

هذا هو منهج السلف.. فتمسّكوا، وسيروا على هديه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

وأختم خطبة اليوم بهذا الحوار:

دخل أحد الزهّاد على الخليفة «هارون الرشيد» فقال: يا هارون، اتق الله. فأخذه فَخَلا به، وقال: يا هذا، أنصفني، أنا شرٌّ أم فرعون؟ قال: بل فرعون. قال: فأنت خيرٌ أم موسى؟ قال: بل موسى. قال: أفما تعلم أن الله - تعالى - لمّا بعثه وأخاه إليه، قال: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً﴾ [طه: ٤٤]، وقد جبّهتني - على الملأ - فلا بأدب الله تأدبت، ولا بأخلاق المؤمنين أخذت.

---

(١) من فتوى للشيخ مطبوعة في آخر رسالة «حقوق الراعي والرعية» لابن عثيمين (٢٧، ٢٨).

قال: أخطأتُ وأنا أستغفر الله.

فقال: غفر الله لك، وأمر له بعشرين ألف درهم، فأبى الرجلُ أن يأخذها.

اللهم اهْدِنا لأَحْسَنِ الأخْلاق، لا يَهْدي لأَحْسَنِها إلاّ أنت، واصْرِفْ عنَّا سَيِّئها، لا يَصْرف عنّا سَيّئها إلاّ أنت.

الخطبة التاسعة والعشرون

حقوق الراعي

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فنتكلم اليوم - بإذن الله تعالى - عن الحق الثالث والرابع من حقوق الرّاعي على رعيته:

الحق الثالث: الدُّعَاءُ له:

ذكر ابْنُ المنير المالكي - رحمه الله - في «الانتصاف»[1]، أنه نُقل عن بعض السلف

(١) «الانتصاف فيما تضمّنه الكشاف من الاعتزال» (٤/ ١٠٦).

أنه دعا لسلطان ظالم، فقيل له: أتدعو له وهو ظالم؟ فقال: إي - والله - أدعو له، إنَّ ما يَدْفَعُ اللَّهُ ببقائه، أعظَمُ مِمَّا يَنْدَفِعُ بزَوَالِه» ا.هـ.

وأخرج البيهقي في «شعب الإيمان»[1] عن أبي عثمان سعيد بن إسماعيل الواعظ الزاهد، أنه قال - بعد روايته لحديث تميم الدّاري - مرفوعًا -: «الدّين النصيحة»، قال:

«فانصح السلطان، وأكثر له من الدعاء بالصّلاح والرشاد، بالقول والعمل والحكم، فإنهم إذا صلحوا؛ صلح العبادُ لصلاحهم. وإيّاك أن تدعو عليهم باللّعنةِ، فيزداد شرًّا، ويزدادَ البلاءُ على المسلمين، ولكن ادْعُ لهم بالتوبة، فيتركوا الشَّرَّ، فيرتفعَ البلاءُ عن المؤمنين» ا.هـ.

هذا، وقد سُئل **الشيخ عبد العزيز بن باز** - رحمه الله - عمّن يمتنع عن الدعاء لوليّ الأمر، **فأجاب**: «هذا من جهله، وعدم بصيرته، لأن الدعاء لوليّ الأمر من أعظم القربات، ومن أفضل الطاعات، ومن النّصيحة لله ولعباده، والنبيُّ ﷺ لمّا قيل له: إن دَوْسًا عَصَت وهم كفّار، قال: «**اللّهُمّ اهْدِ دَوْسًا وائتِ بهم**»[2]، فهداهم اللَّهُ وأتوه مسلمين، فالمؤمن يدعو للناس بالخير، والسلطان أولى من يدعى له؛ لأن صلاحه صلاحٌ للأمّة» ا.هـ[3].

الحق الرابع: ترك الخروج عليه:

لما يترتب على ذلك من المفاسد، والمآثم.

قال الإمام الطحاوي - رحمه الله تعالى -: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله ﷻ فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة»[4].

قال الشارح: قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي**

---

(١) (١٣/ ٩٩).

(٢) رواه البخاري (٢٩٣٧)، ومسلم (٢٥٢٤)، ودَوْس: قبيلة أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «الفتاوى الشرعية في القضايا العصرية» جمع/ محمد بن فهد الحصين (ص ٧٥).

(٤) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٧٩).

الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩].

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يطع الأمير فقد أطاعني، ومن يعصى الأمير فقد عصاني»[١].

وفي «الصحيحين»: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحبّ وكره، إلا أن يؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٢].

وعن حذيفة بن اليمان قال: كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير، وكنت أسأله عن الشّر، مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشرّ، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شرّ؟

قال: «نعم». فقلتُ: هل بعد ذلك الشر من خير؟

قال: «نعم، وفيه دَخَنٌ». قال: قلتُ: وما دخنُه؟

قال: «قوم يستنّون بغير سُنّتي، ويهتدون بغير هديي، تعرف منهم وتُنكر». فقلت: هل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟

قال: «نعم. دعاةٌ على أبواب جهنم. من أجابهم إليها قذفوه فيها». فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟

قال: «نعم، قوم من جلدتنا، يتكلّمون بألسنتنا». قلتُ: يا رسول الله، فما ترى إذا أدركني ذلك؟

قال: «تلزم جماعة المسلمين، وإمامهم». فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟

قال: «فاعتزل تلك الفرق كُلَّها، ولو أن تعضّ على أصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك»[٣].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما» رواه مسلم.

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه من حديث ابن عمر.

(٣) متفق عليه.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلُّون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم**».

فقلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟

قال: «**لا، ما أقاموا فيكم الصلاة إلا مَنْ ولي عليه وال، فرآه يأتي شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتي من معصية الله، ولا ينزعنّ يدًا من طاعته**» رواه مسلم.

فقد دلّ الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولي الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿**أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩]. كيف قال: ﴿**وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ**﴾ ولم يقل: وأطيعوا أولي الأمر منكم؟ لأن أولي الأمر لا يُفردون بالطاعة، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله. وأعاد الفعل مع الرسول لأن من يطع الرسول فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل هو معصوم في ذلك.

وأما وليّ الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يُطاع إلا فيما هو طاعةٌ لله ورسوله.

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من جورهم، بل في الصبر على جَوْرهم تكفيرُ السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلّطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاء من جنس العمل، فعلينا الاجتهاد في الاستغفار والتوبة وإصلاح العمل.

قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ**﴾ [النساء: ٧٩]. وقال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٩].

فإذا أراد الرعية أن يتخلّصوا من ظلم الأمير الظالم، فليتركوا الظلم» اهـ[1].

عباد الله...

وهذا الإمام أحمد - رحمه الله - كان مثالاً للسُّنَّة في معاملة الْوُلاة: فلقد تبنّى الولاةُ

(١) «شرح العقيدة الطحاوية» (٣٧٩- ٣٨٢).

في زمنه أحد المذاهب الفكريّة السّيئة، وحملوا الناس عليه بالقوّة والسيف، وأُهريقت دماءُ جمٍّ غفير من العلماء بسبب ذلك، وَفُرِضَ القولُ بِخَلْق القرآن على الأمّة[١]، ومع ذلك كُلِّه فالإمام أحمد لا يَنْزِعُهُ هوَى، بل ثبت على السُّنَّة، فأمر بطاعة وليّ الأمر - في الطّاعة - وجمع العامّة عليه، ووقف كالجبل الشامخ في وجه من أراد مخالفة المنهج النبويّ.

يقول حنبل: «اجتمع فقهاء بغداد في ولاية «الواثق» إلى أبي عبد الله - يعني: الإمام أحمد بن حنبل - وقالوا له: إن الأمر قد تفاقم وفشا - يعنون: إظهار القول بخلق القرآن، وغير ذلك - ولا نرضى بإمارته ولا سُلْطانه!

فناظرهم في ذلك، وقال: عليكم بالإنكار في قلوبكم، ولا تخلعوا يدًا من طاعة، ولا تشقّوا عصا المسلمين، ولا تسفكوا دماءكم ودماء المسلمين معكم، وانظروا في عاقبة أمركم، واصبروا حتى يستريح برٌّ، ويستراح من فاجر.

وقال: ليس هذا - يعني: نزع أيديهم من طاعته - صوابًا، هذا خلافُ الآثار ا.هـ[٢].

عباد الله...

هذا هو هدى الإسلام في معاملة الحكام، فسيروا على نوره، واهتدوا بهداه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

ويكفي في التعبير عن مفاسد الخروج ووباله على الأفراد والمجتمعات حديث موجز عن رسول الله ﷺ وهو حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله

(١) القرآن في عقيدة أهل السنة: كلام الله، ليس مخلوقًا، منه خرج وإليه يعود.
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ١٩٥، ١٩٦).

ﷺ: «الجماعةُ رَحْمَة، والْفُرْقة عذاب»[1].

واعلموا - عباد الله - أن الخلل إنما جاء من القلوب، وسوء السلوك. وها هو ذا ربّ العزة - سبحانه - يبيّن في كتابه قاعدة التغيير فيقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

اللّهم إنا نسألك رحمةً من عندك، تَهْدي بها قُلوبَنا، وتجمعُ بها أَمْرَنا، وتردّ بها الفِتَن عَنّا.

(١) صحيح: أخرجه أحمد، وابنه عبد الله في «الزوائد» (١/ ٢٧٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٨٩٥).

الخطبة الثلاثون

[أ] حقوق الرعية

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإِنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

وكما شرع الإسلام حقوقًا للراعي، شرع حقوقًا للرعية.. وحقوق الرعية على الراعي كثيرة، ونذكر منها أربعة:

الحق الأول: العدل بينهم:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠].

قال عكرمة - رحمه الله تعالى -: قرأ النبيّ ﷺ على الوليد بن المغيرة: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ إلى آخرها. فقال: يا ابن أخي أعد! فأعاد عليه. فقال: «والله إن له خلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أصله لُمورق، وأعلاه لمثمر، وما هو بقول بشر!»[1].

وقال ابن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية الكريمة: «هذه أجمع آية في القرآن لخير يمتثل، ولشرٍّ يُجْتنب»[2].

قال الإمام القرطبي - في تفسيره لهذه الآية - ما مختصره: «اختلف العلماء في تأويل العدل والإحسان».

قيل: العدل الفرض، والإحسان النافلة.

وقال سفيان بن عيينة: العدل هاهنا استواء السريرة، والإحسان أن تكون السريرة أفضل من العلانية.

وقال علي بن أبي طالب: العدل الإنصاف، والإحسان التفضل.

وقال ابن عطية: العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع في أداء الأمانات، وترك المظالم والإنصاف، وإعطاء الحق. والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما هو فرض، إلا أن حَدّ الإجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على الإجزاء داخل في الإحسان.

وقال ابن العربي[3]: «العدل بين العبد وبين ربه إيثارُ حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديمُ رضاه على هواه، والاجتنابُ للزواجر والامتثال للأوامر. وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها. قال الله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات: ٤٠]. وعُزوبُ الأطماع عن الاتباع، ولزومُ القناعة في كل حالٍ ومعنًى. وأما العدل بينه وبين الخالق فبذلُ النصيحة، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل لا في سِرٍّ ولا في علن، والصبر على

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٥٠).

(٢) صحيح: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٨) في تفسيره سورة النحل.

(٣) «في أحكام القرآن» (٣/ ١٥٣، ١٥٤).

ما يصيبك منهم من البلوى، وأقلّ ذلك الإنصافُ وترك الأذى.

قلتُ[١]: هذا التفصيل في العدل حسنٌ وعدل، وأما الإحسان فقد قال علماؤنا: الإحسان مصدر أحسن يُحْسن إحسانًا ويقال على معنيين:

أحدهما: متعدٍّ بنفسه، كقولك: أحسن كذا، أي حسّنته وكملتُه، وهو منقول بالهمزة من حَسُن الشيء.

وثانيهما: متعدٍّ بحرف الجر، كقولك: أحسن إلى فلان، أي أوصلت إليه ما ينتفع به.

قلت[٢]: وهو في هذه الآية مراد بالمعنيين معًا، فإنه تعالى يحب من خلقه إحسان بعضهم إلى بعض، حتى إن الطائر في سجنك والسِّنور في دارك لا ينبغي أن تقصر تعهده بإحسانك، وهو تعالى غَنِيّ عن إحسانهم، ومنه الإحسان والنعم والفضل والمنن» ا.هـ.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً** ﴾ [النساء: ٥٨].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية - ما مختصره:

«هذه الآية من أمّهات الأحكام تضمّنت جميع الدِّين والشَّرع وقد اخْتُلف من المخاطب بها:

فقال عليّ بن أبي طالب وزيد بن أسلم وشهر بن حَوْشب وابن زيد: هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة، فهي للنبيّ ﷺ وأُمرائه، ثم تتناول من بعدهم.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: الآية في الولاة خاصة في أن يعظوا النساء في النشوز ونحوه ويردّوهن إلى الأزواج.

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال وردّ الظلامات والعدل في الحكومات. وهذا اختيار الطبري. وتتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرّز في الشهادات وغير

(١) الكلام للقرطبي - رحمه الله -.
(٢) أي القرطبي - رحمه الله -.

...ت. كالرجل يحكم في نازلة مّا ونحوه، والصلاة والزكاةُ وسائر العبادات أمانة الله تعالى.

ورُوي هذا المعنى مرفوعًا من حديث ابن مسعود عن النبيّ ﷺ قال: «**القتل في سبيل الله يكفّر الذنوب كلها**» أو قال: «**كل شيء إلا الأمانة - والأمانة في الصلاة، والأمانة في الصوم، والأمانة في الحديث، وأشدّ ذلك الودائع**» ذكره أبو نعيم الحافظ في «الحلية»[1].

وممّن قال إن الآية عامة في الجميع: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأبيّ بن كعب قالوا: «الأمانة في كل شيء في الوضوء والصلاة والزكاة والجنابة والصوم والكيل والوزن والودائع».

وقال ابن عباس: «لم يرخّص الله لمُعْسر ولا لموسر أن يمسك الأمانة».

قلت: - أي القرطبي - رحمه الله -: وهذا إجماع.

وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم والفجار، قاله ابن المنذر.

وقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ**﴾ [النساء: ٥٨].

قال الضحاك: «بالبيّنة على المدّعِي واليمين على من أنكر».

وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك بالمعنى جميعُ الخلق كما ذكرنا في أداء الأمانات.

قال ﷺ: «**إن المقسطين يَوْمَ القيامة على منابرَ من نور عن يمين الرحمن وَكِلْتَا يديه يمين الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[2].

وقال: «**كلكم راعٍ وكلكم مسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهله وهو مسئولٌ عنهم، والمرأة راعيةٌ في بيت زوجها وهي مسئولة عنه، والعبد راعٍ على مال سيّده وهو مسئولٌ عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[3].

فجعل في هذه الأحاديث الصحيحة كل هؤلاء رعاة وحكّامًا على مراتبهم،

(١) قال المنذري في «الترغيب» (٤٢٦٨): رواه أحمد والبيهقي موقوفًا، وقال أحمد: إسناده جيد.
(٢) رواه مسلم (١٨٢٧)، والنسائي (٨/ ٢٢١، ٢٢٢).
(٣) رواه البخاري (٧١٣٨)، ومسلم (١٨٢٩)، وأحمد في «المسند» (٤٤٩٥).

وكذلك العالم الحاكم، لأنه إذا أفتى حكم وقضى وفصَلَ بين الحلال والحرام، والفرض والندب، والصحة والفساد، فجميع ذلك أمانة تؤدَّى وحكم يُقضى» ا.هـ[1].

عباد الله...

وصحائف التاريخ تعطّرت بمواقف مشهورة ومنشورة لأئمة العدل في حياة هذه الأمّة.. كانت بمثابة شارات واضحة لمن اهتدى: نذكر من هذه المواقف موقفين:

الموقف الأول: موقف أبي بكر رضي الله عنه من مال الدولة:

قال أبو بكر رضي الله عنه حين حضره الموت لعائشة - رضي الله عنها -:

«أما إنا منذ ولينا أمر المسلمين لم نأكل لهم دينارًا، ولا درهمًا ولكنا قد أكلنا من جريش[2] طعامهم في بطوننا، ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا، وليس عندنا من فيء المسلمين قليل، ولا كثير إلا هذا العبد الحبشي، وهذا البعير الناضح[3] وجَرْد هذه القطيفة، فإذا متّ فابعثي بهن إلى عمر، وابرئي منهن، ففعلتُ.

فلما جاء الرسول عمر بكى حتى جعلت دموعه تسيل في الأرض، ويقول: رحم الله أبا بكر، لقد أتعب من بعده، رحم الله أبا بكر لقد أتعب من بعده[4].

أنـــا مــــولاي إمــــامٌ ضــــحكت ... مــــن ثــــناي فَــضْله آيُ الزُّمَــــرْ

صـــــدَّق المُرسَــــل إيمانًـــــا بـــــه ... ولَحَــــا في الله مَــــنْ كــــان كَفَــــرْ

ثــــم بالغــــار لـــــه مَنْقَــــبةٌ ... خـــــصَّه الله بهـــــا دون البـــــشر

ثانــــي اثــــنين وقَــــوْلُ المــــصطفى ... معــــنا الله فــــلا تُــــبْدى الحَــــذَرْ

الموقف الثاني: موقفُ عليٍّ رضي الله عنه مع اليهوديّ الذي سَرق دِرْعَه:

مَرّ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بسوق الكوفة يومًا، فإذا به يمرّ أمام يهوديّ

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٢٢١- ٢٢٣) باختصار.

(٢) الجريش: خشن الطعام.

(٣) بعير خُصّص للسقيا.

(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٣/ ١٩٦).

يعرض دِرْعًا للبيع، فلما رآها أمير المؤمنين عرف أنها درعه التي فقدها منذ سنين طويلة، وعلامتها مميّزة عليها، فقال لليهودي: إن هذا الدرع درعي. فقال اليهودي: بل هي درعي، وأمامك القضاء.

ووقف أمير المؤمنين بجانب اليهودي أمام شُريح «القاضي». فقال شريح: البيّنة على من ادّعى.

قال عليّ: إن الدرع دِرْعي وعلامتها كَيْت وكَيْت، وهذا هو الحسن بن علي شاهدي على ذلك.

فقال شريح يا أمير المؤمنين، إني أعلم أنك صادق، ولكن ليس عندك بيّنة، وشهادة الحسن لا تنفعك، لأنه ابنك، وقد حكمنا بالدرع لليهودي!

فهزّ هذا الموقف اليهودي فقال: والله إن هذا الدين الذي تحتكمون إليه لهو الناموس الذي أنزل على موسى، وإنه لدين حق، ألا إن الدرع درع أمير المؤمنين، وإني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله[1].

أيها المسلمون...

هكذا كانوا، فأين العدل في حياة الناس اليوم؟ أين الإنصاف؟ أين الضمائر الحية؟ لقد صَدَق فينا قولُ القائل:

فلتسمعنّ بكل أرض داعيًا ... يدعو إلى الكذّاب أو لسجاح

ولتشهدنّ بكلِّ أَرْض فتنةً ... فيها يُباع الدين بيع سماح

يفتي على ذهب المُعزّ وسيفه ... وهوى النفوس وحِقدها الملحاح

اللّهم ردّ المسلمين إلى دينهم ردًّا جميلاً.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) «كتمان الحق بين تفريط العلماء ومسئولية الأمراء» للأستاذ محمد فهمي عبد الوهاب (٧٦، ٧٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

ومع هذا.. فالأمل لن يموت.. والنصر قادم.. ودين الله يتجدّد ولا يتبدّد: عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها.

ثم تكون خلافة على منهاج النبوة، فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء أن يرفعها.

ثم تكون مُلْكًا عاضًا فيكون ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها.

ثم تكوم مُلْكًا جَبْرِيًّا فتكون ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها إذا شاء الله أن يرفعها.

ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»، ثم سَكَت(١).

اللّهم إنا نسألك الْعَدْلَ في الغضب والرِّضا، ونسألك القَصْدَ في الفقر والغنى، ونسألك خشيتك في السِّرِّ والعلانية.

(١) صحيح: أخرجه أحمد، وغيره، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٥).

الخطبة الحادية والثلاثون

[ب] حقوق الرعية

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله تعالى - مع الحق الثاني من حقوق الرعية على الراعي، وهو: المبالغة في ملاحظتهم وتفقد أحوالهم:

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى سائل كل راع عمّا استرعاه، أحفظ ذلك أم ضيعه؟ حتى يسأل الرجل عن أهل بيته**»[1].

---

(١) حسن: رواه النسائي وابن حبان في «صحيحه»، وانظر «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٦).

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من أمير عشرة، إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكّه العدل، أو يوبقه الجَوْر**»[١].

فالإمام الرحيم هو الذي يدقق في أحوال رعيته.. ويحوطهم برحمته وشفقته.

عن ابن مريم عمرو بن مُرَّة الجهني رضي الله عنه أنه قال لمعاوية: سمعنا رسول الله ﷺ يقول: «**من ولَّاه الله شيئًا من أمور المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخَلَّتهم وفَقْرهم احتجب الله دون حاجته وخَلَّته وفقره يوم القيامة**» فجعل معاوية رضي الله عنه رَجُلاً على حوائج المسلمين[٢].

وكان الرسول ﷺ يدعو للراعي الشفيق. عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول في بيتي هذا: «**اللهم مَنْ ولي من أمر أمتي شيئًا فشقَّ عليهم. فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فَرَفق بهم، فأرفُق به**» رواه مسلم والنسائي.

عباد الله...

عَلِمَ ولاةُ الأمر في صدر هذه الأمّة أهمية الرّفق بالرعية، فجاءت مواقفهم تَقْطُر رحمةً، وتتفجّر حنانًا:

فها هو ذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه:

يحكي أنس بن مالك عنه فيقول: بينا عمر يعُسُّ بالمدينة إذ مَرَّ برحَبةٍ من رحابها، فإذا هو ببيتٍ من شَعْرٍ لم يكن بالأمس. فدنا منه فسمع أنين امرأة. ورأى رجلاً قاعدًا. فدنا منه فسلَّم عليه، ثم قال: من الرجل؟

قال: رجل من البادية، جئتُ إلى أمير المؤمنين أُصيب من فضله.

قال عمر: ما هذا الصوتُ الذي أسمعُه في البيت؟

قال الرجل: انطلق - رحمك الله - لحاجتك!

قال عمر: ما هو؟ قال الرجل: امرأةٌ تَمْخض[٣]!

---

(١) **صحيح**: رواه البيهقي في «السنن»، وانظر: «صحيح الجامع» (٥٥٧١).
(٢) **صحيح**: «صحيح سنن أبي داود» (٢٥٥٥).
(٣) **المخاض**: مقدّمات الولادة من الأوجاع.

قال عمر: هل عندها أحد؟ قال الرجل: لا.

فانطلق عمر حتى أتى منزله، فقال لامرأته «أم كلثوم»: هل لك في أجر ساقه الله إليك؟ قالت: ما هو؟

قال: امرأة غريبة تلد، ليس عندها أحدٌ. قالت: نعم، إن شئت.

قال: فخذي معك ما يُصْلح المرأة حين ولادتها من الخِرق والدُّهن. وجيء بِبُرْمةٍ[١] وشحم، وحبوب. فجاءت به. فقال لها: انطلقي.

وحمل البُرْمة ومشت خلفه حتى انتهى إلى البيت. فقال عمر لزوجته: ادْخلي إلى المرأة. وجاء هو حتى قعد إلى الرجل، فقال له: «أوقد لي نارًا».. فأوقد النار، وظلّ عمرُ ينفخُ في النار حتى أنضج البُرْمة، والدخان يتخلّل لحيته!

وولدت المرأة، فقالت «أمُّ كلثوم»: يا أمير المؤمنين، بشّر صاحبك بغلام!

فلمّا سمع الرجل اسم أمير المؤمنين كأنه هابه! فجعل يتنحّى عنه.

فقال له عمر: مكانك. كما أنت! فحمل هو البُرْمة فوضعها على الباب، ثم قال لزوجته: «أشبعيها». ففعلت، ثم أخرجت البرمة، فوضعتها على الباب.

فقام عمر فأخذها فوضعها بين يدي الرَّجل. فقال: كُل، ويحك، فإنك قد سَهِرت من الليل، ففعل.

ثم قال عمر لامرأته: اخْرُجي. وقال للرجل: إذا كان في الغد فأتنا نأمرُ لك بما يُصْلحك. ففعل الرجل فأجازه وأعطاه[٢]!

وهذا موقف آخر له رضي الله عنه يقطر رحمة وحنانًا: اسمعي يا دنيا:

قال اللواء/ محمود شيت خطاب في كتابه «أقباس روحانية»[٣]: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يمرّ بالناس متسترًا ليعرف أخبار رعيته، فمر بعجوز في خبائها، فسلّم عليها وقال لها: ما فعل عمر؟ قالت: لا جزاه الله عني خيرًا!!

(١) البرمة: ما يشبه القِدْر من الفخّار.

(٢) «سيرة عمر بن الخطاب» لأحمد البلتاجي (٨٥ - ٨٧).

(٣) (ص ٨٨، ٨٩).

قال لها: ولمَ؟

قالت: لأنه والله ما نالني من عطائه منذ ولي أمر المؤمنين دينار ولا درهم.

فقال لها: وما يُدري عمر بحالك وأنت في هذا الموضع؟

قالت: سبحان الله!! والله ما ظننتُ أن أحدًا يلي عمل الناس ولا يدري ما بين مشرقها ومغربها.

فبكى عمر ثم قال: «وا عمراه!! كل أحد أفقه منك حتى العجائز يا عمر!!» ثم قال لها: يا أمة الله بكم تبيعيني ظلامتك من عمر؟ فإني أرحمه من النار.

قالت: لا تهزأ بنا يرحمك الله. فقال لها: لستُ بهزاء.

ولم يزل بها حتى اشترى ظلامتها بخمسة وعشرين دينارًا. وبينما هو كذلك إذ أقبل عليّ بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - رضي الله عنهما - فقالا: السلام عليكم يا أمير المؤمنين.

فوضعت العجوز يدها على رأسها، وقالت: واسوأتاه! شتمتُ أمير المؤمنين في وجهه. فقال لها عمر: لا بأس عليك رحمك الله. ثم طلب رقعة يكتب فيها فلم يجد، فقطع قطعة من مرقعته وكتب فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم: هذا ما اشترى عمر من فلانة ظلامتها منذ ولي على يوم كذا وكذا بخمسة وعشرين دينارًا، فما تدعي عند وقوفه في المحشر بين يدي الله تعالى فعمر منه بريء».

وشهد على ذلك علي بن أبي طالب وابن مسعود. ورفع عمر الكتاب إلى ولده، وقال: «إذا أنا متُّ فاجعله في كفني ألقى به ربي».

عباد الله...

وهذا موقف ثالث للخليفة الأوّل: أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

قال الأستاذ خالد محمد خالد - رحمه الله - في كتابه: «خلفاء الرسول» عن أبي بكر: كانت بساطته رضي الله عنه أهم عناصر عظمته.. وكان قبل أن يصير خليفة يُقدّم لأهل الحيّ الذي يسكنه خدمة تناهت في الطرافة والروعة. فقد كان في جيرته بعض الأرامل

العجائز اللائي مات أزواجهن أو استشهدوا في سبيل الله.

كما كان هناك بعض اليتامى الذين فقدوا آباءهم.. وكان رضي الله عنه يؤم بيوت الأوليات فيحلبُ لهن الشِّياه. ويؤم بيوت الآخرين فيطهو لهم الطعام.

ولما صار خليفة، تناهى إلى سمعه حسرة العجائز لأنهن سيُحْرمن منذ اليوم من الخدمة الجليلة التي يؤديها لهم الرجل الصالح.. لكنه أخلف ظنونهن..!!

ويحكي التاريخ لنا قصة تدل على مدى تمكن الرحمة من قلب هذا الصِّديق الكبير:

عن أبي صالح الغفاري أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتعهد عجوزًا فكان إذا جاءها وجد غيره قد سبقه إليها، فأصلح ما أرادت، فجاءها غير مرةً كي لا يُسبق إليها، فرصده عمر، فإذا هو أبو بكر الذي يجيئها، وهو يومئذ خليفة!!

فقال عمر: «أنت هو لعمري»:

حالــت لفقــدكم أيامــنا فغَــدتْ	**سُـودًا وكانـت بكـم بيـضًا لياليـنا**
ليــسْق عهــدكم عهــد الــسُّرور	**فمــا كنــتم لأرواحِــنا إلا ريَاحِيــنا**

أيها المسلمون...

وهذا موقف رابع: يُنبئ عن نفاسة مَعْدن صاحبه، ويُخْبِر عن عُمْق خشيته لمولاه:

حمل البريد يومًا إلى «عمر بن عبد العزيز» رسالة من الجيزة بمصر.. أما صاحبة الرسالة فاسمها «فرتونة السوداء» تشكو لأمير المؤمنين. أن لها حائطًا متهدِّمًا لدارها يتسوَّره اللصوص ويسرقون دجاجها، وليس معها مال تنفقه في هذا السبيل.

وما كاد الخليفة يتلو الرسالة وهو في عاصمة خلافته بالشام حتى يكتب إلى واليه على مصر «أيوب بن شرحبيل» هذا الخطاب..

«من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى أيوب بن شرحبيل:

سلام الله عليكم..

أما بعد، فإن فرتونة السوداء كتبت إليَّ تشكو قِصرَ حائطها، وإن دجاجها يسرق

منها، وتسأل تحصينه لها. فإذا جاءك كتابي هذا، فاركب بنفسك وحصنّه لها»..!!

والبريد نفسه الذي حمل هذا الكتاب لوالي مصر. حمل كتابًا آخر من الخليفة لفرتونة السوداء..

«من عبد الله عمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين إلى فرتونة السوداء:

سلام الله عليك..

أما بعد، فقد بلغني كتابك، وما ذكرتِ فيه من قِصر حائطك حيث يُقتحم عليك ويُسرق دجاجك.

وقد كتبت إلى «أيوب بن شرحبيل» آمره أن يبني لك الحائط حتى يحصّنه مما تخافين إن شاء الله.

يقول ابن عبد الحكم الذي روى لنا هذه الواقعة الباهرة: «فلما جاء الكتاب إلى أيوب بن شرحبيل، ركب بنفسه حتى أتى الجيزة، وظل يسأل عن «فرتونة السوداء» حتى وجدها، فإذا هي سوداء مسكينة، فأعلى لها حائطها»..!!

- إيه يا رجال.. بارك الله في دين علّمكم، ونبيٍّ ربّاكم. فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

يحكي أهل السيَر: «أن عثمان رضي الله عنه غضب على غلام عنده فَعَرك أُذُنه بأصْبعيه.. فتألّم الغلام.. فتذكر عثمان رضي الله عنه قصاص الآخرة، فنادى على الغلام، وجلس له وقال: اعْرك أذني أيها الغلام!!

فكَبُر ذلك على الغلام.. فعزم عليه عثمان.. فأمسك الغلام بأُذِن «أمير المؤمنين عثمان» وشدَّ عليهما بأصبعيه.. وعثمان رضي الله عنه يقول له:

اشْدُدْ على أذن أمير المؤمنين، فإن قصاص الدنيا أهون من قصاص الآخرة!!».

عباد الله...

وما تقدّم ليس خاصًا بولاة الأمور فقط، بل يشمل كُلّ مسلم: فها هو ذا نبيُّنا ﷺ يقول: «**خابَ عَبْدٌ خَسِرَ لَمْ يجعلِ اللَّهُ في قلبه رَحْمَةً للبشر**»(١).

ويقول: «**ارْحَموا تُرْحَموا، واغْفروا يُغْفَرْ لكم، وَيْلٌ لأَقْماعِ الْقَوْلِ، ويلٌ لِلْمُصرِّين الذين يُصِرّون على مَا فَعَلُوا وهم يعلمون**»(٢).

اللَّهمّ اغفِرْ لنا وارْحَمْنا وارْضَ عنا، وتقبّل منا، وأدخلْنا الجنةَ وَنجِّنا من النار، وأصْلِحْ لنا شأنَنا كلَّه.

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) حسن: رواه الدولابي في «الكُنى» وابن عساكر، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٢٠٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٨٩٧).

الخطبة الثانية والثلاثون

[جـ] حقوق الرعية

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقاؤنا اليوم - بإذن الله تعالى - مع الحق الثالث والرابع من حقوق الرعيّة على الراعي:

أمّا الحق الثالث فهو: الحِلْمُ على الرّعية والنُّصْح لهم:

عباد الله...

ومما يوجب حلمه عن رعيته أن الله تعالى رفعه عليهم فليجعل الحلم شكرًا لرفعه

ثم هم في مقام ولده والحنو على الولد لازم، وينبغي أن يبالغ في نصحهم وأن يريد لهم ما يريد لنفسه فإن لم يفعل فقد غشّهم عن معقل بن يسار رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِنْ عبدٍ يَسْترعِيه اللَّهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ، وهو غاشٌّ لرعيته، إلا حَرَّمَ اللَّهُ عليه الجنَّة**»(١).

فيجب عليه أن يعين فقيرهم، ويؤدّب ظالمهم، ويعلّم جاهلهم.. ويحكم فيهم بحكم الله تعالى.

عن عمرو بن مرَّة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من إمام أو والٍ، يُغْلق بَابَهُ دون ذَوي الحاجة والخَلَّة والمُسْكَنَة، إلا أَغْلق الله أبواب السماء دون خُلّته وحاجته ومسكنته**»(٢).

فينبغي للسلطان أن يظهر للرعايا في وقت فإن صعب الظهور أقام أهل الدين يرفعون المظالم فإن تسهيل الإذن أحفظ شيء للحمد له، لأنه إذا علمت الرعية بسهولة الإذن أحجمت عن الظلم والعكس بالعكس.

قال أبو الفضل بن الجوزي - رحمه الله -: «ومما أهمله كثير من الولاة أنهم يفعلون فعلاً لا تجيزه الشريعة من قتل ما لا يجوز قتله، وقطع ما لا يجوز قطعه ويسمون ذلك سياسة وهذا غاية الخطأ لأن معنى قولهم: هذا سياسة، أن الشريعة جاءت ناقصة فاحتاجت إلى أن نتمّها برأينا وهذا عين الزّلل، فإن الشريعة هي السياسة الكاملة» ا.هـ(٣).

عباد الله...

وهذا الكلام الذي قاله أبو الفضل بن الجوزيّ صحيح، فقد قال الشافعيُّ - رحمه الله - فيما نقله عنه ابن القيم - كما في بدائع الفوائد -: «لا سياسة إلاّ ما وافق الشرع».

وإليكم - **أيها المسلمون** - هذا الحوار الرائع الذي دار بين **عمر بن عبد العزيز**

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد، وصححه الألباني كما في «السلسلة الصحيحة» برقم (٦٣٠).

(٣) «الجليس الصالح» (٣١، ٣٢).

- أمير المؤمنين - وبين واليه على «خُراسان»:

كتب إليه واليه على «خُراسان» يستأذنه في أن يُرخِّص له باستخدام بعض ... والعنف مع أهلها، قائلاً في رسالته للخليفة: «إنهم لا يصلحهم إلا السيف والسوط

فكان رَدُّهُ الحازم: «كذبت.. بل يصلحهم العدل والحق، فابْسُط ذلك فيهم، و... أن الله لا يصلح عمل المفسدين»!!.

العدل والحق..!!

بهما وعليهما سيقوم منهجُه.. وعلى طريقهما القويم ستمضي خطاه ولله دَرّ القائل

يـــا أيهـــا المظلـــوم في بـــلادِه	ائـــت الإمـــامَ عُمَـــرا فـــنادِه
خلـــيفة الله علـــى عـــبَاده	لم يؤثِـــرْ الدنـــيا علـــى معَـــاده
قـــد أســـكن الوعـــيد في فـــؤاده	خَـــوْفًا أطـــار الـــنَّومَ عـــن وســـاده
يحكـــم بالحـــق علـــى أولاده	قـــد أشـــبه الفـــاروق مـــن أجْـــداده

أيها المسلمون...

وهذا موقف عجيب يتجلّى فيه عدل وحِلْم **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه، يحكي لنا جرير بن عبد الله البجليّ، فيقول:

إن رجلاً كان مع أبي موسى الأشعريّ وكان ذا صوتٍ ونكاية في العدوّ، فغنم مَغْنَمًا فأعطاه أبو موسى بعضَ سهمه، ولم يُوفِّه حقّه فأبى الرجل أن يقبل حقّه منتقوصاً فجلده أبو موسى عشرين سوطًا، وحلق شَعْر رأسه!

فجمع الرجلُ شَعْره، ثم رحل إلى عمر، حتى قدم عليه في مجلسه. ثم ضرب بشعره صدر عمر، وقال: «أما والله لولا النار لصنعتُ بعاملك ما صنعتُ!».

ثم حكى له ما صنع به أبو موسى. فكتب عمر إلى أبي موسى:

«سلام عليك: أما بعد: فإن فلانًا أخبرني بكذا وكذا. فإن كنت فعلت ذلك في ملأ من الناس، فأقسمتُ عليك إلاّ قعدت له في ملأ من الناس، حتى يقتصّ منك. وإن كنتَ فعلت ذلك في خلاءٍ، فاقْعد له كذلك».

فقدم الرجل بالكتاب إلى أبي موسى، فقال له الناس: اعْفُ عنه!

فقال: لا والله لا أدَعُهُ لأحدٍ من الناس.

فلمّا قعد أبو موسى ليقتص الرَّجلُ منه، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال: «اللهم إني قد عفوتُ عنه!».

«يا الله» أميرٌ يجلس لأحد رعيته للقصاص أمام جنوده، وينكِّس رأسه له!!!

نعم يا سادة.. إنه عدل الإسلام. إنّه الحِلْم الذي جاء به هذا الدين المبارك.

إننا نذكر هذه المواقف، تذكرة للمؤمنين، على أفاعي هذا الزمان التي خرجت من جحورها تتحدّث عن الإسلام بحقد غريب وفكر مريب.

عباد الله...

أما الحق الرابع فهو: إقامة الحدود الشرعية على الشروط المرعية:

صيانة لمحارم الله - تعالى - عن التّجرؤ عليها، ولحقوق العباد التخطّي إليها، ويسوِّي في الحدود بين القويّ والضعيف، والوضيع والشريف؛ قال رسول الله ﷺ: «**إنّما أهْلَك مَنْ كان قَبْلَكم: أنّهم كانوا يُقيمون الحدودَ على الوضيع، ويتركون الشّريف، وايْمُ الله لو أن فاطمة بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقت؛ لقطع محمدٌ يَدَها**».

وقد طبق أميرُ المؤمنين **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه الحدَّ على ولده!!

اسمعوا...

قال عمرو بن العاص رضي الله عنه والي مصر: ما رأيت أحدًا بعد نبي الله ﷺ وأبي بكر أخوفَ لله من عمر! لا يبالي على من وقع الحق، على ولدٍ أوْ والد! ثم قال: إني لفي منزِلي «بمصر» إذ أتاني آتٍ فقال: قدم عبد الله بن عمر، وأخوه عبد الرحمن، ونزلا في مَوْضع كذا وكذا.

وكان قد كتب إليَّ عمر: «إياك أن يقدم عليك أحدٌ من أهلي، فتحبُوَه بأمرٍ لا تصنعه لغَيْره، فافعل بك ما أنت أهْلُه»[1].

---

(١) أي: ما تستحق من العقاب.

وإني لكذلك، وإذا قائل يدخل عليَّ ويقول: هذا «عبد الرحمن بن عمر» و ... سروعة» على الباب يَسْتأذنان.

فقلتُ: يدخلان. فدخلا وهما مُنكسران(١).

فقالا: أقم علينا حَدَّ الله! فإنا قد أصبنا البارحة شرابًا فَسَكرنا!

قال عمرو: فَزَجرتُهما وطردتُهما!

فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرتُ أبي إذا قدمتُ إليه!

قال عمرو: فحضرني رأيي، وعلمتُ أنِّي إن لم أُقم عليهما الحَدّ غضب عليّ عمر ... ذلك وعزلني، وخالفه ما صنعت.

فبينما نحن على ما نحن فيه إذ دخل «عبد الله بن عمر» فقمتُ إليه ورحَّبْتُ ... وأردتُ أن أُجلسه في صدر المجلس فأبى عليّ. وقال:

«أبي نهاني أن أدْخُلَ عليك، ما لم أجِدْ من ذلك بُدًّا. إن أخي لا يُحْلَقُ على رءوس الأشهاد، وأمَّا الضرْب فاصنعْ به ما بدا لك!».

قال عمرو: وكانوا يُحْلقون مع الحَدِّ، فأخرجتهما إلى صَحْن الدار فضربتهما الحَدّ.

ودخل عبد الله بن عمر بأخيه إلى ناحيةٍ من الدار فحلق رأسه، ورأس أبي سروعة.

فوالله ما كتبتُ إلى عمر بشيء مِمَّا كان حتى إذا تحيّنتُ كتابه إذا هو يقول فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.. من عبد الله، عمر أمير المؤمنين إلى العاصي بن العاص عجبتُ لك يا ابن العاص، ولجُرْأتك عليَّ، وخلاف عهدي! أما أنِّي قد خالفتُ فيك أصحاب بَدْر ممَّن هو خيرٌ منك. وأراك تلوَّثتَ بما تلوثت، فما أراني إلا أنني عازلُك. فمسيءٌ عَزْلك تضرب «عبد الرحمن» في بيتك، وتحلق رأسه في بيتك! وقد عرفتَ ... هذا يخالفني!

إنما «عبد الرحمن» رجلٌ من رعيتك، تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين ولكن قلتَ: هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هوادة لأحدٍ عندي من الناس في حق

(١) وهما خَجِلَان.

يجب لله عليه! فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءةٍ على قَتَبِ بعيرٍ[(١)] حتى يعرف سوء ما صنع!

قال عمرو: فبعثتُ به كما قال أبوه، وأقرأتُ «عبد الله بن عمر» كتاب أبيه، وكتبتُ بن عمر كتابًا أعتذر فيه، وأخبره أني ضربته في صحن داري، وحلفتُ له بالله أنّي هكذا أقيم الحدود مع غيره، سواءٌ في ذلك المسلمُ والذِّميُّ.

وبعثتُ بالكتاب مع عبد الله بن عمر.

قال أسلم «مولى عمر»: فقدم بعبد الرحمن إلى أبيه، فدخل عليه، وعليه عباءةٌ، ولا يستطيع المَشْي من مَرْكبه الصَّعْب! فقال عمر: يا عبد الرحمن فعلت كذا وكذا! فكلمه ابن عوف[(٢)]، وقال: يا أمير المؤمنين، قد أقيم عليه الحدُّ مَرَّة.

فلم يلتفت إليه «عمر» وزَجَره!

فجعل عبد الرحمن بن عمر يصيح: أنا مريضٌ، وأنت قاتلي!

فضربه عمر وحبسه، ثم أطلقه.

قال عبد الله بن عمر: فلبِثَ شهرًا صحيحًا، ثم أصابه قَدرُه فمات!

وتحْسَبُ عامَّة الناس أنه مات من جلد عمر له.

وكان «عبد الرحمن بن عمر، وأبو سروعة»[(٣)]، قد شربا نبيذًا، يظنان أن الشّرب منه لا يُسْكر، فأفرطا في شرابه، فَسَكرا منه فندما، وطلبا التطهير بالحَدّ.

وذهبا إلى الأمير من أنفسهما ليقيم عليهما حَدّ الله.

قالوا: وقد كان يكفيهما الندم والتوبة على التفريط، حيث كانت نيَّتُهما أنهما لا يشربان حرامًا، وإنما يشربان حلالاً. والنّبيذ لا يُسْكر قليله، والأعمال بالنيات.

غير أنهما غضبا لله - سبحانه - على أنفسهما، فكان أمرُهما ما عرفنا[(٤)].

---

(١) قَتَب البعير: كسرج الحصان؛ أمر عمر ألا يوضع على البعير شيء إيذاءً لعبد الرحمن وتأديبًا له.
(٢) هو: عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه.
(٣) صحابي من أصحاب النبي ﷺ وكان رضي الله عنه ممَّن شهد «بدرًا».
(٤) «سيرة عمر» (٦٧ - ٧١).

ورواه البيهقي في «السنن» (٨/ ٣١٣) مختصرًا، ولفظه:

عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: «شرب أخي «عبد الرحمن بن عمر وشرب معه «أبو سروعة عقبة بن الحارث» ونحن بمصر في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فسكرا.

فلما صحا انطلقا إلى «عمرو بن العاص» وهو أمير بمصر فقالا: طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه.

فقال عبد الله بن عمر: فلم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص، قال: فذكر لي أخي أنه قد سكر، فقلتُ له: ادخل الدار أطهرك، قال: إنه قد حدَّث الأمير.

قال عبد الله، فقلتُ: والله لا تُحْلَق اليوم على رءوس الأشهاد، ادخل أحلقك. وكانوا إذ ذاك يُحلقون مع الحد، فدخل معي الدار. قال عبد الله: فحلقت أخي بيدي. ثم جلدهما «عمرو بن العاص»، فسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه بذلك فكتب إلى عمرو:

أن ابعث إليّ عبد الرحمن على قتب، ففعل ذلك عمرو، فلما قدم عبد الرحمن على عمر رضي الله عنه جلده، وعاقبه من أجل مكانه منه، ثم أرسله، فلبث شهرًا صحيحًا. ثم أصابه قدره، فيحسب عامة الناس أنه مات من جلد عمر، ولم يمت من جلده».

قال الإمام ابن الجوزي - رحمه الله تعالى -: لا ينبغي أن يظن بعبد الرحمن بن عمر أنه شرب الخمر وإنما شرب النبيذ متأولاً وظن أن ما شرب منه لا يسكر، وكذلك أبو سروعة، وأبو سروعة من أهل بدر، فلما خرج بهما الأمر إلى السُّكر طلبا التطهير بالحدّ. وقد كان يكفيهما مُجرّد الندم على التفريط، وأما كون عمر أعاد الضرب على ولده فليس ذلك حَدًّا، وإنما ضربه غضبًا وتأديبًا» ا.هـ.

عباد الله...

هذا هو الإنصاف في قمّته.

نسأل الله التوفيق لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد هذا العرض لبعض حقوق الرعية على الراعي وحقوق الراعي على الرعيّة، ينبغي أن نذكّر: أن كل ما يحصل من نكبات على الشعوب ما هي إلاّ بأسباب المعاصي والذنوب، ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

قال ابن أبي حاتم عن إبراهيم[(١)]، قال:

أوحى اللَّهُ إلى نبيٍّ من أنبياء بني إسرائيل:

«أنْ قُلْ لقومِك: إنّه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحوَّلون منها إلى معصية الله إلَّا حوَّل الله عنهم ما يُحِبُّون إلى ما يَكْرَهون».

اللّهمّ وفِّق جميعَ المسلمين حُكّامًا ومحكومين للعمل بكتابك، وسُنَّةِ نبيّك.

---

(١) لعلّه إبراهيم النخعيّ - رحمه الله -.

الخطبة الثالثة والثلاثون

[أ] فَضْلُ الْعَدْلِ

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مضلَّ لَهُ، ومن يُضْلِلْ فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمّا بعد:

فبداية من هذه الخطبة نبدأ - إن شاء الله تعالى - في سلسلة مهمة، نشرح فيها حديث: «السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظِلّه».

وأسأل الله - تعالى - التوفيق.

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالى في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ: إِمَامٌ عَدْلٌ، وَشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ الله، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، وَرَجُلانِ

حبَّا في اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فَأَخْفَاهَا حَتى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِياً فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ»[١].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «قوله: «سبعة» ظاهره اختصاص المذكورين بالثواب المذكور، ووجّهه الكرماني بما محصّله أن الطاعة إمّا أن تكون بين العبد وبين الرّبّ أو بينه وبين الخلق، فالأوّل باللسان وهو الذكر، أو بالقلب وهو المعلّق بالمسجد، أو بالبدن وهو الناشئ في العبادة. والثاني عام وهو العادل، أو خاص بالقلب وهو التحاب، أو بالمال وهو الصدقة، أو بالبدن وهو العفّة.

وقد نظّم السبعة العلاّمة أبو شامة عبد الرحمن بن إسماعيل، فقال:

وقال النبيُّ المصطفى إن سبعة ... يظلّهم اللّهُ الكريم بظلّه

محبّ عفيف ناشئ متصدّق ... وباكٍ مُصَلٍّ والإمام بعدله

ووقع في «صحيح مسلم» من حديث أبي اليسر مرفوعًا: «مَنْ أَنْظَر مُعْسِرًا أوْ وَضَع له، أظلّه اللّهُ في ظِلّه يَوْمَ لا ظِلّ إلاّ ظِلُّه».

وهاتان الخصلتان غير السبعة الماضية فدلّ على أن العدد المذكور لا مفهوم له» ا.هـ[٢].

أيها المسلمون...

إن يوم القيامة: طويلٌ زمنه، شديد كربه، عظيم شأنه: قال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ * مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴾ [المعارج: ١ - ٤].

وقال الحسن - رحمه الله -: «ما ظنّك بيوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة، لا يأكلون فيها أكلة، ولا يشربون فيها شربة، حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشًا، واحترقت أجوافهم جوعًا انْصُرِفَ بهم إلى النار، فَسُقُوا من عَيْنٍ آنية، قد آن

(١) رواه البخاري (٦٦٠)، (١٤٢٣)، ومواضع أخرى، ومسلم (١٠٣١).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٦٨).

حَرُّها، واشتدّ لَفَحُها»[١].

وهو يوم: وصف اللهُ تعالى حالَ العبادِ فيه بقوله: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن عائشة - رضي الله عنها - عن النبيّ ﷺ أنه قال: «إنكم تحشرون إلى الله يوم القيامة حُفَاةً عُرَاة غُرْلاً»[٢].

قالت عائشة: يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟!

قال: «يا عائشة، إن الأَمْرَ أشدّ من أن يهمّهم ذاك». ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ * لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾.

وفي سورة أخرى، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾ [فاطر: ١٨].

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ﴾: «هي المرأةُ تلقى ولدها فتقول: يا ولدي، ألم يكن بطني لك وعاء؟ ألم يكن ثَدْيي لك سِقَاء؟ ألم يكن حِجْري لك وطاء؟ فيقول: بلى يا أمّاه، فتقول: يا بنيّ، قد أثقلتني ذنوبي، فاحْمِلْ منها ذنبًا واحدًا؟ فيقول: إليك عنّي يا أمّاه، فإني بذنبي عنك مشغول!

وعن هول هذا اليوم - يوم القيامة - وردت أحاديث كثيرة، نذكر منها:

عن المقداد رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «تُدْنِي الشَّمْسُ يَوْمَ القيامة من الخَلْق حتى تكونَ منهم كَمِقْدَارِ ميل».

قال سَلِيمُ بْنُ عامر: والله ما أدْري ما يعني بالميل مسافةَ الأرض، أو الميل التي تَكْحَلُ به العين، قال: «فتكونُ النّاسُ على قَدْر أعمالهم في الْعَرَق، فمنهم من يكون إلى كَعْبَيْه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم من يكون إلى حَقْوَيْه، ومنهم من يُلْجِمُهُ العرقُ

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٥١٥).

(٢) الغُرل: الأقلف.

خَاتَمًا»، وأشار رسولُ الله ﷺ بيده إلى فيه[1].

أيها المسلمون...

وهناك أقوام ينجّيهم الله - تعالى - من هذا الكرب العظيم، ويمرّ عليهم هذا اليوم العصيب كتدلي الشمس للغروب إلى أن تغرب، ويكون أخف عليهم من صلاة مكتوبة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ٦] «**مِقْدَارُ نِصْفِ يَوْمٍ من خَمْسِينَ أَلفَ سنة فَيَهُون ذلك على المؤمن كتَدَلِّي الشمسِ للغروبِ إلى أن تَغْرُب**»[2].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يومًا كان مقداره خمسين ألف سنة**». فقيل: ما أطولَ هذا اليوم! قال النبيُّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده إنه لَيُخَفَّفُ على المؤمن حتى يكونَ أخفَّ عليه من صلاةٍ مكتوبة**»[3].

فيا ترى أين هم؟ ومن هم؟

إنهم في «ظلّ الله يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه»:

قال الإمام النووي - رحمه الله -: **قال القاضي** - رحمه الله -: إضافة الظلّ إلى الله تعالى إضافة ملك، وكل ظلّ فهو لله وملكه وخلقه وسلطانه[4]، والمراد هنا: ظلّ العرش كما جاء في حديث آخر مبينًا، والمراد يوم القيامة إذا قام الناسُ لرب العالمين، ودنت منهم الشمس، واشتد عليهم حرُّها، وأخذهم العرق، ولا ظل هناك لشيء إلاّ للعرش» ا.هـ[5].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) قال المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٥٠٩٦): رواه أبو يعلى بإسناد صحيح، وابن حبان في صحيحه.

(٣) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٠٩٧): رواه أحمد، وأبو يعلى وابن حبان في «صحيحه» كلّهم من طريق درّاج عن أبي الهيثم.

(٤) قال ابن عثيمين - في شرح «رياض الصالحين» (٢/ ١٨٥) -: «فلا يتوهّم جاهل أن هذا هو ظل الله نفسه» ا.هـ.

(٥) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٩٩).

عباد الله...

وأولُ هؤلاء - الذين يظلهم الله في ظل عرشه - إمام عادل:

فمن هو الإمام العادل؟

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «قال القاضي: هو كل من إليه نظر في شيء من مصالح المسلمين من الولاة والحكّام، وبدأ به لكثرة مصالحه وعموم نفعه» ا.هـ[١].

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «المراد به صاحب الولاية العظمى، ويلتحق به كل من ولي شيئًا من أمور المسلمين فعدل فيه، ويؤيّده رواية مسلم من حديث عبد الله بن عمر ورفعه إلى النبي ﷺ: «أن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، الذين يَعْدِلُون في حكمهم، وأهليهم وَمَا وَلُوا».

وأحسن ما فسّر به الإمام العادل أنه الذي يتّبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفريط، وقدّمه في الذكر لعموم النفع به» ا.هـ[٢].

وهل للنساء نصيب في هذا الحديث «حديث السبعة»؟

يجيب الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - فيقول: «ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النّساء معهم فيما ذكر، إلاّ إذا كان المراد بالإمام العادل: الإمامة العظمى، وإلاّ فيمكن دخول المرأة حيث تكون ذات عيال فتعدل فيهم[٣]. وتخرج خصلة: «ملازمة المسجد» لأن صلاة المرأة في بيتها أفضل من المسجد، وما عدا ذلك فالمشاركة حاصلة لهن، حتى الرجل الذي دعته المرأةُ فإنه يتصوّر في امرأة دعاها ملك جميل مثلاً فامتنعت خوفًا من الله تعالى مع حاجتها، أو شابّ جميل دعاه ملك إلى أن يزوّجه ابنته مثلاً فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه» ا.هـ[٤].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٠٠).

(٢) «فتح الباري» (٢/ ١٧٠).

(٣) قال رسولُ الله ﷺ: «كُلكُم راع ومسئول عن رعيته، الإمامُ راع ومسئول عن رعيته، والرجلُ راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راعٍ في مال سيّده ومسئول عن رعيته، فكلكم راع ومسئول عن رعيته» رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٤) «فتح الباري» (٢/ ١٧٣).

عباد الله...

فما معنى العدل؟ وما هي فضائله؟

العدل: هو فصل الحكومة على ما في كتاب الله - سبحانه وتعالى - وسنّة رسوله ﷺ لا الحكم بالرأي المجرّد.

وقيل: بذلُ الحقوق الواجبة وتسوية المستحقين في حقوقهم.

وقال ابن حزم: هو أن تُعْطِيَ من نفسك الواجِبَ وتأخذه.

وقال الجرجانيُّ: العدلُ الأَمرُ المتوسط بين الإفراط والتفريط.

والعدالة في الشريعة: عبارةٌ عن الاستقامة على طريق الحق بالاجتناب مِمَّا هو محظورٌ دِينًا.

أمّا عن فضَائل العدل: فقد وردت أحاديث في فضائل العدل، منها:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ثَلاَثٌ كَفَّارَاتٌ، وَثَلاَثٌ دَرَجَاتٌ، وَثَلاَثٌ مُنْجِيَاتٌ، وَثَلاَثٌ مهْلِكَاتٌ. فَأَمَّا الكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الوُضُوءِ فِي السَبَرَاتِ**[١]**، وَانْتِظَارُ الصَّلَوَاتِ بَعْدَ الصَّلَوَاتِ، وَنَقْلُ الأَقْدَام إِلَى الجُمَاعَاتِ. وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ: فَإِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَإِفْشَاءُ السَّلاَمِ، وَالصَّلاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ. وَأَمَّا المُنجيَاتُ: فَالْعَدْلُ فِي الغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالْقَصْدُ فِي الفَقْرِ وَالغِنَى، وَخَشْيَةُ الله فِي السِّرِ وَالعَلاَنِيةَ. وَأَمَّا المُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ المُرْءِ بِنَفْسِهِ**»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ لَا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ، الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ المُظْلُوم يَرْفَعُهَا اللهُ دُونَ الْغَمَامِ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَيَقُولُ بِعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ**»[٣].

عباد الله...

هذه بعض فضائل العدل. وبالجملة: فبالعدل قامت السموات والأرض.

---

(١) السبرات: جمع سبرة وهي شدّة البرد.

(٢) حسن: رواه البزار، وانظر: «صحيح الجامع» (٢/ ٦٧) : (٣٠٤١) .

(٣) رواه الترمذي (٣٥٩٨) ، وابن ماجه (١٧٥٢) ، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لإقامة هذا الخُلق الكريم.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «أمورُ الناس تستقيم في الدنيا مع العدل، أكثر مما تستقيمُ مع الظلم في الحقوق. ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر ولا تدوم مع الظلم والإسلام» ا.هـ[1].

فيا عباد الله...

اعدلوا، فقد بان لكم فضلُ العدل، وإياكم والظلم، فإن الظلم عواقبه وخيمة في الدنيا والآخرة.

قصة: وأختم الخطبة بهذه القصّة: لما حُبِس **خالد بن بَرْمَك**[2] وولده، قال ولده: يا أبت بعد العزّ صِرْنَا في الْقَيْد والحبس؟!

فقال: يا بني، دعوة المظلوم سَرَتْ بليل، غَفَلْنَا عنها، ولم يغفل اللهُ عنها[3].

أيها المسلمون...

وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله تعالى - نواصل الحديث عن «الإمام العادل». ونتكلم عن الأمر بالعدل، وأقسامه. فإلى اللقاء إن شاء الله.

اللهم إنا نسألك الْعَدْل في الغَضَبِ والرِّضا، والقَصْدَ في الفقر والغنى، وخشيتك في السِّر والعلانية.

---

(١) «الحسبة» (١٤٧).

(٢) أمير بلاد فارس أيام الخليفة المنصور. انظر: «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٢٢٩).

(٣) «الكبائر» للذهبي (١١٦).

الخطبة الرابعة والثلاثون

[ب] فَضْلُ العَدْلِ

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن أوّل المنعّمين في ظل الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله، وهو: «**إمام عادل**». وخطبة اليوم تدور حول أمرين: **الأول**: الأمر بالعدل من الكتاب والسنة، **والثاني**: أقسام العدل. ونسأل الله التوفيق لطاعته.

أولا: الأمر بالعدل من الكتاب والسنة:

ورد الأمر بالعدل في كتاب الله، وفي سنة رسول الله ﷺ : **فمن القرآن**:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «هذه أجمع آية في القرآن لخيرٍ يُمْتَثَل، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَب»[١].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ [النساء: ٥٨].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هذه الآية: «يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها. وهو يعمّ جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله ﷻ على عباده من الصلاة والزكاة والصِّيام والكفّارات والنذور وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه لا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به من غير اطلاع بينة على ذلك فأمر الله ﷻ بأدائها فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ أَمْرٌ منه تعالى بالحكم بالعدل بين الناس، ولهذا قال محمد بن كعب وزيد بن أسلم وشهر بن حَوْشب: إن هذه الآية إنما نَزلت في الأمراء، يعني الحكام بين الناس[٢]؛ وفي الحديث: «إن الله مع الحاكم ما لم يجر فإذا جَارَ وَكله إلى نَفْسه»[٣]. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ﴾ أي: يأمركم به من أداء الأمانات، والحكم بالعدل بين الناس وغير ذلك من أوامره، وشرائعه الكاملة العظيمة الشاملة، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ أي: سميعًا لأقوالكم، بصيرًا بأفعالكم» ا.هـ[٤].

ومن الأحاديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا حكمتُم فاعْدِلوا، وإذا قَتَلْتُم فأحْسِنوا، فإن الله ﷻ مُحْسِنٌ يُحِبُّ الْمُحْسِنين»[٥] ا.هـ.

---

(١) إسناده صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٣٣٥٨).

(٢) راجع: حقوق الرعية على الراعي.

(٣) حسن: انظر: «صحيح الجامع» (١٢٥٣).

(٤) «مختصر تفسير ابن كثير» (١/ ٤٩٠).

(٥) حسن: رواه الطبراني في «الأوسط»، وانظر: «صحيح الجامع» (١/ ١٩٤).

وعن عامر، قال: سمعتُ النُّعمانَ بْنَ بشير - رضي الله عنهما - وهو على المنبر يقول: أعطاني أبي عَطِيَّةً، فقالت عَمْرَةُ بِنْتُ رَوَاحَة: لا أَرْضَى حتى يُشهِد رسول الله ﷺ فأتى رسولَ الله ﷺ فقال: إنِّي أَعْطَيْتُ ابْنِي مِنْ عَمْرَةَ بِنْتِ رَوَاحَة عَطِيَّةً، فأمَرَتْنِي أن أُشْهِدَكَ يا رسول الله. قال: «أَعْطَيْتَ سائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هذا؟». قال: لا. قال: «فاتَّقوا الله واعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُم». قال: فَرَجَعَ فَرَدَّ عَطِيَّتَهُ[1].

ثانيًا: أقسام العدل:

قال الإمام الماورديُّ - رحمه الله تعالى: «إذا كان العدلُ من إحدى قواعد الدنيا التي لا انتظامَ لها إلا به، ولا صلاح فيها إلا معه، وجب أن يُبدأ بعدل الإنسان مع نفسه، ثم بعدله في غيره.

فأمّا عَدْلُه في نفسه: فيكون بِحَمْلِها على المصالح وكفِّها عن القبائح، ثم بالوقوف في أحوالها على أعدل الأَمْرَيْن: من تجاوز أو تَقْصير، فإنّ التجاوزَ فيها جَوْرٌ، والتقصيرَ فيها ظُلْم، ومن ظَلَم نَفْسَه فهو لغيره أَظْلَمُ، ومَنْ جَارَ عليها فهو على غيره أكثر جَوْرًا.

فأمّا عَدْلُه مع غَيْره: فقد تنقسم حالُ الإنسانُ مع غيره إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عَدْل الإنسان فيمن دونه:

كالسلطان في رعيّته، والرئيس مع صحابته، فعدله فيهم يكونُ بأربعة أشياء: باتِّباع الميسور، وحذف المعسور، وترك التسلّط بالقوّة، وابتغاء الحقّ في السيرة، فإنّ اتباع الميسور أدْوم، وحذف المعسور أسلم، وترك التسلُّط أعطف على المحبّة، وابتغاء الحقّ أبعثُ على النُّصْرة.

القسم الثاني: عدلُ الإنسان مع مَنْ فَوْقه:

كالرّعية مع سلطانها، والصّحابة مع رئيسها، ويكونُ ذلك بثلاثة أشياء: بإخلاص الطاعة، وبذل النُّصرة، وصدق الولاء: فإن إخلاص الطاعة أجمع للشمل، وبذل النُّصرة أدفع لِلْوَهْن، وصدق الولاء أنفى لسوء الظَّن.

وهذه أمورٌ إن لم تجتمع في الْـمَرْء تَسَلَّط عليه مَنْ كان يَدْفَعُ عَنْه واضْطُرَّ إلى اتِّقاء

---

(١) رواه البخاري (٢٥٨٧).

مَنْ كان يَقِيه.. وفي استمرار هذا حَلُّ نِظَامٍ شَامِلٍ، وفسادُ صَلاحٍ شامل.

القسم الثالث: عدل الإنسان مع أكْفَائِه:

ويكون بثلاثة أشياء: بترك الاستطالة؛ ومجانبة الإدلال، وكَفّ الأذى؛ لأن ترك الاستطالة آلَفُ، ومجانَبَةَ الإدْلال أعطف، وكَفَّ الأذَى أنصفُ، وهذه أمورٌ إن لم تَخْلُصْ في الأكْفَاء أَسْرَعَ فِيهم تَقَاطُعُ الأعداءُ، فَفَسَدوا وأفْسَدوا. وقد يتعلّق بهذه الطبقات أمورٌ خاصّة يكون العدل فيها بالتوسط في حالتي التقصير والسَّرف، لأن العدل مأخوذ من الاعتدال، فما جاوز الاعتدال فهو خروجٌ عن العدل، وإذا كان الأمر كذلك فإن كُلّ ما خرج عن الأَوْلَى إلى ما ليس بأَوْلى خروج عن العدل إلى ما ليس بالعدل.

ولست تجد فسادًا إلا وسببُ نتيجته الخروج فيه عن حال العدل، إلى ما ليس بعدل من حالتي الزيادة والنقصان، وإذًا لا شيء أنفعُ من العدل كما أنه لا شيء أضرُّ مما ليس بعدل» ا.هـ[١].

عباد الله...

وهذه نماذج لأئمة أهل العدل، نقدّمها للدنيا لتعلّم كيف رَبَّى الإسلام أهله:

الموقف الأول: عن حَفْصِ بْنِ عُمَر بن أبي الزُّبَيْر، قال: كتب عمرُ بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: «أن أَدِقَّ قَلَمك، وقارِبْ بين أسْطُرِكَ، فإنِّي أكْرَهُ أَنْ أُخْرِجَ مِنَ أموال المسلمين ما لا ينتفعونَ به!!»[٢].

فبأي قلم نصف هذا العدل أيها الناس؟ إنها علامات التقوى، وشارات الإيمان. لاحت دلائِلُها، وفَاحَ شَذَاها. فأين هي اليوم؟

يـا مُـسْلِمًا تَدّعِـي الإسْـلامَ مَجَانًـا ... هَـلاّ أَقَمْـتَ علـى دَعْـوَاكَ بُـرهَانَا

الموقف الثاني: لَمّا حبس «الرشيدُ» الإمام موسى الكاظم - رحمه الله - بعث موسى الكاظم إلى الرشيد برسالة من الحبس يقول: «إنه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلا انقضى عنك معه يومٌ من الرَّخاء حتى نُفْضي جميعًا إلى يومٍ ليس له انقضاء يَخْسَر فيه

(١) «أدب الدنيا والدين» (١٤١- ١٤٤) باختصار.
(٢) «سير أعلام النبلاء» (٥/ ١٣٢).

المُبْطِلون»(١).

عباد الله...

وعن أهمية العدل وإقامته في الأرض يقول الإمام الماورديّ - رحمه الله -: «إنَّ مِمَّا تَصْلُحُ به حالُ الدنيا قاعدةَ العَدْلِ الشاملِ، الذي يدعو إلى الأُلْفَةِ، ويَبْعَثُ على الطَّاعَةِ، وتَعْمُرُ بِهِ البِلادُ، وتنمو به الأموالُ، ويَكْبُرُ معه النَّسْلُ، ويأمنُ به السُّلطانُ. وليس شيءٌ أسرعَ في خرابِ الأرضِ، ولا أَفْسَدَ لضمائرِ الخَلْقِ مِنَ الجَوْرِ؛ لأَنَّهُ ليس يَقِفُ على حَدٍّ، ولا يَنْتِهِي إلى غايةٍ، ولِكُلِّ جزءٍ منهُ قِسْطٌ مِنَ الفسادِ حتى يَسْتَكْمِلَ.

وَنُقِلَ عن بعضِ البُلَغَاءِ قولُهُ: إنَّ العدلَ ميزانُ الله الذي وضعهُ لِلْخَلْقِ، ونَصَبَهِ لِلْحَقِّ فلا تُخَالِفْهُ في مِيزَانِهِ، ولا تُعَارِضْهُ في سُلْطَانِهِ، وَاسْتَعِنْ على العَدْلِ بِخَلَّتَيْنِ: قِلَّةِ الطَّمَعِ، وكثرةِ الوَرَعِ» اهـ.

وهذه رسالة «مهمة» أرسلها الحسنُ البصري - رحمه الله - إلى عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - أيام خلافته فيها عظة وعبرة: روى ابن عبد ربِّه - رحمه الله - في «العقد الفريد» (١/ ٣٥، ٣٦):

كتب عمر بن عبد العزيز - رَحِمَهُ الله - لما ولي الخلافة إلى الحسن البصري، أن يكتب له بصفة الإمام العادل، فكتب إليه الحسن:

«اعلم يا أمير المؤمنين، أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل، وقصد كل جائر، وصلاح كل فاسد، وقوة كل ضعيف، ونَصَفَة كل مظلوم، ومفزع كل ملهوف.

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالراعي الشفيق على إبله، الرفيق بها، الذي يرتاد لها أطيب المراعي، ويذودها عن مراتع الهلكة، ويحميها من السباع، ويُكنها من أذى الحرّ والقرّ(٢).

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالأب الحاني على ولده، يسعى لهم صغاراً ويعلمهم كباراً، يكتسب لهم في حياته، ويدّخر لهم بعد مماته.

(١) «سير أعلام النبلاء» (٦/ ٢٧٣).
(٢) **القرّ**: البَرْد.

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالأم الشفيقة البرّة الرفيقة بولدها حملته كُرهاً، ووضعته كرها، وربّته طفلاً، تسهر بسهره، وتسكن بسكونه، تُرضعه تارة وتفطمه أخرى، وتفرح بعافيته، وتغتم بشكايته.

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - وصي اليتامى، وخازن المساكين، يُربّي صغيرهم، ويَمُون كبيرهم.

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - كالقلب بين الجوارح، تصلح الجوارح بصلاحه، وتفسد بفساده.

والإمام العادل - يا أمير المؤمنين - هو القائم بين الله وبين عباده، يسمع كلام الله ويُسمعهم، وينظر إلى الله، ويُريهم، وينقاد إلى الله ويقودهم.

فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملكك الله ﷻ كعبد ائتمنه سيّده، واستحفظه ماله وعياله، فبدّد المال وشرد العيال، فأفقر أهله وفرّق ماله.

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدود ليزجر بها عن الخبائث والفواحش فكيف إذا أتاها من يليها؟! وأن الله أنزل القصاص حياة لعباده فكيف إذا قتلهم من يقتصّ لهم؟!

واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده، وقلة أشياعك عنده وأنصارك عليه، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر.

واعلم يا أمير المؤمنين أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه، يطول فيه ثواؤك، ويفارقك أحباؤك، يسلمونك في قعره فريداً وحيداً. فتزوّد له ما يصحبك: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ * وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ * وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٦]، واذكر يا أمير المؤمنين ﴿أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ﴾ [العاديات: ٩، ١٠].

فالأسرار ظاهرة، والكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.

فالآن يا أمير المؤمنين وأنت في مهل قبل حلول الأجل، وانقطاع الأمل، لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين، ولا تسلط المستكبرين على المستضعفين، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمة، فتبوء بأوزارك وأوزارًا مع أوزارك، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك، ولا يغرنّك الذين يتنعمون بما فيه بؤسك، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذهاب طيباتك في آخرتك.

ز لا تنظر إلى قدرتك اليوم، ولكن انظر إلى قدرتك غداً وأنت مأسور في حبائل ـرت، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين، وقد عنت الوجوه حيّ القيّوم. إني يا أمير المؤمنين، وإن لم أبلغ بعظتي ما بلغه أولو النُّهى من قبلي، فلم آلك سنتة ونصحاً، فأنزل كتابي إليك كمداوي حبيبه، يسقيه الأدوية الكريهة لما يرجو له في ذ ـث من العافية والصحة والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

عباد الله...

إن العدل كما قال ابن تيمية – رحمه الله -: «نظام كُلّ شيء. فإذا أقيم أمْرُ الدنيا بعدل قامت وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق. ومتى لم تَقُمْ بعدل لم تَقُم، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يُجْزَى به في الآخرة» اهـ[(١)].

جعلنا الله وإياكم من أهل العدل المؤمنين، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن بان لنا فضلُ العدل، ووجوبه، فاجعلوه – أيها المسلمون – شعاركم ودثاركم، واحذروا من الظلم وأهله، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة.

واسمعوا هذا الحديث الشريف الذي يجعل الولدان شيبًا: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا تُرَدَ دَعَوْتهم: الإمامُ العادل، والصّائمُ حين يُفْطِر، ودعوةُ المظلوم يَرْفَعُها اللَّهُ دُون الغَمَامِ يَوْمَ القيامة، وَتُفْتَحُ لها أَبْوَابُ السّماء، ويقول: بِعزّتي لأنْصرنّك ولو بَعْد حين**»[(٢)].

اللهّم اقْسِم لنا من خشيتك ما يَحُول بيننا وبين معَاصِيك

---

(١) «الحسبة» (١٤٨).

(٢) صحيح: رواه الترمذي (٣٥٩٨)، وقال الشيخ/ أحمد شاكر: صحيح.

الخطبة الخامسة والثلاثون

[أ] فَضْلُ الشّابِّ المتعبِّد عِندَ اللّهِ تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله تعالى - مع ثاني الآمنين في ظل الله يوم لا ظلّ إلاّ ظله. وهو: «**شاب نشأ في عبادة الله**»: لماذا خُصّ الشابّ دون غيره؟

يجيب الحافظ ابْنُ حجر - رحمه الله - عن هذا السؤال فيقول: «خص الشاب لكونه مظنّة غلبة الشهوة لِمَا فيه من قوّة الباعث على متابعة الهوى، فإن ملازمة العبادة مع ذلك أشدّ وأدلّ على غلبة التقوى» ا.هـ[1].

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٧٠).

عباد الله...

وهذا الشاب الذي نشأ في عبادة الله تعالى، يَعْجَبُ له رَبُّنا - تبارك وتعالى -!!

فعن عقبة بن عامر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى لَيَعْجَبُ من الشابِّ لَيْسَتْ له صَبْوَةٌ**»(١).

قال العلاّمة المَناويّ - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «**ليست له صَبْوة**» أي: ميل إلى الهوى بحسن اعتياده للخير وقوّة عزيمته في البعد عن الشر.

قال حُجّة الإسلام - يعني الغزاليّ -: وهذا عزيز نادر، فلذلك قُرِنَ بالتعجّب.

وهل الأفضل ما نشأ لا صبوة له لكونه لم يلابس كبيرة ونجا من ضررها وخطرها والسؤال عنها في القيامة أو من قارف الذنوب وتاب توبة نصوحًا لكونه قلع عن الشهوات لله بعد إلفه لها وتعوّده لذّتها ثم فارق لذّته وشهوته لله؟قولان، وكلام المحاسبي يقتضي ترجيح الأوّل»ا.هـ(٢).

عباد الله...

وفي قول النبيّ ﷺ: «**شاب نشأ في عبادة الله** ﷻ»: ينشأ سؤال مهم وهو: **ما هي العبادة؟**

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «العبادة: اسم جامع لكل ما يُحبّه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة» ا.هـ.

دلّ هذا التعريف على أن العبادة المقبولة، هي العبادة التي يحبّها الله تعالى ويرضاها. والعبادات لا تقبل إلاّ بشرطين:

الأول: الإخلاص «بأن يكون العمل لله وحده لا شريك له».

والثاني: «المتابعة بأن يكون موافقًا للشرع».

ولذلك لمّا سُئل **الفضيل بن عياض** - رحمه الله - عن قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ

---

(١) **إسناده جيد**: رواه أحمد والطبراني في «الكبير» وحسنه السيوطي في «الجامع الصغير» (١٧٩٩)، وجوّد الألباني إسناده في «الصحيحة» برقم (٢٨٤٣).

(٢) «فيض القدير» (٢/ ٣٣٤).

أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢].

ما أحسن العمل؟ قال: أخلصه وأصوبه، قيل له: يا أبا عليّ، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: «إن العملَ إذا كان خَالِصًا ولم يكن صَوَابًا لم يُقْبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص: أن يكون لله، والصَّواب أن يكون على السُّنَّة».

إذن: فالعبادة التي لا توافِقُ الشرعَ لا تُقبل وإن كان صاحبها مخلصًا: فهذا عابدون في النار!

فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**الخوارج كلابُ النار**»[1].

ومعلوم أن الخوارج كانوا أشدّ الناس اجتهادًا في العبادة حتى وصفهم النبيُّ ﷺ بقوله: «**يَحْقِرُ أحدُكم صَلاتَه مع صلاتهم، وصيامَهُ مع صيامهم، يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يَمْرُقُون من الدِّين كما يَمْرُق السَّهْمُ من الرَّمِيَّة**»[2].

وكذلك العبادات التي يضربها الرِّياء لا تُقبل:

فعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لأعلمنَ أَقْوَامًا من أُمَّتي يأتون يوم القيامة بأعمالٍ أمثالِ جِبَالِ تهامة بَيْضَاء، فيجعلُها اللَّهُ هباءً منثورًا**». قال ثوبان: يا رسول الله، صِفْهُم لنا، جَلِّهم لنا[3]، لا نكون منهم ونحن لا نعلم.

قال: «**أما إنّهم إخوانُكم، وَمِنْ جلْدِتكِم، ويأخذون من اللَّيل كما تأخذون، ولكنهم قومٌ إذا خَلَوْا بمحارمِ الله انتهكوها**»[4].

عباد الله...

وقال الإمام ابن القيم – رحمه الله تعالى –: « ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة

---

(١) صحيح: رواه أحمد والحاكم وغيرهما، وصححه السيوطي، ووافقه الألباني في «الروض النضير» (٩٠٦).

(٢) جزء من حديث: رواه البخاري (٣٦١٠).

(٣) يعني: صف لنا حليتهم.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه، وصححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (٥٠٢٨).

قاعدة. مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية.

وبيانها: أن العبودية منقسمة على القلب، واللسان، والجُوارح. وعلى كل منها عبودية تخصه.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح. وهي لكل واحد من القلب، واللسان، والجُوارح.

فواجب القلب: منه متفق على وجوبه، ومختلف فيه.

فالمتفق على وجوبه: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والرجاء، والتصديق الجازم، والنية في العبادة. وهذه قدر زائد على الإخلاص. فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره.

ونية العبادة لها مرتبتان:

إحداهما: تمييز العبادة عن العادة.

والثانية: تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض.

والأقسام الثلاثة واجبة.

وكذلك الصدق، والفرق بينه وبين الإخلاص: أن للعبد مطلوبًا وطلبًا، فالإخلاص: توحيد مطلوبه. والصدق: توحيد طلبه.

فالإخلاص: أن لا يكون المطلوب منقسمًا.

والصدق: أن لا يكون الطلب منقسمًا.

فالصدق بذل الجهد، والإخلاص إفراد المطلوب.

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة.

وكذلك النصح في العبودية. ومدار الدين عليه. وهو بذل الجهد في إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضي له. وأصل هذا واجب. وكماله مرتبة المقربين.

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق. وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب. وهو مرتبة المقربين.

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة، قال الإمام أحمد: ذكر الله الصبر في تسعين موضعًا من القرآن، أو بضعًا وتسعين، وله طرفان أيضًا: واجب مستحق، وكمال مستحب.

وأما المختلف فيه فكالرضا. فإن في وجوبه قولين للفقهاء والصوفية.

القولان لأصحاب أحمد. فمن أوجبه قال: السخط حرام. ولا خلاص عنه إلا بالرضا. وما لا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب.

واحتجوا بأثر «من لم يصبر على بلائي، ولم يرضَ بقضائي فليتخذ ربًا سواي». ومن قال هو مستحب، قال لم يجئ الأمر به في القرآن ولا في السنة، بخلاف الصبر، فإن الله أمر به في مواضع كثيرة من كتابه.

وكذلك التوكل؛ قال: ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] وأمر بالإنابة. فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] وأمر بالإخلاص كقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وكذلك الخوف كقوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وفي الصدق: قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩] وكذلك المحبة. وهي أفرض الواجبات: إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومُخُّها وروحها.

وأما الرضا: فإنما جاء في القرآن مدحُ أهله، والثناء عليهم. لا الأمر به. قالوا: وأما الأثر المذكور فإسرائيلي. لا يحتج به.

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم، وظن أنهما متباينان. وليس كما ظنه. فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به، والصائم في شهر رمضان في شدة الحر متألم بصومه راض به، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها. فالتألم كما لا ينافي الصبر لا ينافي الرضا به.

وهذا الخلاف بينهم، إنما هو في الرضا بقضائه الكوني، وأما الرضا به ربًّا وإلهًا. والرضا بأمره الديني: فمتفق على فرضيته، بل لا يصير العبد مسلمًا إلا بهذا الرضا: أن

يرضى بالله ربًا وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ رسولاً.

والقصد: أن هذه الأعمال - واجبها ومستحبها - هي عبودية القلب. فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك، وإن قام بعبودية الملك، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح.

والمقصود: أن يكون ملك الأعضاء - وهو القلب - قائما بعبوديته لله سبحانه، هو ورعيته.

وأما المحرمات التي عليه: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والغفلة، والنفاق. وهي نوعان: كفر، ومعصية.

فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك، وتوابعها.

والمعصية نوعان: كبائر، وصغائر.

فالكبائر: كالرياء، والعجب، والكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذى المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة. ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها، والتوبة منها. وإلا فهو قلب فاسد. وإذا فسد القلب فسد البدن. وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب، وترك القيام بها.

فوظيفة «إياك نعبد» على القلب قبل الجوارح. فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد. وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها.

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر في حقه، وقد تكون كبائر، بحسب قوتها وغلظها، وخفتها ودقتها.

ومن الصغائر أيضًا: شهوة المحرمات وتمنيها. وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتهَي. فشهوة الكفر والشرك: كفر. وشهوة البدعة: فسق. وشهوة الكبائر: معصية. فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. وإن تركها عجزًا بعد بذله مقدوره في تحصيلها: استحق عقوبة الفاعل، لتنزيله منزلته في أحكام

الثواب والعقاب، وإن لم ينزل منزلته في أحكام الشرع.

وأما عبوديات اللسان الخمس: فواجبها النطق بالشهادتين، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن. وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه، وتلفظه بالأذكار الواجبة في الصلاة التي أمر الله بها ورسوله، كما أمر بالتسبيح في الركوع والسجود، وأمر بقول «ربنا ولك الحمد» بعد الاعتدال، وأمر بالتشهد، وأمر بالتكبير.

ومن واجبه: رد السلام. وفي ابتدائه قولان.

ومن واجبه: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل، وإرشاد الضال. وأداء الشهادة المتعينة، وصدق الحديث.

وأما مستحبه: فتلاوة القرآن، ودوام ذكر الله، والمذاكرة في العلم النافع، وتوابع ذلك.

وأما محرمه: فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله، والدعاء إليها وتحسينها وتقويتها، وكالقذف وسب المسلم، وأذاه بكل قول. والكذب، وشهادة الزور، والقول على الله بلا علم. وهو أشدها تحريمًا.

ومكروهه: التكلم بما تَركُه خير من الكلام به، مع عدم العقوبة عليه.

وقد اختلف السلف: هل في حقه كلام مباح، متساوي الطرفين؟ على قولين. ذكرهما ابن المنذر وغيره. أحدهما: أنه لا يخلو كل ما يتكلم به: إما أن يكون له أو عليه. وليس في حقه شيء لا له ولا عليه.

واحتجوا بالحديث المشهور. وهو: «**كل كلام ابن آدم عليه، لا له. إلا ما كان من ذكر الله وما والاه**»[1].

واحتجوا بأنه يكتب كلامه كله. ولا يكتب إلا الخير والشر.

وقالت طائفة: بل هذا الكلام مباح، لا له ولا عليه، كما في حركات الجوارح.

قالوا: لأن كثيرًا من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهي. وهذا شأن المباح.

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٢٤١٢)، وقال: حسن غريب ولفظه: «**كل كلام ابن آدم عليه لا له إلاّ أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو ذكر الله**».

والتحقيق: أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين، بل إما راجحة وإما مرجوحة. لأن للسان شأنًا ليس لسائر الجوارح. وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تُكَفِّر[١] اللسان، تقول «اتق الله. فإنما نحن بك. فإن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[٢] وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم في النار حصائد ألسنتهم. وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أو لا. فإن كان كذلك فهو الراجح، وإن لم يكن كذلك فهو المرجوح. وهذا بخلاف سائر الجوارح. فإن صاحبها ينتفع بتحريكها في المباح المستوي الطرفين، لما له في ذلك من الراحة والمنفعة، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له، ولا مضرة عليه فيه في الآخرة. وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة. فتأمله[٣].

فإن قيل: فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين. فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل.

قيل: حركته بها عند الحاجة إليها راجحة، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده. فتكون عليه لا له.

فإن قيل: فإذا كان الفعل متساوي الطرفين، كانت حركة اللسان التي هي الوسيلة إليه كذلك، إذ الوسائل تابعة للمقصود في الحكم.

قيل: لا يلزم ذلك. فقد يكون الشيء مباحًا، بل واجبًا، ووسيلته مكروهة - كالوفاء بالطاعة المنذورة - هو واجب، مع أن وسيلته - وهو النذر - مكروه منهي عنه. وكذلك الحلف المكروه مرجوح، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة. وهذا كثير جدًا. فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها، وما جعلت وسيلة إليه ليس

---

(١) الكفر - هنا -: كفر نعمة.

(٢) **حسن**: أخرجه الترمذي وأحمد وغيرهما.

(٣) **الواقع**: أن اللسان والجوارح في الحركة - مضرة، ومنفعة، ومسئولية - سواء وظهور ذلك من اللسان: إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له. فهو متنبه له، وغافل عن الجوارح الأخرى وخصوصًا السمع والبصر.

بحرام ولا مكروه»ا.هـ[١].

عباد الله...

هذه عبودية القلب واللسان، فلتكن منا على بال.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فالقلب: ملك الأعضاء. قال رسولُ الله ﷺ: «**ألا وإنّ في الجسد مُضْغَةً إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجسدُ كُلُّه، وإذا فسدت فسد الجسدُ كُلُّه ألا وهي القلب**»[٢].

قال الإمام ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - في شرحه لهذا الحديث: «فيه إشارة إلى ... صلاح حركات العبد بجوارحه اجتنابه للمحرّمات واتقاؤه للشبهات بحسب صلا... حركة قلبه، فإن كان قلبه سليمًا ليس فيه إلاّ محبة الله ومحبّة ما يحبه الله وخشية الله وخشي... الوقوع فيما يكرهه صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ من ذلك اجتناب المحرّمات كلها وتوقِّي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات، وإن كان القلب فاسدًا قد استولى عليه اتباع الهوى وطلب ما يحبّه ولو كرهه الله فسدت حركات الجوارح كلـ... وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوى القلب. ولهذا يقال: القلب مَلِكُ الأعضاء وبقية الأعضاء جنوده، وهم مع هذا جنود طائعون له منبعثون في طاعته وتنفيذ أوامره لا يخالفونه في شيء من ذلك، فإن كان الملك صالحًا كانت هذه الجنود صالحة، وإن كان فاسدًا كانت جنوده بهذه المشابهة فاسدة» ا.هـ[٣].

واللسان: أخطر عضو في الإنسان: وقف ابن مسعود رضي الله عنه على جبل «الصفّا» وقال: «يا لسان قُلْ خيرًا تغنم، واسكت عن شرٍّ تسلم من قبل أن تندم» فقيل

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١١٠- ١١٤) باختصار.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) «جامع العلوم والحكم» (٨٣، ٨٤).

ـه: يا أبا عبد الرحمن، أهذا شيء تقوله أو شيء سمعته؟ فقال: لا بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**إن أكثر خطايا ابن آدم في لسانه**»[١].

وعن خالد الرّبعي، قال: كان لقمان عبدًا حبشيًا نجّارًا، فقال له مولاه: اذبح هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أطيّب مُضْغَتَيْن فيها، فأخرج اللسان والقلب، ثم مكث ما شاء الله، ثم قال: اذبح لنا هذه الشاة، فذبحها، قال: أخرج أخبث مضغتين فيها؛ فأخرج اللسان والقلب؛ فقال له مولاه: أَمرتُكَ أن تُخْرج أطيب مضغتين فيها، فأخرجتهما؛ وأمرتُك أن تُخْرج أخبث مضغتين فيها، فأخرجتهما؟

قال لقمان: إنه ليس من شيء أطيب منهما إذا طابا، ولا أخبث منهما إذا خبثا[٢].

عباد الله...

وللحديث بقية - إن شاء الله تعالى -..

اللهم أعِنّا على ذِكْرِك، وشكرك، وحُسْنِ عبادتك.

---

(١) رواه البيهقي بسند حسن.

(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٧٠٥، ٧٠٦).

الخطبة السادسة والثلاثون

[ب] فضلُ الشّاب المتعبّد عند الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن: «**فضل الشاب المتعبد عند الله تعالى**».

وتكلمنا في الجمعة الماضية عن عبوديات القلب واللسان، وبقي أن نتحدث عن العبوديات الخمس التي على الجوارح.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «**وأما العبوديات الخمس على الجوارح**: فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضًا. إذ الحواس خمسة. وعلى كل حاسة خمس عبوديات.

فعلى السمع: وجوب الإنصات، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه، من استماع الإسلام والإيمان وفروضهما، وكذلك استماع القراءة في الصلاة إذا جهر بها الإمام، واستماع الخطبة للجمعة، في أصح قولي العلماء.

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع، إلا حيث يكون في استماعه مصلحة راجحة: من ردّه، أو الشهادة على قائله، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدهما من الكفر والبدعة ونحو ذلك، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره، ولا يحب أن يطلعك عليه، ما لم يكن متضمنًا لحق لله يجب القيام به، أو لأذى مسلم يتعين نصحه وتحذيره منه.

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التي تُخْشى الفتنة بأصواتهن، إذا لم تدع إليه حاجة: من شهادة، أو معاملة، أو استفتاء، أو محاكمة، أو مداواة ونحوها.

وكذلك استماع المعازف، وآلات الطرب واللهو، كالعود والطنبور واليراع ونحوها، ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت، وهو لا يريد استماعه، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات. فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوبَ سد الذرائع.

ونظير هذا المحرِمُ: لا يجوز له تعمد شم الطيب. وإذا حملت الريح رائحته وألقتها في مشامّه لم يجب عليه سد أنفه.

ونظير هذا: نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها.

وأما السمع المستحب: فكاستماع المستحب من العلم، وقراءة القرآن، وذكر الله، واستماع كل ما يحبه الله، وليس بفرض.

والمكروه: عكسه. وهو استماع كل ما يكره ولا يعاقب عليه. والمباح ظاهر.

وأما النظر الواجب: فالنظر في المصحف، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام في الأعيان التي يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها، والأمانات التي يؤديها إلى أربابها ليميز بينها، ونحو ذلك.

والنظر الحرام: النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقًا، وبغيرها إلا لحاجة، كنظر

الخاطب، والمستام والمعامِل، والشاهد، والحاكم، والطبيب، وذي المحرم.

والمستحب: النظر في كتب العلم والدين التي يزداد بها الرجل إيمانًا وعلمًا. والنظر في المصحف، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين، والنظر في آيات الله المشهودة. ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته.

والمكروه: فضول النظر الذي لا مصلحة فيه. فإن له فضولاً كما للسان فضولاً وكم قاد فضولها إلى فضول عَزَّ التخلص منها، وأعيا دواؤها. وقال بعض السلف: كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام.

والمباح: النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة.

ومن النظر الحرام: النظر إلى العورات. وهي قسمان: عورة وراء الثياب، وعورة وراء الأبواب.

ولو نظر في العورة التي وراء الأبواب فرماه صاحب العورة، ففقأ عينه، لم يكن عليه شيء وذهبت هَدَرًا، بنص رسول الله ﷺ في الحديث المتفق على صحته[1]. وإن ضعَّفه بعض الفقهاء، لكونه لم يبلغه النص، أو تأوله.

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله، كعورة له هناك ينظرها، أو ريبة هو مأمور - أو مأذون له - في الاطلاع عليها.

وأما الذوق الواجب: فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه، وخوف الموت. فإن تركه حتى مات مات عاصيًا قاتلاً لنفسه. قال الإمام أحمد وطاوس: من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات، دخل النار.

ومن هذا: تناول الدواء إذا تيقن النجاة له من الهلاك، على أصح القولين. وإن ظن الشفاء به. فهل هو مستحب مباح، أو الأفضل تركه؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف.

والذوق الحرام: كذوق الخمر، والسموم القاتلة. والذوق الممنوع منه للصوم الواجب.

---

(١) قال رسولُ الله ﷺ: «**من اطَّلع في بيت قوم بغير إذنهم، فقد حَلّ لهم أن يفقئوا عينه**» رواه البخاري ومسلم.

وأما المكروه: فكذوق المشتبهات، والأكل فوق الحاجة، وذوق طعام الفجاءة. وهو الطعام الذي تفجأ آكله، ولم يُرد أن يدعوك إليه، وكأكل أطعمة المرائين في الولائم والدعوات ونحوها. وفي السنن: أن رسول الله ﷺ «**نهى عن طعام المتبارين**»[1]. وذوق طعام من يطعمك حياء منك لا بطيبة نفس.

والذوق المستحب: أكل ما يعينك على طاعة الله ﷻ، مما أذن الله فيه. والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل، فينال منه غرضه. والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب.

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها، للأمر به عن الشارع.

والذوق المباح: ما لم يكن فيه إثم ولا رجحان.

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشَّم، **فالشم الواجب**: كل شم تعين طريقًا للتمييز بين الحلال والحرام، كالشمِّ الذي تعلم به هذه العين هل هي خبيثة أو طيبة؟ وهل هي سم قاتل أو لا مضرة فيه؟ أو يميز به بين ما يملك الانتفاع به، وما لا يملك؟ ومن هذا شم المقوِّم، ورب الخِبْرة، عند الحكم بالتقويم، و[شم] العبيد ونحو ذلك.

وأما الشم الحرام: فالتعمد لشم الطيب في الإحرام وشم الطيب المغصوب والمسروق، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه.

وأمَّا الشم المستحب: فشم ما يعينك على طاعة الله، ويقوي الحواس، ويبسط النفس للعلم والعمل. ومن هذا هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك. ففي صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**من عُرِض عليه ريحان فلا يرده. فإنه طيب الريح، خفيف المحمل**».

والمكروه: كشم طيب الظَّلَمة، وأصحاب الشبهات، ونحو ذلك.

والمباح: مالا منع فيه من الله ولا تَبِعة، ولا فيه مصلحة دينية، ولا تعلق له بالشرع.

وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس، **فاللمس الواجب**: كلمس الزوجة حين

---

(١) أخرجه أبو داود.

يجب جماعها، والأمة الواجب إعفافها.

والحرام: لمس ما لا يحل من الأجنبيات.

والمستحب: إذا كان فيه غض بصره، وكف نفسه عن الحرام، وإعفاف أهله.

والمكروه: لمس الزوجة في الإحرام للذة. وكذلك في الاعتكاف، وفي الصيام، إذ ... يأمن على نفسه.

ومن هذا لمس بدن الميت - لغير غاسله - لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة حي تكريمًا له. ولهذا يستحب ستره عن العيون وتغسيله في قميصه في أحد القولين، ... فخذ الرجل، إذا قلنا: هي عورة.

والمباح: ما لم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية.

وهذه المراتب أيضًا مُرَتَّبة على البطش باليد، والمشي بالرجل. وأمثلتها لا تخفى.

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله: واجب. وفي وجوبه لقضاء دينه خلاف. والصحيح: وجوبه ليمكنه من أداء دينه، ولا يجب لإخراج الزكاة، وفي وجوبه لأداء فريضة الحج نظر. والأقوى في الدليل: وجوبه لدخوله في الاستطاعة، وتمكنه بذلك من أداء النسك. والمشهور عدم وجوبه.

ومن البطش الواجب: إعانة المضطر، ورمي الجمار، ومباشرة الوضوء والتيمم.

والحرام: كقتل النفس التي حرم الله قتلها، ونهب المال المعصوم، وضرب من لا يحل ضربه، ونحو ذلك، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد، أو ما هو أشد تحريمًا منه عند أهل المدينة، كالشطرنج، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره، أو دونه عند بعضهم. ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفًا أو نسخًا، إلا مقرونًا بردها ونقضها. وكتابة الزور والظلم، والحكم الجائر، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب، وكتابة ما فيه مضرة على المسلمين في دينهم أو دنياهم، ولا سيما إن كسبت عليه مالاً ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] وكذلك كتابة المفتي على الفتوى ما يخالف حكم الله ورسوله إلا أن يكون مجتهدًا مخطئًا، فالإثم موضوع عنه.

وأما المكروه: فكالعبث واللعب الذي ليس بحرام، وكتابة مالا فائدة في كتابته.

ولا منفعة فيه في الدنيا والآخرة.

والمستحب: كتابة كل ما فيه منفعة في الدين، أو مصلحة لمسلم، والإحسان بيده بأن يعين صانعًا، أو يصنع لأخْرق، أو يُفرغ من دَلْوه في دلو المستسقي، أو يحمل له على دابته، أو يمسكها حتى يحمل عليها، أو يعاونه بيده فيما يحتاج له ونحو ذلك. ومنه: لمس الركن بيده في الطواف، وفي تقبيلها بعد اللمس قولان.

والمباح: مالا مضرة فيه ولا ثواب.

وأما المشي الواجب: فالمشي إلى الجمعات والجماعات، في أصح القولين، لبضعة وعشرين دليلاً، مذكورة في غير هذا الموضع. والمشي حول البيت للطواف الواجب، والمشي بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه، والمشي إلى حكم الله ورسوله ﷺ إذا دُعي إليه، والمشي إلى صلة رحمه، وبر والديه، والمشي إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه، والمشي إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر.

والحرام: المشي إلى معصية الله، وهو من رَجْلِ الشيطان، قال تعالى: ﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤] قال مقاتل: استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم. فكل راكب وماش في معصية الله فهو من جند إبليس.

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضًا.

فواجبه: في الركوب في الغزو، والجهاد، والحج الواجب.

ومستحقه: في الركوب المستحب من ذلك، ولطلب العلم، وصلة الرحم، وبر الوالدين، وفي الوقوف بعرفة نزاع: هل الركوب فيه أفضل، أم على الأرض؟

والتحقيق: أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة: من تعليم للمناسك، واقتداء به، وكان أعون على الدعاء. ولم يكن فيه ضرر على الدابة.

وحرامه: الركوب في معصية الله ﷻ.

ومكروهه: الركوب للهو واللعب، وكل ما تركُه خير من فعله.

ومباحه: الركوب لما لم يتضمن فوت أجر، ولا تحصيل وزر.

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء، القلب، واللسان، والسمع، والبصر، والأنف،

والفم، واليد، والرجل، والفرج، والاستواء على ظهر الدابة»ا.هـ[١].

عباد الله...

وهذا الشابّ - الذي ينشأ في طاعة مولاه - ينشأ - غالبًا - بين أبوين مؤمنين:

وينـــشأ ناشـــئُ الفتـــيان مِـــنّا ... علـــى مـــا كـــان عَـــوَّدَه أبُـــوهُ

وعن الأسود بن سريع رَضِيَ الله عَنْهُ عن النبيّ ﷺ قال: «**كُلُّ مولود يُولَد على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنه لِسَانُهُ، فأبواه يهوِّدَانه أو ينصّرانه أو يُمَجِّسَانَهَ**»[٢].

ويكفي أن نشير - هنا - إلى **شَابيّن** من هذا الطراز الفريد اللذين نشآ في طاعة الله - تعالى -:

الشاب الأوّل: عليّ بن الحسين «زين العابدين»:

هو: عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، السيد الإمام، زَيْن العابدين، الهاشميّ العلويّ.

حَدَّث عن أبيه «الحسين» رضي الله عنه، وكان معه يوم «كربلاء» وله ثلاث وعشرونَ سنة، وكان يومئذ موعوكًا[٣] فلم يقاتل، ولا تعّرضوا له. وشاهد استشهاد أبيه. وكان - رحمه الله - إذا توضأ يصفرُّ - أي يتغير لونه - فيقول له أهله:

ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟

فيقول: تدرون بين يديّ مَنْ أريد أن أقوم؟!!

وعن أبي نوح الأنصاري قال: وقع حريق في بيت عليّ بن الحسين وهو ساجد، فجعلوا يقولون له: يا ابن رسول الله، النار، يا ابن رسول الله، النار.

فما رفع رأسه حتى أُطفئت فقيل له: ما الذي ألهاك عنها؟

قال: ألهتني عنها النارُ الأخرى!

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١١٦- ١٢١).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، والبيهقي، وغيرهما، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٤٠٢).

(٣) موعوكًا: مريضًا.

وعن سفيان: حج عليّ بن الحسين، فلمّا أحرم، اصفرّ وانتفض ولم يستطع أن يُلَبّي، فقيل: ألا تلبِّي؟

قال: أخشى أن أقول: لبَّيك، فيقول لي: لا لبَّيْك!، فلمّا لَبَّى، غُشي عليه، وسقط عن راحلته، فلم يزل بعضُ ذلك به حتى قَضَى حَجَّه!!

وكان - رحمه الله - يُبَخَّل - يُتَّهم بالبخل - ولم يَدْر متّهموه أنه كان يُنْفِق سرًّا!!

عن محمد بن إسحاق، قال: كان ناسٌ من أهل المدينة يعيشون، لا يدرون من أين كان معاشُهم، فلمّا مات عليُّ بن الحسين، فَقَدوا ذلك الذي كانوا يُؤْتَوْن بالليل!!

وعن عمرو بن ثابت: لما مات عليٌّ بن الحسين وجدوا بظهره أثَرًا ممّا كان يَنْقلُ الجُرْبَ بالليل إلى منازل الأرامل!!

قال الإمام الذهبي - رحمه الله -: «هذا كان يُبخَّل، فإنه يُنْفِقُ سِرًّا ويظن أَهْله أنه يجمع الدَّراهم!!» ا.هـ.

عباد الله...

هذا هو الإخلاص، وصدق **الإمام ابن كثير** - رحمه الله - حين قال: «ما أَسَرّ أَحَدٌ سَريرةً إلاّ أَبْدَاها اللهُ تعالى على صَفَحات وجهه وفَلَتَات لِسَانه، وما أسرّ أحَدٌ سريرة إلاّ كسَاه الله تعالى رِداءَها، إن خَيْرًا فخير، وإن شرًّا فشرّ» ا.هـ.

اللّهمّ اجعل أعمالنا لك خالصة، ومن النّار مُخَلِّصَة.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والشّابّ الثاني: الشافعي - رحمه الله تعالى -:

وهو: الإمام الشافعي - رحمه الله - الذي نسأل الله - تعالى - أن يجعله في ظله يوم لا ظل إلاّ ظله.

قال - رحمه الله - عن نفسه: «ولدتُ باليمن فخافت أمِّي عليَّ الضَّيْعة، وقالت: الْحَقْ بأهلك، فتكون مثلهم، فإني أخاف عليك أن تُغلب على نسبك، فجهَّزتني إلى مكة، فقدمتُها يومئذٍ وأنا ابن عشر سنين، فصرتُ إلى نسيب لي، وجعلتُ أطلبُ العلم. فيقول لي: لا تشتغلْ بهذا، وأَقْبِلْ على ما ينفعك، فجعلتْ لذَّتي في العلم» ا.هـ[1].

وقال - رحمه الله -: «حفظتُ الموطّأ قبل أن أحتلم».

قال الحميدي: «سمعتُ مُسْلمَ بْن خالد الزّنجي يقول للشافعي: أفتِ يا أبا عبد الله، فقد والله آن لك أن تُفْتي، وهو ابن خمس عشرة سنة!».

عباد الله...

هكذا كان الصالحون.. فكونوا على الطَّريق.. فإن التشبُّهَ بالصالحين فلاح.

اللهم إنا نسألك حُبَّك، وَحُبّ من يُحبّك، وَحُبّ كُلّ عمل يقرِّبنا من حُبِّك.

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٠/ ١٠).

الخطبة السابعة والثلاثون

فَضْلُ تَعلُّق القلوب بالْمسَاجد

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقاؤنا اليوم مع ثالث الْمُنَعَّمِين في ظل العرش وهو: «**رَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّق بالمساجد**»، وفي رواية: «**كأنّما قلبه معلق في المسجد**».

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى -: «قوله: «**معلق في المساجد**» هكذا في «الصحيحين»، وظاهره أنه من التعليق كأنه شبّهه بالشيء المعلّق في المسجد كالقنديل مثلاً إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه، ويدلّ عليه رواية الجوزقي: «**كأنما قلبه معلق في المسجد**» ويحتمل أن يكون من العلاقة وهي شدّة الحب،

ويدلّ عليه رواية أحمد «معلق بالمساجد» وكذا رواية سلمان «من حبها» ا.هـ[١].

وقال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: «قوله ﷺ: «**ورجل قلبه معلق في المساجد** هكذا هو في النّسخ كلّها في المساجد، وفي غير هذه الرواية: «**بالمساجد**»، وفي بعضها «متعلّق» بالتاء، وكلاهما صحيح، ومعناه شديد الحبّ لها والملازمة للجماعة فيها، وليس معناه دوام القعود في المسجد» ا.هـ[٢].

عباد الله...

والمساجد: أحبُّ البقاع إلى الله تعالى: فعن جبير بن مطعم رضي الله عنه: أن رجلا قال: يا رسول الله، أيّ البلدان أحبُّ إلى الله، وأيّ البلدان أبغضُ إلى الله؟

قال: «**لا أدري حتى أسألَ جبريلَ عليه السَّلام**»، فأتاه فأخبره: «**أن أحسنَ البقاعِ إلى الله المساجد، وأبغضَ البقاعِ إلى الله الأسْواق**»[٣].

والذين تعلّقت قلوبهم ببيوت ربّهم:

هم الرِّجَالُ حَقًّا، الراغبون فيما عند الله صِدْقًا:

قال تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ * رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ**﴾ [النور: ٣٦- ٣٨].

وهم المؤمنون حقًّا:

قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [التوبة: ١٨].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «كل عسى في القرآن فهي واجبة، وقال

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٧٠).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٠٠).

(٣) حسن: رواه البزار، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٣).

محمد بن إسحاق بن يسار - رحمه الله - وعسى من الله حق» ا.هـ[(١)].

وهم المتّقون المارّون على الصّراط يوم القيامة:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «المسجدُ بَيْتُ كُلِّ تقيّ، وتكفَّل الله لمن كان المسجد بيتَهُ بالرَّوْح والرّحمة والجواز على الصِّراط إلى رضوان إلى الجنّة»[(٢)].

وهم الذين ضَمِنَ اللَّهُ أرزاقهم ما داموا على قيد الحياة، والجَنَّةَ إذا ماتوا.

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ كُلُّهُم ضامِنٌ على الله، إن عاش رُزِق وَكفِي، وإن مات أدخله اللَّهُ الجنّة، مَنْ دَخَل بَيْتَه فَسَلَّم فهو ضامِنٌ على الله، ومن خرج إلى المسجد فهو ضامِنٌ على الله، وَمَنْ خَرج في سبيل الله فهو ضامنٌ على الله»[(٣)].

وهم الذين كتبَ اللَّهُ لهم ثَوَابَ مَنْ حَجّ واعْتَمَر:

فعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إلى صَلاةٍ مكتوبة، فأجْرُهُ كأجر الحاجِّ المُحْرِم، ومن خرج إلى تَسْبِيح الضّحَى لا يَنْصِبُهُ[(٤)] إلاّ إيَّاهُ فَأَجْرُهُ كأَجْرِ المُعْتَمِر، وصلاةٌ على إثْرِ صَلاةٍ لا لَغو بَيْنَهُما كتابٌ في عِلِيِّيْن»[(٥)].

وهم ضيوف الرحمن في بيته:

فعن سلمان رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ تَوضّأ في بيته فأحسن الوضوء، ثم أتى المسجدَ فهو زائِرُ الله، وَحَقٌّ على المَزُور أن يُكْرِمَ الزَّائرَ»[(٦)].

وهم الذين يُقْبِلُ اللَّهُ تعالى عليهم:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «ما تَوَطَّن رَجُلٌ مُسْلِمٌ المساجد

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ١٦٢).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير» و«الأوسط» والبزار، وقال: إسناده حسن، وأقرّه المنذريّ في «الترغيب والترهيب» (٤٧٢)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٨).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٩).

(٤) لا ينصبه؛ أي: لا يتعبه، ولا يزعجه: «إلاّ ذلك».

(٥) حسن: رواه أبو داود، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣١٨).

(٦) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (٣٢٠).

للصَّلاةِ والذكر إلَّا تَبَشْبَشَ اللَّهُ له من حين يَخْرجُ مِنْ بَيْتِهِ كما يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الغائبِ بغائِبِهم إذا قَدِمَ عَلَيْهم»[١].

قال المناويّ - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «إلاّ تبشبش اللّهُ له» أي: فرح به وأقبل عليه» ا.هـ[٢].

وهم جلساءُ الملائكة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «إن للمساجد أَوْتَادًا، الملائكة جُلَسَاؤهم، إنْ غابوا يفتقدوهم، وإن مَرِضُوا أعادوهم، وإن كانوا في حاجةٍ أعانوهم»[٣].

وهم المغفور لهم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال:

«إِنَّ لِلَّهِ ﷻ مَلَائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَبْتَغُونَ مَجَالِسَ الذِّكْرِ وَإِذَا وَجَدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ وحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ حَتَّى يملئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ.

قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ اللَّهُ ﷻ - وَهُوَ أَعْلَمُ بهم -: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: جِئْنَاكَ مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ. يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ. قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونني؟ قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ. قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: لَا. أَيْ رَبِّ! قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ قَدْ رَأَوْا جَنَّتِي؟ قَالُوا: وَيَسْتَجِيرُونَكَ. قَالَ: ومِمَّ يَسْتَجِيرُونني؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ! قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟ قَالُوا: لَا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ. قَالَ فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ وَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا. قَالَ فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ. عَبْدٌ خَطَّاءٌ. إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ. قَالَ فَيَقُولُ: وله غَفَرْتُ. هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[٤].

---

(١) حسن: رواه البيهقي والحاكم، وصححه، ووافقه الأشبيلي والسيوطي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٨٠).

(٢) «فيض القدير» (٥/ ٥٥٩).

(٣) صحيح: رواه أحمد والحاكم، وانظر: «صحيح الترغيب» (٣٢٧).

(٤) رواه مسلم.

عباد الله...

وهم بعد ذلك في ظلّ العرش كما تقدّم، نسأل الله - تعالى - أن يجعلنا منهم، وأن يحشرنا معهم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فقد علم الصالحون فضلَ تعلّق القلوب ببيوت ربِّهم، فهاجت أشواقهم إليها.. حتى رأينا وسمعنا من وافته المنيةُ بها!:

فها هو ذا «**جعفر المرتعش**» - رحمه الله -، يقول عنه أبو عبد الله الرزاز: حضرتُ وفاة المرتعش في مسجد الشونيزية سنة ثمان وعشرين وثلثمائة، فقال:

انظروا ديوني، فنظروا فقالوا: بضعة عشر درهمًا، فقال: انظروا خريقاتي، فلمّا قربت منه، قال: اجعلوها في ديوني، وأرجو أن الله يعطيني الكفن، ثم قال: سألتُ الله ثلاثًا عند موتي فأعطانيها، سألتُهُ أن يُميتني على الفقر، وسألته أن يجعل موتي في هذا المسجد فقد صحبتُ فيه أقوامًا، وسألتُهُ أن يكون حولي من آنس به وأحبّه، وغمض عينيه ومات بعد ساعة - رحمةُ الله عليه -[١].

اللهم أغنِنا بالافتقارِ إليك، ولا تُفْقِرْنَا بالاستغناء عَنْك

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (١٣/ ٣٨٤، ٣٨٥).

الخطبة الثامنة والثلاثون

من فضائل الْحُبِّ في الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلَّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فلقاؤنا اليوم - بإذن الله تعالى - مع رابع المنّعمين في ظل العرش وهما: «**رجلان تحابّا في الله، اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه**».

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «قوله «**تحابا**» بتشديد الباء وأصله تحاببا أي اشتركا في جنس المحبة وأحب كلّ منهما الآخر حقيقة لا إظهارًا فقط.

قوله: «**اجتمعا عليه وتفرّقا عليه**» أي: على الحبّ المذكور، والمراد أنهما داما على

المحبّة الدينية ولم يقطعاها بعارض دنيوي سواء اجتمعا حقيقة أم لا حتى فرّق بينهما الموت.

وعدّت هذه خصلة واحدة مع أن متعاطيها اثنان لأن المحبّة لا تتم إلاّ باثنين، أو لما كان المتحابان بمعنى واحد كان عَدّ أحدهما مُغْنِيًا عن عَدِّ الآخر، لأن الغرض عدّ الخصال لا عدّ جميع من اتصف بها» ا.هـ[(١)].

وقال الإمام النووي - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «**ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه**» معناه: اجتمعا على حُبّ الله، وافترقا على حُبّ الله أي: كان سبب اجتماعهما حُبُّ الله واستمّرا على ذلك حتى تفرّقا من مجلسهما، وهما صادقان في حُبّ كل واحد منهما صاحبه لله تعالى حال اجتماعهما وافتراقهما.

وفي هذا الحديث: الحث على التحابّ في الله وبيان عظم فضله، وهو من المهمّات فإن الحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وهو بحمد الله كثير يوفّق له أكثر الناس أو من وفّق له» ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وحب المؤمنين واجب: لا يكمل إيمانُ عبد إلاّ به: فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حَتّى تحابّوا، أو لا أدلكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السّلامَ بينكم**»[(٣)].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: في معنى هذا الحديث: «قوله ﷺ: «**ولا تؤمنوا حتى تحابوا**» معناه: لا يكمل إيمانكم ولا يصلح حالكم في الإيمان إلاّ بالتحاب. وأمّا قوله ﷺ: «**لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا**» فهو على ظاهره وإطلاقه فلا يدخل الجنة إلاّ من مات مؤمنًا وإن لم يكن كامل الإيمان، فهذا ظاهر الحديث.

وقال الشيخ أبو عمرو - رحمه الله -: «معنى الحديث: لا يكمل إيمانكم إلَّا بالتحابّ،

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٧٠).
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٠٠).
(٣) رواه مسلم (٥٤).

ولا تدخلون الجنة عند دخول أهلها إذا لم تكونوا كذلك.

وهذا الذي قاله محتمل. والله أعلم» ا.هـ(١).

وهذا الحبّ: ضرورة بشرية:

لأنه يثمر ائتلافًا يقوّي شوكة الأمّة الإسلامية: قال تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥].

قال الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية: «نهى الله - جلّ وعلا - المؤمنين في هذه الآية الكريمة عن التنازع، مبيّنًا أنه سبب الفشل، وذهاب القوة، ونهى عن الفرقة أيضًا في مواضع أُخر، كقوله: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا**﴾، ونحوها من الآيات، وقوله في هذه الآية: ﴿**وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦] أي قوتكم.

وقال بعض العلماء: نصركم. كما تقول العرب الريح لفلان إذا كان غالبًا» ا.هـ(٢).

وقال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «وقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - في باب الشجاعة والائتمار بما أمرهم الله ورسوله، وامتثال ما أرشدهم إليه ما لم يكن لأحد من الأمم والقرون قبلهم ولا يكون لأحد ممّن بعدهم فإنهم ببركة الرسول ﷺ وطاعته فيما أمرهم فتحوا القلوب والأقاليم شرقًا وغربًا في المدّة اليسيرة، مع قلّة عددهم بالنسبة إلى جيوش سائر الأقاليم من الروم والفرس والترك والصقالبة والبربر والحبوش وأصناف السودان والقبط وطوائف بني آدم، قهروا الجميع حتى علت كلمةُ الله وظهر دينه على سائر الأديان، وامتدت الممالك الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها في أقلّ من ثلاثين سنة - فرضي الله عنهم

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٢٢٧، ٢٢٨).
(٢) «أضواء البيان» (١/ ٤٧٥).

وأرضاهم أجمعين - وحشرنا في زمرتهم إنه كريم توّاب» ا.هـ[(١)].

عباد الله...

وللحب في الله - تعالى - ثمرات، من هذه الثمرات:

الثمرة الأولى: أنه يدوم ولا ينقطع:

فما كان لله دام واتصل. وها هو ذا الحق - سبحانه وتعالى - يقول: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره لهذه الآية: «أي كل صداقة وصحابة لغير الله فإنها تنقلب يوم القيامة عداوة إلاّ ما كان لله ﷻ فإنه دائم بدوامه» ا.هـ[(٢)].

الثمرة الثانية: استكمال الإيمان:

فعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**مَنْ أَحَبَّ لله، وأبغضَ لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**»[(٣)].

الثمرة الثالثة: نيل محبة الله تعالى:

فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**قال الله تبارك وتعالى: وَجَبَت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وللمتجالسين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ، وللمتباذلين فيّ**»[(٤)].

الثمرة الرابعة: اليقين بما أعدّ الله لعباده الصالحين:

فالزائر لأخيه في الله تعالى موقن بما أعد الله للزائرين فيه من الثواب.

الثمرة الخامسة: الاستظلال في ظل الله يوم لا ظل إلاّ ظله:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الله يقولُ يَوْمَ القيامة:**

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ١٣٨).
(٢) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ٣٣٢).
(٣) صحيح: رواه أبو داود، وصحّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٠).
(٤) صحيح: رواه مالك بإسناد صحيح.

أين المتحابّون بجلالي؟ اليومَ أُظِلُّهم في ظِلِّي يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلِّي»[١].

الثمرة السادسة: مرافقة النبيَّ ﷺ في الجنة:

قال ﷺ: «يحشر المرء مع من أحبّ».

الثمرة السابعة: دخول الجنة:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ: «أنَّ رجُلاً زار أخًا له في قرية أخرى. فأرْصدَ الله تعالى، على مَدْرَجَتِهِ[٢]، مَلَكًا. فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخًا لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تُربَّها[٣]؟ قال: لا. غير أني أحببتهُ في الله. قال: فإنِّي رسولُ الله إليك، بأن الله قد أحَبَّك كما أحببتَه فيه»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا، أو زار أخًا له في الله ناداه مُنَادٍ بأن طِبْتَ، وطاب مَمْشَاك، وتبوّأتَ من الجنّة مَنْزِلاً»[٥].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مَا مِن عَبْدٍ أتى أخاه يزوره في الله إلَّا ناداه ملَكٌ من السماء أن طِبْتَ وطابت لك الجنة، وإلا قال اللَّهُ في ملكوت عرشه: عَبْدي زَارَ فِيَّ، وعليَّ قِرَاهُ فلم يَرْضَ له بثوابٍ دون الجنة»[٦].

وعن أنس - أيضًا - عن النبيّ ﷺ قال: «ألا أُخْبِرُكُم بِرَجالِكم في الجنة؟». قلنا: بلى يا رسولَ الله. قال: «النبيّ في الجنة، والصِّدِّيقُ في الجنَّة، والرجُل يَزورُ أخاه في ناحية المِصْر لا يزوره إلاَّ لله في الجنة. ألا أخبركم بنسائِكم في الجنة؟». قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «كُلُّ وَدودٌ ولودٌ إذا غَضِبَتْ أو أُسِيء إليها أو غَضِبَ زَوْجُها قالت: هذه يدي في يدِك لا أكتحلُ بِغَمْضٍ حَتَّى تَرْضَى»[٧].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) المدرجة: الطريق.

(٣) تربّها: أي تقوم بها وتسعى في صلاحها.

(٤) رواه مسلم.

(٥) **حسن**: رواه ابن ماجه والترمذي وغيرهما، وانظر: «صحيح الجامع» (٦٣٨٧).

(٦) **إسناده جيد**: رواه البزار وأبو يعلى بإسناد جيد كذا قال الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٥١٥).

(٧) **صحيح بشواهده**: رواه الطبراني، وانظر: «الصحيحة» (٢٨٧).

عباد الله...

هذه بعض ثمرات الحبّ في الله تعالى، فالسّعيد من حرص أن يجتنبها.

وفقني الله - تعالى - وإياكم لنيل هذه الثمرات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

وهناك علامات تدلّ على الحب في الله، ومن هذه العلامات:

أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك.

أن تصله بالزيارة، وتتفقّد أحواله.

الذبّ عن عِرْضه.

حفظ سرّه.

إرشاده إذا ضَلّ، وكبح جماحه عن الشّر.

إعانته على الخير، والدعاء له بظهر الغيب.

اللهم إنا نسألك حُبّك، وَحُبّ من أحبّك، وَحُبّ كُلّ عَملٍ يقرّبنا من حُبك.

الخطبة التاسعة والثلاثون

مكانة العِفَة من دين الإسلام

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

• **أمّا بعد:**

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله - مع خامس المنّعمين في ظل العرش وهو: **«رجل دَعَتْه امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمال فقال: إني أخاف الله»**.

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله -: «المراد بالمنصب»: الأصل أو الشرف، وفي رواية مالك: «**دعته ذات حسب**» وهو يطلق على الأصل وعلى المال أيضًا، وقد وصفها بأكمل الأوصاف التي جرت العادة بمزيد الرغبة لمن تحصل فيه وهو المنصب الذي يستلزمه

الجاه والمال وقلّ من يجتمع ذلك فيها من النساء.

والظاهر: أنها دعته إلى الفاحشة، وبه جزم القرطبيُّ ولم يَحْكِ غيره، وقال بعضهم: يحتمل أن تكون دعته إلى التزوّج بها فخاف أن يَشتغل عن العبادة بالافتتان بها، أو خاف أن لا يقوم بحقها لشغله بالعبادة عن التكسب بما يليق بها، والأوّل أظهر، ويؤيّده وجود الكناية في قوله «**إلى نفسها**» ولو كان المراد التزويج لصرح به، والصبر عن الموصوفة بما ذكر من أكمل المراتب لكثرة الرغبة في مثلها وعسر تحصيلها لا سيّما وقد أغنت من التوصّل إليها بمراودة ونحوها.

قوله: «**إني أخاف الله**» الظاهر أنه يقول ذلك بلسانه، إمّا ليزجرها عن الفاحشة أو ليعتذر إليها، ويحتمل أن يقوله بقلبه.

قال القرطبيُّ: «إنما يصدر ذلك عن شدّة خوف من الله تعالى ومتين تقوى وحياء» ا.هـ[1].

عباد الله...

وتشترك النساء مع الرجال في هذا، فقد تقدّم معنا قول **الإمام ابن حجر** – رحمه الله –: «ذكر الرجال في هذا الحديث لا مفهوم له بل يشترك النِّساء معهم فيما ذكر.. حتى الرجل الذي دعته المرأةُ فإنه يُتصوّر في امرأة دعاها مَلِكٌ جميل – مثلاً – فامتنعت خوفًا من الله تعالى مع حاجتها، أو شاب جميل دعاه مَلِكٌ إلى أن يزوّجه ابنته مثلاً فخشي أن يرتكب منه الفاحشة فامتنع مع حاجته إليه» ا.هـ.

هذا، وفي قوله ﷺ : «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»: يبرز **خُلُقَان مُهِمّان**: **الأول**: خُلُق العفّة. **والثاني**: خُلُق الخوف من الله تعالى.

وحديثنا – في هذه الخطبة – يدور حول «العفّة»:

ما معنى العفة؟ وما هي ثمراتها؟

أما العِفّة: فالعفّة: هي الكَفُّ عمَّا لا يَحِلُّ.

وقال الجاحظ: «هي ضبطَ النّفس عن الشهوات وَقَصْرُها على الاكتفاء بما يُقيم أَوْدَ

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٧٠، ١٧١).

الجَسَدِ ويحفظُ صحته فقط، واجتنابُ السَّرفَ في جميع الملذَّات وقصدُ الاعتدال، وأن يكون ما يُقْتَصَرُ عليه من الشهواتِ على الوجه المستحبّ المتفق على ارتضائه وفي أوقات الحاجة التي لا غِنَى عنها، وعلى القدر الذي لا يُحْتَاجُ إلى أكثرَ مِنْهُ، ولا يَحْرُسُ النَّفَسَ والقوّةَ أقلّ مِنْهُ، وهذه الحالُ هِيَ غايةُ العِفَّة» ا.هـ[1].

ولا يكون الإنسانُ تامَّ العِفَّة حتى يكون عفيف اليد واللسان والسمع والبصر **فَمِنْ عَدَمِهَا في اللسان**: السخرية، والتجسّس والغيبة والهمز والنميمة والتنابز بالألقاب.

ومِنْ عَدِمِهَا في الْبَصر: مَدُّ العين إلى المحارم وزينةِ الحياة الدنيا المولِّدة للشهوات الرَّديئة، **وَمِنْ عَدَمِهَا في السّمع**: الإصغاءُ إلى المسموعات القبيحة وعمادُ عِفَّةِ الجوارح كُلِّها أن لا يُطلِقَها صاحِبُها في شيء مما يختص بكل واحد منها إلاّ فيما يَسوغُه العقل والشّرع دون الشهوة والهوى[2].

عباد الله...

أما ثمرات العِفة: فَيَصْعُب حَصْرها، ويكفي أن نشير - هنا - إلى شيء منها:

الثمرة الأولى: مغفرة الذنوب:

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يُحدِّث حديثًا لو لم أسمعْهُ مَرَّةً أو مرتين حتى عَدَّ سَبْعَ مراتٍ، ولكن سمعتهُ أكثر من ذلك، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**كان الكفل[3] من بني إسرائيل، وكان لا يتورعُ من ذنب عمله، فأتته امرأة، فأعطاها ستين دينارًا على أن يطأها، فلما أرادها على نفسها ارتعدت وبكت!! فقال: ما يبكيك؟**

قالت: لأن هذا عَمَلٌ ما عَمِلْتُه، وما حَمَلني عليه إلا الحاجة.

فقال: تفعلين هذا من مخافة الله، فأنا أحرى، اذهبي فلكِ ما أعطيتُك، ووالله لا أَعصيه بعدها أبدًا، فمات من ليلته فأصبح مكتوبًا على بابه: «إن الله قد غفر للكفل» فعجب الناس

(١) «تهذيب الأخلاق» (٢١، ٢٢).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣١٩).

(٣) الكفل هذا غير ذي الكفل المذكور في القرآن.

من ذلك»[١].

الثمرة الثانية: نيل درجة الولاية:

ذكر الحافظ ابن عساكر في ترجمة عمرو بن جامع من «تاريخه»: أن شابًّا كان يتعبّد في المسجد، فهويته امرأةٌ فدعته إلى نفسها، فما زالت به حتى كاد يدخل معها المنزل، فذكر هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]، فخرّ مغشيًا عليه، ثم أفاق فأعادها، فمات، فجاء عمرو فعزّى فيه أباه، وكان قد دفن ليلاً فذهب فصلّى على قبره بمن معه، ثم ناداه عمرو فقال: يا فتى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]، فأجابه الفتى من داخل القبر: يا عمرو قد أعطانيهما ربّي ﷻ في الجنة مرّتين[٢].

وقيل لأبي بكر المسكي: إنا نشم منك رائحة المسك مع الدوام فما سببه؟

فقال: والله لي سنين عديدة لم أستعمل المسك، ولكن سبب ذلك أن امرأة احتالت عليَّ حتى أدخلتني دارها وأغلقت دوني الأبواب وراودتني عن نفسي، فتحيَّرتُ في أمري فضاقت بي الحيل، فقلت لها: إن لي حاجة إلى الطهارة فأمرت جارية لها أن تمضي بي إلى دورة المياه، ففعلت، فلمّا دخلتُ أخذت العذرة[٣] وألقيتها على جميع جسدي! ثم رجعتُ إليها وأنا على تلك الحالة فلما رأتني دهشت ثم أمرت بإخراجي فمضيتُ واغتسلتُ، فلما كانت تلك الليلة رأيت في المنام قائلاً يقول: فعلت ما لم يفعلْه أحد غيرك لأطيِّبن ريحك في الدنيا والآخرة، فأصبحت والمسك يفوح مني واستمر ذلك إلى الآن[٤]!!

وها هو ذا العابد المجتهد: يونس بن يوسف الذي قال عنه ابن الجوزي: كان عابدًا يصوم الدهر ويقوم الليل، وكان مستجاب الدعوة، كان لهذا العابد قصة يرويها لنا

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. وضعفه الألباني.

(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٢)، ولم يعقب عليه ابن كثير.

(٣) العذرة: البراز.

(٤) «المواعظ والمجالس» لابن الجوزي (٢٢٤).

الإمام مالك بن أنس فيقول:

كان يونس بن يوسف من العباد - أو قال من خيار الناس - فأقبل ذات يوم وهو رائح من المسجد، فلقيته امرأة، فوقع في نفسه منها، فقال: اللهم إنك جعلت بصري نعمة وقد خشيت أن يكون عليَّ نقمة فاقبضه إليك. قال: فعمي، وكان يروح إلى المسجد يقوده ابن أخ له، فإذا استقبل به الأسطوانة اشتغل الصبي بلعب مع الصبيان فإن أتته حاجة حَصبَه فأقبل إليه، فبينما هو ذات ضحوة في المسجد إذ حَسّ في بطنه بشيء فحصب الصبي فاشتغل عنه مع الصبيان حتى خاف الشيخ على نفسه، فقال: اللهم إنك كنت جعلت لي بصري نعمة وخشيت أن يكون نقمة فسألتك فقبضته إليك، وقد خشيت الفضيحة فردَّه عليَّ. فانصرف إلى منزله صحيحًا يمشي، قال الإمام مالك: فرأيته أعمى ورأيته صحيحًا[1].

الثمرة الثالثة: تفريج الكرب، ورفع البلاء:

فعن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «انْطَلَقَ ثَلَاثَةُ نفر مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أواهم الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمْ الْغَارَ. فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ[2] قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ الشَّجر يَوْمًا فَلَمْ أُرِحْ[3] عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُما وأن أَغْبق قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا، فَلَبِثْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ - أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ[4] والصِّبيةُ يتضاغَوْن عند قدميّ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ منه.

---

(١) «المنتظم» لابن الجوزي (٨/ ١٦٤، ١٦٥).
(٢) أي: لا أقدم في الشرب قبلهما أهلاً ولا مالاً. و«الغبوق» شرب العَشى.
(٣) أرح: أي أرجع.
(٤) برق الفجر: أي ظهر ضوؤه.

قَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إنه كَانَتْ لِي ابنةُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ - وفي رواية: كنت أحبُّها كأشد ما يحبُّ الرجال النساء - فَأَرَدْتُهَا على نَفْسِهَا(١) فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنْ السِّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ، حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا - وفي رواية: فلما قعدتُ بَيْن رجليها - قَالَتْ: اتق الله ولا تُفضَّ الخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ(٢)، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الخُرُوجَ مِنْهَا.

وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ وَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنْ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ: لَا تَسْتَهْزِئُ بِي! فَقُلْتُ: لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا! اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»(٣).

الثمرة الرابعة: دخول الجنة:

١ - قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١ - ١١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كان النبيُّ ﷺ إذا أنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدَويّ النحل، وأنزل عليه يومًا فمكثنا ساعةً فَسُرِّي عنه فاستقبل القبلة فرفع يديه وقال: «اللهم زدْنا ولا تنقصنا وأرْضنا وارْض عنا» ثم قال: «أنزل عليّ

(١) أي: طلب منها ما يطلب الرجلُ من زوجته.
(٢) كناية عن الفرج وعذرة البكارة، والمعنى: لا تزل عفافي إلاّ بالزواج.
(٣) رواه البخاري ومسلم.

عشر آيات من أقامهن دخل الجنة» ثم قرأ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات[١].

٢- وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٣٥].

قال القرطبي: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ أي: عما لا يحلّ من الزنا وغيره.

٣- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا شباب قُريش، احفظوا فروجكم، لا تزنوا، ألا إن من حفظ فرجه فله الجنة**» رواه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما.

٤- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلت المرأةُ خمسها، وحصَّنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أي أبواب الجنة شاءت**» رواه ابن حبان في صحيحه.

٥- وعن أبي هريرة - أيضًا - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وقاه الله شرَّ ما بين لَحْيَيه، وشرَّ ما بين رجليه دخل الجنة**»[٢].

قال الحافظ المنذري: المراد بما بين لحييه: اللسان، وما بين رجليه: الفرج، واللَّحيان: هما عَظْم الحَنَك.

٦- وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اضمنوا لي ستًّا من أنفسكم أضمن لكم الجنة: اصْدُقوا إذا حَدَّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدُّوا إذا اؤْتُمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضُّوا أبصاركم، وكُفُّوا أيديكم**»[٣].

عباد الله...

هذه بعض ثمرات العفّة فاحرصوا على نيلها، وفقني الله تعالى وإياكم..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

(١) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣١٧٣).

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي.

(٣) رواه أحمد، وابن حبان في «صحيحه»، والحاكم، وقال: صحيح الإسناد.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والطريق إلى «العفَّة» يحتاج إلى الاستعانة بالله تعالى، ثم مجاهدة النفس. ولنا في نبي الله «يوسف عليه السلام» أسوة حسنة، لما دعته امرأة العزيز وراودته عن نفسه وغلَّقت الأبواب وقالت: هَيْتَ لك!! فإذا به يستعلي بإيمانه، ويلجأ إلى الله تعالى قائلاً: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [يوسف: ٢٣]، «الله أكبر» هذا هو الإيمان في أسمى صوره، ولما استعانت ببعض النسوة لإغرائه لجأ إلى الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٣، ٣٤].

فعلى هذا النمط الشريف يجب أن نسير، بعيدًا عن إخوان الشياطين، والله تعالى خير معين.

اللّهم إنا نعوذ بك من شرِّ أنفسنا، ومن شرِّ كُلِّ دابَّة أنت آخِذٌ بناصيتها، إنَّ ربِّي على صراط مستقيم.

الخطبة الأربعون

الزنا.. وأدلة تحريمه

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدَثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن: خامس المنعّمين في ظلّ العرش وهو: «**رجل دعته امرأةٌ ذاتُ منصِبٍ وجَمَال فقال: إني أخافُ الله**».

وتكلمنا في الجمعة الماضية عن: العِفّة وثمراتها. واليوم - بإذن الله تعالى - نتكلم عن: الزّنا.. وأدلّة تحريمه: سائلاً المولى تبارك وتعالى أن يحفظ أعراضنا، وأن يستر عوراتنا..

عباد الله...

ما هو الزنا؟

الزنا: «هو اسمٌ لوطء الرجل امرأة في فرجها من غير نكاح بمطاوعتها، وإن شئت قلت: هو إدخال فرج في فرج مشتهًى طبعًا مُحَرَّم شرعًا؛ فإذا كان ذلك وجب الحَدّ»[١].

وقال الكَفَويُّ: الزِّنا اسمٌ لفعل معلومٍ وإيلاجُ فرج «ذكر» في مَحَلٍّ مُحَرَم مشتهًى يُسمّى قُبُلاً، ومعناهُ قضاءُ شهوةِ الْفَرْجِ بِسَفْحِ الماء «المَنيّ» في مَحَلٍّ مُحَرَّم مُشْتَهى من غير داعيةِ الولد حتى إنه لَيُسَمّى الزّاني سَفَّاحًا» ا.هـ[٢].

أيها المسلمون...

ولّما كان من مقاصد الشريعة حفظ العِرْض وحفظ النسل، جاء فيها تحريم الزنا وتجريم فاعله:

١ - قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: ٣٢].
قال العلماء: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ أبلغ من أن يقول: ولا تزنوا، فإن معناه لا تدنوا من الزنا، والزنا يمد ويقصر، لغتان، و﴿سَبِيلاً﴾ نصب على التمييز، والتقدير: وساء سبيله سبيلاً، أي لأنه يؤدِّي إلى النار.

٢ - وقال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلاَ تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ باللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

قال الإمام القرطبي: «قُدمت ﴿الزَّانِيَةُ﴾ في هذه الآية من حيث كان في ذلك الزمان زنا النساء فاش، وكان لإماء العرب وبغايا الوقت رايات، وكنّ مجاهرات بذلك، وقيل: لأن الزنا في النساء أَعَرّ وهو لأجل الحَبَل أضَرّ. وقيل: لأن الشهوة في المرأة أكثر وعليها أغلب، فَصَدَّرها تغليظًا لَتْردَع شهوتها، وإن كان قد رُكّب فيها حياء لكنها إذا زنت ذهب الحياء كله، وأيضًا فإن العار بالنساء ألحق إذ موضوعهنّ الحجب والصيانة،

(١) «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٤٧).
(٢) «الكليات» (٤٨٩).

فقدم ذكرهنّ تغليظًا واهتمامًا» ا.هـ.

٣- وقال تعالى - في وصف عباد الرحمن -: ﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً﴾ [الفرقان: ٦٨، ٦٩].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى - «دلَّت هذه الآية على أنه ليس بعد الكفر أعظم من قتل النفس بغير حق ثم الزنا، وهذا ثبت في حَدّ الزنا القتل لمن كان محصنًا أو أقصى الجلد لمن كان غير محصن» ا.هـ.

٤- وفي «البخاري وغيره» عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يزني العبد حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب حين يشرب وهو مؤمن، ولا يقتل وهو مؤمن»**.

قال عكرمة: قلت لابن عباس: كيف ينزع الإيمان منه؟ قال: هكذا - وشَبَّك بين أصابعه ثم أخرجها - فإن تاب عاد إليه هكذا - وشبّك بين أصابعه.

٥- وعن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يا بغايا العرب! يا بغايا العرب! إن أخوف ما أخاف عليكم الزِّنا، والشهوةُ الخَفيَّة»**[(١)].

ويزداد الأمر قُبحًا وجُرْمًا إذا فعله الشيخ الكبير.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يكلِّمُهم الله يوم القيامة، ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّاب، وعائلٌ مُسْتكبر»** رواه مسلم والنسائي.

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أربعة يبغضهم الله: البيَّاعُ الحَلاَّف، والفقيرُ المختال، والشيخُ الزاني، والإمامُ الجائر»**[(٢)].

ويزداد الأمر فحشًا وإثمًا لو زنا الإنسان بحليلة جاره، لأنه يُعد انتهاكًا لحرمة الدين، وَحُرْمة الجار.

---

(١) قال المنذري: رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح. «الترغيب» رقم (٣٥٣٨).
(٢) صحيح: انظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٢١).

ثبت في «صحيح البخاري» عن النبي ﷺ قال: «**والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن**» قالوا: من يا رسول الله؟ قال: «**الذي لا يأمن جاره بوائقه**».

ولا بائقة أعظم من الزنا بامرأته، فإن كان الجار أخًا أو قريبًا من أقاربه انضم إلى ذلك قطيعة الرحم فيتضاعف الإثم، فإن كان الجار غائبًا في طاعة الله كالصلاة أو طلب العلم أو الجهاد تضاعف الإثم وتعاظم الذنب.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أيّ الذَّنبِ أعظمُ عند الله؟ قال: «**أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك**». قلت: إن ذلك لعظيم، ثم أيٌّ؟ قال: «**أن تقتل ولدك مخافة أن يَطْعَم معك**». قلت: ثم أيّ؟ قال: «**أن تُزَانِي حليلة جارك**» متفق عليه.

وفي «صحيح مسلم» عن بُرَيْدة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**حُرْمةُ نساء المجاهدين على القاعدين كحُرْمة أمهاتهم، ما من رجل من القاعدين يُخْلُفُ رجلاً من المجاهدين في أهله، فيَخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة، فيأخذُ من حسناته ما شاء حتى يَرْضى**» ثم التفتَ إلينا رسولُ الله ﷺ فقال: «فما ظنكم» أي ما ظنكم أن يترك له من حسنات قد حُكِّم في أن يأخذ منها ما شاء على شدّة الحاجة إلى حسنة واحدة حيث لا يترك الأب لابنه والصديق لصديقه حقًّا يجب عليه.

ويزداد الإثم ويتضاعف أكثر إذا زنى بذات مَحْرمٍ منه كأمه، أو أخته، أو ابنته، أو زوجة أبيه والعياذ بالله تعالى.

قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتاً وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ [النساء: ٢٢].

فوصف الله تعالى النكاح الذي هو الزنا بأوصاف ثلاثة لأنه أفحش وأقبح لأن زوجة الأب تشبه الأم فكانت مباشرتها من أفحش الفواحش لأن نكاح الأمهات من أقبح الأشياء حتى عند الجاهلية الجهلاء.

واعلموا عباد الله أن مراتب القبح ثلاثة: عقلي وشرعي وعادي: فقوله تعالى: ﴿**فَاحِشَةً**﴾ إشارة للأول: ﴿**وَمَقْتاً**﴾ إشارة للثاني: ﴿**وَسَاءَ سَبِيلاً**﴾ إشارة للثالث،

ومن اجتمعت فيه هذه الوجوه فقد بلغ الغاية في القبح[١].

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**من وقع على ذات مَحْرمٍ فاقتلوه**»[٢].

ويشهد له حديث ابن خيثمة في «تاريخه» من حديث معاوية بن قرة عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ بعثه إلى رجل أعرس بامرأة أبيه فضرب عنقه وخُمِّسَ ماله، قال يحيى بن معين: هذا حديث صحيح.

وعن عبد الله بن مطرف قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ تخطى حُرَمَ المؤمنين فخطُّوا وسطه بالسيف**»[٣].

وقد اتفق المسلمون على أن من زنى بذات محرم فعليه الحَدّ، وإنها اختلفوا في صفة الحد، هل هو القتل بكل حال؟ أو حدّه حدّ الزنا[٤]؟

ومعلوم أن المحارم كل من يحرم على الرجل الزواج منها حُرْمة أبدية لا يحللها شيء.

وبالجملة: فإن الزنا علاقة مؤقتة، لا تبعةَ وراءها، فهو عمليةٌ حيوانية بَحْتة، ينأى عنها الإنسان الشريف، وجملة القول: أنه قد ثبت علميًّا ثبوتًا لا مجال للشك فيه عظم ضرر الزنا، وأنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد وانحطاط الآداب، ومُوِّرث لأقْتل الأدواء، ومُرَوِّج للعُزوبة واتخاذ الخدينات، ومن ثَمَّ كان أكبر باعثٍ على الترف والسَّرف والعُهْر والفجور. لهذا كله وغيره جعل الإسلام عقوبة الزنا أقسى عقوبة. وإذا كانت هذه العقوبة تبدو قاسية، فإن آثار الجريمة المترتبة عليها أشدُّ ضررًا على المجتمع. والإسلام يوازن بين الضرر الواقع على المذنب، والضرر الواقع على المجتمع، ويقضي بارتكاب أخف الضررين، وهذه هي العدالة، ولا شك أن ضرر عقوبة الزاني

---

(١) «الزواجر» (٢/ ٢٨٤).

(٢) رواه ابن ماجه برقم (٢٦١٢) وإسناده ضعيف، ولكن له شواهد صحيحة.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٢٦٩): رواه الطبراني وفيه: رفدة بن قضاعة، وثقه هشام بن عمار، وضعفه الجمهور.

(٤) «الجواب الكافي» (ص ٢٠٠).

لا تُوزنُ بالضرر الواقع على المجتمع من إفشاء الزنا، ورواج المنكر، وإشاعة الفُحْش والفجور، إن عقوبة الزنا إذا كان يُضارُّ بها المجرم نفسه، فإن في تنفيذها حفظ النفوس، وصيانة الأعراض، وحماية الأُسر، التي هي اللبنات الأولى في بناء المجتمع، وبصلاحها يَصْلُحُ، وبفسادها يَفْسدُ.

إن الأمم بأخلاقها الفاضلة، وبآدابها العالية، ونظافتها من الرِّجس والتلوث، وطهارتها من التَّدَني والتسفُّل.

على أن الإسلام - من جانب آخر - كما أباح الزواج أباح التعدد[1] حتى يكون في الحلال مندوحة عن الحرام، ولكي لا يبقي عُذْر لمقترف هذه الجريمة. وقد احتاط في تنفيذ هذه العقوبة بقدر ما أخاف الزُّناة وأرهبهم، فمن الاحتياط:

١ - أنه درأ الحدود بالشُّبُهات، فلا يقامُ حدٌّ إلا بعد التيقُّن من وقوع الجريمة.

٢ - وأنه لابد في إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عُدُول من الرجال، فلا تُقبلُ فيها شهادة النساء، ولا شهادة الفسقة.

٣- وأن يكون الشهود جميعًا رأوْا عملية الزنا نفسها كالمرود في المُكْحلة، والرِّشاءِ[2] في البئر، وهذا مِمَّا يصعُبُ ثُبوتُه.

٤- ولو فُرض أن ثلاثةً منهم شهدوا بهذه الشهادة، وشهد الرابعُ بخلاف شهادتهم، أو رجع أحدُهم عن شهادته أقيم عليهم حدّ القذف، فهذا الاحتياط الذي وضعه الإسلام في إثبات هذه الجريمة، مما يدفع ثبوتها قطعًا، فهذه العقوبة هي إلى الإرهاب والتخويف أقربُ منها إلى التحقيق والتنفيذ، وقد يقول قائل: إذا كان الحَدُّ مما يَنْدُرُ إقامته لتَعَذَّر ثبوت الأدلة، فلماذا إذن شرعه الإسلام؟!

والجواب: أن الإنسان إذا لاحظ قسوة الجريمة وضراوتها فإنه يعمل لها ألف حساب وحساب قبل أن تُقْترف، فهذا نوع من الزجر بالنسبة لهذه الجريمة التي تجدُ من الحوافز والبواعث ما يدفع إليها، ولا سيما وأن الغريزة عُنْفُ العقوبة، فإن ذلك من

(١) بشروطه الشرعية.
(٢) الرشاء: الحَبْل.

عوامل الحَدِّ من ثورتها[١].

عباد الله...

هذه أدلّة تحريم الزِّنا: نسأل الله - تعالى - أن يستر عوراتنا، وأن يقينا شرّ فروجنا..

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فمما ينبغي معرفته أن الزنا أقسام: فالزاني إمّا أن يكون بكرًا أو محصنًا:

إذا زنا الحُرُّ المحصن[٢] المُكلَّف مختارًا فحدّه الرجم حتى يموت.. عن جابر بن عبد الله: «أن رجلاً من أسلم أتى رسولَ الله ﷺ فحدثه أنه زنى، فشهِد على نفسه أربع شهادات، فأمر به رسول الله ﷺ فرُجم، وكان قد أحصن»[٣].

وَعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب الناس يومًا فقال: «إن الله بعث محمدًا ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها، رجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى إن طال بالناس زمان أن يقول قائل: والله ما نجد آية الرَّجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله، والرجم في كتاب الله حق على من زنى إذا أحصن من الرجال والنساء، إذا قامت البينة أو كان الحَبَل أو الاعتراف»[٤].

---

(١) «فقه السنة» للشيخ/ السيد سابق (٢/ ٢٦٩، ٢٧٠).

(٢) **المحصن**: هو من سبق له وطء بنكاح صحيح، والمكلّف: هو البالغ العاقل، فلا حدّ على الصَّبيّ والمجنون، لحديث: «رُفِعَ القلمُ عن ثلاثة: عن المجنون المغلوب على عَقْلِهِ حتى يَبْرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصّبي حتى يَحْتلِم» رواه أحمد وأبو داود والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٤٦٣).

(٣) «صحيح سنن أبي داود» (٣٧٢٥).

(٤) رواه البخاري ومسلم.

وإذا زنا البكر فحدُّه الجلد مائة جلدة - كما تقدم في الآية الكريمة - وتغريب عام.

فعن زيد بن خالد الجهني قال: «سمعتُ النبيَّ ﷺ يأمر فيمن زنى ولم يُحصن مائة وتغريب عام» رواه البخاري.

وإذا زنا غير الحُرّ عَبْدًا كان أو أَمة - فلا رَجْم عليه، ولكن يُجْلَد خمسينَ جلدة لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [النساء: ٢٥].

وعن عبد الله بن عياش المخزومي قال: أمرني عمر بن الخطاب في فتية من قريش، فجلدنا ولائد من ولائد الإمارة، خمسين خمسين في الزِّنا[١].

هذا، ومن أُكْره على الزِّنا - كالمغتصبة ونحوها - فلا حدّ عليه. فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبيّ ﷺ قال: «**إنَّ الله تعالى وَضَعَ عن أُمَّتي الخطأَ والنِّسيان وما اسْتُكْرِهُوا عليه**»[٢].

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: أُتي عمر بن الخطاب رَضِيَ الله عَنْهُ بامرأة جهدها العطش، فمرت على راع فاستسقت، فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها، ففعلت، فشاور الناس في رجمها، فقال عليٌّ رضي الله عنه: هذه مضطرة أرى أن تخلي سبيلها، ففعل[٣]!!

أقول: لعلّها قد وصلت لدرجة أشرفت بها على الهلاك المحقق، وإلاّ فالفقر والحاجة ليسا عُذْرًا لارتكاب الفواحش. والله أعلم.

اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعْصِيَتِك، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مصائب الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْها الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا بذنوبِنا مَنْ لاَ يَخافُك فينا ولا يرحَمُنا.

(١) **حسن**: رواه البيهقي (٨/ ٢٤٢)، وانظر: «الإرواء» (٢٣٤٥).
(٢) **صحيح**: رواه البيهقي، وانظر: «صحيح الجامع» (١٨٠٩).
(٣) **صحيح**: رواه البيهقي (٨/ ٢٣٦)، وانظر: «الإرواء» (٢٣١٣).

الخطبة الحادية والأربعون

[أ] أسبابُ الزِّنا

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلِل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعّمين في ظل العرش وهو: «**رجل دعته امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».

عباد الله...

لَمَّا حرم الإسلام الزنا، حَرَّم المداخل التي قد تُفْضي إليه، وتساعد على الوصول إليه، وذلك سدًّا للذرائع، وقطعًا لدابر الفتنة، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْرَبُوا الزِّنَى﴾ [الإسراء: ٣٢]، فنهى - سبحانه وتعالى - عباده عن الزنا وعن مقاربته ومخالطة أسبابه ودواعيه.

قال ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «فينبغي حسم مادة الشَّر والمعصية وسَدّ ذريعته، ودفع ما يفضي إليه إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة».

والمداخل التي قد تفضي إلى جريمة الزنا كثيرة ومتنوعة منها:

المدخل الأول: النظر:

قال تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [النور: ٣٠]. ولم يذكر الله تعالى ما يُغض البصر عنه ويحفظ الفرج، غير أن ذلك معلوم بالعادة، وأن المراد منه المحرّم دون المحلَّل، وفي البخاري: «وقال سعيد بن أبي الحسن للحسن: إن نساء العجم يكشفن صدورهن ورؤوسهن؟ قال: اصرف بصرك، يقول الله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**﴾، وقال قتادة: عما لا يحل لهم: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**﴾ [النور: ٣١]، خائنة الأعين من النظر إلى ما نُهِيَ عنه»[١].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله تعالى -: «البصر هو الباب الأكبر إلى القلب، وأعْمَر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه، وغضُّه واجب عن جميع المحرمات، وكلّ ما يخشى الفتنة من أجله، وقد قال ﷺ: «**إياكم والجلوس في الطرقات**» فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بُدٌّ نتحدث فيها. فقال: «**فإذا أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه**» قالوا: وما حَقُّ الطريق يا رسول الله؟ قال: «**غضُّ البصر، وكفّ الأذى، وردُّ السلام، والأمر بالمعروف والنهيُ عن المنكر**» متفق عليه.

وروى الأوزاعيّ قال: حدثني هارون بن رئاب أن غزوان وأبا موسى الأشعري كانا في بعض مغازيهم، فكشفت جارية فنظر إليها غَزْوان، فرفع يده فلطم عينه حتى نفرت[٢]، فقال: إنك للحّاظة إلى ما يضرّك ولا ينفعك، فلَقِي أبا موسى فسأله فقال: ظلمت عينك، فاستغفر الله وَتُب، فإن لها أوّل نظرة وعليها ما كان بعد ذلك.

(١) ذكره البخاري تعليقًا في «الاستئذان»، باب (٢).
(٢) نفرت: أي هاجت وَوَرِمَتْ.

وفي «صحيح مسلم» عن جرير بن عبد الله قال: سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجاءة، فأمرني أن أصرف بصري، وهذا يقوّي قول من يقول: إن «من» للتبعيض، لأن النظرة الأولى لا تُمْلَك فلا تدخل تحت خطاب تكليف، إذ وقوعها لا يتأتى أن يكون مقصودًا، فلا تكون مكتسبة فلا يكون مكلفًا بها؛ فوجب التبعيض لذلك، ولم يقل ذلك في الفرج، لأنها تُملك، ولقد كرّه الشعبيّ أن يديم الرجلُ النظر إلى ابنته أو أمّه أو أخته؛ وزمانهُ خير من زماننا هذا!! وحرام على الرجل أن ينظر إلى ذاتٍ مُحَرَّمة نَظر شهوة يردّدها» ا.هـ.

وكما أمر الإسلام بغض البصر عمّا لا يحلّ، أمر بستر العورات عن الأعين.

فعن بَهْز بن حكيم بن معاوية عن أبيه عن جده قال: قلت يا رسول الله، عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**» قال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: «**إن استطعت ألا يراها أحد فافعل**» قلت: فالرجل يكون خاليًا؟ فقال: «**الله أحقُّ أن يُسْتحيا منه من الناس**»[1].

وعن عبد الرحمن بن جَرْهَد، قال: كان جَرْهَد، هذا من أصحاب الصفة، قال: جلس رسول الله ﷺ عندنا وفخذي منكشفة، فقال: «**أما علمتَ أن الفخذَ عَوْرة**»[2].

وعن المِسْوَر بن مخرمة قال: حملت حَجَرًا ثقيلاً، فبينا أمشي فسقط عني ثوبي، فقال لي رسول الله ﷺ: «**خُذْ عليك ثوبك ولا تمشوا عراة**»[3].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ قال: «**لا ينظر الرجلُ إلى عُرْية الرجل، ولا المرأة إلى عُرْية المرأة، ولا يُفضي الرجلُ إلى الرجل في ثَوْب واحدٍ، ولا تُفْضي المرأة إلى المرأة في ثَوْب**» رواه مسلم.

وعن جابر بن عبد الله: أن أسماء بنت مرشد كانت في نخل لها في بني حارثة، فجعل النساء يدخلن عليها غير مؤتزرات، فيبدو ما في أرجلهن - يعني الخلاخل -

(١) **حديث حسن**: رواه الترمذي وقال: حديث حسن، وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٩١).
(٢) **حديث صحيح**: «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٨٩).
(٣) **حديث صحيح**: رواه مسلم، وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٣٣٩٠).

ويبدو صدورهن وذوائبهن فقالت أسماء: ما أقبح هذا...! فأنزل الله تعالى في ذلك: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ الآية [النور: ٣١]. أخرجه ابن أبي حاتم.

قلت: فماذا كانت تقول أسماء لو رأت نساء المسلمين اليوم؟!!

وقال ابن عباس: الشيطان من الرجل على ثلاثة منازل: على عينيه، وقلبه، وذكَره، وهو من المرأة على ثلاثة: على عينها، وقلبها، وعجزها.

وعن العلاء بن زياد قال: كان يقال: لا تتبعن بصرك حسن رداء امرأة، فإن النظر يجعل شبقًا في القلب.

وقد جعل الله سبحانه وتعالى العين مرآة القلب، فإذا غض العبد بصره غض القلب شهوته وإرادته، وإذا أطلق بصره أطلق القلب شهوته.

وروى البخاري ومسلم عن النبي ﷺ قال: «**إن الله ﷻ كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة، فالعين تزني وزناها النظر، واللسان يزني وزناه الكلام** - وفي رواية - «النطق» - **والرِّجل تزني وزناها الخطى، واليد تزني وزناها البطش، والقلب يهوى ويتمنى، والفرج يصدّق ذلك أو يكذِّبه**».

فبدأ بزنا العين لأنه أصل زنا اليد والرِّجل والقلب والفَرْج. ولله دَرُّ القائل:

إن الـرجال الناظـرين إلى النـساء ... مـثل الـسباع تطـوف باللحمـان

إن لم تـصن تلـك اللحـوم أسـودُها ... أُكِلـت بـلا عـوض ولا أثمـان

من أجل هذا، خاف الصالحون على أنفسهم من فتنة النظر رغم رسوخ أقدامهم.. وقوة إيمانهم.

يقول سعيد بن المسيِّب - رحمه الله -: «ذهبت إحدى عيني وأنا أعشو بالأخرى، وقد بلغت ثمانين سنة، وما من شيء أخوف عندي من النساء»[١].

فلا يستريب عاقل في أن ضرر النظرة له موقعه في القلب، وكما قيل: «النظر بريد الزنى» وهذا صحيح.

---

(١) «حلية الأولياء» (٢/ ١٦٦).

يقول الإمام ابن الحاج: «وقع الإجماع على أن النظر أعظم الجوارح آفة على القلب. وأسرع الأمور في خراب الدين والدنيا».

ومن تلاعب الشيطان ببعض الناس ما يفعلونه من النظر إلى الصور «الخليعة» في المجلات، ومشاهدة الأفلام بحجة أنها ليست حقيقية!! مع أن جانب المفسدة فيه وإثارة الشهوات برؤيتها واضح كل الوضوح.

عباد الله...

وفي غض البصر عدة فوائد:

أحدها: تخليص القلب من ألم الحسرة، فإن من أطلق نظره دامت حسرته فأضر شيء على القلب إرسال البصر، فإنه يريه ما يشتد طلبه ولا صبر له عنه ولا وصول له إليه، وذلك غاية ألمه وعذابه، والنظرة بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس، كما قيل:

كـلُّ الحـوادث مـبدؤها مـن النظـرِ ... ومعظـمُ الـنار مـن مستـصغر الـشَّررِ

كم من نظرةٍ فتكت في قلب صاحبها ... فَـتْكَ الـسهام بـلا قـوسٍ ولا وتـرِ

والمـرأ مـا دام ذا عـين يُقَلِّـبُها ... في أعـين الغـيد موقـوفٌ على الخطر

يـسرُّ مُقلَـتَهُ مـا ضَـرَّ مُهجَـتَهُ ... لا مـرحبًا بـسرور عـاد بالـضَرر

الفائدة الثانية: أنه يورث القلب نورًا وإشراقًا يظهر في العين وفي الوجه وفي الجوارح، كما أن إطلاق البصر يورثه ظلمة تظهر في وجهه وجوارحه. ويُرْوى في الحديث القدسي: «**النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس، من تركَها مخافتي أبدلته إيمانًا يجد حلاوته في قلبه**»[1].

الفائدة الثالثة: أنه يورث صحة الفراسة فإنها من النور، وقال شجاع الكرماني: من عَمَّر ظاهِره باتباع السُّنة، وباطنه بدوام المراقبة، وغضَّ بصره عن المحارم، وكفَّ نفسه

(١) **ضعيف**: رواه الطبراني، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وضعفه المنذري «الترغيب» رقم (٢٨٥٧).

عن الشهوات، وأكل من الحلال لم تخطئ فِراسته، وكان شجاع لا تخطئ له فراسة.

الفائدة الرابعة: أنه يفتح له طرق العلم وأبوابه، ويسهل عليه أسبابه، وذلك بسبب نور القلب، ومن أرسل بصره تكدَّر عليه قلبه وأظلم، وانسد عليه باب العلم وطرقه.

الفائدة الخامسة: أنه يورث القلب وثباته وشجاعته، وفي الأثر: «إن الذي يخالف هواه يفرق الشيطان من ظله».

الفائدة السادسة: أنه يورث قوة القلب سرورًا وفرحة، وانشراحًا أعظم من اللذة والسرور الحاصل بالنظر، وذلك لقهره عدوه بمخالفته، ومخالفة نفسه وهواه، قال بعضهم: والله للذة العفة أعظم من لذة الذنب.

الفائدة السابعة: أنه يخلص القلب من أَسْرِ الشهوة، فإن الأسير هو أسير شهوته وهواه.

الفائدة الثامنة: أنه يسد عنه بابًا من أبواب جهنم، فإن النظر باب الشهوة الحاملة على مواقعة الفعل.

الفائدة التاسعة: أنه يقوي عقله ويزيده ويثبته، فإن إطلاقه البصر وإرساله لا يحصل إلا من خفة العقل وطيشه وعدم ملاحظته للعواقب.

الفائدة العاشرة: أنه يخلص القلب من سُكْر الشهوة ورقدة الغفلة، فإن إطلاق البصر يوجب استحكام الغفلة عن الله والدار الآخرة، ويوقع في سكرة العشق.

وفوائد غض البصر وآفات إرساله أضعاف أضعاف ما ذكرنا[1]، وفيما قدمنا الكفاية لمن أراد الهداية.

عباد الله...

والمدخل الثاني - من المداخل التي تُفضي إلى الزنا - الخلوة بالأجنبية:

لا يجوز لرجل أن يختلي في بيت أو حجرة أو سيارة بامرأة أجنبية عنه، كزوجة أخيه، أو الخادمة، أو مريضة مع طبيب، ونحو ذلك، وكثير من الناس يتساهلون في هذا، إما ثقة بنفسه أو بغيره فيترتب على ذلك الوقوع في الفاحشة أو مقدماتها، وتزداد

---

(١) «روضة المحبين» (١٠٣ - ١٠٩) بتصرف.

مأساة اختلاط الأنساب، وأولاد الحرام. وفي الحديث: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثُهما الشيطان**» رواه الترمذي.

وفي «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: «**لا يدخلن رجل بعد يومي هذا على مُغيبة**(١) **إلا ومعه رجل أو اثنان**».

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إياكم والدخول على النساء**» فقال رجل من الأنصار: أفرأيت الحَمْو؟ قال ﷺ: «**الحمو الموت**» متفق عليه.

والحمو: هو أخو الزوج وقريبه كابن أخيه وابن عمه، وتعبير النبي ﷺ عنهم بلفظ «**الموت**» يعني أن الهلاك والمضرة كلها تأتي من ها هنا حيث لا ريبة في دخول هؤلاء، وهم أعلم الناس بِسرّ الزوج وموعد دخوله وخروجه فاحتمال وقوع الفتنة منهم أكبر، ومفاسد دخول الأقارب دون استئذان، وفي غياب الزوج، لا تخفى وخصوصًا في عصرنا هذا.

وكذلك لا تجوز الخلوة بالمخطوبة، ويحرم الانفراد بها، وذلك للأدلة السالفة الذكر، وقد درج كثير من الناس على التهاون في هذا الشأن، فأباح لابنته أو قريبته أن تخالِط خطيبها وتخلُوَ معه دون رقابة، وتذهب معه حيث يريد من غير إشراف، وقد نتج عن ذلك أن تعرضت المرأة لضياع شرفها وفساد عفافها وإهدار كرامتها. وقد لا يتم الزواج فتكون قد أضافت إلى ذلك فوات الزواج منها.

نسأل الله - تعالى - التوفيق لطاعته واجتناب محارمه..

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

---

(١) المغيبة: التي غاب عنها زوجها.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والمدخل الثالث - من المداخل التي تُفضي إلى الزنا -: سفر المرأة بدون محرم:

عباد الله...

سَدًّا للذريعة، وحفاظًا على كيان الأسرة، وصيانة لكرامة المرأة من أن تبتذل، وعِرْضها أن يهان، حَرّم الإسلامُ سَفر المرأة بلا محرم، سواء وحدها، أو مع من ليس بمحرم، فقد شدد الرسول ﷺ في ذلك، فقال ﷺ: «**لا يحلُّ لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر سفرًا يكونُ ثلاثةَ أيام فصاعدًا إلا ومعها أبوها، أو زوجها، أو ابنها، أو ذو مَحْرمٍ منها**» متفق عليه.

وفي رواية: «**لا تسافر المرأة يومين من الدهر إلا ومعها ذو محرم منها أو زَوْجُها**» متفق عليه.

وفي رواية: «**لا يحلُّ لامْرأة تؤمن بالله واليوم الآخر تُسافرُ مسيرة يومٍ وليلةٍ إلا مع ذي محرمٍ عليها**».

وفي رواية «**مسيرة يوم**»، وفي أخرى: «**مسيرة ليلةٍ إلا ومعها رجل ذو حُرمةٍ منها**» رواه مالك والبخاري ومسلم وغيرهم.

حتى ولو خرجت حاجَّة!! فعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه سمع النبي ﷺ يخطب يقول: «**لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم، ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم**» فقام رجل فقال: يا رسول الله، إن امرأتي خرجت حاجَّة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. قال: «**انطلق فحج مع امرأتك**» متفق عليه.

قال الشيخ محمد رشيد رضا - رحمه الله تعالى -: «ومن يعلم أخبار الأسفار في هذا العصر وما يكون دائمًا من تأثير اجتماع النساء بالرجال، في البواخر والفنادق الكبيرة، فإنه يفقه من حكمة هذا النهي أن السفر الطويل والقصير سواء في عدم خروج المرأة

فيه مع غير ذي محرم»[١].

وسفر المرأة بغير محرم يغري الفُسّاق بها فيتعرضون لها وهي ضعيفة، فقد تنجرف، وأقل أحوالها أن تؤذى في عِرْضها أو شرفها.

والمدخل الرابع - من المداخل التي تُفضي إلى الزنا -: الاختلاط:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «ولا ريب أن تمكين النساء من اختلاطهن بالرجال أصل كل بلية وشرّ، وهو من أعظم أسباب نزول العقوبات العامّة، كما أنه من أسباب فساد أمور العامّة والخاصّة، واختلاط الرجال بالنساء سبب لكثرة الفواحش والزنا، وهو من أسباب الموت العام والطواعين المتّصلة» ا.هـ[٢].

وقد ثبت أن النبيَّ ﷺ كان يفصل بين الرجال والنساء في الصلاة، وفي الدخول إلى المسجد: فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لو تركنا هذا البابَ للنِّساء**»[٣].

عباد الله...

هذه بعض المداخل التي تُفضي إلى الزِّنا، وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله - نواصل الحديث عن بقية المداخل.

اللَّهمّ اغْفِرْ ما علمت، ولا تهتك ما سَترت، أنتَ أعلم بالحال والشكوى، وأنت قادِرٌ على كشف الْبَلْوى.

---

(١) «حقوق النساء في الإسلام» (ص ١٨١).

(٢) «الطرق الحكمية» باختصار.

(٣) صحيح: انظر «صحيح سنن أبي داود» (٤٣٩).

الخطبة الثانية والأربعون

[ب] أسباب الزنا

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعّمين في ظل العرش، وهو: «**رجلٌ دعته امرأةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجمال فقال: إني أخافُ الله**».

وتكلمنا في الجمعة الماضية عن **أربعة مداخل** - من المداخل التي تُفضي إلى جريمة الزنا -.

ونواصل اليوم بإذن الله تعالى الحديث عن بقية المداخل، سائلاً الله تعالى - أن يجنّبنا وإياكم منكرات الأخلاق:

المدخل الخامس: مصافحة المرأة الأجنبية:

وهذا مما طغت فيه بعض الأعراف الاجتماعية على شريعة الله في المجتمع، وعلا فيه باطل عادات الناس وتقاليدهم على حكم الله، حتى لو خاطبت أحدهم بحكم الشرع، وأقمت الحجة وبينت الدليل، اتهمك بالرجعية والتعقيد والتخلف، وقطع الرحم، والتشكيك في النوايا الحسنة.. الخ.

وصارت مصافحة بنت العم وبنت العمة، وبنت الخال وبنت الخالة وزوجة الأخ وزوجة العم وزوجة الخال أسهل في مجتمعنا من شرب الماء، ولو نظروا بعين البصيرة في خطورة الأمر شرعًا ما فعلوا ذلك.

فقد قال النبي ﷺ: «**لئن يُطعن في رأسِ أحدكم بمخيط من حديد خيرٌ له أن يمَس امرأة لا تحلّ لهَ**»(١).

وتقدم حديث: «**واليد تزني وزناها البطش**».

وقال ﷺ: «**إني لا أصافح النساء**»(٢).

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «والله ما مست يد رسول الله يد امرأة قط غير أنه يبايعهن بالكلام» رواه مسلم.

هذا، رغم أنه ﷺ أملك الناس لأربه، وأشد الناس خشية لله وأتقاهم!! ألا فليتق الله أناس يهددون زوجاتهم الصالحات بالطلاق إذا لم يصافحن إخوانهم!!

قال العلامة الشيخ محمد الحامد - رحمه الله تعالى - بعد أن ساق أدلة تحريم مصافحة الأجنبية: «... والأحاديث التي رويناها في تحريم المسّ تصحح الفهم وتورثه السلامة، وتنأى بالمرء عن هذا المزلق الخطر فإن المرأة مشتهاة خلقة، واللمس مثير شهوة الوقاع وهي أعصى الشهوات للدين والعقل، فكل سبب يدعو إليها في غير حل ممنوع في الإسلام ومحظور إذ الوسائل لها أحكام المقاصد» ا.هـ(٣).

---

(١) صحيح: رواه الطبراني (٢/ ٢١٢)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٩٢١).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وانظر: «صحيح الجامع» (٢٥٠٩).
(٣) «حكم الإسلام في مصافحة المرأة الأجنبية» (١١).

أيها المسلمون...

والمدخل السادس: التبرج:

ومعناه: خروج المرأة من بيتها وهي تلبس القصير والرقيق والضيق من الثياب، أو تظهر مفاتنها لغير محارمها، وهذا مما غزانا به أعداؤنا في هذا الزمان، هذه الأزياء والموضات التي وضعوا أشكالها وتفصيلها، وراجت بين المسلمين، وهي لا تستر عورة لقصرها أو شفافيتها أو ضيقها، وكثير منها لا يجوز لبسه حتى بين النساء والمحارم!!

ويدخل في هذا ما يلبسه بعض النساء مما يكون ذا فتحة طويلة من الأسفل أو مشقوقة من عدة جهات، فإذا جلست ظهر من عورتها ما ظهر مع ما في ذلك من التشبه بالكفار واتباعهم في الموضات وما استحدثوه من الأزياء الفاضحة، نسأل الله السلامة.

ومن الأمور - الخطيرة - كذلك ما يوجد على بعض الملابس من الصور العارية، وقوارير الخمر، أو شعارات الأندية الخبيثة، أو العبارات الرديئة المخلة بالشرف، والتي تكون أحيانًا مكتوبة بلغات أجنبية.

وصيانة للمرأة وعرضها فرض الإسلام على المرأة «الحجاب» تكريمًا لها، وصيانة لعرضها من التعرض للمفسدين، فقال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً**﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ومعنى: يعرفن: أي يعرفن بالعفة والفضيلة، فلا يؤذين: أي من الفسقة، ووضع الإسلام شروطًا للحجاب الشرعي:

الشرط الأول - أن يكون ساترًا لجميع البدن ما عدا الوجه والكفين - كما في رأي بعض العلماء - وإن سترت وجهها فالنقاب فضيلة.

الشرط الثاني - أن يكون واسعًا فضفاضًا، لا يصف ولا يشف، وقد قال أسامة بن زيد: «كساني رسول الله ﷺ قبطية كثيفة مما أهداها له «دحية الكلبي» فكسوتها امرأتي، فقال: «**ما لك لم تلبس القبطية؟**» قلت: كسوتها امرأتي، فقال: «**مرها فلتجعل تحتها غلالة**[١]**، فإني أخاف أن تصف حجم عظامها**»[١].

---

(١) **الغلالة**: شعار يلبس تحت الثوب ليمنع بها وصف بدنها.

قال الشوكاني: «والحديث يدل على أنه يجب على المرأة أن تستر بدنها بثوب لا يصفه، وهذا شرط ستر العورة، وإنما أمر بالثوب تحته لأن القباطي ثياب رقاق لا تستر البشرة عن رؤية الناظر بل تصفها».

وعلى ما تقدم فلا يجوز للمرأة أن تخرج لابسة الثياب الضيقة التي تلتصق بالجسم وتصفه وصفًا دقيقًا، حتى ليخال من كان بعيدًا عنها أنها عارية! كهذه الجوارب اللحمية التي تصف حجم الساقين والفخذين وتزيدهما جمالاً، وكذلك «البنطلون» فكل هذه ليست ثيابًا شرعية ومن ادَّعى ذلك فعليه بالدليل، ولا دليل.

الشرط الثالث - ألاَّ يكون ثوب شهرة كما تفعل النساء اليوم لهثًا وراء «الموضة»!! قال ﷺ: «**من لبس ثوب شهرة في الدنيا ألبسه الله ثوب مذلة يوم القيامة ثم أُلهب فيه نار**»[(٢)].

الشرط الرابع - ألاَّ يشبه ثوب الكافرات لأن «**من تشبه بقوم فهو منهم**» رواه أحمد وإسناده حسن.

الشرط الخامس - ألاَّ يشبه ثوب الرجل، فقد قال ﷺ: «**لعن الله المتشبهات من النساء بالرجال، والمتشبهين من الرجال بالنساء**» رواه البخاري وأحمد.

الشرط السادس - ألاَّ يكون مُعطرًا يشم ريحه، فقد قال ﷺ: «**أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم فوجدوا من ريحها فهي زانية**» رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

عباد الله...

من وراء افتراض الحجاب حكم وأسرار عظيمة، وفضائل محمودة، وغايات ومصالح كبيرة، منها:

١- **حفظ العرض:** الحجاب حِرَاسةٌ شرعية لحفظ الأعراض، ودفع أسباب الرِّيبة والفتنة والفساد.

٢- **طهارة القلوب:** الحجاب داعية إلى طهارة قلوب المؤمنين والمؤمنات، وعمارتها

(١) **حسن:** أخرجه أحمد والبيهقي وغيرهما، وانظر: «جلباب المرأة المسلمة» للألباني (١٣١).

(٢) **حسن:** رواه أبو داود.

بالتقوى، وتعظيم الحرمات، وصدق الله - سبحانه-: ﴿ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

٣- **مكارم الأخلاق:** الحجاب داعية إلى توفير مكارم الأخلاق من العفة والاحتشام والحياء والغيرة.

٤- **علامة على العفيفات:** الحجاب علامة شرعية على الحرائر العفيفات، وبعدهن عن دنس الريبة والشك: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَن يُعْرَفْنَ فَلاَ يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، وصلاح الظاهر دليل على صلاح الباطن.

٥- **قطع الأطماع والخواطر الشيطانية:** الحجاب وقاية اجتماعية من الأذى وأمراض قلوب الرجال والنساء، فيقطع الأطماع الفاجرة، ويكفُّ الأعين الخائنة، ويدفع أذى الرجل في عِرْضه، وأذى المرأة في عِرْضها، ووقاية من رمى المحصنات بالفواحش.

٦- **حفظ الحياء:** وهو مأخوذ من الحياة، فلا حياة بدونه، وهو خلق يودعه الله في النفوس التي أراد - سبحانه - تكريمها، فيبعث على الفضائل، ويدفع في وجوه الرذائل، وهو من خصائص الإنسان وخصال الفطرة، وخلق الإسلام، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وما الحَجاب إلا وسيلة فعالة لحفظ الحياء، وخلع الحجاب خلع للحياء.

٧- **الحجاب حصانة:** ضد الزنا والإباحية، فلا تكون المرأة إناءً لكل والغ.

٨- **المرأة عورة:** والحجاب ساتر لها، وهذا من التقوى، قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦]، قال عبد الرحمن بن أسلم - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «يتقي الله فيواري عَوْرته فذاك لباس التقوى»[١].

والمدخل السابع: تطييب المرأة عند خروجها:

وهذا مما فشا في عصرنا رغم تحذير الشرع المطهر منه.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل عين زانية والمرأة إذا**

(١) «حراسة الفضيلة» للدكتور بكر بن عبد الله أبو زيد (٨٤- ٨٨) باختصار.

استعطرت فمرت بالمجلس فهي كذا وكذا يعني زانية»(١).

بل إن الشريعة شددت على من وضعت طِيبًا بأن تغتسل كغسل الجنابة حتى ولو أرادت الخروج إلى المسجد!!

فلقد ثبت أن امرأة مَرَّت بأبي هريرة رضي الله عنه وريحها يعصف فقال لها: أين تريدين يا أمة الجبار؟ قالت: إلى المسجد! قال: وتطيبت له؟ قالت: نعم. قال: فارجعي فاغتسلي فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يقبل الله من امرأة خرجت إلى المسجد صلاة وريحها يعصف حتى ترجع فتغتسل**»(٢).

وقد جاءت الشريعة بأن طيب النساء ما ظهر لونه وخفي ريحه.

والمدخل الثامن: الدِّياثة:

الديوث: هو الذي لا يغار على عِرْضه، وقد حَرَّم الله عليه الجنة.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة قد حَرَّم الله عليهم الجنة: مُدْمِن الخمر، والعاق، والدَّيوث الذي يُقِّرُ في أهله الخبث**» رواه أحمد، وانظر: «صحيح الجامع» (٣٠٤٧).

ومن صور الدِّياثة في عصرنا الإغضاء عن البيت أو المرأة في البيت وهي تتصل بالرَّجل الأجنبي يحادثها وتحادثه بما يسمى بالمغازلات، وأن يرضى بخلوة إحدى نساء بيته مع رجل أجنبي، وكذا ترك إحدى النساء من أهل البيت تركب بمفردها مع أجنبي كالسائق ونحوه، وأن يرضى بخروجهن دون حجاب يتفرج عليهن الغادي والرائح، وكذا جلب الأفلام أو المجلات التي تنشر الفساد والمجون وإدخالها البيت، أو السماح لزوجته بمراقصة الرجال، كما نرى في عصرنا، وإلى الله المشتكى.

وقال النبي ﷺ: «**إن الله يغارُ والمؤمن يغار وغيرةُ الله تعالى أن يأتي الرجل المؤمن ما حَرَّم الله عليه**» رواه مسلم.

وكان الحسن البصري - رحمه الله تعالى - يقول: أتدعون نساءكم ليزاحمن العلوج

---

(١) **حسن**: أخرجه أبو داود (٤/ ٤١٧٣)، وقال الألباني: حسن.

(٢) **حسن**: أخرجه أحمد (٢/ ٢٤٦) وقال الألباني: حسن.

في الأسواق!! قبَّح الله من لا يغار[١].

وكان أصحاب رسول الله ﷺ يسدُّون الكوى[٢] والثقب في الحيطان لئلا تطلع النسوان إلى الرجال!! ورأى معاذ امرأته تطلع في الكوة فضربها[٣]!!

قلت: فماذا يصنع رضي الله عنه لو رأى نساءنا وهن يجلسن ويطللن من «البلكونات» وهن شبه عرايا!!، بل وتغازل الرجال من نوافذ البيوت!!

ورحم الله القائل:

أصـــون عِرْضـــي بمالـــي لا أبـــدده   لا بـــارك الله بعـــد العـــرض في المـــال

ولو نظر المرء منا إلى حيوان ضعيف أليف وديع مثل الحمام فإنه يجد أن أنثى الحمام لا تسمح لغير ذكرها أن يعلوها، وكذا لا يسمح ذكرُها لغيره أن يمتطيها، بل لا يفكر أصلاً أي ذكر أن ينزو على غير أليفته بما فطره الله عليه، فحافظ على هذه الفطرة بلا اختلال، فأين الشهامة يا رجال؟!

ذكر البخاري في «صحيحه» عن عمر بن ميمون الأَوْدِي قال: «رأيتُ في الجاهلية قردًا زنى بقردة، فاجتمع القرود عليهما فرجموهما حتى ماتا»!!

عباد الله...

إن الزنا أمر قبيح حتى في عالم القرود!! فماذا نقول عن قوم يأتون الفاحشة جهارًا نهارًا؟!! إلى الله المشتكى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) «الإحياء» (٢/ ٤٦).

(٢) الكوة: فتحة في الحائط.

(٣) «الإحياء» (٢/ ٤٦).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والمدخل التاسع - الذي يُفْضي إلى فاحشة الزنا -: الزواج من الساقطات:

قال تعالى: ﴿الزَّانِي لاَ يَنكِحُ إِلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لاَ يَنكِحُهَا إِلاَّ زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣].

قال الألوسي: وفي هذا كله تقبيح لأمر الزنا ببيان أنه مقابل رضاه بالزنا لا يليق أن ينكح العفيفة المؤمنة، والزانية بعد أن رضيت بالزنا لا يليق أن ينكحها إلا من هو مثلها... فأمَّا المسلم العفيف فأسَدُ عَيْرَتِه يأبى ورود جفرتها» ا.هـ[١].

ولله دَرُّ القائل:

وتجتنبُ الأسودُ وُرودُ مَاءٍ إذا كان الكلابُ ولَغْنَ فِيهِ

فانتقاء الأرحام، والتَّخَيّر للنطف واجب على كل عفيف، والبحث عن الجمال المُعرَّى من الفضيلة والكمال، من أسباب السقوط في براثن الرذيلة، وتنكيس أعلام الشرف.

فإلى العفّة - **يا عباد الله** - إلى الكرامة، إلى الشرف، إلى النظافة، فإنه لا يدخل الجنة إلاّ نظيف.

اللهم اجعلنا من أحبّ خلقك إليك، ومن المقرّبين لديك

---

(١) «روح المعاني» للآلوسي (١٨/ ٨٤) باختصار. تنبيه: لا يجوز لمشرك أن يتزوّج بمسلمة.

الخطبة الثالثة والأربعون

[جـ] أسباب الزنا

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإِنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعّمين في ظلّ العرش وهو: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».. وانتهينا في الجمعة الماضية من الحديث عن المدخل التاسع - من المداخل التي تُفضي إلى جريمة الزنا -: ونواصل اليوم - بإذن الله - الحديث عن بقية المداخل:

المدخل العاشر: خضوع المرأة بالقول عند محادثة الرجال:

قال تعالى: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢].

فالإسلام يقطع الطرق على ضعاف النفوس، وأصحاب القلوب المريضة لأن آلتهم السمعية جاهزة لالتقاط الموجات الصوتية فتحدث الذبذبة القلبية، فتقع الجرائم الاجتماعية، والنبي ﷺ قال: «... **والأذنان زناهما الاستماع**» رواه البخاري ومسلم.

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ**﴾ [الأحزاب: ٣٢]: «معنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم أي: لا تخاطب المرأة الأجانب كما تخاطب زوجها» ا.هـ[١].

عباد الله...

والمدخل الحادي عشر - الذي يُفضي إلى فاحشة الزنا -: وصف الزوجةُ المرأةَ لِزَوْجِها كأنَّهُ يَرَاها:

وذلك خشية ميل القلب نحوها، وكم من بيوت خربت، وأُسَرٍ شُرِّدت بسبب ذلك، والشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا تُباشِرِ المرأةُ المرأةَ فتصفها لِزَوْجِها كأنه ينظر إليها**»[٢].

والمدخل الثاني عشر: هجر الزوجة:

هجر الزوجة بالإيلاء[٣] أو السفر بغير إذنها وبقاء الزوج في غربته عامًا أو يزيد، ولا يتيسر له أخذ زوجته معه، قد يؤدي إلى أوخم العواقب، وقد يؤدي إلى ضياع الأولاد وفتنة الزوجة، ما نقرأ ونسمع، والإسلام الحنيف منع أن يهجر الرجل أكثر من أربعة أشهر قال الله تعالى: ﴿**لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة: ٢٢٦، ٢٢٧]، فإما

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٣/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) **الإيلاء**: هو الامتناع باليمين من وطء الزوجة، وقد كان الرجل في الجاهلية يَحْلِف ألاّ يمسَّ امرأته السَّنة، والسنتين، والأكثر من ذلك بقصد الإضرار بها، فيتركها معلَّقة، لا هي زوجة ولا هي مطلقة فوضع الإسلام حدًّا لهذا العمل الضار فوقته بمدة أربعة أشهر، فإما أن يجامعها ويعود إليها، وإما أن يطلق.

أن يعود لفراشها ويضاجعها وإمّا أن يطلِّق. وخرج عمر بن الخطاب رضي الله عنه ليلة فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليلُ واسْوَدَّ جانبه وأرقني ألا خليلا ألاعبه

فوالله لولا الله أنّي أراقبه لحُرِّك من هذا السرير جوانبه

ولكنني أخشى رقيبًا مُوكَلاً بأنفسنا لا يَفْتُرُ الدهرَ كاتبه

مخافةُ رَبِّي والحياءُ يَصُدُّني وإكرامُ بَعْلي أن تنالَ مراكبُه

فأسرع عمر إلى ابنته حفصة - رضي الله عنها - وسألها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: ستة أشهر أو أربعة أشهر، فقال عمر: لا أحبس أحدًا من الجيوش أكثر من ذلك.

وأتت امرأة إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقالت: يا أمير المؤمنين: إن زوجي يصومُ النهار، ويقوم الليل، وأنا أكره أن أشْكوهُ وهو يعمل بطاعة الله ﷻ، فقال لها: نعم الزوجُ زوْجك، فجعلت تكرِّر هذا القول ويكرر عليها الجواب، فقال له كعبٌ الأَسَديّ: يا أمير المؤمنين، هذه المرأة تشكو زوجها في مباعدته إياها عن فراشه، فقال عمر: كما فَهِمْت من كلامها فاقض بينهما، فقال كعب: عليَّ بزوجها فأُتِيَ به، فقال له: إن امرأتك هذه تشكوك. قال: أفي طعام أو شراب؟ قال: لا، فقالت المرأة:

يا أيها القاضي الحكيمُ رِشْدهُ أَلْهَى خليلي عن فراشي مَسْجدُهْ

زهَّده في مضجعي تعبُّدُهْ فاقْض القضاء، كعبُ، ولا تُرَدِّدُهْ

نهارُهُ وليلُ ما يَرْقُدُهْ ولستُ في أَمْر النساء أحْمَدُهْ

فقال زوجها:

زهَّدني في النساء وفي الحَجَلْ أنِّي امرؤٌ أَذْهَلَني ما نَزَلْ

في سورة النَّحْلِ وفي السَّبْعِ الطُّوَلْ وفي كتابِ الله تخويفٌ جَلَلْ

فقال كعب:

إن لهـا علـيك حقًّـا يـا رجـلْ نـصيبُها في أَرْبـعٍ[١] لِمَـنْ عَقَـلْ

فأَعْطِهـا ذَاكَ ودَعْ عـنك العِلَـلْ

ثم قال: إن الله ﷻ قد أحل لك من النساء مثنى وثلاث ورباع، فلك ثلاثة أيام ولياليهن تَعبدُ فيهنَّ ربَّك، فقال عمر: والله ما أدري من أيِّ أمْرَيك أعجب؟ أمِنْ فهمك أمْرَهُما، أم من حُكْمِك بينهما! اذْهب فقد وليتك قضاء البصرة.

وكما نظر الإسلام في حق المرأة من هذا الاتجاه نظر إلى حق الرجل أيضًا فقال ﷺ: «**إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فلم تأته لعنتها الملائكة حتى تصبح**» متفق عليه.

وفي رواية في «صحيح مسلم»: «**إذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها فتأبى عليه إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يَرْضى عنها زوجها**».

عباد الله...

والمدخل الثالث عشر: إهمال الزَّوْجَيْن في التزيّن:

منَ صفات المرأة المسلمة، إذا نظر إليها زوجها سَرَّته، فلا تسقط عينهُ منها على قبيح، ولا يَشم منها إلا أطيب ريح، وهذا من حسن تبعل المرأة لزوجها الذي يعدل فروض الإسلام، لأنه يصون نظر الزوج عن المحرّم ويحفظ فرجه من التطلع إلى غير زوجته، وكما أن الزوج يحب من زوجته ذلك، فالمرأة تحب أيضًا أن يكون زوجها حسن الهيئة طيب الريح.

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - إني لأتزين لامرأتي كما تتزَّين لي، وما أُحبُّ أن أستَنْظِف[٢] كلَّ حقي الذي لي عليها، فتستوجب حقها الذي لها عليّ، لأن الله تعالى قال: ﴿**وَلَـهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾ [البقرة: ٢٢٨].

قال القرطبي في قول ابن عباس هذا: قال العلماء: «أما زينة الرِّجال فعلى تفاوت

(١) قال الإمام الغزالي: «وينبغي أن يأتيها في كل أربع ليال مرّة، فهو أعدل، نعم ينبغي أن يزيد أو ينقص حسب حاجتها في التحصين، فإن تحصينها واجب عليه» ا.هـ.

(٢) **أستنظف**: آخذ الحق كُلَّه.

أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على اللِّيق[١] والوفاق، فربما كانت زينة تليقُ في وقت، ولا تليق في وقتٍ، وزينة تليق بالشباب، وزينة تليق بالشيوخ ولا تليق بالشباب».

قال: «وكذلك شأن الكسوة، ففي هذا كُلّه ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل اللائق والوفاق، ليكون عند امرأته في زينة تَسرُّها، ويعفها عن غيره من الرجال، وأما الطِّيبُ، والسواك، والخلال، والرَمْي بالدَرَن[٢]، وفضول الشعر، والتطهر، وقلمُ الأظفار، فهو بَيِّن، موافق للجميع، والخضاب للشيوخ، والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة، وهو حُلِيُّ الرجال، ثم عليه أن يتوخّى أوقات حاجتها إلى الرجال فيُعفّها، ويُغْنيها عن التطلع إلى غيره، وإن رأى الرجلُ من نفسه عَجْزًا عن إقامة حَقِّها في مضجعها، أخذ من الأدوية التي تزيد في باهِهِ، وتُقَوِّي شهوتهُ حتى يُعفَّها»[٣] - شريطة أن تكون أدوية مباحة.

عباد الله...

سُدّوا المداخل التي يَتَسَلّل منها الشيطانُ ليلوّث أعراضكم، ويهيج شهواتِكم. واسمعوا إلى تعاليم دينكم، تسعدوا في الدنيا والآخرة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والمدخل الرابع عشر - من المداخل التي قد تُفضي إلى جريمة الزنا -: إهمال التربية:

إذا نشأ الطفل لا يعرف دينه، ولا آداب الاستئذان، ولا مراقبة الله، وتربى على

---

(١) **الليق**: اللياقة، وقال عمر بن الخطاب: «لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم، فإنه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن».
(٢) **الدرن**: الوسخ.
(٣) «تفسير القرطبي» (٣/ ١١٥، ١١٦) باختصار.

مشاهدة الرذائل، وفَطُم على سماع الأغاني، وشب على إهمال دينه وإسقاط فرائض الله، وكان الآباء كما قال الشاعر:

قد أرضعوا الأولاد في المهد الحرامْ ... قد علموهم فُحْشَهم قبل الكلامْ

قد هدهدوهم بالغناء بالخَنَا ... بل بالفسوق والأذى عند المنامْ

حتى إذا شَبُّوا فماذا يصنعون؟

فالبدايات تحكي النهايات، سيجني الآباء ثمار زرعهم، ويفلت الزمام حتمًا من أيديهم، ثم يكون الندم! وكم من أعراض انتهكت بسبب هذا التساهل المقيت، والتسيُّب اللعين.

نعب الغُرابُ بما كرهت ... ولا إزالة للقدرْ

تبكي وأنت قتلتها! ... اصبرْ وإلا فانتحرْ

أيها الآباء...

إنِ الغرب الملحد متربص بنا كما قال تعالى: ﴿**وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة: ٢١٧]، في محاولة لسلخنا من هويتنا وتجريدنا من عقيدتنا، فلا نعرف من الإسلام إلا اسمه ولا من المصحف إلا رسمه، ولكن نعرف أهل العشق والفسق، فلا نحمل للجهاد راية ولا نعرف لِخَلْقِنا غاية.

اللَّهُمَّ إنا نسألكَ مُوجبات رَحْمتك، وعزائِمَ مَغْفِرَتِك، والغنيمة من كل برٍّ، والسّلامةَ مِنْ كُلِّ شَرٍّ، والفوزَ بالجنة، والنجاةَ من النّارَ.

الخطبة الرابعة والأربعون

[د] أسبابُ الزنا

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعَمين في ظل العرش وهو: «رَجُلٌ دَعَتْهُ امرأةٌ ذاتُ مَنْصِب وجمال فقال: إني أخاف الله»: وانتهينا في الجمعة الماضية من الحديث عن المدخل الرابع عشر - من المداخل التي تُفضي إلى فاحشة الزنا -: واليوم - بإذن الله تعالى - نتكلّم عن بقية المداخل، سائلاً المولى - تبارك وتعالى - أن يُجَنِّبَنَا وإياكم منكرات الأخلاق..

عباد الله...

والمدخل الخامس عشر - من المداخل التي قد تُفضي إلى فاحشة الزنا -: الغناء والموسيقى:

عرف أعداء الإسلام ما للأغاني من تأثير على النفوس، فأسرعوا للسيطرة على المغنين والمغنيات، وواضعي الألحان، ومؤلفي كلمات الأغنية العاطفية والمضحكة!! وغيرها، وعملوا على تجنيدهم بالمغريات المختلفة لتوجيه ما يقدمونه من الأغاني توجيهًا يخدم أهداف الغزو الفكري، والنفسي والسلوكي الذي يقومون به ضد الإسلام والمسلمين.

وعجيب أمر أولئك الذي يبيحون الغناء ويجيزونه مع ما فيه من فحش القول ومنكره، من تمجيد صاحب العيون الجريئة، وسَبّ القَدَر!! والدعوة إلى العشق والغرام والهيام، وإشاعة الزنا والخنا، وتمجيد السُّكْر، وإثارة الشهوات والعصيان والنُّعرات، وها هي ذي صرخات ياه ويوه وييه!! تعجّ بها إذاعات العالم.

أيها النيام: إنا لا نجد أثرًا في أغاني اليوم لما وضعتموه من قيود وشروط للقول بالحل، فها هو ذا الرجل يفتتن بالمغنية المتبرجة، بل يقفز نحوها ليمرغ وجهه على قدمها!!

ثم ما هو الرأي في مغنيات اليوم على كثرتهن وحالهن الذي لا يخفى على إنسان وصفه، أيحلّ هذا؟

وها هو الوقت يضيع كله أو جلّه في اللهو والصخب، وانشغل الناس عن الصلوات وأداء الواجبات، وانتشرت على ألسنة الأطفال والشباب والنساء والرجال شيوخًا وكهولاً من جرَّاء تلك العبارات البذيئة والقفشات الدنيئة، والعصبيات الجاهلية، ووهنت العزائم وتميّعت النفوس وتعطلت الطاقات وانتشر التخنث، ويا ليت قومي يعلمون، وقد أمر ربنا ﷻ في شريعته المحكمة بإغلاق الأبواب المفضية إلى الفساد وقطع الأسباب المؤدية إليه فهلاً وضح هؤلاء ذلك وبينوه[1]؟!!

---

(١) «تذكير الساهي بما ورد في ذم الغناء والملاهي» لعماد صابر (٦ - ٨) باختصار.

أيها المسلمون...

الأدلة على تحريم الغناء كثيرة، والأحاديث الواردة في ذم الغناء كثيرة وليست كلها «مثخنة بالجراح» كما يقول البعض!! ومن أدلة التحريم:

١- قال الله تعالى: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤]، صح عن مجاهد قوله: الغناء والمزامير[١].

٢- وقال تعالى: ﴿أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ * وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾ [النجم: ٥٩- ٦١]. قال ابن عباس: ﴿وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾، قال: السُّمُود: الغناء في لغة حِمْيَر، يقال: اسمدي لنا: أي غنِّي لنَا[٢].

٣- وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [لقمان: ٦]. قال ابن مسعود رضي الله عنه: « هو والله الغناء» ورددها ثلاث مرات[٣].

٤- وروى البخاري في «صحيحه» تعليقًا ووصله أبو داود الإسماعيلي والبخاري في «تاريخه» أن النبي ﷺ قال: «**ليكونن في أُمتي أقوام يستحلون الحر، والحرير، والخمر، والمعازف**». والحر: هو الفرج والمراد منه الزنا، ولا تلتفت إلى أعاجيب هذا الزمان، وقول من قال: إن المعازف لا تحرم إلا إذا كانت مجتمعة مع الخمر والزنا!! فإنها مجازفة على غير هدًى، ولا بيِّنة.

٥- وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «**صوتان ملعونان في الدنيا والآخرة. مزمارٌ عند نعمة، ورنَّة عند مصيبة**»[٤]. وفي رواية عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لم أنه عن البكاء، ولكنِّي نهيت عن صوتين أحمقَين فاجرين: صوت عند نعمة لهو، ولعب ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة، لطم وجوه، وشق جيوب، ورنة شيطان**» رواه الحاكم (٤/ ٤٠) والترمذي مختصرًا.

---

(١) «الرد على من يحب السماع» لأبي الطيب الطبري (٣٥).

(٢) **أثر صحيح**: عن ابن عباس، وعكرمة، وانظر: «الرد على من يحب السماع» (٣٤).

(٣) **أثر صحيح**: رواه الحاكم (٢/ ٤١١)، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي وابن القيم والألباني.

(٤) **صحيح**: رواه البزار في «مسنده» وقال الألباني: «صحيح» «تحريم آلات الطرب» (٥٢).

٦- وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حَرَّم عليّ - أو حَرّم - الخمر والميسر، والكوبة، وكل مسكر حرام**»(١). والكوبة: هي الطبل كما جاء مفسرًا في حديث ابن عباس وابن عمر.

٧- وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ﷻ حَرَّم الخمر، والميسر، والكوبة، والغبيراء، وكل مسكر حرام**»(٢). والغبيراء: شراب مُسْكر يتخذ من الذرة.

٨- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في أمتي قذف ومسخ وخسف**» قيل: يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال: «**إذا ظهرت المعازف، وكثرت القيان، وشربت الخمور**»(٣)، أخرجه الترمذي في «الفتن» رقم (٢٢١٣).

٩- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النّبيَّ ﷺ «**نهى عن ثمن الكلب وكسب الزّمَّارة**» رواه البغوي في «شرح السنة» برقم (٢٠٣٨).

١٠- وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «**لا تبيعوا القينات ولا تشتروهن، ولا تعلموهن، ولا خير في تجارة فيهن، وثمنهن حرام**»(٤) في مثل هذا أنزلت هذه الآية: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٦].

١١- عن أم علقمة مولاة عائشة - رضي الله عنها - أن بنات أخي عائشة - رضي الله عنها - خُفِضْن، فأَلِمْنَ لذلك، فقيل لعائشة: يا أمَّ المؤمنين! ألا ندعو لهُنَّ من يلهيهنّ؟ قالت: بلى، قالت: فأرسلت إلى فلان المغني، فأتاهم، فمرَّت به عائشة - رضي الله عنها - في البيت، فرأته يتغنى ويحرّك رأسه طربًا، وكان ذا شعر كثير، فقالت عائشة

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود وأحمد وصححه الألباني وأحمد شاكر «تحريم آلات الطرب» (٥٦).

(٢) **صحيح لطرقه**: أخرجه أبو داود وأحمد وغيرهما، وصححه الألباني في «تحريم آلات الطرب» (٥٨).

(٣) **رجاله ثقات**: غير عبد الله بن عبد القدوس، قال الحافظ: «صدوق» رمي بالرفض وكان يخطئ. قال الألباني: «رفضه لا يضرّ حديثه، وخطؤه مأمون بالمتابعات أو الشواهد التي تؤيد حفظه» «تحريم آلات الطرب» (٦٣، ٦٤).

(٤) **حسن**: «صحيح سنن الترمذي» (١٠٣١).

- رضي الله عنها -: «أفٍّ! شيطان، أخرجوه، أخرجوه» فأخرجوه[١].

١٢- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «الغناء ينبت النفاق في القلب»[٢].

والآثار الواردة في تحريم الغناء كثيرة ومستفيضة وفيما قدمناه الكفاية.

أيها المسلمون...

فما حكم الإسلام في الغناء بدون آلة؟

أولاً: روى البخاري ومسلم وغيرُهما عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: دخل أبو بكر وعندي جاريتان من جواري الأنصار، تغنيان بما تقاولت الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين، فقال أبو بكر: أمزامير الشيطان في بيت رسول الله ﷺ، وذلك في يوم العيد - فقال رسول الله ﷺ: «**دعهما يا أبا بكر إن لكل قومٍ عيدًا، وإن عيدنا اليوم**».

ومن فقه الحديث:

أ- أن الغناء والمعازف حرام، وقد علم بذلك الصِّدِّيق ولذلك بادر بالإنكار، وسكت عن إنكاره الرسول ﷺ، كما سكت عن تسميته للغناء مزمار الشيطان، ورخّص فقط في ذلك للعيد.

ب- يُرخَّص للجواري وهن صغيرات السن وغيرهن بالغناء في الأعياد والأفراح فقط، والغناء من النساء للنساء ولا يسمعه الرجال، ولأن الغناء والضرب بالدّف، والكفّ من عمل النساء، ومن يفعله من الرجال أطْلق عليهم أهل السلف بأنهم المخنثون.

وإذا سمعه الرجال من النساء حَرُم ذلك، ولا يخفى حتى على البليد لما في ذلك من الفتن.

---

(١) **أثر حسن**: أخرجه البيهقيّ (١٠/ ٢٢٣، ٢٢٤)، وصححه الحافظ ابن رجب في «نزهة الأسماع» (ص ٥٥)، وحسنه الألباني.

(٢) **أثر صحيح**: رواه ابن أبي الدنيا في «ذمّ الملاهي» (ق ٤/ ٢)، وقال الألباني: صحيح. رجاله ثقات.

ثانيًا: عن أنس بن مالك أنه دخل على أخيه البراء وهو مُسْتلقٍ، واضعًا إحدى رجليه على الأرض يتغنَّى، فنهاه، فقال: أترهب أن أموت على فراشي وقد تفرَّدت بقتل مائة من الكفَّار سوى من شَرَكني فيه الناس(١)؟

ثالثًا: عن عبد الله بن الحارث بن نوفل قال: رأيتُ أُسامة بن زيد رضي الله عنه جالسًا في المجلس، رافعًا إحدى رجليه على الأخرى رافعًا عقيرته، قال: حسبتُه يتغنّى النصْب(٢).

والنصب: ضرب من أغاني الأعراب، وهو يشبه الحداء، قاله أبو عبيدة الهروي.

قال الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى -: «وفي هذه الأحاديث والآثار دلالة ظاهرة على جواز الغناء بدون آلة في بعض المناسبات، كالتذكير بالموت، أو الشوق إلى الأهل والوطن، أو الترويح عن النفس، والالتهاء عن وعثاء السفر ومشاقه، ونحو ذلك، ممّا لا يُتخذ مهنة، ولا يُخرج به عن حَدّ الاعتدال، فلا يقترن به الاضطراب والتثنِّي والضرب بالرِّجل مما يخلّ بالمروءة»(٣).

عباد الله...

والمدخل السادس عشر: مشاهدة الأفلام الهابطة:

فمشاهدة الأفلام التي تعرض الرذيلة، وتهيّج الشهوة، وتؤجّج نار الفاحشة، من أسباب الزنا. وهذا لا يخفى كما هو معلوم. وقد تقدّم - معنا - أن البصر هو الباب الأكبر إلى القلب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**كُتِبَ على ابْنِ آدم نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، فهو مُدْرِكُ ذلك لا مَحَالة، فالعينان: زناهما النَّظَر، والأذنان: زناهما الاستماع، واللسان: زناه الكلام، واليدُ: زَنَاها الْبَطْش، والرجلُ: زنَاها: الخُطَى، والقلبُ يَهْوَى**

---

(١) صحيح: أخرجه الحاكم (٣/ ٢٩١)، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والألباني.

(٢) صحيح: أخرجه عبد الرزّاق (١٩٧٣٩)، وقال الألباني: إسناده صحيح.

(٣) «تحريم آلات الطرب» (١٢٩).

وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذلك الْفَرْجُ، أو يكَذِّبُهُ»[١].

نسأل الله تعالى أن يُحصِّن فروجنا، وأن يستر عوراتنا، وأن يطهِّر قلوبنا.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والمدخل السابع عشر - من المداخل التي قد تُفضي إلى جريمة الزنا -: الاستخدام السَّيِّئ للتليفون «الهاتف»:

والهاتف: من المخترعات المفيدة، ومن حاجات العصر الحديث. فهو يوفّر الأوقات، ويقصّر المسافات، ويصلك بجميع الجهات، ويمكن أن يستخدم في الأعمال الصالحات، كإيقاظ لصلاة الفجر، أو سؤال شرعي، واستحصال فتوى، ومواعدة أهل الخير، وصلة الرحم، ونصح المسلمين.

ولكنه في الوقت نفسه وسيلة لأمور من الشرّ عديدة، وكم كان الهاتف سببًا في تدمير بيوت بأسرها، وإدخال الشقاء على سكانها أو جرِّهم إلى مهاوي الرذيلة والفساد! وتكمن الخطورة في سهولة استخدامه، وأنه منفذ مباشر من خارج البيت إلى داخله.

ومن استخدامه في الشر:

١- ما يحدث بواسطته من المعاكسات المزعجة.

٢- تعرف المرأة بالرجل الأجنبي، وتطور العلاقة.

٣- ما يحدث فيه من إفساد المرأة على زوجها أو الزوج على زوجته، أو تأليب الأب على أولاده، وبناته والعكس، وذلك نتيجة مكالمات من النمّامين والمخببين، مبنية على

---

(١) رواه مسلم.

الحسد وحبّ الشرّ والتفريق.

٤- ضياع الأوقات والأموال في المحادثات التافهة المُسبِّبة لقسوة القلب، والالتهاء عن ذكر الله، وخصوصًا بين النساء.

ومن الحلول في قضايا الهاتف:

١- متابعة ووعظ من يسيء استعماله، من داخل البيت وخارجه.

٢- الحكمة في الرَّد.

٣- إذا جاءنا خبر في مكالمة من مجهول عرضناها على كتاب الله ﷻ ونفذنا أمر الله ﴿فتبينوا﴾.

٤- التربية الإسلامية كفيلة بجعل استخدام هذا الجهاز صحيحًا ولو غاب الوليّ والرّاعي.

٥- وآخر الدواء «الكيّ» يفصل الحرارة إذا صار إثمه أكبر من نفعه[1].

عباد الله...

هذه بعض المداخل التي قد تُفضي إلى فاحشة الزنا، فاحذروها، وإياكم وإيّاها.

اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا.

يا مَنْ سَترتَ الزَّلاَّت، وغفرت السَّيِّئات

ارحم عبادًا غَرَّهُم طولُ إمْهَالِك، وأطْمَعَهُم كَثْرَةُ أَفْضالِك، وَذلَّوا لِعزِّك وَجَلالك.

(١) «أخطار تهدد البيوت» (٢٩، ٣٠).

الخطبة الخامسة والأربعون

أضرار الزنا

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعّمين في ظلّ العرش وهو: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».

عباد الله...

ومما يعين على العفّة، معرفة أضرار الزنا الدنيوية والأخروية. **فما هي أضرار الزنا الدنيوية، وما هي أضرار الزنا الأخروية؟**

أما أضرار الزنا الدنيوية:

١- أن الزنا سَلَف وَدَيْن:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عِفُّوا عن نساء الناس تَعِفُّ نساؤكم، وبُّروا آباءَكم تَبرُّكم أبناؤكم...**» وفي رواية عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**بِرُّوا آباءكم تَبَرُّكم أبناؤكم، وعِفوا تعِفُّ نساؤكم**» رواه الطبراني بإسناد حسن، وقال الإمام الشافعي:

عِفُّوا تعفُّ نساؤكم في المحْرمِ	**وتجنبوا ما لا يليقُ بمسلم**
إن الزنا دَيْنٌ فإن أقرضتَهُ	**كان الوفا من أهل بيتك فاعْلَم**
من يَزْن يُزْن به ولو بجداره	**إن كنتَ يا هذا لبيبًا فافْهَم**

وفي تفسير «روح المعاني»: حُكي أن رجلاً سقَّاءً بمدينة «بخارى» كان يحمل الماء إلى دار صائغ مدة ثلاثين سنة، وكان لذلك الصائغ زوجة صالحة في نهاية الحُسْن والبهاء، فجاء السّقاء يومًا على عادته وأخذ بيدها وعزّها[1]!! فلما جاء زوجها من السوق قالت: ما فعلتَ اليوم خلاف رضا الله تعالى؟ فقال: ما صنعتُ شيئًا، فألحت عليه، فقال: جاءت امرأة إلى دكاني، وكان عندي «سوار»[2] فوضعته في ساعدها فأعجبني بياضها فعصرتها، فقالت: الله أكبر هذه حكمة خيانة السّقاء اليوم، وقصت عليه القصة وفي رواية: أنها قالت له: «دقة بدقة ولو زدت لزاد السَّقا!!».

فقال الصائغ: أيتها المرأة إني تبتُ فاجعليني في حلٍّ فلما كان الغد جاء السقاء وقال: يا صاحبة المنزل اجعليني في حِلٍّ فإن الشيطان قد أضلني، فقالت: امض فإن الخطأ لم يكن إلا من الشيخ الذي في الدكان، فإنه لما غيَّر حاله مع الله بمسّ الأجنبية غيَّر الله حاله معه بمسّ الأجنبي زوجته!!

وأتى شاب إلى النبيِّ ﷺ فقال: يا نبي الله أتأذن لي في الزنا؟ فصاح الناس به، فقال النبي ﷺ: «**قربوه، ادْن**» فدنا حتى جلس بين يديه.. فقال له النبي ﷺ: «**أتحبه لأمك؟**»

(١) عَزَّها: مسّها بشهوة.

(٢) السّوار: أسورة تلبس في معصم اليد.

قال الشاب: لا، جعلني الله فداك، قال النبي ﷺ: «**كذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، أتحبه لابنتك؟**» قال الشاب: لا، جعلني الله فداك، فقال النبي ﷺ: «**كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، أتحبه لأُختك؟**» حتى ذكر العمة والخالة، وهو يقول في كل مرة: لا، جعلني الله فداك، والنبي ﷺ يقول: «**كذلك الناس لا يحبونه**» ثم وضع رسول الله يده على صدر الشاب، وقال: «**اللهم طهِّر قلبه، واغفر ذنبه، وحصِّن فرجه**» فلم يكن شيء أبغض إليه من الزنا.

٢- إقامة الحَدّ على الزاني:

فقد خصَّ الله تعالى حَدَّ الزاني من بين الحدود بثلاث خصائص:

الأولى: القتل فيه بأشنع القتلات في حالة الزاني «المحصن» وعندما يكون جلدًا - أي للزاني غير المحصن - فقد جمع فيه بين العقوبة على البدن بالجلد وعلى القلب بتغريبه عن وطنه سنة.

الثانية: نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن تأخذهم بالزناة رأفة في دين الله عند إقامة الحد.

الثالثة: أنه تعالى أوجب عِليهما الفضيحة رغم أنه تعالى «سِتِّير» يحب الستر والعفو، لكن لقبح الزنا وبشاعته أوجب ذلك ردعًا للغير، فأمر أن يكون الحَدّ بمشهد من المؤمنين، ولا يكون في خلوة بحيث لا يراها أحد وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر[(١)]، فإن الله تعالى جعل الحدود زواجر وجوابر، قال تعالى: ﴿**وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[(٢)] [النور: ٢]، وقال ﷺ: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثَّيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**» متفق عليه.

٣- تدنيس العِرْض والشرف:

فإن المرأة إذا زنت أدخلت العار على أهلها وزوجها وأقاربها، ونكست رؤوسهم بين الناس، وإن حملت من الزنا، فإن قتلت ولدها جمعت بين الزنا والقتل، وإن حملته على الزوج أدخلت على أهلها وأهله أجنبيًّا ليس منهم، فورثهم وليس منهم، ورآهم

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد.

(٢) «الداء والدواء» لابن القيم (١٨٤، ١٨٥) باختصار.

وخلا بهم وانتسب إليهم وليس منهم.

قال ﷺ: «**أيما امرأة أدخلت على قوم من ليس منهم فليست من الله في شيء ولن يدخلها الله جنته، وأيما رجل جحد ولده وهو ينظر إليه احتجب الله عنه، وفضحه على رؤوس الخلائق من الأولين والآخرين**» رواه أبو داود والنسائي وغيرهما.

وأما زنا الرجل فإنه يوجد اختلاط الأنساب أيضًا، وإفساد المرأة المصونة، وتعريضها للتلف والفساد، ففي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين، وإن عمرت القبور في البرزخ والنار في الآخرة، فكم في الزنا من استحلال الحرمات، وفوات حقوق، ووقوع مظالم!

٤- نزول العذاب:

فعن ميمونة - رضي الله عنها - قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**لا تزال أمتي بخير ما لم يَفْشُ فيهم ولد الزنا، فإذا فشا فيهم ولد الزنا فأوشكَ أن يعمهم الله بعذاب**»[(١)].

وعن ابنِ مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما ظهر في قوم الزنا والرِّبا إلا أحلُّوا بأنفسهم عذاب الله**»[(٢)].

٥- ضياع الأنساب واختلاطها:

في الزنا ضياع الأنساب واختلاطها، وتمليك الأموال لغير أصحابها عند التوارث، وقد قال النبي ﷺ فيمن يخلط النسب حينما أراد رجل أن يطأ جارية، وكانت حاملاً فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «**لقد هممت أن ألعنه لعنًا يدخل معه قبره، كيف يورثه وهو لا يحل له، كيف يستخدمه وهو لا يحلُّ له**» رواه مسلم.

قال ابن القيم: يعني إن استلحقه وشركه في ميراثه لا يحل له لأنه قد شرك فيه لكون الماء يزيد في الولد، ثم قال: وفي هذا دلالة ظاهرة على تحريم نكاح الحامل[(٣)].

---

(١) **إسناده حسن**: رواه أحمد، وحسنه المنذري «الترغيب» (٣٥٥٧).

(٢) **إسناده جيد**: رواه أبو يعلى، وجوّد إسناده المنذري «الترغيب» (٣٥٥٨).

(٣) زاد المعاد (٥/ ١٥٥).

فإذا كان نكاح الحامل محرمًا سواء كانت حرّة فتزوجها أو من السبايا فوطأها، فما بالك إذا زاد الطين بللاً فزنى، والزاني لا يُفتِّش فيمن يزني بها، وهي إما أن تحمل منه فتدخل على قومها من ليس منهم، وإمّا أن تكون حاملاً فماء الزاني يزيد في ولدها، وإما لا يُعلم أمِن زوجها الحمل أم من غيره، ومن هنا تختلط الأنساب والنطف.

٦- هز كيان الأسرة:

فالزنا يفسد نظام البيت، ويهز كيان الأسرة، ويقطع العلاقة الزوجية، ويعرّض الأولاد لسوء التربية مما يتسبب عنه التشرد والانحراف والجريمة، كما أنه يجلب المعرّة، ويشيع الفوضى، ويكثر اللقطاء.

٧- القتل أحيانًا:

فالزنا أحد أسباب جريمة «القتل» فقد لا يجد الغيور على عرضه وسيلة يغسل بها العار الذي لحقه ولحق أهله إلا سفك الدم... وقد يشعل النار في زوجته... أو تنفذ ضد الزوج الجريمة باشتراك الزوجة الخائنة مع عشيقها!!... الخ[1].

٨- خراب العالم:

فظهور الزنا من أمارات خراب العالم ففي «الصحيحين» من خطبة رسول الله ﷺ في «صلاة الكسوف» أنه قال: «**يا أُمة محمد، والله إنه لا أحد أغير من الله أن يزني عبده أو تزني أمته، يا أُمة محمد والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا**» ثم رفع يديه وقال: «**اللهم هل بلغت؟**».

قال الإمام ابن القيم: «وفي ذِكْر هذه الكبيرة بخصوصها عقب صلاة الكسوف سِرّ بديع لَمن تأمله، وظهور الزنا من أمارات خراب العالم» ا.هـ.

وعن أنس بن مالك قال: لأحدثنكم حديثًا لا يُحدِّثكموه أحد بعدي سمعته من النبيِّ ﷺ : «**إن من أشراط الساعة أن يرفع العِلْم، ويظهر الجهل، ويُشرب الخمر، ويظهر الزنا، ويقلّ الرجال وتكثر النساء حتى يكون لخمسين امرأة القيّم الواحد**» متفق عليه.

---

(١) وقد تعتدي على جنينها الذي جاء نتيجة العلاقة الآثمة.

٩- نزول البلاء وانتشار الأمراض:

فالزنا سبب مباشر في الإصابة بالأمراض الخطيرة التي تفتك بالبدن، وتنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء، وأبناء الأبناء.

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال: أقبل علينا رسولُ الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين: خمسُ خصال إذا ابتليتم بهنَّ، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قطٌّ حتى يُعْلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مَضْوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنِّين، وشدَّة المئونة، وجَوْر السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا مُنعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلاَّ سلط الله عليهم عَدوًّا من غيرهم فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله تعالى، ويتخيَّروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم**»[(١)].

ويقول الدكتور/ محمد بكر إسماعيل: «والزنا ينبوع لأخبث الأمراض وأشدها فتكًا بجسم الإنسان، ومن أخطرها الزهري»، و«السيلان»، و«القرحة الرخوة»، و«القرحة الأكالة» وغيرها.

الزهري:

أما الزهري فهو كما يقول الدكتور/ محمد وصفي: فإنه ثالث مرض في العالم منوط به إزهاق النفوس وتضييع الأرواح، وأول مرض لا يريح المصاب بالموت حتى يتركه بحال يفتت الأكباد، ويذيب الأفئدة ممثلاً به شرّ تمثيل.

هذا الداء ينتشر في العالم بانتشار فاحشة الزنا، وهذا المرض يعدي بمجرد اللمس عن طريق الزنا أو بمجرد تقبيل المصاب غيره أو ملامسته، وتسببه جرثومة خاصة تسمَّى «الإسبيروشيت باليدا» ولعلّ أقبح الهدايا التي يقدمها الزاني إلى ذريته التعسة ويبليهم بها هي الزهري الوراثي، وإن خطره على النسل ليهدد العالم بشر مما تهدده به الحروب الذرية!!

---

(١) حسن: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤٦) .

السيلان:

والسيلان - كما يقول الدكتور/ محمد وصفي - من الأمراض الفتاكة التي تسببها كذلك هذه الفاحشة، ويسبب الداء جرثومة خاصة تسمى: «باجونوككس» وليس مرض «السيلان» بالعلّة الهينة السهلة، التي لا تسترعي الانتباه، بل هو من أكبر المعضلات الاجتماعية الخطيرة، التي حار في علاجها الأطباء والساسة والمشرعون فهو مرض فتّاك، يترك المصاب به في حالة من الألم والمرض، ما يعطل حركته، ويشلّ تفكيره، ويجعله في المجتمع عضوًا أشلّ، لا فائدة فيه، ولا نفع منه.

وذلك فوق ما تبتلى به النساء فيجعلهن مستودعًا خطرًا للعدوى، وأداة لتشويه النسل، والقضاء على الذرية.

ولقد ثبت أن كل امرأة اتصلت برجل مصاب بهذا الداء لابد أن تصاب هي الأخرى به لاستعدادها لقبول العدوى، ولقابلية جهازها التناسلي لاستقبال جراثيمه المَرضيّة، فتفتك به.

القرحة الرخوة:

والزنا فوق ما يسبب مَن الزهري، والزهري الوراثي، والسيلان، يعرض الأشرار كذلك للإصابة بالقرحة التي تسببها جراثيم خاصة تسمّى «باسلات دكري». ويكثر ظهورها في جسم القضيب، أو في الصفن، أو في العانة، أو عند فتحة الغلفة، أو عند تلاقي الحشفة بجسم القضيب، أو في الثنية تحت الحشفة.

وفي الإناث يكثر وجودها في الشفرين والشوكة والبطين والفخذين وقرب فتحة الشرج.

والقرحة سريعة العدوى[١].

التهاب البروستاتا الحاد والمزمن:

التهاب البروستاتا عقاب سماوي للشخص الذي أسرف على نفسه في ممارسة الرذيلة، لواطًا أو زنًا أو انغماسًا شديدًا في العادة السرية.

---

(١) «الفقه الواضح» (٢/ ٢١٨، ٢٢٤) بتصرف.

ونرى كثيرًا من الشباب الذين يسافرون إلى بلاد الكُفر والإباحية يرجعون مصابين بعدة أمراض منها: التهاب البروستاتا، والشعور بحرقان وصعوبة عند التبول، وسلس بولي، وآلام شبه مستمرة بالعضو الذكري، وسرعة القذف، وعدم الشعور بتفريغ المثانة كليًّا، هذا غير الإفرازات المنفرة، واضمحلال جنسي، وقد تؤدي إلى ارتخاء، وإلى العقم وفقدان الذرية.

وإذا استمرت الإصابة بالمرض لسنين عدة رغم العلاج فإن العامل النفسي يظهر ويؤدي إلى الشعور بالإحباط وعدم السعادة في الحياة، هذا وقد تصاب المثانة ومجرى البول، وقد يتوغل المرض ويصيب الحالبين والمثانة والكليتين وتكون النهاية الفشل الكلوي.

الإيدز:

كلمة إيدز بالإنجليزية والسيدا بالفرنسية وبالعربية «متلازمة العوز المناعي المكتسب» يعني فقدان جسم الإنسان القدرة على مقاومة الأمراض في المرحلة النهائية للعدوى حيث تنهار دفاعات الجسم الطبيعية ويصبح جسم الإنسان عرضة للإصابة بعديد من الجراثيم والفطريات والأورام.

وينتقل هذا المرض اللعين عن طريق الاتصال الجنسي المحرم بين الذكور والذكور «اللواط» وبين الذكور والإناث، وهناك عوامل وممارسات تزيد من خطر العدوى مثل تعدد قرناء السوء وأماكن البغاء التي يتردد عليها أكثر من شخص ويكون هناك من هو مصاب بينهم فتنتشر العدوى.

ونهاية هذا المرض الحتمية هي «الموت» والوقاية والتمسك بالطرق الشريفة المشروعة ومحاربة الفاحشة هو الحلّ والعلاج.

عباد الله...

هذه بعض أضرار الزِّنا الدنيوية، نسأل الله - تعالى - العفو والعافية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

أما أضرار الزنا الأخروية، فمنها:

١- ضياع الإيمان:

قال ﷺ: «إذا زنى العبدُ خرج منه الإيمانُ فكان على رأسه كالظلة، فإذا أقلع رجع إليه»[(١)].

وفي «الصحيحين» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...» الحديث.

٢- عذاب الآخرة:

عن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا صلى صلاة أقبل علينا بوجهه فقال: «من رأى منكم الليلة رؤيا؟» قال: فإن رأى أحد رؤيا قصها، فيقول: «ما شاء الله» فسألنا يومًا فقال: «هَلْ رأى أحد منكم رؤيا؟» قلنا: لا. قال: «لكني رأيتُ الليلة رجلين أَتَياني، فأخذا بيدي فأخرجاني إلى الأرض المقدسة، فإذا رجل جالس، ورجلٌ قائم بيده كلوبٌ[(٢)] من حديد، يدخله في شِدْقه حتى يبلغ قفاه، ثم يفعل بِشِدْقه الآخر مثل ذلك، ويلتئم شِدْقُه هذا، فَيعود فيصنع مثله.

قلتُ: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أَتَيْنا على رجل مضطجع على قفاه، ورجلٌ قائمٌ على رَأْسه بِفِهْر أو صَخْرة، فَيَشْدَخ به رأسَه، فإذا ضربه تَدَهْدَهَ[(٣)] الحجرُ، فانطلق إليه ليأخَذَه فلا يرجعُ إلى هذا حتى يلتئم رأسُه، وعاد رأسهُ كما هو، فعاد إليه فضربه.

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والحاكم، وانظر «صحيح الجامع» (٥٨٦).

(٢) **الكلوب**: الحديدة معوّجة الرأس، تسمّى بالخطاف.

(٣) **تدهده**: تدحرج.

قلتُ: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا إلى ثقب مثل التَّنُّور أعلاه ضَيِّق وأسفله واسع يتوقَّد تحته نار، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كادوا أن يَخْرجوا، فإذا خمدت رَجَعوا فيها، وفيها رجالٌ ونساء عُراة.

فقلت: من هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى أتينا على نهر من دَم، فيه رجل قائم، على وسط النهر، ورجل بين يديه حجارة، وعلى شط النهر رجل، فأقبل الرجلُ الذي في النهر، فإذا أراد أن يخرج رمى الرجلَ الذي على الشاطئ بحجرٍ، فجعل كلما جاء ليخرج رَمَى في فيه بحجر فيرجع كما كان.

فقلت: ما هذا؟ قال: قالا لي: انطلق، انطلق.

قال: فانطلقنا فأتينا على رجل كَريه المرآةِ كأكْره ما أنت راءٍ رجلاً مرْآة، وإذا عندها نارٌ يحشها ويسعى حولها.

قلت: ما هذا؟ قالا: انطلق.

فانطلقنا حتى انتهينا إلى روضة خضراء فيها شجرة عظيمة، وفي أصلها شيخ وصبيان، وإذا رجل قريب من الشجرة بين يديه نار، يوقدها، فصَعَدا بي في الشجرة وأدخلاني دارًا لم أَر قط أَحسنَ منها، فيها رجالٌ شيوخ، وشباب، ونساء، وصبيان، ثم أخرجاني منها فصعدا بي الشجرة فأدخلاني دارًا هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخ وشباب.

قلت: طوفتماني الليلة فأخبراني عمَّا رأيت؟

قالا: نعم، أما الذي رأيته يشق شِدْقُه فكذَّاب يُحدِّث بالكذبة فتحمل عنه حتى تبلغ الآفاق، فيُصنَع به ما رأيَتَ إلى يوم القيامة، والذي رأيته يُشدخ رأسه فرجل عَلَّمه الله القرآن، فنام عنه بالليل، ولم يعمل فيه بالنهار، يُفْعل به إلى يوم القيامة، والذي رأيتَه في الثَّقْب فهم الزناة، والذي رأيته في النهر آكلو الربا، والشيخ الذي في أصل الشجرة إبراهيم ومعه أولادُ الناس، والذي يوقِد النار مالك خازنُ النار.

والدارُ الأولى التي دخلتَ دارُ عامة المؤمنين، والدارُ الثانية دارُ الشهداء.

وأنا جبريل، وهذا ميكائيلُ، فارفع رأسَك، فرفعتُ رأسي، فإذا فوقي مثل السحاب، قالا: ذاك منزلُك.

قلت: دعاني أدخلْ منزلي.

قالا: إنه بقي لك عُمر لَمْ تستكمله، فلو استكملت أتيتَ منزلَك»(١).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بَيْنا أنا نائمٌ أتاني رجلان فأخذا بضَبَعيَّ، فأتيا بي جَبَلاً وَعْرًا، فقالا: اصْعَد، فقلتُ: إني لا أطيقه. فقالا: إنا سَنُسَهِّلُه لك، فصعدتُ حتى إذا كنت في سواء الجبل فإذا أنا بأصوات شديدة، فقلت: ما هذه الأصوات؟ قالوا: هذا عواء أهل النار.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم معلّقين بعَراقيبهم مشقَّقة أشداقُهم تسيل أشداقُهم دَمًا. قال: قلت: مَنْ هؤلاء؟ قيل: هؤلاء الذي يُفطرون قبل تَحِلَّة صَوْمهم.

ثم انطلق بي فإذا أنا بقوم أشد شيء انتفاخًا، وأَنْتَنَهُ ريحًا، وأسوأَهُ منظرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء قتلى الكفار.

ثم انطلق بي، فإذا أنا بقوم أشدِّ شيء انتفاخًا وأنتنه ريحًا كأنَّ ريحهُم المَرَاحِيض. قلتُ: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء الزانون.

ثم انطلق بي فإذا أنا بنساء تَنْهَشُ ثُدِيَّهُم الحيَّاتُ. قلت: ما بال هؤلاء؟ قيل: هؤلاء يَمْنَعن أولادهن أَلْبَانهن.

ثم انطلق بي فإذا بغلمان يلعبون بين نَهْرَيْن. قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذَرَاري المؤمنين.

ثم شَرَفَ بي شَرَفًا فإذا أنا بثلاثة يشربون من خَمْر لهم قلت: من هؤلاء؟ قال: هؤلاء جعفرٌ، وزيد، وابنُ رواحة.

ثم شَرَف بي شَرَفًا آخر فإذا أنا بنَفَر ثلاثةٍ: قلت: من هؤلاء؟ قال: هذا إبراهيم وموسى وعيسى وهم ينتظرونك»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمنُ الخمر، وقاطعُ الرحم، ومصدِّقٌ بالسِّحر، ومن مات مدمن الخمر

---

(١) رواه البخاري (٢/ ١٢٥، ١٢٦)، ومسلم (١٥/ ٣٥).

(٢) صحيح: رواه ابن حبان وابن خزيمة، في صحيحيهما واللفظ لابن خزيمة.

سقاه الله جل وعلا من نهر الغُوطة» قيل: وما نهرُ الغُوطة؟ قال: «**نهر يجري من فروج المومسات يؤذي أهلَ النار ريحُ فروجهم**»(١).

والمومسات هن الزانيات.

ايها المسلمون...

من أجل هذا حَذَّر النبي ﷺ أمته من السقوط في هاوية الشهوات، وخاف عليها من مُضلاَّت الهوى.

فعن أبي بَرْزة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إنما أخشى عليكم شهواتِ الغَيِّ في بطونِكم، وفروجِكم، ومضلاتِ الهوى**» رواه أحمد وغيره.

اللهم إنا نسألك العَفَافَ والْغِنَى.

اللهم أحْسِنْ عاقبتنا في الأمور كُلِّها، وأَجِرْنَا مِنْ خِزْيِ الدّنيا وعذابِ الآخرة.

---

(١) رواه أحمد وأبو يعلى. قال الهيثمي في «المجمع» (٥/ ٧٤): رجال أحمد وأبي يعلى ثقات.

الخطبة السادسة والأربعون

منزلة الخوف من الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلَّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فما زال الحديث موصولاً عن خامس المنعّمين في ظلّ العرش وهو: «**رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».

عباد الله...

تكلمنا فيما سبق عن المداخل التي قد تُفضي إلى الزنا، وتكلمنا كذلك عن أضرار

الزنا في الدنيا والآخرة.

هذا، ومن أقوى الأسباب المانعة من الوقوع في الزنا: «**الخوف من الله**». لذلك قال النبيّ ﷺ : «**ورجل دعته امرأةٌ ذاتُ منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**».

فما معنى الخوف؟ وما هي منزلته؟ وما هي ثمراته؟

هذا ما سوف نفصّله في خطبتنا هذه - إن شاء الله تعالى -.

أولاً: معنى الخوف:

الخوف: « عبارة عن تألّم القلب واحتراقه بسبب توقّع مكروه في الاستقبال، والعلم بأسباب المكروه وهو السبب الباعث المثير لإحراق القلب وتألمه، وذلك الإحراق هو الخوف. فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم يمنعه مانع، وتارة يكون لكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي، وتارة يكون بهما جميعًا وبحسب معرفته بعيوب نفسه، ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائه. وأنه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون تكون قوّة خوفه فأخوفُ الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه. ولذلك قال ﷺ : «**أنا أخوفكُم لله**»[(١)]، وكذلك قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾ [فاطر: ٢٨].

ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلالَ الخوفَ واحتراق القلبَ. ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات، أما في البدن فبالنحول والبكاء، وأما في الجوارح فبكفها عن المعاصي وتقييدها بالطاعات تلافيًا لما فرط واستعدادًا للمستقبل، وأما في الصفات فبأن يقمع الشهوات ويكدّر اللذات فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروهًا عند من يشتهيه إذا عرف أن فيه سمًّا فتحترق الشهوات بالخوف وتتأدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والذلة والاستكانة ويفارقه الكبر والحقد والحسد ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات، ومؤاخذة النفس بالخطرات

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٢) عن أنس وفيه: «أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكنّي أصوم وأُفطِر، وأصلّي وأرقد، وأتزوّج النِّساء، فَمَنْ رغِبَ عن سُنّتي فَلَيْسَ مِنِّي».

والخطوات والكلمات.

وما ورد في فضيلة الخوف خارج عن الحصر، وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهي مجامع مقامات أهل الجنان. قال الله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ [البينة: ٨]، وكل ما دلّ على فضيلة العلم دلّ على فضيلة الخوف لأن الخوف ثمرة العلم»[١].

عباد الله...

أما منزلة الخوف:

فيقول الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في «فتح الباري»: «إنَّ الخوفَ مِنَ المَقَامَاتِ العَلِيَّةِ، وهو مِنْ لَوَازِمِ الإيمانِ. قالَ تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، وقالَ تعالى: ﴿فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤]، وقالَ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقالَ ﷺ: «**أَنَا أَعْلَمُكُمْ بالله وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً**». وكلما كانَ العبدُ أقربَ إلى ربهِ كانَ أَشَدَّ لَهُ خَشْيَةً مِمَّنْ دُونَهُ، وقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تعالى الملائكةَ بقولهِ: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، والأنبياءَ بقولهِ: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وَإِنَّمَا كانَ خَوْفُ الْمُقَرَّبِينَ أَشَدَّ؛ لأنهمْ يُطَالَبُونَ بِمَا لا يُطَالَبُ بِهِ غَيْرُهُمْ فَيُرَاعُونَ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ، ولأنَّ الواجبَ لله مِنْهُ الشُّكْرُ على المَنْزِلَةِ فَيُضَاعَفُ بِالنِّسْبةِ لِعُلُوِّ تلك المنزلةِ، فالعبدُ إنْ كانَ مستقيمًا فَخَوْفُهُ مِنْ سُوءِ العَاقِبَةِ لقولهِ - تعالى -: ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] أَوْ نُقْصَانِ الدَّرَجَةِ بالنِّسْبَةِ، وإنْ كانَ مَائِلاً فَخَوْفُهُ مِنْ سُوءِ فِعْلِهِ. وَيَنْفَعُهُ ذلكَ مَعَ النَّدَمِ وَالإِقْلاَعِ؛ فَإِنَّ الخَوْفَ يَنْشَأُ مِنْ مَعْرِفَةِ قُبْحِ الجِنَايَةِ وَالتَّصْدِيقِ بِالْوَعِيدِ عليهَا، وَأَنْ يُحْرَمَ التَّوْبَةَ، أَوْ لاَ يَكُونَ مِمَّنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ، فَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ ذَنْبِهِ طَالِبٌ مِنْ رَبِّهِ أَنْ يُدْخِلَهُ فِيمَنْ يَغْفِرُ لَهُ» ا.هـ[٢].

---

(١) «موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للقاسمي (٤٢٣، ٤٢٤).
(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣١٣).

عباد الله...

وما هو القدر الواجب من الخوف؟ يجيب عن هذا السؤال الإمام ابن رجب الحنبلي فيقول: «الْقَدْرُ الواجِبُ مِنَ الخَوْفِ مَا حَمَلَ عَلَى أَدَاءِ الْفَرَائِضِ وَاجْتِنَابِ المُحَارِمِ، فإِنْ زَادَ عَلَى ذَلَكَ، بحيثُ صَارَ بَاعِثًا للنُّفُوسِ عَلَى التَّشْمِيرِ في نَوَافِلِ الطَّاعَاتِ وَالانْكِفَافِ عَنْ دَقَائقِ المُكْرُوهاتِ والتَّبَسُّطِ في فُضُولِ المُبَاحَاتِ، كانَ ذلكَ فَضْلاً مَحْمُودًا، فَإِنْ تَزَايَدَ عَلَى ذَلِكَ بِأَنْ أَوْرَثَ مَرَضًا أَوْ مَوْتًا، أَوْ هَمًّا لازِمًا، بِحَيْثُ يَقْطَعُ عَنِ السَّعْيِ في اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ المَطْلُوبَةِ المَحْبُوبَةِ لله ﷻ لَمْ يَكُنْ مَحْمُودًا» ا.هـ[1].

أيها المسلمون...

أما ثمرات الخوف من الله:

فثمرات الخوف أكثر من أن تحصى، ويكفي أن نشير - هنا - إلى بعضها، والله الموفّق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه:

الثمرة الأولى: مغفرة الذنوب:

عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ مَلَائِكَةً يَطُوفُونَ فِي الطُّرُقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ، فَإِذَا وَجَدُوا قَوْمًا يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَنَادَوْا هَلُمُّوا إِلَى حَاجَتِكُمْ، قَالَ: فَيَحُفُّونَهُمْ بِأَجْنِحَتِهِمْ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمْ رَبُّهُمْ ﷻ وَهُوَ أَعْلَمُ مِنْهُمْ: مَا يَقُولُ عِبَادِي؟ قَالَ: تَقُولُ: يُسَبِّحُونَكَ، وَيُكَبِّرُونَكَ، وَيَحْمَدُونَكَ، وَيُمَجِّدُونَكَ. قَالَ فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟ قَالَ فَيَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ مَا رَأَوْكَ. قَالَ فَيَقُولُ: كَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا. قَالَ يَقُولُ: فَمَا يَسْأَلُونني؟ قَالَ يَقُولُونَ: يَسْأَلُونَكَ الجَنَّةَ. قَالَ يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيْهَا حِرْصًا، وَأَشَدَّ لَهَا طَلَبًا، وَأَعْظَمَ فِيهَا رَغْبَةً. قَالَ: فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ؟ قَالَ يَقُولُونَ: مِنْ النَّارِ. قَالَ يَقُولُ: وَهَلْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا. قَالَ يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْهَا؟ قَالَ يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً، قَالَ فَيَقُولُ: فَأُشْهِدُكُمْ

(١) «التخويف من النار» لابن رجب (ص ٢١).

أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ. قَالَ: يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: فِيهِمْ فُلَانٌ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ. قَالَ: هُمُ الْجُلَسَاءُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ»[1].

الثمرة الثانية: نَيْلُ رَحْمَةِ اللهِ تعالى:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ فَقَالَ: «كَيْفَ تَجِدُكَ؟» قَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنِّي أَرْجُو اللَّهَ وَإِنِّي أَخَافُ ذُنُوبِي فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ»[2].

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «ذَكَرَ رَجُلًا فِيمَنْ كَانَ سَلَفَ - أَوْ قَبْلَكُمْ - آتَاهُ اللَّهُ مَالًا وَوَلَدًا، يَعْنِي أَعْطَاهُ، قَالَ فَلَمَّا حُضِرَ قَالَ لِبَنِيهِ: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ. قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَبْتَئِرْ عِنْدَ اللَّهِ خَيْرًا (فَسَّرَهَا قَتَادَةُ: لَمْ يَدَّخِرْ) وَإِنْ يَقْدَمْ عَلَى اللَّهِ يُعَذِّبْهُ. فَانْظُرُوا فَإِذَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي حَتَّى إِذَا صِرْتُ فَحْمًا فَاسْحَقُونِي - أَوْ قَالَ فَاسْهَكُونِي - ثُمَّ إِذَا كَانَ رِيحٌ عَاصِفٌ فَأَذْرُونِي فِيهَا، فَأَخَذَ مَوَاثِيقَهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَرَبِّي. فَفَعَلُوا. فَقَالَ اللَّهُ: كُنْ. فَإِذَا رَجُلٌ قَائِمٌ. ثُمَّ قَالَ: أَيْ عَبْدِي، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا فَعَلْتَ؟ قَالَ: مَخَافَتُكَ أَوْ فَرَقٌ مِنْكَ: فَمَا تَلَافَاهُ أَنْ رَحِمَهُ اللَّهُ[3]»[4].

الثمرة الثالثة: المهابة:

فالخائف من الله تعالى، يرزقه الله تعالى مهابة وحلاوة: قال **عمر بن عبد العزيز** - رحمه الله تعالى -: «مَنْ خَافَ اللهَ: أخافَ اللهُ منه كُلَّ شيءٍ، وَمَنْ لم يَخَفِ اللهَ خافَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ»[5].

الثمرة الرابعة: العصمة من الضلال:

قال **ذو النون المصري** - رحمه الله -: «الناس على الطريق ما لم يَزُلْ عنهم الخوفُ،

---

(١) رواه البخاري (٦٤٠٨)، ومسلم (٢٦٨٩).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٩٨٣) واللفظ له، وابن ماجه (٤٢٦١)، وحسنه النووي والألباني.

(٣) **فما تلافاه**: أي تداركه، و«ما» موصولة أي الذي تلافاه هو الرحمة: أو نافية وصيغة الاستثناء محذوفة.

(٤) رواه البخاري (٦٤٨١) واللفظ له، ومسلم (٢٧٥٧).

(٥) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣/ ٢٠٦).

فإذا زال عنهم الخوفُ ضَلُّوا عَنِ الطَّرِيقِ»[(١)].

الثمرة الخامسة: صيانة القلب عن الخراب:

قال أبو سليمان الداراني - رحمه الله تعالى -: «أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرة: الخوفُ من الله ﷻ، وكُلّ قلب ليس فيه خوفٌ فهو قلبٌ خَربٌ»[(٢)].

الثمرة السادسة: خَرْقُ مواضع الشهوَات من القلب:

قال إبراهيم بن سفيان - رحمه الله -: «إذا سَكَنَ الخوفُ القلبَ أَحْرَق مواضِعَ الشهواتِ منه وَطَرَدَ الدُّنيا عنه»[(٣)].

الثمرة السابعة: الاستظلال في ظل العرش:

كما جاء في حديث «السبعة» الذي نحن بصدد شرحه.

عباد الله...

وبالجملة: فإن الخوف والرجاء - كما قال **الإمام الغزالي** - رحمه الله -: «جناحان بهما يطير المقرّبون إلى كل مقام محمود. ومطيَّتان بهما يُقطعُ من طُرُقِ الآخرة كُلُّ عقبةٍ كئود» ا.هـ[(٤)].

والخوف - كما قال **أبو حَفْصٍ** -: «سوطُ اللهِ يقوِّم به الشَّاردين عن بابه» ا.هـ[(٥)].

وقال: «الخوفُ سراجٌ في القلب يُبْصِرُ به ما فيه من الخيرِ والشَّرِّ».

نسأل الله - تعالى - أن يرزقنا الخوف منه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).
(٢) «التخويف من النار» لابن رجب (٧).
(٣) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).
(٤) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٤٢).
(٥) «بصائر ذوي التمييز» (٢/ ٥٧٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

والخوف إذا سكن القلب، ظهر أثره على حركات العبد وأحواله، وبان في تعامله وأقواله.

وقد كان النبيُّ ﷺ سيِّد الخائفين كما قال: «**أنا أعلمكم بالله وأشدّكم له خشية**».

وها هي ذي عائشةُ - رضي الله عنها - تحكي عنه ﷺ فتقول: افتقدت رَسُولَ الله ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ. فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمُسْجِدِ(١) وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لاَ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ(٢) أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ**»(٣).

وجاء أصحابه على أثره:

فعن عبد الله بن عامر بن ربيعة قال: رأيتُ عُمَرَ بْنَ الخطابِ رضي الله عنه أخذ تَبْنَةً من الأرض، فقال: «يا ليتني هذه التَّبْنَةَ، ليتني لم أكن شيئًا، لَيْتَ أُمّي لم تَلِدْنِي، ليتني كنتُ نَسْيًا مَنْسِيًا»(٤).

اللَّهُمَّ إنّا نعوذُ بك من الخوف إلا منك، والركونَ إلاَّ إليك، والتوكل إلا عليك، والسؤال إلاّ مِنْك، والاستعانة إلاّ بكَ، أنت ولّينا نِعْمَ المولى ونعم النصير.

۞۞۞

---

(١) المسجد: أي في السجود - أو الموضع الذي كان يصلي فيه، في حُجرته.

(٢) أي: لا أُحصي نعمتك وإحسانك والثناء بها عليك وإن اجتهدت في الثناء عليك.

(٣) رواه مسلم (٤٨٦).

(٤) «شرح السنة» للبغوي (١٤/ ٣٧٣).

الخطبة السابعة والأربعون

من فضائل صَدَقة السِّرّ

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فلقاؤنا اليوم - بإذن الله تعالى - مع سادس المنعّمين في ظل العرش وهو: «**رَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ، فأخفاها حتى لا تعلمَ شِمَالُه ما تُنْفِقُ يمينه**».

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى - في شرحه لهذا الحديث: «وفي هذا الحديث: فضل صدقة السِّرّ، قال العلماء: وهذا في صدقة التطوّع، فالسِّر فيها أفضل لأنه أقرب

إلى الإخلاص وأبعد من الرياء.

وأمَّا الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل، وهكذا حكم الصلاة فإعلان فرائضها أفضل، وإسرار نوافلها أفضل لقوله ﷺ: «**أفضل الصلاة: صلاة المرء في بيته إلاّ المكتوبة**».

قال العلماء: وذكر اليمين والشمال مبالغة في الإخفاء والاستتار بالصّدقة، وضرب المثل بهما لقرب اليمين من الشمال وملازمتها لها.

ومعناه: لو قدّرت الشمال رجلاً متيقّظًا لما علم صدقة اليمين لمبالغته في الإخفاء» ا.هـ[1].

عباد الله...

ويبرز من قول النبي ﷺ: «**ورجل تصدَّق بصدقة، وأخفاها حتى لا تعلم شمالُهُ ما تنفق يمينه**». **خُلُقان كريمان**:

الأول: خُلُق التصدُّق.

والثاني: خُلُق الإخلاص.

أمّا خُلُقُ التّصَدُّق: فقد تكلمّنا عنه في غير هذا الموضع[2]، ويكفي أن نشير هنا إلى مواقف من حياة أهل السّخاء والكرم والجود والمعروف.

الموقف الأول: فضل الإحسان إلى اليتامى:

يقول عميرة بن أبي ناجية - رحمه الله -: أخذتُ يتيمًا من قريشٍ فانقلبتُ به إلى منزلي، وأطعمته، ودهنْتُه، ووهبتُ له فلوسًا، وقلت: اللهم أشرك أمي معي فيما صنعت بهذا اليتيم.

قال: ثم نمت، فرأيتُ أمي أقبلت ملتبسة على أحسن ما كانت، معها ذلك اليتيم، حتى وقفت، ثم قالت: أي بني لو رأيت ما صنع بي هذا الغلام منذ اليوم؟ أصبتُ به خيرًا...

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٠١).

(٢) انظر: خطبتي «جبال البرّ والنور» و«علامات الصدقة المقبولة».

قال الليث بن سعد - رحمه الله -: تقول أصبت به خيرًا، للذي كان من عُميرة ابنها لليتيم[١].

الموقف الثاني: رؤيا عجيبة لإسحاق بن عبّاد البصري:

يروي أبو يعلى البصري - رحمه الله - عن إسحاق بن عباد البصري قال: رأيت في منامي ذات ليلة قائلاً يقول: أغث الملهوف فانتبهت، فقلت: انظروا هل في جيراننا محتاج؟ فقالوا: ما ندري.

فنمت ثانيًا فعاد إليَّ، فقال: تنام ولم تغث الملهوف؟! قال: فانتبهت، ونمت الثالثة فعاد إليَّ، فقمتُ فقلت للغلام: أسرجْ البغل، وأخذتُ معي ثلاثمائة درهم، ثم ركبت البغل وأطلقت عنانه، فَمَرّ فأخذ على مسجد الجامع، ثم مضى في سكة المربد، حتى خرج من الدروب إلى الجبانة فصار إلى المقابر، ثم عطف يُمنة إلى مسجدٍ يُصلى فيه على الجنائز، فوقف البغل هناك، فنظرت فإذا رجل يصلي، فلما أحس بي انصرف فدنوتُ منه فقلت: يا عبد الله، في هذا الوقت، في هذا الموضع، ما أخرجك؟ فقال: أنا رجلٌ خواص كان رأس مالي مائة درهم فذهبت من يدي، ولزمني دينٌ مائتا درهم. قال: فأخرجتُ الدراهم فقلت: هذه ثلاثمائة درهم فخذها، فأخذها. فقلت: تعرفني؟ قال: لا.

قلت: أنا إسحاق بن عباد فإن نابتك نائبة فأتني فإن منزلي في موضع كذا، فقال: رحمك الله، بل إن تأتينا نائبة فزعنا إلى مَنْ أخرجك في هذا الوقت، حتى جاء بك إلينا[٢].

الموقف الثالث: كرم ووفاء الصَّالحين:

يروي سفيان بن عيينة - رحمه الله - أنه سمع عبد العزيز بن أبي رواد يقول لأخٍ له: أقرضنا خمسة آلاف درهم إلى الموسم.

فشد التاجر وحملها إليه، فلما جن الليل وأوى التاجر إلى فراشه، قال: ما صنعت يا

---

(١) «العيال» لابن أبي الدنيا (٦٢٥).

(٢) «البر والصلة» لابن الجوزي (٤٥٤).

ابن أبي رواد؟! أنت شيخٌ كبير، وأنا شيخٌ كبير، فلا أدري ما يحدث الله بي أو بك، فلا يعرف له ولدي ما أعرفه، لئن أصبحت سالمًا لآتيته فأجعله منها في حلٍّ.

فلما أصبح أتى عبد العزيز بن أبي رواد فأصابه خلف المقام، وكان عبد العزيز عظم جلوسه خلف المقام في الحجر، فقال: يا أبا عبد الرحمن، رأيت البارحة في أمرٍ فكرهت أن أقطعه حتى أشاورك فيه. قال: ما هو؟

قال: تفكرت في المال الذي حملته إليك: فإذا أنت شيخ كبير، وأنا شيخ كبير، فلا أدري ما يحدث الله تعالى بي أو بك فلا يعرف لك ولدي ما أعرف لك، ورأيت أن أجعلك منها في حلٍّ في الدنيا والآخرة.

فقال: اللهم اغفر له، اللهم أعطه أفضل ما نوى، ثم دعا له بما حضره من الدعاء، فقال له: إن كنت إنما تشاور في هذا المال، فإنما استقرضناه على الله، فكلما اغتممنا به كفر الله به عنا، فإذا جعلتنا في حلٍّ، كأنه سقط.

قال: فكره التاجر أن يخالفه، قال: فما أتى الموسم حتى مات التاجر فأتاه ولده في الموسم فقالوا له: يا أبا عبد الرحمن، مال أبينا؟ فقال لهم: لم أتهيأ ولكن الميعاد فيما بيننا وبينكم الموسم الذي يأتي، فقام القوم من عنده، فلما دار الموسم الآتي لم يتهيأ المال، فقال: إني أهون عليك من الخشوع، وتذهب بأموال الناس؟!

قال: فرفع رأسه فقال رحم الله أباكم مذ كان يخاف هذا وشبهه، ولكن الأجل بيننا وبينكم الموسم الذي يأتي، وإلا فأنتم في حلٍ مما قلتم.

قال: فبينا هو ذات يومٍ خلف المقام إذ ورد عليه غلامٌ له كان قد هرب منه إلى أرض السند أو الهند بعشرةٍ آلاف درهم فقال: السلام عليك يا مولاي، أنا غلامك الذي هربت منك، وإني وقعتُ إلى أرض السند أو الهند فاتجرت، ورزق الله بها عشرة آلاف درهم، ومعي من التجارات ما لا أحصيها.

فسمعته يقول: لك الحمد، سألناك خمسة آلاف، فبعثت إلينا عشرة آلاف، يا عبدالمجيد احمل هذه العشرة الآلاف فأعطهم إياها، وأقرئهم السلام، وقال: هذه العشرة بعث بها أبي إليكم، فقالوا: إنما لنا خمسة آلاف؟!

فقال: صدقتم خمسة لكم للإخاء، الذي كان بينه وبين أبيكم، قال: فأسقط القوم

في أيديهم لما جاء منهم من اللوم، وما جاء به من الكرم، فرجع إلى أبيه، قال: فدفعها إليهم، فقال العبد: عده يقبض ما معي. فقال: يا بني، إنما سألناه خمسة آلاف، فبعث إلينا بعشرة آلاف، أنت حرٌّ لوجه الله، وما معك فهو لك(١).

عباد الله...

هذه مواقف من حياة أهل السخاء والكرم والمعروف، ذكرناها لتكون منارًا للسالكين، وعلامة للمهتدين، وتذكيرًا لمن كانوا على الدنيا حريصين.

عن عبد الله بن الشخِّير رضي الله عنه قال: أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأ: ﴿**أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ**﴾ [التكاثر: ١]، قال: «**يقول ابن آدم: مالي. مالي. قال: وهل لك يا ابْن آدم مِنْ مَالِكَ إلاّ ما أَكلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أو لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ**»(٢).

اللهم لا تَكِلْنَا إلى أنْفسِنا فَنَعْجز، ولا إلى الناس فنضيع.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد..

فمن أقبح ما يُبتلى به العبد: آفتان: الحرص والطمع. لأنهما يمنعان العبد من خير كثير، ويدفعانه إلى شرٍّ مستطير. وعلاج هاتين الآفتين: الاستعانة بالله أوّلاً، ثم على العبد بأن ما قُدِّر له سوف يأتيه، وأن ما عند الله، لا يُنال بمعصيته.

يقول العلاَّمة الشَّعْبيُّ - رحمه الله -: صاد رجلٌ قنبرة فلما صارت في يده، قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك وآكلك. قالت: لا أشبع من جوع، ولكن أعلّمك ثلاث خصال خير لك من أكلي.

أما واحدة أعلمك وأنا في يدك، والثانية على الجبل، والثالثة على الشجرة.

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نُعيم (٨/ ١٩١، ١٩٢)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٧/ ١٨٥، ١٨٦).
(٢) رواه مسلم (٢٩٥٨).

فقال: هاتِ الواحدة. قالت: لا تلهفن على ما فاتك.

فلما صارت على الجبل قالت: لا تُصَدِّقن بما لا يكون أن يكون.

فلما صارت على الشجرة، قالت: يا شقي لو ذبحتني لأخرجت من حَوْصَلَتي دُرَّتينْ في كل واحدة عشرون مثقالاً.

قال: فعض على شَفَتَيْه وتلهّف، فقال: هاتي الثالثة.

قالت: قد نسيت اثنتين فكيف أحدثك بالثالثة، ألم أقل لك لا تلهفن على ما فاتك، ولا تصدقن بما لا يكون أن يكون، أنا وريشي ولحمي ودمي لا أكون عشرين مثقالاً، قال: فطارت وذهبت(١).

فاحذروا الطمع - يا عباد الله -:

ولله دَرُّ محمود الورّاق حين قال:

تَمَــتَّعْ بمَالِــكَ قَــبْل المـــاتِ ... وإلاّ فـــلا مـــالَ إنْ أَنْـــتَ مُـــتَّا

شَـــقِيتَ بـــه ثـــم خَلَّفْـــتَهُ ... لغـــيرك بُعْـــدًا وَسُـــحْقًا وَمَقْـــتَا

فَجَـــادَ علـــيك بـــزور الْـــبُكَا ... وَجُـــدْتَ لـــه بالَّـــذي قـــد جَمَعْـــتَا

وأعطيـــته كُـــلّ مـــا في يَـــدَيْكَ ... فَخَـــلاَّك رَهْـــنًا بمـــا قـــد كَـــسَبْتَا

اللهم إنا نعوذُ بك من نفسٍ لا تَشْبَع، ومن دعاءٍ لا يُسْمع.

---

(١) «حلية الأولياء» (٤/ ٣١٦).

الخطبة الثامنة والأربعون

من فضائل الإخلاص

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلِل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الهْدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أَمَّا بعد:

فما زال الحديث موصولاً عن سادس المنعّمين في ظِلِّ العرش وهو: «**رَجُلٌ تَصَدَّق بِصَدَقَةٍ، فأخفاها حتى لا تعلم شمالُهُ ما تنفق يمينه**».

وتكلمنا في الجمعة الماضية عن: خُلُق التصدّق. واليوم - بإذن الله تعالى - نتكلم عن الخلق الثاني وهو: «**خلق الإخلاص**».

ما معنى الإخلاص؟ وما هي حقيقته؟ وما هي أقسامه؟ وما هي ثمراته؟

هذا ما سوف نفصِّل الحديث عنه في هذه الجمعة. وأسأل الله - تعالى - التوفيق.

عباد الله...

ما معنى الإخلاص؟

الإخلاص: هو القصدُ بالعبادة إلى أن يُعبد المعبودُ بها وحده.

وقال **الجُرْجَانِيُّ**: الإخلاصُ: أَلاَّ تَطْلُبَ لِعَمَلِكَ شاهدًا غيرَ الله تعالى وقيلَ هُوَ: تخليصُ القلبِ عن شائبةِ الشَّوْبِ المُكَدِّرِ لصفائه الفِطْرِيِّ وتحقيقُه أنَّ كُلَّ شيءٍ يُتَصَوَّرُ أَنْ يَشُوبَه غَيْرُهُ، فإذا صَفَا عَنْ شَوْبِهِ وَخَلُصَ عَنْهُ يُسَمَّى خَالِصًا، قال تعالى: ﴿**مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَناً خَالِصاً**﴾ [النحل: ٦٦]. فإنما خُلُوصُ اللَّبَنِ أَنْ لا يكونَ فيهِ شَوْبٌ مِنَ الفَرْثِ والدَّمِ، ومِنْ كُلِّ ما يُمْكِنُ أَنْ يَمْتَزِجَ بِهِ[١].

أما حقيقة الإخلاص:

فحقيقةُ الإخلاص: التَبَرِّي عَنْ كُلِّ ما دونَ الله تعالى، أمَّا الإِخْلاصُ في الدِّين فيقولُ فيهِ الرَّاغِبُ: إِخْلاصُ المسلمينَ أَنَّهُمْ قَدْ تَبَرَّءُوا مِمَّا يَدَّعِي اليَهُودُ مِنَ التشْبِيه، والنَّصارى مِنَ التَّثْلِيث، قال تعالى: ﴿**مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [الأعراف: ٢٩، غافر: ١٤] وقالَ ﷻ ﴿**وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ**﴾ [النساء: ١٤٦].

وأَجْمَعُوا على أنَّ الإخلاصَ في الطاعةِ تركُ الرِّيَاءِ[٢].

وقالَ **الفُضَيْلُ بنُ عِيَاضٍ**: تَرْكُ العملِ لأَجْلِ الناس رياءٌ، والعملُ لأجلهم شِرْكٌ، والإخلاصُ: الخلاصُ من هذين. وفي روايةٍ عنهُ: والإخلاصُ: أَنْ يُعَافِيكَ اللَّهُ مِنْهُمَا[٣].

عباد الله...

والإخلاصُ ينقسم بحسب ما يظهر من العبد، يمكن أن يشمل كل فِعْلِ الإنسان، ولذا يُقالُ: إن الإخلاص أربعة أقسام: إخلاص في الأقوال، وإخلاص في الأفعال،

---

(١) «التعريفات» للجرجاني (١٣، ١٤).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٤٠٠).

(٣) «مدارج السالكين» (٣/ ٩٥).

وإخلاصٌ في الأعمال أي العبادات، وإخلاصٌ في الأحوال أي إلهامات القلب وواردات الغيب. والدِّينُ شاملٌ لكل هذا، وباعتبارِ أن الإخلاص التزامٌ حَيَوِيٌّ أكثرُ مما هو تصورٌ نظريٌّ، فإن موقف الإخلاص يستلزمُ عدةَ أمورٍ، وهي:

١- **الاستمرارية**: حيثُ إن حياة الإنسان عبارةٌ عن تواصلٍ واستمرارٍ، ومواقفُ الحياةِ مستمرةٌ ومتكاملةٌ، ولذا لا ينبغي أن يتفكك الإخلاص أو يتبعثر، لأنه لا يتعلق بالموقف المعاصر فقط، ولا بالماضي فقط، ولا بالمستقبل فقط، وإنما هو موقف مستمر، ومن ثم كانت الاستمراريةُ صفةً أساسيةً في الإخلاص.

٢- **التكامُلُ**: بمعنى انْضِواءِ الشخص بجميع مكوناته في أهداف وجوده المُسْتَمَدَّةِ من الإطار الإسلامي للحياة، حتى يتمكن من بلوغ أكمل درجة ممكنةٍ مِنْ صياغةِ الذاتِ بطريقةٍ متكاملةٍ، وذلك عَبْرَ محبةٍ قويةٍ لله وللحق والحقيقة، وللآخرين المخلصين، هذا إلى جانب التكامل بين النيَّةِ والفِعْلِ.

٣- **العِلْمُ**: حيث إن الإخلاصَ يستلزمُ وعْيَ الإنسان بوجودهِ في إطار التعاليم الإسلامية، وهذا الوعيُ لا يمكنُ أن يتمَّ بغيرِ معرفةٍ، لأنه لا يمكن أن يتأتى عن جهلٍ، وجهلُ الإنسان لا يمكن أن يؤدي إلى إخلاصٍ حقيقيٍّ، ومن ثم كان العِلْمُ شرطًا ضروريًّا لتحقيقِ الإخلاص، هذا إلى جانب ضرورة العِلْمِ بما يُحقِّقُ الإخلاصَ.

٤- **التَدرُّجُ**: باعتبارِ أن الإخلاص جُهْدٌ بشريٌّ من أجل الوصول إلى كمالِ الإنسان بوصوله إلى حقيقة العبودية والتحقُّقِ بها، ولذا فإن الإنسان يتعثر وينهضُ مرارًا وتكرارًا، بهدف بلوغ المرتبة العالية، إنَّ التجربةَ صعبةٌ في مواقف حياةِ الإنسان، ولذا فهو يحتاجُ إلى التَّدَرُّجِ، وهذا شرطٌ لكمالِ الإخلاص.

٥- **الأمانة**: باعتبارها رعايةً لحقِّ الله تعالى، وأداءً للفرائض والواجبات، وهذا يتطلبُ عدم الخيانة وحفظ الحقوق، وهي خير شاهدٍ خارجيٍّ على الإخلاص، وخاصةً أن المنزلقات التي يُمْكِنُ أن تُطيحَ بالأمانة اللازمة للإخلاص وفيرة، وهذه توفر حظوظًا للنفس تُفْسِدُ الإخلاص، ولذا كان لابد من توافر الأمانة لتوافر الإخلاص والتمسك به.

وخلاصة الأمر؛ أنَّ الإخلاص تصفيةٌ للعملِ والقول والعبادة مما يشُوبُهَا من رياءٍ

ومراءاةٍ أو خداعٍ أو كَذِبٍ، ويأتي في مراتب عديدةٍ، وهي: طرحُ العملِ وعدمِ رؤيته، فضلاً عن طرح طَلب العِوَضِ عنه، والخَجلُ من العملِ مع بذل الوُسْعِ والغاية فيه، مع رؤيةِ التوفيق في العملِ المُخْلَصِ على أنه جُودٌ من الله تعالى، ثم إخلاصُهُ بالخَلاص منه، أي جعلُهُ خالصًا لوجهِ الله تعالى[1].

عباد الله...

أمّا ثمرات الإخلاص: فللإخلاص ثمرات، نذكر منها سبع ثمرات:

الثمرة الأولى: مغفرة الذنوب:

عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أَنَّ رَجُلَيْن اخْتَصَمَا إلى النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلَ النَّبيُّ ﷺ المُدَّعِيَ البَيِّنَةَ فَلَمْ يَكُنْ لهُ بَيِّنَةٌ، فَاسْتَحْلَفَ المَطْلُوبَ، فَحَلَفَ بالله الذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**إِنَّكَ قَدْ فَعَلْتَ، وَلَكِنْ غُفِرَ لَكَ بِإِخْلاصكَ قوَلَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله**»[2].

الثمرة الثانية: النجاة من النار:

عن عثمان رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لاَ يَقُولُهَا عَبْدٌ حَقًّا مِنْ قَلْبِه إلاَّ حُرِّمَ عَلَى النَّارِ**». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: أَنَا أُحَدِّثُكَ مَا هِيَ؟ هِيَ كَلِمَةُ الإِخْلاَصِ الَّتِي أَعَزَّ اللهُ - تَبَارَكَ وتَعَالَى - بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ وَأَصْحَابَهُ، وَهِيَ كَلِمَةُ التَّقْوَى الَّتِي أَلاَصَ[3] عَلَيْهَا نَبِيُّ الله ﷺ عَمَّهُ أَبَا طَالِبٍ عِنْدَ المَوْتِ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ»[4].

الثمرة الثالثة: نيل شفاعة النبيّ ﷺ:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قالَ: قِيلَ يَا رَسُولَ الله: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لا يَسْأَلَنِي عَنْ هَذَا الحَدِيثِ**

---

(١) «نضرة النعيم» (١٢٦).

(٢) **إسناده صحيح**: رواه أحمد (١/ ٢٥٣) وصححه الشيخ/ أحمد شاكر.

(٣) ألاص الإنسان إذا حرّكه عن موضعه وأداره لينزعه.

(٤) **صحيح**: رواه أحمد (١/ ٦٣)، وصحّحه الشيخ/ أحمد شاكر.

أَحَدٌ أَوْلَى مِنْكَ لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ - أَوْ نَفْسِهِ -»(١).

الثمرة الرابعة: فتح أبواب السماء:

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما قال عَبْدٌ: لا إله إلاّ الله قَطُّ مُخْلِصًا، إلاّ فُتِحَتْ له أبوابُ السماء حتى تُفْضِي إلى الْعَرْشِ ما اجْتُنِبَتِ الكبائر»(٢).

الثمرة الخامسة: ظهور الحكمة من القلب على اللسان:

قال مكحول - رحمه الله -: «ما أخلص عبدٌ قَطُّ أربعين يومًا إلاّ ظهرت ينابيعُ الحِكْمَة مِنْ قَلْبِه وَلِسَانِهِ»(٣).

الثمرة السادسة: انقطاع كثرة الوساوس والرياء:

قال أبو سليمان الدّارانيّ - رحمه الله -: «إذا أَخْلَصَ الْعَبْدُ انقطعت عنه كثرةُ الْوَسَاوِسِ والرِّياء»(٤).

الثمرة السابعة: قبول العمل:

قال الفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾ [الملك: ٢] هُوَ أَخْلَصُهُ وأَصْوَبُهُ، قالوا: يا أبا عليٍّ ما أَخْلَصُهُ وَأَصْوَبُهُ؟ فقالَ: إِنَّ العَمَلَ إذا كانَ خالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يُقْبَلْ، وإذا كان صَوَابًا ولم يَكُنْ خالصًا لم يُقْبَلْ حَتَّى يَكُون خالِصًا صَوَابًا. الخَالِصُ أَنْ يَكُونَ لله والصوابُ أَنْ يَكُونَ عَلَى السُّنَّةِ. ثُم قَرَأَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف: ١١٠]»(٥).

---

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) **حسن**: رواه الترمذي (٣٥٩٠)، وحسنه، ووافقه محقق «جامع الأصول» (٤/ ٣٩٢).

(٣) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٦).

(٤) المصدر السابق.

(٥) «مدارج السالكين» (٢/ ٩٣).

عباد الله...

هذه بعض ثمرات الإخلاص، نسأل الله تعالى أن يجعل أعمالنا خالصة، ومن النّار مخلَّصة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

عرف الصالحون فضل الإخلاص وأهميته، فَفَاحَ من أقوالهم وأفعالهم عِطْرُ الإخلاص. وهذا شيء من ذلك:

قال خلف بن تميم: «حَدَّثنا زائدة أن منصورًا[١] صام أربعين سنة وقام ليلها وكان يبكي فتقول له أمُّه: يا بنيّ قَتَلْتَ قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعتُ بنفسي فإذا كان الصبح، كَحّل عينيه، وَدَهَن رأسه، وبرق شفتيه وخرج إلى الناس».

كان يفعل ذلك تحفّظًا من الرياء!

وقال أبو عثمان: «قال لي أبو حفص: إذا جلستَ للناس، فكن واعظًا لقلبك ولنفسك، ولاَ يَغُرّنّك اجتماعُهم عليك، فإنهم يراقبون ظاهرك، واللهُ تعالى يُرَاقِبَ بَاطِنَك»[٢].

اللهم إنا نَسألُك خشيتكَ في الغَيْبِ والشَّهادة.

***

(١) هو: منصور بن المعتمر، الحافظ الثبت القدوة أبو عتاب السلمي الكوفي، أحد الأعلام.

(٢) «الرسالة القشيرية» (١٩٢).

الخطبة التاسعة والأربعون

فَضْلُ ذِكْرِ اللّه تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِهِ اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ. وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله تعالى - مع سابع المنعّمين في ظل العرش، وهو: «رَجُلٌ ذَكَرَ الله خَالِيًا ففاضت عَيْنَاه».

قال الإمام النووي - رحمه الله -: «قوله ﷺ: «ورجل ذكر الله تعالى خاليًا ففاضت عيناه» فيه فضيلة البكاء من خشية الله تعالى، وفضل طاعة السِّر لكمال الإخلاص فيها» اهـ[1].

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٠١).

وقوله ﷺ: «**ففاضت عيناه**» أي: فاضت الدموع من عينيه، وأسند الفيض إلى العين مبالغة كأنها هي التي فاضت.

قال الإمام القرطبيّ - رحمه الله -: «وفيض العين بحسب حال الذاكر وبحسب ما يكشف له، ففي حال أوصاف الجلال يكون البكاء من خشية الله، وفي حال أوصاف الجمال يكون البكاء من الشوق إليه» ا.هـ[١].

عباد الله...

وفي قول النبيّ ﷺ: «**ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**»: إشارة إلى فضيلة ثلاثة أخلاق:

الخُلُق الأوّل: خُلُق الإخلاص.

والثاني: خُلُق الذِّكْر.

والثالث: خلق البكاء من خشية الله تعالى.

أمّا خلق الإخلاص، فقد تكلمنا عنه في الجمعة الماضية.

وأمّا خُلُق الذّكْر: فخطبة اليوم تدور حوله - إن شاء الله تعالى.

ما معنى الذكر؟ وما هي منزلته؟ وما هي الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها الذاكر؟ وما هي ثمرات الذكر؟

وهذا ما سوف نبيّنه - إن شاء الله تعالى.

أمّا تعريف الذكر:

فالذكر معناه: التخلص من الغَفْلَةِ والنِّسْيَانِ[٢]، ويقول الرَّاغِبُ: «الذِّكْرُ تَارَةً يُقَالُ ويُرادُ به هيئةٌ للنفس بها يُمْكِنُ للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة، وتارةً يُقَالُ لحضور الشيء القلب أو القول، ولذلك قيل الذِّكْرُ ذِكْرَانِ: ذِكْرٌ بالقلبِ، وذِكْرٌ باللِّسَانِ»[٣].

---

(١) «فتح الباري» (٢/ ١٧٢).
(٢) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٥١).
(٣) «المفردات» (١٧٩).

أما منزلة الذِّكْر:

فيقول الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - عنها: «وهي منزلةُ القَوْمِ الكُبْرَى التي منها يتزودون، وفيها يَتَّجِرونَ، وإليها دائمًا يترددون.

والذِّكْرُ مَنْشُورُ الوِلاَيَةِ الذي مَنْ أُعْطِيَهُ اتَّصَلَ، ومن مُنِعَهُ عُزِلَ، وهو قُوتُ قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجسادُ لها قُبورًا، وعِمَارَةُ ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بورًا، وهو سلاحهم الذي يُقاتلونَ به قُطَّاعَ الطريق، وماؤهمُ الذي يُطفِئُونَ به التهابَ الحريق، ودواء أسقامهمُ الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصلُ؛ والعلاقةُ التي كانت بينهم وبَينَ عَلاَّمِ الغُيُوبِ.

إذَا مَرِضْــنَا تَدَاوَيْــنَا بِذِكْــرِكُمُ ... فَنَتْــرُكُ الذِّكْــرَ أَحْــيَانًا فَنَنْــتَكِسُ

به يستدفعون الآفات، ويستكشفون الكُرُبَاتِ، وتَهُونُ عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاءُ فإليه مَلْجَؤُهُمْ، وإذا نزلت بهم النوازلُ فإليه مَفْزَعُهُمْ، فهو رياضُ جنتهم التي فيها يتقلبون.. يَدَعُ القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويُوَصِّلُ الذَّاكِرَ إلى المَذْكُورِ، بل يَدَعُ الذَّاكِرَ مذكورًا.

وفي كُلِّ جارحةٍ من الجوارح عُبُودِيَّةٌ مؤقتةٌ. والذِّكْرُ عبوديةُ القلبِ واللسانِ وهي غيرُ مُؤَقَّتَةٍ، بل هم يُؤمرون بذكر معبودهم ومحبوبهم في كل حالٍ قيامًا وقعودًا، وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قِيعَانٌ، وهو غِراسُهَا فكذلك القلوبُ بُورٌ خَرَابٌ، وهو عِمَارَتُهَا وأَسَاسُهَا.

وهو جلاءُ القلوبِ وصِقَالُهَا، ودواؤها إذا غَشِيَهَا اعْتِلاَلُهَا، وكلما ازداد الذَّاكِرُ في ذكره استغراقًا. ازداد المذكورُ محبةً إلى لقائهِ واشتياقًا.. به يزول الوَقْرُ عن الأسماعِ، والْبَكَمُ عَنِ الأَلْسُنِ، وتنقشعُ الظلمةُ عن الأبصار. زَيَّنَ اللَّهُ به ألسنةَ الذاكرين، كما زَيَّنَ بالنورِ أبصارَ الناظرين، فاللسانُ الغافِلُ كالعينِ العمياء، والأُذُنِ الصَّمَّاءِ واليدِ الشَّلاَّءِ. وهو بابُ الله الأعظمُ المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يُغْلِقْهُ العبدُ بِغَفْلَتِهِ» ا.هـ[1].

عباد الله...

والذِّكْرُ على سبعة أنحاء:

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٤٠، ٤٤١).

فَذِكْرُ العينين بالبكاء.

وذِكْرُ الأذنين بالإصغاء.

وذِكْرُ اللّسانِ بالثّناء.

وذِكْرُ اليدين بالعطاء.

وذِكْرُ البدن بالوفاء.

وذِكْرُ القلب بالخوف والرجاء.

وذِكْرُ الرُّوحِ بالتّسليم والرِّضاء[١].

أمّا عن الآداب التي ينبغي أن يَتَحَلّى بها الذاكر:

فيقول الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: «ينبغي أن يكون الذَّاكِرُ على أَكْمَلِ الصِّفَاتِ، فإِنْ كان جالسًا في مَوْضِعٍ استقبلَ القِبْلَةَ وجلسَ مُتَخَشِّعًا مُتَذَلِّلاً بِسَكِينَةٍ وَوَقَارٍ، مُطْرِقًا رَأْسَهُ، وَلَوْ ذَكَرَ على غيرِ هذه الأحوال جَازَ، ولو كان ذلك «أي تَرَكَ الذَّاكِرُ ذلك» بغير عذرٍ كان تاركًا للأفضل، وينبغي أن يكون المَوْضِعُ الذي يَذْكُرُ فيه خاليًا نظيفًا، ولهذا مُدِحَ الذِّكْرُ في المساجد والأماكن الشريفة، وقد جاء عن أبي مَيْسَرَةَ «لاَ يُذْكَرُ اللّهُ تعالى إلا في مكانٍ طَيِّبٍ»، وينبغي للذاكرِ أيضًا أن يكون فَمُهُ نَظِيفًا، فإن كان فيه تَغَيُّرٌ أزالهُ بِالسِّوَاكِ ونحوه، وإن كان فيه نَجَاسَةٌ أزالها بالماء، فإن ذَكَرَ ولم يفعل، فهو مكروهٌ وليس بحرام، وهو[٢] محبوبٌ في جميع الأحوال، إلا في أحوالٍ وَرَدَ الشَّرْعُ باسْتِثْنَائِهَا منها: عند الجلوسِ على قَضَاءِ الحَاجَةِ، وفي حالةِ الجِمَاعِ وفي حالةِ الخُطْبَةِ لمن يَسْمَعُ صَوْتَ الخطيبِ، وفي القيامِ في الصلاة لأن عليه الاشتغالَ بالقراءة، وفي حالة النُّعَاسِ، ولا يُكْرَهُ في الطريق، ولا في الحَمَّامِ» ا.هـ[٣].

عباد الله...

وللذكر ثمرات يصعب حَصْرُها، ويكفي أن نشير - هنا - إلى بعضها.

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٢١٢، ٢١٣).
(٢) أي: الذكْر.
(٣) «الأذكار» للنووي (١٧، ١٨).

فمن ثمرات الذكر:

الثمرة الأولى: الفوز بمعية الله تعالى:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ الله يقول: أنا مع عبدي إنْ هو ذَكَرَني وتحرّكتْ بي شَفَتَاه»(١).

الثمرة الثانية والثالثة: رفع الدرجات، والنجاة من عذاب الله تعالى:

فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قالَ: قال النبيُّ ﷺ: «أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ، وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالورقِ، وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ؟». قالوا: بَلَى. قالَ: «ذِكْرُ الله تَعَالَى». فقالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: مَا شيءٌ أَنْجَى مِنْ عَذَابِ الله مِنْ ذِكْرِ الله(٢).

الثمرة الرابعة: النجاة من الشيطان:

فإن قيل: إذا تمكّن الذكرُ من القلب، فإن دنا منه الشيطان صُرِع، كما يُصْرَع الإنسانُ إذا دنا منه الشيطان، فتجتمع إليه الشياطينُ، فيقولون: ما هٰذا؟ فيقال: قَدْ مَسَّه الإنس(٣).

وَعَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَى يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ يَعْمَلَ بِهِنَّ، يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ فَكَأَنَّهُ أَبْطَأَ بِهِنَّ، فَأَتَاهُ عِيسَى فَقَالَ: إِنَّ الله أَمَرَكَ بِخَمْسٍ أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَتَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، فَإِمَّا أَنْ تُخْبِرَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ أُخْبِرَهُمْ، فَقَالَ: يَا أَخِي، لاَ تَفْعَلْ فَإِنِّي أَخَافُ إِنْ تَسْبِقْنِي بِهِنَّ أَنْ يُخْسَفَ بِي، أَوْ أُعَذَّبَ. قَالَ: فَجَمَعَ يَحْيَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ حَتَّى امْتَلَأَ الْمَسْجِدُ وَقَعَدُوا عَلَى الشُّرُفَاتِ، ثُمَّ خَطَبَهُمْ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ أَنْ أَعْمَلَ بِهِنَّ، وَآمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ، أَوَّلُهُنَّ: أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِالله شَيْئًا، فَإِنَّ مَنْ أَشْرَكَ بِالله كَمَثَلِ رَجُلٍ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِذَهَبٍ أَوْ وَرِقٍ، ثُمَّ أَسْكَنَهُ دَارًا. فَقَالَ: اعْمَلْ وَارْفَعْ إِلَيَّ

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٦٢٩).

(٣) «الرسالة القشيرية» (٢٢٥).

فَجَعَلَ يَعْمَلُ وَيَرْفَعُ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ، فَأَيُّكُمْ يَرْضَى أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الله خَلَقَكُمْ وَرَزَقَكُمْ فَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَإِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ فَلاَ تَلْتَفِتُوا، فَإِنَّ الله يُقْبِلُ بِوَجْهِهِ إِلَى وَجْهِ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ وَآمُرُكُمْ بِالصِّيَامِ، وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ فِي عِصَابَةٍ مَعَهُ صُرَّةُ مِسْكٍ، كُلُّهُمْ يُحِبُّ أَنْ يَجِدَ رِيحَهَا، وَإِنَّ الصِّيَامَ أَطْيَبُ عِنْدَ الله مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، وَآمُرُكُمْ بِالصَّدَقَةِ وَمَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ الْعَدُوُّ فَأَوْثَقُوا يَدَهُ إِلَى عُنُقِهِ، وَقَرَّبُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَجَعَلَ يَقُولُ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْدِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ، وَجَعَلَ يُعْطِي الْقَلِيلَ وَالْكَثِيرَ حَتَّى فَدَى نَفْسَهُ، وَأَمُرُكُمْ بِذِكْرِ الله كَثِيرًا، وَمَثَلُ ذِكْرِ الله كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سِرَاعًا فِي أَثَرِهِ حَتَّى أَتَى حِصْنًا حَصِينًا فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ فِيهِ، وَكَذَلِكَ الْعَبْدُ لاَ يَنْجُو مِنَ الشَّيْطَانِ إِلاَّ بِذِكْرِ الله».

قال النبيُّ ﷺ: «وَأنا آمركم بخمس: اللهُ أَمَرَني بِهِنَّ: السمعُ والطاعةُ، والجهادُ، والهجرةُ، والجماعةُ، فإنَّه مَنْ فَارق الجماعة قَيْدَ شِبْرٍ، فقد خلع رِبْقَة الإسلام[١] من عُنُقه إلاّ أن يُرَاجِعَ، ومن ادَّعَى دعوى الجاهلية، فإنّه من جُثاءِ جَهَنَّم»[٢]. فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟ فقال: «وإن صَلَّى وصَامَ، فادْعُوا الله الذي سَمّاكم المسلمين المؤمنينَ عِبَادَ الله»[٣].

الثمرة الخامسة: مباهاة الله تعالى بالذاكرين ملائكته:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَى حَلْقَةٍ فِي الْمَسْجِدِ. فَقَالَ: مَا أَجْلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ. قَالَ: آللَّهِ، مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ. وَمَا كَانَ أَحَدٌ بِمَنْزِلَتِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَقَلَّ عَنْهُ حَدِيثًا مِنِّي. وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «مَا أَجْلَسَكُمْ؟» قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا. قَالَ: «آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟» قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ. قَالَ: «أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي أَنَّ اللَّهَ ﷻ يُبَاهِي بِكُمُ الْمَلَائِكَةَ»[٤].

---

(١) الربقة: هي عُرى حبل تشدّ به البهم، وتُستعار لغيره.

(٢) من جثاء جهنم: أي من جماعات جهنم.

(٣) صحيح: رواه الترمذي (٢٨٦٣)، وغيره، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).

(٤) رواه مسلم (٤/ ٢٧٠١).

عباد الله...

هذه بعضُ ثمرات ذكر الله - تعالى - فاحرصوا - يرحمكم الله - على ذِكْر ربكم. ولا تكونوا من الغافلين.

أقول قولي هذا، وأستغفرالله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: أحيانًا أذكر ربِّي بلساني، ولا أجد في قلبي حلاوة، فما أصنع؟

والجواب: سُئل أبو عثمان: نحن نذكر الله تعالى ولا نجد في قلوبنا حلاوة، فقال: «لا تَتْرُكِ الذِّكْر لعدم حضورك مع اللَّهِ فيه: لأن غفلتك عن وجود ذِكْرِهِ، أشدُّ من غفلَتِكَ في وجودِ ذِكْرِه، فعسى أن يَرْفَعَكَ مِنْ ذِكْرٍ مع وجود غَفْلَة إلى ذكرٍ مع وجود يقظة، ومن ذكرٍ مع وجود يَقَظَة إلى ذكر مع وجود حُضُور، ومن ذِكْر مع وجودِ حُضُور إلىَ ذِكْر مع وجود غَيْبَةٍ عمّا سِوَى المذكور. وما ذلك على الله بعزيز».

احمدوا الله تعالى على أن زيَّن جارحة من جوارحكم بطاعته[1].

اللّهمّ أعِنّا على ذِكْرِك، وشكرِك، وَحُسْنِ عِبَادَتِك

(١) «الرسالة القشيرية» (٢٢٢).

الخطبة الخمسون

فَضْلُ ذِكْرِ الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلِل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فما زال الحديث موصولاً عن سابع المنعَّمين في ظل العرش وهو: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

وتكلّمنا في الجمعة الماضية عن خمس **ثمرات** من ثمرات الذكر، ونضيف اليوم - إن شاء الله تعالى - **سبع ثمرات** أخرى:

الثمرة السادسة: الفوز بذكر الله تعالى للذاكر:

قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. قال الحسن - رحمه الله -: «إن الله يَذْكُر من ذَكَره، ويزيدُ مَنْ شكره، ويُعذِّب مَنْ كَفَره».

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ -رضي الله عنهما - أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَقْعُدُ قَوْمٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ ﷻ إِلَّا حَفَّتْهُمْ الْمَلَائِكَةُ، وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ، وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ السَّكِينَةُ، وَذَكَرَهُمْ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»[(١)].

الثمرة السابعة: دخول الجنة:

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَلَّتَانِ[(٢)] لَا يُحْصِيهِمَا رَجُلٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، أَلَا وَهُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ، يُسَبِّحُ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُهُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُهُ عَشْرًا، قَالَ فَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ قَالَ: «فَتِلْكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ تُسَبِّحُهُ وَتُكَبِّرُهُ وَتَحْمَدُهُ مِائَةً فَتِلْكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ، فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَمِائَةِ سَيِّئَةٍ؟». قَالُوا: فَكَيْفَ لَا يُحْصِيهَا؟ قَالَ: «يَأْتِي أَحَدَكُمْ الشَّيْطَانُ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، حَتَّى يَنْتَقِلَ فَلَعَلَّهُ لَا يَفْعَلُ، وَيَأْتِيهِ وَهُوَ فِي مَضْجَعِهِ فَلَا يَزَالُ يُنَوِّمُهُ حَتَّى يَنَامَ»[(٣)].

الثمرة الثامنة: استجابة الدعاء:

عَنْ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ تَعَارَّ[(٤)] مِنْ اللَّيْلِ فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ. ثُمَّ قَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، أَوْ قَالَ: «ثُمَّ دَعَا اسْتُجِيبَ لَهُ فَإِنْ عَزَمَ فَتَوَضَّأَ ثُمَّ صَلَّى قُبِلَتْ صَلَاتُهُ»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠٠).

(٢) خلتان: خصلتان.

(٣) رواه الترمذي (٣٤١٠)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، والنسائي (١٣٤٨).

(٤) تعارّ: تقلّب على فراشه، وقيل: انتبه.

(٥) رواه البخاري (١١٥٤)، والترمذي (٣٤١٤) واللفظ له.

الثمرة التاسعة: جلاء القلب:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «لِكُلِّ شيءٍ جلاءٌ، وإن جلاءَ القلوبِ ذِكْرُ الله ﷻ»(١).

الثمرة العاشرة: البراءة من النفاق:

قال كعبُ بْنُ مالك رضي الله عنه: «مَنْ أكْثَر ذِكْرَ الله بَرِئَ مِنَ النِّفاق»(٢).

عباد الله...

والثمرة الحادية عشرة: سعة الرزق:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال: كنّا عند رسول الله ﷺ فجاء رجلٌ من أهل البادية عليه جُبَّة سيحان مَزْرورة بالدِّيباج. فقال: ألا إن صاحبكم هذا قد وَضَع كُلَّ فارس ابن فارس - أو قال: يريد أن يضع كُلَّ فارس ابن فارس - ورفع كلّ راعٍ ابن راع. قال: فأخذ رسولُ الله ﷺ بمجامع جُبَّتِهِ وقال: «**ألا أرى عليك لِبَاس مَنْ لا يَعْقِل**»؟!

ثم قال ﷺ: «**إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا عليه السَّلام لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنِهِ: إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكَ وَصِيَّةً، آمُرُكَ بِاثْنَتَيْنِ، وَأَنْهَاكَ عَنْ اثْنَتَيْنِ: آمُرُكَ بِلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَإِنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ لَوْ وُضِعَتْ فِي كِفَّةٍ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي كِفَّةٍ رَجَحَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ كُنَّ حَلْقَةً مُبْهَمَةً ضَمَّتهن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَسُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ فَإِنّ بها صَلَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، وَبِهَا يُرْزَقُ الْخَلْقُ، وَأَنْهَاكَ عَنْ الشِّرْكِ وَالْكِبْرِ**».

قَالَ قُلْتُ: أَوْ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، هَذَا الشِّرْكُ قَدْ عَرَفْنَاهُ، فَمَا الْكِبْرُ؟ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا نَعْلَانِ حَسَنَتَانِ لَهُمَا شِرَاكَانِ حَسَنَانِ؟ قَالَ: «**لا**».

قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا حُلَّةٌ يَلْبَسُهَا؟ قَالَ: «**لا**».

قَالَ: هُوَ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا دَابَّةٌ يَرْكَبُهَا؟ قَالَ: «**لا**».

قَالَ: هو أَنْ يَكُونَ لِأَحَدِنَا أَصْحَابٌ يَجْلِسُونَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «**لا**».

---

(١) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (٥٢٣).
(٢) رواه البيهقي في «شعب الإيمان» (١/ ٤١٥).

قلت: - أو قِيلَ -: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَا الْكِبْرُ؟

قَالَ: «سَفَهُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ»(١).

الثمرة الثانية عشرة: النجاة من النار:

فعن الأغرّ أبي مسلم قال: أشهد على أبي سعيد، وأبي هريرة، أنهما شهدا على النبيّ ﷺ أنه قال: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، صَدَّقَهُ رَبُّهُ، وَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ.

وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، قَالَ: يَقُولُ اللَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا، وَأَنَا وَحْدِي.

وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، قَالَ اللَّهُ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَحْدِي، لَا شَرِيكَ لِي.

وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، لَهُ الْمُلْكُ، وَلَهُ الْحَمْدُ، قَالَ اللَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا لِيَ الْمُلْكُ وَلِيَ الْحَمْدُ.

وَإِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، قَالَ الله: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِي».

وَكَانَ يَقُولُ: «مَنْ قَالَهَا فِي مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ»(٢).

عباد الله...

وثمرات الذِّكْر أكثر بكثير مما ذكرنا.

وخلاصة الكلام: ما قاله ابْنُ القيم - رحمه الله تعالى -: «الذكرُ بابُ المحبّةِ وَشَارِعُها الأعْظَمُ، وصراطُها الأَقْوَم».

وقالَ - رحمه الله -: «مَحَبَّةُ الله تعالى ومَعْرِفَتُهُ وَدَوَامُ ذِكْرِهِ والسُّكُونُ إليه والطَّمَأْنِينَةُ إليه وإفْرَادُهُ بالحُبِّ والخَوْفِ والرَّجاءِ والتَّوَكُّلِ والمُعَامَلَةِ بِحَيْثُ يَكُونُ هَوَ وَحْدَهُ المُسْتَوْلِي عَلَى هُمُومِ الْعَبْدِ وَعَزَمَاتِهِ وإرادَتِهِ، هُوَ جَنَّةُ الدُّنْيَا والنَّعِيمُ الذي لا يُشْبِهُهُ نَعِيمٌ، وَهُوَ قُرَّةُ عَيْنِ الْمُحِبِّينَ وَحَيَاةُ الْعَارِفِينَ»(٣).

---

(١) رواه أحمد، وقال ابن كثير: إسناده صحيح ولم يخرجوه.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي (٣٦٧٠) وغيره، وصحّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٢٧).

(٣) «الوابل الصّيّب» (٧٠).

اللهم ارزقنا لسانًا رَطْبًا بِذِكْرِك، وقلبًا مُفعمًا بشكرك.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

والثمرة الثالثة عشرة: أن الذكر غراس الجنة:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لقِيتُ لَيلةَ أُسْرِي بي إبراهيمَ الخليلَ عليه السّلامُ فقال: يا محمّد، أَقْرِئْ أُمّتَكِ مِنّي السّلام،وأخبرهم أن الجنة طيِّبَةُ التُّرْبَةَ، عَذْبَةَ الماء، وأنّها قِيعانٌ، وأن غِرَاسَها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاّ الله، والله أكبر»(١).

وعن جابر رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «مَنْ قال: سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِه، غُرِسَتْ له نَخْلَةٌ في الجنّة»(٢).

عباد الله...

والثمرة الرابعة عشرة: قوّة البدن:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «حضرتُ شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - مرّة صلّى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي ولو لم أتغذّ هذا الغذاء سقطت قُوّتي، أو كلامًا قريبًا من هذا» ا.هـ(٣).

والثمرة الخامسة عشرة: جلاء القلب:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله -: «لا ريب أن القلب يصدأ كما يصدأ النحاس

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣٤٦٢).

(٢) صحيح: رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٦٤٢٩).

(٣) من «الوابل الصّيب».

والفضة وغيرهما، وجلاؤه بالذكر، فإنه يجلوه حتى يدعه كالمرآة البيضاء، فإذا ترك الذكر صدئ، فإذا ذكره جلاه.

وصدأ القلب بأمرين: بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين: بالاستغفار والذّكر» ا.هـ[1].

عباد الله...

هذه بعض ثمرات الذّكر فاحرصوا على قطفها، وأجهدوا أنفسكم في نيلها، وادعوا ربكم:

اللّهُمّ أَعِنَّا على ذِكْرِك وشكرِك وَحُسْنِ عِبَادَتِك

---

(١) المرجع السابق.

الخطبة الحادية والخمسون

فَضْلُ الْخَشْيَة من الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فما زال الحديث موصولاً عن سابع المنعّمين في ظلّ العرش وهو: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

ونتكلّم اليوم - بإذن الله تعالى - عن خُلُقِ «**البكاء من خشية الله**»، سائلاً المولى - تبارك وتعالى - أن يرزقنا أعينًا باكية من خشيته.

عباد الله...

ما معنى الخشية؟ وما الفرق بينها وبين الخوف؟ وما هي العلامات التي تظهر على أهل الخشية؟

هذا ما سوف نتحدّث عنه في خطبة اليوم - إن شاء الله - ونسأل الله تعالى التوفيق.

أما تعريف الخشية:

فالْخَشْيَةُ: خَوْفٌ يَشُوبُهُ تَعْظِيمٌ، وقِيلَ: هي الخوفُ المَقْرُونُ بِإجْلاَلٍ. وقِيلَ: هي تَأَلُّمُ القَلْبِ بِسَبَبِ توقُّع مكروهٍ في المستقبل يكونُ تارةً بكثرة الجنَايَةِ مِنَ الْعَبْدِ، وتارةً بمعرفةِ جلالِ الله وهَيْبَتِهِ.

أما الفرق بين الخشية والخوف:

فيقول الفيروز آبادي: الْخَشْيَةُ أَخَصُّ مِنَ الخَوْفِ، فإنَّ الخشيةَ للعلماءِ بالله تعالى، فهي خوفٌ مقْرُونٌ بمَعْرِفَةٍ، قالَ النبيُّ ﷺ: «**إِنِّي أَتْقَاكُمْ لله وَأَشَدُّكُمْ لَهُ خَشْيَةً**».

فالخوفُ حَرَكَةٌ، والخشيةُ انْجِمَاعٌ وانْقِبَاضٌ وسُكُونٌ. فالخَوْفُ لِعامَّةِ المؤمنينَ، والخشيةُ للعلماءِ العارفِينَ، والهَيْبَةُ للمُحِبِّينَ، والوَجَلُ للمُقَرَّبِينَ، وعلى قدْرِ العِلْمِ والمعرفةِ تكونُ الخشيةُ.

قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لضَحِكْتُمْ قَلِيلاً وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَا تَلَذَّذْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرُشِ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إِلَى الله تَعَالَى**».

فَصَاحِبُ الخَوْفِ يَلتَجِئُ إلى الهرب والإِمْسَاكِ، وصَاحِبُ الخشيةِ يلْتَجِئُ إلى الاعْتِصَامِ بالعِلْمِ، ومَثَلُهُمَا كَمَثَلِ مَنْ لاَ عِلْمَ لَهُ بِالطِّبِّ ومَثَلِ الطَّبِيبِ الحَاذِقِ فالأول يَلْتَجِئُ إلى الحِمْيَةِ والهَرَبِ، والطَّبِيبُ يَلْتَجِئُ إلى مَعْرِفَتِهِ بالأدويةِ والأَدْوَاءِ. وكُلُّ واحدٍ إذا خِفْتَهُ هَرَبْتَ مِنْهُ، إلاَّ اللهُ، فإِنَّكَ إذا خِفْتَه هَرَبْتَ إليهِ فالخَائِفُ هَارِبٌ مِنْ رَبِّهِ إلى رَبِّهِ[1].

وقالَ الكَفَوِيُّ: الخشيةُ أَشَدُّ مِنَ الخَوْفِ لأَنَّهَا مَأْخُوذَةٌ مِنْ قولهم شَجَرَةٌ خَاشِيَةٌ أي يَابِسَةٌ وهو مَوَاتٌ بالكُلِّيَةِ، والخوفُ النَّقْصُ مُطْلَقًا من قولهم نَاقَةٌ خَوْفَاءُ أي بها دَاءٌ

---

(١) «بصائر ذوي التمييز» للفيروز آبادي (٢/ ٥٤٤ - ٥٤٦).

وليس بفوَاتٍ، ولذلك خُصَّتِ الخشيةُ بالله في قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ [الرعد: ٢١] والخَشْيَةُ تكونُ مِنْ عِظَمِ المُخْشِيِّ وإنْ كان الخَاشِي قَوِيًّا، والخوفُ يكونُ مِنْ ضَعْفِ الخَائِفِ وإنْ كَانَ المَخُوفُ أَمْرًا يَسِيرًا.

وأيضًا فإنَّ أصْلَ الخشيةِ خوفٌ مع تعظيمٍ ولذلك خُصَّ بها العلماءُ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] على قِرَاءَةِ نَصْبِ لَفْظِ الجلالةِ» ا.هـ[١].

أيها المسلمون...

وقد كان نبيّنا ﷺ أتقانا لله، وأشدّنا له خشية، وكان يسأل ربَّه - تبارك وتعالى - خشيته في الغيب والشهادة. وهذه نصوص تبيّن ذلك:

عَنِ السَّائِبِ قَالَ: صَلَّى بِنَا عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ صَلَاةً فَأَوْجَزَ فِيهَا فَقَالَ لَهُ بَعْضُ الْقَوْمِ لَقَدْ خَفَّفْتَ أَوْ أَوْجَزْتَ الصَّلاَةَ. فَقَالَ: أَمَّا عَلَى ذَلِكَ فَقَدْ دَعَوْتُ فِيهَا بِدَعَوَاتٍ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمَّا قَامَ تَبِعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ هُوَ أُبَيٌّ غَيْرَ أَنَّهُ كَنَى عَنْ نَفْسِهِ فَسَأَلَهُ عَنِ الدُّعَاءِ ثُمَّ جَاءَ فَأَخْبَرَ بِهِ الْقَوْمَ:

«اللَّهُمَّ بِعِلْمِكَ الْغَيْبَ وَقُدْرَتِكَ عَلَى الْخَلْقِ، أَحْيِنِي مَا عَلِمْتَ الْحَيَاةَ خَيْرًا لِي وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي، اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَأَسْأَلُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى، وَأَسْأَلُكَ نَعِيمًا لاَ يَنْفَدُ، وَأَسْأَلُكَ قُرَّةَ عَيْنٍ لاَ تَنْقَطِعُ، وَأَسْأَلُكَ الرِّضَاءَ بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَأَسْأَلُكَ بَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ فِي غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلاَ فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ، اللَّهُمَّ زَيِّنَّا بِزِينَةِ الْإِيمَانِ وَاجْعَلْنَا هُدَاةً مَهْدِيِّينَ»[٢].

وعَنِ ابْنَ عُمَرَ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنْ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا، وَمَتِّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوَّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا، وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنَّا، وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ

---

(١) «الكليات» للكفوي (٢/ ٣٠٢). و«نضرة النعيم» (١٨٣٩).

(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٣/ ٥٤، ٥٥)، وصححه الألباني.

ظَلَمَنَا، وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا، وَلَا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا، وَلَا تَجْعَلْ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلَا مَبْلَغَ عِلْمِنَا، وَلَا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لَا يَرْحَمُنَا»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**إني لأنقَلِبُ إلى أَهْلِي، فأجِدُ التَّمْرَة ساقطةً على فِرَاشِي فأرفعُها لآكُلَهَا، ثم أَخْشَى أن تكون صَدَقَةً فأُلْقِيهَا**»(٢).

ورواية لأنس رضي الله عنه قال: مرّ النبيُّ ﷺ بتمرة في الطريق قال: «**لولا أنّي أخافُ أن تكون من الصَّدقة لأكلتُها**»(٣).

قال الإمام ابن حجر - رحمه الله - في شرحه هٰذين الحديثين:

«قوله ﷺ «**لأكلتها**» ظاهر في جواز أكل ما يوجد من المحقرات ملقى في الطرقات، لأنه ﷺ ذكر أنه لم يمتنع من أكلها إلاّ تورّعًا لخشية أن تكون من الصدقة التي حرمت عليه، لا لكونها مرمية في الطريق فقط. وقد أوضح ذلك قوله في حديث أبي هريرة: «**على فراشي**» فإنه ظاهر في أنه ترك أخذها تورّعًا لخشية أن تكون صدقة، فلو لم يخش ذلك لأكلها، ولم يذكر تعريفًا فدلّ على أن مثل ذلك يملك بالأخذ ولا يحتاج إلى تعريف» ا.هـ(٤).

وَعَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا كَانَ يَوْمُ الرِّيحِ وَالْغَيْمِ، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، وَأَقْبَلَ وَأَدْبَرَ. فَإِذَا مَطَرَتْ، سُرَّ بِهِ، وَذَهَبَ عَنْهُ ذَلِكَ. قَالَتْ عَائِشَةُ: فَسَأَلْتُهُ. فَقَالَ: «**إِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ عَذَابًا سُلِّطَ عَلَى أُمَّتِي**». وَيَقُولُ إِذَا رَأَى الْمَطَرَ: «**رَحْمَةٌ**».

وفي لفظٍ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ مُسْتَجْمِعًا(٥) ضَاحِكًا حَتَّى أَرَى مِنْهُ لَهَوَاتِهِ(٦).

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي (٣٥٠٢)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٥٢٨)، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٢) رواه البخاري (٢٤٣٢)، ومسلم (١٠٧٠).

(٣) رواه البخاري (٢٤٣١).

(٤) «فتح الباري» (٥/ ١٠٤).

(٥) **مستجمعًا**: المستجمع: المجد في الشيء، القاصد له.

(٦) **لهواته**: اللهوات جمع لهاة، وهي اللحمية الحمراء المعلقة في أعلى الحنك.

إِنَّمَا كَانَ يَتَبَسَّمُ. قَالَتْ: وَكَانَ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا، عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الْغَيْمَ فَرِحُوا. رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ الْمَطَرُ. وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ، عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الْكَرَاهِيَةَ؟ قَالَتْ: فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ. قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بِالرِّيحِ. وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ الْعَذَابَ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**»[١].

عباد الله...

أما علامات الخشية: فأهل الخشية تظهر عليهم علاماتٌ، من هذه العلامات:

العلامة الأولى: اتقاءُ الشُّبهات:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «تمام التقوى: أن يتّقي الله العبدُ حتى يتّقيه من مثقال ذرّة، وحتى يترك بَعْضَ مايرى أنه حلالٌ خشيةَ أن يكون حرامًا يكون حجابًا بينه وبين الحرام»[٢].

العلامة الثانية: العمل بالعلم:

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إنما أخافُ أن يكون أوّل ما يسألني عنه ربِّي أن يقول: قد علمتَ، فماذا عَمِلْتَ فيما عَلِمْتَ؟»[٣].

العلامة الثالثة: الخوف الملازم:

قال الحسن – رحمه الله –: «إن المؤمن جمع إيمانًا وخشية، والمنافق جَمَعَ إساءَةً وأَمْنًا».

العلامة الرابعة: فعل الطاعات واجتناب المحرمات:

قال الإمام الحسن – رحمه الله –: «الإيمانُ من خَشِي الله بالْغَيْب، وَرَغِب فيما رَغِبَ اللَّهُ فيه، وَزَهِدَ فيما أَسْخَطَ الله».

العلامة الخامسة: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

فعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**لا يَحْقِرُ أحدُكم نَفْسه**».

قالوا: يا رسول الله، كيف يحقر أحدنا نفسه؟

---

(١) رواه البخاري (٤٨٢٨)، (٤٨٢٩)، ومسلم (٨٩٩) واللفظ له.

(٢) «الدرّ المنثور» (٧/ ٢٠).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (٤١).

قال ﷺ: «يرى أمرًا لله عليه فيه مقالٌ، ثم لا يقولُ فيه. فيقول الله ﷻ له يوم القيامة: مَا مَنَعَك أن تقول فِيّ كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس. فيقول: فإيّايَ كُنْتَ أَحَقَّ أَنْ تَخْشَى»[1].

عباد الله...

هذه بعض العلامات التي تظهر على أهل الخشية، فمن رُزِقَها، فهو على خير، ومن حُرِمَها فهو على خطر.

نسأل الله - تعالى - السَّلاَمَةَ من كل إثم، والغنيمةَ من كُلّ برٍّ، والفوزَ بالجنة، والنجاة من النار.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى..

وبعد...

فقد يسأل سائل: وكيف السبيل إلى تحصيل الخشية؟

والجواب: السبيل إلى تحصيل الخشية: معرفة الله تعالى:

قال أحمد بن عاصم - رحمه الله -: من كان بالله أعرف، كان له أخوف، ويدلّ على هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

وقول النبيّ ﷺ: «أنا أعلمكم بالله، وأشدّكم له خشية»[2].

فعلى قَدْر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية[3].

قال ﷺ: «لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيرًا وَلَمَا تلذذتم بالنِّساء على الْفُرُشِ ولخرجتم إلى الصُّعُدات تجأرون إلى الله تعالى»[4].

---

(١) **صحيح**: رواه ابن ماجه (٤٠٠٨)، وقال في «الزوائد»: إسناده صحيح رجاله ثقات.

(٢) رواه البخاري معلّقًا «الفتح» (١/ ٧٠) في «الإيمان»، باب: قول النبي ﷺ: «**أنا أعلمكم بالله**».

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٥١٣).

(٤) رواه الترمذي (٢٣١٢)، وقال: حسن غريب، وابن ماجه (٤١٩٠).

وقد يسأل سائل: وكيف السبيل إلى معرفة الله؟

والجواب سيأتي في الجمعة القادمة - إن شاء الله تعالى.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين مَعْصِيَتك
ومن طاعتك ما تبلّغنا به جَنّتك
ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا.

الخطبة الثانية والخمسون

فضل معرفة الله تعالى

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فما زال الحديث موصولاً عن سابع المتعّمين في ظل العرش وهو: «**رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه**».

وسنجيب اليوم - إن شاء الله - عن السؤال الذي طُرح في الجمعة الماضية وهو: **كيف السبيل إلى معرفة الله تعالى؟**

والجواب عن هذا السؤال يدور حول خمسة أمور:

الأول: تعريفُ المعرفة بالله تعالى.

والثاني: حكمُ مَعْرِفَةِ الله ﷻ.

والثالث: طريق المعرفة بالله تعالى.

والرابع: علامات العارف بالله تعالى.

والخامس: ثمرات المعرفة بالله تعالى.

وأسأل الله تعالى التوفيق.

عباد الله...

أما عن تعريف المعرفة بالله تعالى: فيقول الكَفَوِيُّ: «المَعْرِفَةُ في اصْطِلاَحِهِمْ: هِيَ مَعْرِفَةُ الله ﷻ بِلاَ كَيْفٍ ولاَ تَشْبِيهٍ»[١].

وقال بعضهم: «معرفةُ الله ﷻ هي ثمرةُ التوحيد، والمراد بها: معرفتُهُ ﷻ بصفاتِهِ الواجبة له مع تنزيهِهِ عما يستحيلُ اتصافُهُ به، معرفةً صحيحةً ناشئةً عن الأدلةِ اليقينية»[٢].

وأمّا عن حكم معرفة الله تعالى: فيقول الكَفَوِيُّ - أيضًا -: «معرفة الله تعالى بالدليل الإجمالي فرض عين لا مخرج عنه لأحدٍ من المكلّفين، وهي بالتفصيل فرض كفاية لابدّ أن يقوم به البعض[٣]» ا.هـ[٤].

أيها المسلمون...

والناس يتفاضلون في معرفة الله تعالى: قال شيخ الإسلام ابنُ تَيْمِيَّةَ:

«أَصْلُ التفاضُل بين الناس إنما هو بمعرفةِ الله ومحبَّته. وإذا كانوا يتفاضلونَ فيما

---

(١) «الكليات» (٨٢٥).

(٢) «توضيح العقيدة المفيدة في علم التوحيد» (ص ٧).

(٣) المراد بالمعرفة التفصيلية معرفة ما جاء به القرآن الكريم والسّنّة المطهرة عن الله تعالى وأسمائه وصفاته، لا ما ادّخره الله في علم الغيب عنده انظر: «نضرة النّعيم» (٣٤٣٧).

(٤) «الكليات» (٨٢٥).

يعرفونَهُ من المعروفات، وإذا كانوا يتفاضلون في معرفةِ الملائكة وصفاتهم والتصديق بهم، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاتِهِ والتصديقِ به أعظمُ، وكذلك إن كانوا يتفاضلون في معرفة روح الإنسانِ وصفاتها، والتصديق بها، أو في معرفة الجِنِّ وصفاتهم وفي التصديق بهم، أو في معرفة ما في الآخرةِ من النَّعِيمِ والعذابِ، فتفاضلهم في معرفة الله وصفاتِهِ «أعْظَمُ»، بَلْ إنْ كانوا مُتفاضلينَ في معرفة أبدانهم وصفاتها، وصِحَّتِهَا ومَرَضِهَا، وما يَتْبَعُ ذلك فتفاضلهم في معرفة الله تعالى أعظم وأعظم، إنَّ كُلَّ ما يُعْلَمُ ويُقَالُ يدخلُ في معرفةِ الله تعالى، إذْ لاَ موجود إلا وهو خَلْقُهُ وكُلُّ ما في المخلوقاتِ مِنَ الصِّفاتِ والأسماءِ والأقدارِ والأفعالِ شَوَاهِدُ ودَلاَئلُ على ما لله سُبْحَانَهُ من الأسماء الحُسْنَى والصِّفَاتِ العُلَى، وكُلُّ كمالٍ في المخلوقاتِ مِنْ أَثَرِ كَمَالِهِ، وكُلُّ كَمالٍ ثَبَتَ لمخلوقٍ فالخالِقُ أَحَقُّ بِهِ، وكُلُّ نَقْصٍ تَنَزَّهَ عنه مَخْلُوقٌ فالخَالِقُ أَحَقُّ بتنزيهِهِ عَنْهُ، لَقَدْ ثَبَتَ في الحديثِ الشَّرِيفِ أَنَّ لله أَسماءً اسْتَأْثَرَ بها[1] في عِلْمِ الغَيْبِ عنده، وأسماءُ الله مُتَضَمِّنَةٌ لصفاتِهِ، وليستْ أسماءَ أعلامٍ مَحْضَةً، وإذا كان من أسمائِهِ ما اخْتَصَّ هُوَ بمعرفتِهِ، ومن أسمائِهِ ما خَصَّ به ما شاء من عباده، عُلِمَ أَنَّ تَفاضُلَ الناس في معرفتِهِ أعظمُ من تفاضلهم في معرفةِ كُلِّ ما يَعْرِفُونَهُ»[2].

وأما طرق المعرفة بالله تعالى:

فيقول ابن القيم - رحمه الله -: «الرَّبُّ تعالى يدعو عِبادَهُ في القُرآنِ الكريمِ إلى معرفتِهِ من طريقين: **أَحَدُهُمَا**: النَّظَرُ في مفعولاتِه.

والثَّاني: التَّفَكُّرُ في آياتِهِ وتَدَبُّرِهَا، فتلك[3] وهذه آياتُهُ المسموعةُ المعقولة.

فالنوعُ الأولُ كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ**﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقولِهِ عز من قائلٍ:

---

(١) جاء في الحديث الذي رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ: «... أَسْأَلُكَ بكل اسْمٍ سَمَّيْتَ به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا مِنْ خَلْقِكَ أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري...» الحديث. رواه أحمد وإسناده صحيح.

(٢) بتصرف واختصار عن الفتاوى (٧/ ٥٦٩ - ٥٧١) وانظر: «نضرة النعيم» (٣٤٣٨).

(٣) تلك: إشارة إلى مفعولات الله أي مخلوقاته، وهذه: إشارة إلى آي القرآن الكريم.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]. وَمِثْلُ هذا كثيرٌ في القرآن.

الثَّاني: كقولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢].

وقولهُ عَزَّ منْ قائلٍ: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا القَوْلَ﴾ [المؤمنون: ٦٨]، وقولهُ سبحانهُ: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] وهو كثيرٌ أيضًا.

عباد الله...

أما علامات العارف بالله: فللعارف بالله علامات يُعرف بها، من هذه العلامات:

العلامة الأولى: نور القلب:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْقُلُوبُ أَرْبَعَةٌ: قَلْبٌ أَجْرَدُ فِيهِ مِثْلُ السِّرَاجِ يُزْهِرُ، وَقَلْبٌ أَغْلَفُ مَرْبُوطٌ عَلَى غِلَافِهِ، وَقَلْبٌ مَنْكُوسٌ، وَقَلْبٌ مُصْفَحٌ، فَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَجْرَدُ فَقَلْبُ الْمُؤْمِنِ، سِرَاجُهُ فِيهِ نُورُهُ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْأَغْلَفُ فَقَلْبُ الْكَافِرِ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمَنْكُوسُ فَقَلْبُ الْمُنَافِقِ، عَرَفَ ثُمَّ أَنْكَرَ، وَأَمَّا الْقَلْبُ الْمُصْفَحُ فَقَلْبٌ فِيهِ إِيمَانٌ وَنِفَاقٌ، فَمَثَلُ الْإِيمَانِ فِيهِ كَمَثَلِ الْبَقْلَةِ يَمُدُّهَا الْمَاءُ الطَّيِّبُ، وَمَثَلُ النِّفَاقِ فِيهِ كَمَثَلِ الْقَرْحَةِ يَمُدُّهَا الْقَيْحُ وَالدَّمُ، فَأَيُّ الْمَادَّتَيْنِ غَلَبَتْ عَلَى الْأُخْرَى غَلَبَتْ عَلَيْهِ»[1].

العلامة الثانية: فقه القلب:

قال ابن عباس رضي الله عنه: «أَفْضَلُ العِبَادَةِ الْفِقْهُ في الدِّينِ، والحقُّ سبحانَهُ وتعالى جَعَلَ الفقهَ صِفَةَ القَلْبِ فقال: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩]، فَلَمَّا فَقِهُوا عَلِمُوا، ولَمَّا عَلِمُوا عَمِلُوا، ولَمَّا عَمِلُوا عَرَفُوا، ولَمَّا عَرَفُوا اهْتَدَوْا، فَكُلُّ مَنْ كان أفقهَ كانت نفْسُهُ أَسْرَعَ إجابةً وأكثرَ انقيادًا لِمَعَالِمِ الدِّينِ وأَوْفَرَ حظًّا من نُورِ اليقينِ، فالعِلْمُ جُمْلَةٌ مَوْهُوبَةٌ من الله للقلوبِ والمعرفةُ تُمَيِّزُ تِلْكَ الجُمْلَةَ».

العلامة الثالثة: الخوف من الله تعالى:

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «أخوف الناس لربّه أعرفُهُم بربّه، ولذلك قال ﷺ:

(١) رواه أحمد (١/ ٣٠٧)، وقال الشيخ أحمد شاكر: رواه أحمد بثلاثة أسانيد أحدها صحيح متصل.

«أنا أخوفُكُم لله».

وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. ثم إذا أكملت المعرفةُ أورثت جلال الخوف واحتراق القلب» ا.هـ[١].

العلامة الرابعة: الرّضا بالقضاء:

قال الإمام الغزالي - رحمه الله -: «من عَرَفَ الله تعالى عَرَف أنه يفعلُ ما يشاء ولا يُبالي، وَيَحْكُمُ ما يُريدُ ولا يَخاف» ا.هـ[٢].

العلامة الخامسة: الْهَيْبَة:

قال بعضهم: «من أمارات المعرفة بالله حُصولُ الْهَيْبَة، فمن ازدادت معرفتُهُ زادت هَيْبَتُهُ».

العلامة السادسة: السكينة:

فالعارف بالله، ساكن القلب وقور.

قال صاحبُ بصائر ذوي التمييز: «المعرفة تُوجِبُ السكينة. وقيل: علامات المعرفة: أن يُحسّ العارفُ بقرب قلبه من الله، فيجده قريبًا منه» ا.هـ.

والقلب الموصول بالله ساكن مطمئن.

العلامة السابعة: حب الله تعالى:

قال هَرِمُ بْنُ حَيّان - رحمه الله تعالى -: «المؤمنُ إذا عَرَفَ ربَّه ﷻ أحبّه، وإذا أحبَّهُ أقبل إليه»[٣].

العلامة الثامنة: الاشتغال بواجب الوقت:

قيل: «العارفُ ابْنُ وَقْتِهِ». وهذا من أَحْسَنِ الكلام وأَخْصَرِهِ، فهو مشغولٌ بوظيفة وقته عمّا مضى وصار في العدم، وعمّا لم يدخل بعد في الوجود، فهمُّه عمارة وقته الذي

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ١٦٤).
(٢) «الإحياء» (٤/ ١٧٧).
(٣) «الإحياء» (٤/ ٣١٣).

هو مادة حياته الباقية[١].

العلامة التاسعة: صفاء القلب:

قَالَ الفَيْرُوزآبَادِيُّ: وعلامةُ العَارِفِ أن يكونَ قلبُهُ مِرْآةً إذا نَظَرَ فيها رَأَى الْغَيْبَ الذي دَعَا إلى الإيمان بِهِ، فعلى قَدْرِ جَلاَءِ تِلْكَ المِرْآةِ يَتَرَاءَى فيها سُبحانَهُ والدَّارُ الآخِرَةُ والجَنَّةُ والملائكةُ والرُّسُلُ، كما قِيلَ:

إِذَا سَكَنَ الغَدِيرُ عَلَى صَفَاءٍ ... فَيُشْبِهُ أَنْ يُحَرِّكَهُ النَّسِيمُ

بَدَتْ فِيهِ السَّمَاءُ بِلاَ مِرَاءٍ ... كَذَاكَ الشَّمْسُ تَبْدُو وَالنُّجُومُ

كَذَاكَ قُلُوبُ أَرْبَابِ التَجَلِّي ... يُرَى فِي صَفْوِهَا اللَّهُ العَظِيمُ

العلامة العاشرة: معرفةُ النَّفْسِ:

قال يحيى بن معاذ الرازي - رحمه الله -: «يخرجُ العارفُ من الدنيا ولم يقض وَطَرَهُ من شيئين: بُكَاؤُه على نفسه، وثناؤه على ربِّه».

قال الفيروزآباديُّ - رحمه الله - معلِّقًا: «وهذا من أحسن ما قيل، لأنه يدلّ على معرفته بنفسه وعلى معرفته بربِّه وجماله وجلاله، فهو شديد الإزراء على نفسه، لَهِجٌ بالثّناء على رَبِّه» ا.هـ.

عباد الله...

هذه بعض علامات العارف بالله، فاحرصوا على نَيْلِها، وجاهدوا أنفسكم في تحصيلها، وفقني الله تعالى وإياكم لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

---

(١) «نضرة النعيم» (٣٤٥٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

وثمرات معرفة الله تعالى، لا نستطيع حصرها، ولكن نقول إجمالاً: «إن معرفة الله ﷻ هي جماع السعادة في الدنيا والآخرة».

وفي هذا الْقَدْرِ الكفاية لمن أراد الهداية.

اللّهُمّ أعِنّا ولا تُعِنْ عَلَيْنَا، وانْصُرْنَا ولا تَنْصُرْ عَلَيْنَا، واهْدِنَا وَيَسِّر الهُدَى لنا.

الخطبة الثالثة والخمسون

فَضْلُ البكاءِ مِنْ خشيةِ الله

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الهَدْي هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

فما زال الحديث موصولاً عن سابع المنعّمين في ظل العرش وهو: «رجلٌ ذكرَ الله خاليًا ففاضت عيناه».

وتكلمنا فيما سبق عن خشية الله، وقلنا: إن الخشية ثمرة معرفة الله تعالى.

واليوم بإذن الله تعالى نتكلم عن: فضل البكاء من خشية الله.

عباد الله...

وخطبة اليوم تدور حول أربعة أمور:

الأول: تعريف البكاء.

والثاني: أنواعه.

والثالث: فضائله.

والرابع: مواقف من حياة أهل البكاء.

سائلاً المولى - تبارك وتعالى - أن يُعِيذني وإياكم من قلب لا يخشع ومن عين لا تدمع.

تعريف البكاء:

البكاء: هو إراقة الدموع من أثر الخوف من الله تعالى أو للتعبير عن حُزنٍ في الفؤاد.

والبكاء أنواع:

- بُكَاءُ خشيةٍ من الله تعالى.
- بكاءٌ عِندَ سماعِ القرآن.
- بُكَاءُ الاعْتِبَارِ والتَّدَبُّرِ والخوفِ مِنَ الوْعِيدِ.
- بُكَاءُ الرَّحْمَةِ لِفُقْدَانِ عزيزٍ.
- بُكَاءُ التَّصَنُّعِ وهو غيرُ مُسْتَحَبٌّ.
- بُكَاءُ الِاعْتِرَاض وهو المصحوبُ بحركاتٍ وأصواتٍ تَدُلُّ على الاعتراضِ على قَدَرِ الله. وهذا مَذْمُومٌ وَمُحَرَّمٌ.
- بُكَاءُ الخوفِ من حوادثِ الدنيا وتَغيُّرَاتِهَا وتَقَلُّبَاتِهَا. وهو يُوَلِّدُ المَرَضَ والاكْتِئَابَ.

والمفروضُ أَنْ يكونَ البُكَاءُ خَشْيَةً مِنَ الله تعالى، وخوفًا مِنْهُ، وطَمَعًا في رحمتهِ، فهذا هو البُكَاءُ المَحْمُودُ، أَوْ أَنْ يكونَ البكاءُ مِنْ سَماعِ القرآنِ وما فيهِ بعدَ تَدَبُّرِهُ وتَأَمُّلِهِ، أَوْ أَنْ يكونَ لِمَعْنًى إِنْسَانِيٍّ نَبِيلٍ كَمَا فَعَلَ سَيِّدُ الْبَشَرِ ﷺ حينَ ماتَ ابْنُهُ إِبراهيمُ، وهذا كُلُّهُ مِنَ البُكَاءِ المحمودِ المشروع.

أَمَّا بُكَاءُ التَّصَنُّعِ وَمَا فِيهِ، سَواءٌ كان ذلك لإِثْبَاتِ صِدْقِ قَوْلٍ أَوْ دَعْوَى أَوْ ما إلى ذلك كما فَعَلَ إِخْوَةُ يُوسُفَ، فهذا مِنَ البُكَاءِ المَذْمُومِ، لأَنَّهُ لا يكادُ يَدُلُّ على صِدْقِ الإنسانِ في فِعْلِهِ أَوْ فَعَالِهِ، وقَدْ قِيلَ: إِنَّ المَصْنُوعَ لاَ يَخْفَى، وقالَ حَكِيمٌ:

إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى[1]

عباد الله...

أمّا عن فضائل البكاء من خشية الله تعالى: فقد وردت آيات وأحاديث وآثار تبيّن فضل البكاء من خشية الله: **فمن الآيات**:

١ - ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً ﴾ [الإسراء: ١٠٧ - ١٠٩].

وقال الإمام القرطبيّ - رحمه الله تعالى -: «قوله تعالى: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ﴾ هذه مبالغة في صفتهم ومدح لهم. وحقّ لكل من توسّم بالعلم وحصّل منه شيئًا أن يجري إلى هذه المرتبة، فيخشع عند استماع القرآن ويتواضع وَيَذِلّ.

وفي مُسند الدارميّ أبي محمد عن التَّميميّ قال: «مَنْ أُوتِيَ من العلم ما لا يُبْكِيه لَخَلِيقٌ ألا يكون أُوتِيَ علمًا؛ لأن الله تعالى نَعَتَ العلماءَ، ثم تلا هذه الآية».

وقال ابن عباس: ﴿يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً﴾ أي للوجوه، وإنما خصّ الأذقان بالذِّكر لأن الذقن أقرب شيء من وجه الإنسان» ا.هـ[2].

٢ - وقال تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [مريم: ٥٨].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «وقال الله تعالى في هذه الآية: ﴿إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِياً﴾ أي: إذا سمعوا كلام الله

(١) «تفسير القرطبي» (٩/ ٩٦).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٠/ ٣٠٦).

المتضمّن حججه ودلائله وبراهينه سجدوا لربّهم خضوعًا واستكانة حمدًا وشكرًا على ما هم فيه من النّعم العظيمة، والبكيّ جمع باكٍ فلهذا أجمع العلماء على شرعية السجود ها هنا اقتداءً بهم واتباعًا لمنواهم.

وعن أبي معمر، قال: «قرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سورة مريم فسجد وقال: «هذا السجود فأين البكيّ» يريد البكاء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير» ا.هـ(١).

ومن الأحاديث:

١- عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**طُوبَى لِمَنْ مَلَكَ نَفْسَه، وَوَسِعَه بَيْتَه، وبكى على خطيئته**»(٢).

٢- وعن ابن عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قالَ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**عَيْنَانِ لاَ تَمَسُّهُمَا النَّارُ: عَيْنٌ بَكَتْ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ فِي سَبِيلِ الله**»(٣).

٣- وعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لاَ يَلِجُ(٤) النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ فِي الضَّرْعِ(٥)، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ الله(٦) وَدُخَانُ جَهَنَّمَ**»(٧).

٤- وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**لَيْسَ شَيْءٌ أَحَبَّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ. قَطْرَةٍ مِنْ دُمُوعٍ فِي خَشْيَةِ الله، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهَرَاقُ(٨) فِي سَبِيلِ الله. وَأَمَّا الأَثَرَانِ، فَأَثَرٌ فِي سَبِيلِ الله وَأَثَرٌ فِي فَرِيضَةٍ مِنْ فَرَائِضِ الله**»(٩).

---

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥٨).

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٤/ ٢٣٢): رواه الطبراني في «الأوسط» و«الصغير»، وإسناده حسن.

(٣) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٣٩).

(٤) لا يلج: لا يدخل.

(٥) المعنى أنه من المحال أن يدخل النار من بكى من خشية الله.

(٦) المعنى أن من غبّر نفسه في سبيل الله فلن يغبر بدخان جهنم، وكل ذلك مبني على فضل الله.

(٧) **صحيح**: رواه الترمذي (١٦٣٣)، وغيره، وانظر: «صحيح الجامع» (٧٧٧٨).

(٨) تهراق: تُراق.

(٩) **حسن**: رواه الترمذي (١٦٦٩).

٥- وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ: «**مَنْ ذَكَرَ اللهَ فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**[١] **مِنْ خَشْيَةِ الله حَتَّى يُصِيبَ الأَرْضَ مِنْ دُمُوعِهِ لَمْ يُعَذِّبْهُ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٢].

ومن الآثار:

١- عَنْ يَزِيدَ بْنِ مَيْسَرَةَ قالَ: «البُكَاءُ مِنْ سبعةِ أشياء: البُكَاءُ مِنَ الفَرَحِ، والبكاءُ من الحُزْنِ، والفَزَعِ، والرِّيَاءِ، والوَجَعِ والشُّكْرِ، وبُكَاءٌ مِنْ خَشْيَةِ الله تعالى، فذلك الذي تُطْفِأُ الدَّمْعَةُ مِنْهَا أَمْثَالَ الْبُحُورِ مِنَ النَّارِ»[٣].

٢- وَعَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ هذهِ الآيَةَ: ﴿**أَفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وَتَضْحَكُونَ وَلاَ تَبْكُونَ**﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] قالَ: واللهِ إِنْ كانَ أَكْيَسُ القَوْمِ في هذا الأمْرِ لَمَنْ بَكَى، فَابْكُوا هذهِ القُلُوبَ، وَابْكُوا هذهِ الأعْمَالَ؛ فَإِنَّ الرَّجُلَ لَتَبْكِي عَيْنَاهُ وإِنَّهُ لَقَاسِي الْقَلْبِ»[٤].

٣- وقالَ الحَسَنُ البَصْرِيُّ: «إِنَّ المؤمنينَ قَوْمٌ ذَلَّتْ والله مِنْهُمُ الأسْمَاعُ والأبصَارُ والأبدَانُ حَتَّى حَسِبَهُمُ الجَاهِلُ مَرْضَى، وَهُمْ والله أصْحَابُ القُلُوبِ، أَلاَ تَرَاهُ يقولُ: ﴿**وَقَالُوا الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ**﴾ [فاطر: ٣٤]، والله لَقَدْ كَابَدُوا في الدُّنْيَا حُزْنًا شَدِيدًا، وجَرَى عليهم ما جرى عَلَى مَنْ كانَ قبلَهُمْ، والله ما أَحْزَنَهُمْ مَا أَحْزَنَ النَّاسَ، ولكن أَبْكَاهُمْ وَأَحْزَنَهُمْ الْخَوْفُ مِنَ النَّارِ»[٥].

عباد الله...

هذه بعض فضائل البكاء من خشيته، فابكوا - **عباد الله** - واغسلوا بالدموع خطاياكم. واسمعوا إلى **بكر بن عبد الله المُزَنِيّ** وهو يقول: «مَنْ مِثْلُك يا ابْنَ آدم؟ خُلِّي بينك وبين المحراب تدخل منه إذا شئت وتناجي ربّك، ليس بينك وبينه حجاب ولا تُرْجُمَان، إنّما طِيب المؤمنين: الماءُ المالِح؟! هذه الدموع فأين من يَتَطَيَّبون به؟

---

(١) يعني بكى.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦٠)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١٠/ ١١٨).

(٤) «الزهد» لابن المبارك (٤١).

(٥) «التخويف من النار» لابن رجب الحنبلي (٢٣).

نعم يا سَيِّدي..

أين الذين يبكون من خطاياهم.. فَيُضَمِّخون أَنْفُسهم بهذا العِطر الحلال؟

أين الذين يبكون على طاعة فاتَتْهم بعد أن وافتهم.. ومن معصية رَكِبَتْهُم بَعْد أن تركتهم؟

أسأل الله - تعالى - أن يجعلنا مِمّن إذا ذُكِّروا تَذَكَّروا.

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى.

وبعد...

ولَمّا كانت الخشية ثمرة معرفة الله تعالى، والبكاء أيضًا ثمرة هذه المعرفة، كان الأنبياء ثم مَنْ تَبِع نَهْجَهم، واقتفى آثارهم، أشدّ الناس خشية لله، وأكثرهم بكاء خوفًا منه سبحانه.

وهذه بَعْضُ المواقف الدّالة على ذلك:

١ - عَنْ عَبْدِ الله بْنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه قالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يُصَلِّي وَفِي صَدْرِهِ أَزِيزٌ كَأَزِيزِ[1] الرَّحَى مِنَ الْبُكَاءِ ﷺ[2].

٢ - وعَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «**اقْرَأْ عَلَيَّ الْقُرْآنَ**». قَالَ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أُنْزِلَ؟

قَالَ: «**إِنِّي أَشْتَهِي أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**»، فَقَرَأْتُ النِّسَاءَ حَتَّى إذا بَلَغْتُ: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً**﴾ [النساء: ٤١]، رَفَعْتُ رَأْسِي أَوْ غَمَزَنِي رَجُلٌ إِلَى جَنْبِي فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَرَأَيْتُ دُمُوعَهُ تَسِيلُ[3].

---

(١) أزيز: صوت كصوت الرَّحى في التحرّك والاضطراب.

(٢) صحيح: رواه أبو داود (٩٠٤)، والنسائي (٣/ ١٨).

(٣) رواه البخاري (٤٥٨٢)، ومسلم (٨٠٠) واللفظ له.

٣- وقرأ ابنُ عمر - رضي الله عنهما -: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ فلمّا بلغ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [المطففين: ١-٦] بَكَى حَتَّى خَرَّ وامْتَنَعَ من قراءة ما بَعْدَهُ[١].

٤- وعن حفصَ بن عمر، قال: بكى الحسنُ، فقيل: ما يبكيك؟ قال: «أخاف أن يَطْرَحَني غَدًا في النَّارِ ولا يُبَالِي»[٢].

عباد الله...

وهكذا، كانت القلوب رقيقة رفيقة... نديّة بذكر الله تعالى، فكانت العيون دامعة... يبكي أصحابُها مِمَّا عرفوا من الحق.

نسأل الله - تعالى - التوفيق لاتِّباعهم، وأن يجعلنا من أتباعهم.

(١) «الزهد» لوكيع بن الجرّاح (١/ ٢٥٣).

(٢) «التخويف من النار» لابن رجب (٢٣).

الخطبة الرابعة والخمسون

السعي بين الصفا والمروة - دروس وعظات

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلِل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فعنوان خطبة اليوم «**السعي بين الصفا والمروة - دروس وعظات**».

عباد الله...

وُلِدَ إبراهيم - عليه السلام - بأرض بابل بالعراق، ثم انتقل إلى حَرَّان، ونَاظرَ في هذه المدة عُبَّادَ الأصنامِ وعُبَّادَ الكواكب، كما ذكر القرآن الكريم.

وتزوّج بـ «سارة»، وكانت - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - على قدر من الجمال والكمال، غير أنها كانت عاقرًا - لا تلد - وهذا شيء فوق قدرتها، فالولد هبة من الله، والهبة: عطاء بلا مقابل.

قال تعالى: ﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى: ٤٩، ٥٠].

وآمن له لوط عليه السلام، ولوط ابن أخيه، وهاجر إبراهيم وزوجه ولوط إلى بلاد الشام.

قال تعالى: ﴿ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ثم ترك إبراهيم عليه السلام بلاد الشام وهاجر إلى مصر ومعه سارة، تاركًا لوطًا عليه السلام يدعو إلى توحيد الله تعالى.

ولما دخل إبراهيمُ عليه السلام أرض مِصر ومعه سارة، حدثت آيات وكرامات:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَمْ يَكْذِبْ إِبْرَاهِيمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَطُّ إِلاَّ ثَلاَثَ كَذَبَاتٍ ثِنْتَيْنِ فِى ذَاتِ اللَّهِ قَوْلُهُ: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [1]. وَقَوْلُهُ: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾[2]، وَوَاحِدَةً فِى شَأْنِ سَارَةَ فَإِنَّهُ قَدِمَ أَرْضَ جَبَّارٍ وَمَعَهُ سَارَةُ وَكَانَتْ أَحْسَنَ النَّاسِ فَقَالَ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِى يَغْلِبْنِى عَلَيْكِ فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِى فَإِنَّكِ أُخْتِى فِى الإِسْلاَمِ فَإِنِّى لاَ أَعْلَمُ فِى الأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِى وَغَيْرَكِ.

فَلَمَّا دَخَلَ أَرْضَهُ رَآهَا بَعْضُ أَهْلِ الْجَبَّارِ أَتَاهُ فَقَالَ لَهُ: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لاَ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلاَّ لَكَ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا فَأُتِىَ بِهَا فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ إِلَى الصَّلاَةِ فَلَمَّا دَخَلَتْ عَلَيْهِ لَمْ يَتَمَالَكْ أَنْ بَسَطَ يَدَهُ إِلَيْهَا فَقُبِضَتْ يَدُهُ قَبْضَةً شَدِيدَةً، فَقَالَ لَهَا: ادْعِى الله أَنْ يُطْلِقَ يَدِى وَلاَ أَضُرُّكِ. فَفَعَلَتْ فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَةِ الأُولَى فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَفَعَلَتْ، فَعَادَ فَقُبِضَتْ أَشَدَّ مِنَ الْقَبْضَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ فَقَالَ: ادْعِى الله أَنْ يُطْلِقَ يَدِى فَلَكِ الله[3] أَنْ لاَ أَضُرَّكِ. فَفَعَلَتْ وَأُطْلِقَتْ يَدُهُ وَدَعَا الَّذِى جَاءَ بِهَا فَقَالَ لَهُ: إِنَّكَ إِنَّمَا

---

(١) الصافات: ٨٩.

(٢) الأنبياء: ٦٣.

(٣) فلك الله: أي شاهدًا وضامنًا أن لا أضرّك.

أَتَيْتَنِى بِشَيْطَانٍ وَلَمْ تَأْتِنِى بِإِنْسَانٍ فَأَخْرِجْهَا مِنْ أَرْضِى وَأَعْطِهَا هَاجَرَ. قَالَ: فَأَقْبَلَتْ تَمْشِى فَلَمَّا رَآهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ انْصَرَفَ فَقَالَ لَهَا: مَهْيَمْ(١)، قَالَتْ: خَيْرًا، كَفَّ اللَّهُ يَدَ الْفَاجِرِ وَأَخْدَمَ خَادِمًا(٢)».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَتِلْكَ أُمُّكُمْ يَا بَنِى مَاءِ السَّمَاءِ(٣).

عباد الله...

وهاجر إبراهيم عليه السلام ومعه سارة وهاجر من مصر إلى بلاد الشام ثانية.

وعرضت سارة على إبراهيم الزواج من هاجر لعله يرزق منها بولد، وقد كان.

ورُزق إبراهيم من هاجر: إسماعيل عليه السلام، وحدثت أحداث فيها عظات وعبر:

فعَن عبد الله بن عباس - رَضِي الله عَنْهُما - قال: «جَاءَ إِبْرَاهِيمُ بأَمِّ إسماعيل، وَبِابْنِهَا إِسْمَاعِيلَ وَهْىَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهُمَا عِنْدَ الْبَيْتِ عِنْدَ دَوْحَةٍ(٤)، فَوْقَ زَمْزَمَ فِى أَعْلَى الْمَسْجِدِ، وَلَيْسَ بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ، وَلَيْسَ بِهَا مَاءٌ، فَوَضَعَهُمَا هُنَالِكَ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ وَسِقَاءً فِيهِ مَاءٌ، ثُمَّ قَفَّى(٥) إِبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ فَقَالَتْ يَا إِبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بِهَذَا الْوَادِى الَّذِى لَيْسَ فِيهِ إِنْسٌ وَلاَ شَىْءٌ فَقَالَتْ لَهُ ذَلِكَ مِرَارًا، وَجَعَلَ لاَ يَلْتَفِتُ إِلَيْهَا فَقَالَتْ لَهُ آللَّهُ الَّذِى أَمَرَكَ بِهَذَا قَالَ نَعَمْ. قَالَتْ إِذًا لاَ يُضَيِّعُنَا. ثُمَّ رَجَعَتْ، فَانْطَلَقَ إِبْرَاهِيمُ حَتَّى إِذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ(٦) حَيْثُ لاَ يَرَوْنَهُ اسْتَقْبَلَ بِوَجْهِهِ الْبَيْتَ، ثُمَّ دَعَا بِهَؤُلاَءِ الْكَلِمَاتِ وَرَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ ﴿رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ حَتَّى بَلَغَ ﴿يَشْكُرُونَ﴾(٧). وَجَعَلَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ تُرْضِعُ إِسْمَاعِيلَ،

---

(١) مَهيمَ: أي ما شأنك وما خبرك؟

(٢) وأخدم خادمًا: أي وهبني خادمًا، وهي هاجر.

(٣) رواه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).

(٤) الدوحة: الشجرة الكبيرة.

(٥) قفّى: ولّى راجعًا إلى الشام.

(٦) الثنية: الطريق إلى العقبة، وقيل: هو المرتفع من الأض فيها.

(٧) إبراهيم: ٣٧.

وَتَشْرَبُ مِنْ ذَلِكَ المَاءِ، حَتَّى إِذَا نَفِدَ مَا فِي السِّقَاءِ عَطِشَتْ وَعَطِشَ ابْنُهَا، وَجَعَلَتْ تَنْظُرُ إِلَيْهِ يَتَلَوَّى – أَوْ قَالَ: يَتَلَبَّطُ[١] – فَانْطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهِ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ فِي الأَرْضِ يَلِيهَا، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإِنْسَانِ المَجْهُودِ، حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَةَ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا وَنَظَرَتْ هَلْ تَرَى أَحَدًا، فَلَمْ تَرَ أَحَدًا، فَفَعَلَتْ ذَلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَذَلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا».

فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوْتًا، فَقَالَتْ: صَهٍ[٢]. تُرِيدَ نَفْسَهَا، ثُمَّ تَسَمَّعَتْ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا، فَقَالَتْ قَدْ أَسْمَعْتَ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ غِوَاثٌ. فَإِذَا هِيَ بِالمَلَكِ، عِنْدَ مَوْضِعِ زَمْزَمَ، فَبَحَثَ بِعَقِبِهِ – أَوْ قَالَ: بِجَنَاحِهِ – حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا، وَجَعَلَتْ تَغْرِفُ مِنَ المَاءِ فِي سِقَائِهَا، وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ – قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَرْحَمُ اللَّهُ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ لَوْ تَرَكَتْ زَمْزَمَ – أَوْ قَالَ: لَوْ لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ – لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا».

قَالَ: فَشَرِبَتْ وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ، فَإِنَّ هَا هُنَا بَيْتَ اللَّهِ، يَبْنِي هَذَا الغُلاَمُ، وَأَبُوهُ، وَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ. وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ، تَأْتِيهِ السُّيُولُ فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ، فَكَانَتْ كَذَلِكَ، حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمَ – أَوْ أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُمَ – مُقْبِلِينَ مِنْ طَرِيقِ كَدَاءٍ فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ، فَرَأَوْا طَائِرًا عَائِفًا. فَقَالُوا إِنَّ هَذَا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلَى مَاءٍ، لَعَهْدُنَا بِهَذَا الوَادِي وَمَا فِيهِ مَاءٌ، فَأَرْسَلُوا جَرِيًّا[٣] أَوْ جَرِيَّيْنِ، فَإِذَا هُمْ بِالمَاءِ، فَرَجَعُوا فَأَخْبَرُوهُمْ بِالمَاءِ، فَأَقْبَلُوا، قَالَ وَأُمُّ إِسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ فَقَالُوا أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنْزِلَ عِنْدَكِ فَقَالَتْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لاَ حَقَّ لَكُمْ فِي المَاءِ. قَالُوا نَعَمْ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَأَلْفَى ذَلِكَ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ، وَهْيَ تُحِبُّ الإِنْسَ». فَنَزَلُوا وَأَرْسَلُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ، فَنَزَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى إِذَا كَانَ بِهَا أَهْلُ أَبْيَاتٍ مِنْهُمْ،

---

(١) يتلبّط: يتمرّغ ويضرب بنفسه الأرض.

(٢) صَه: اسكت، كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي حتى تسمعي.

(٣) جريًّا: رسولًا.

وَشَبَّ الغُلامُ، وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنْهُمْ، وَأَنْفَسَهُمْ وَأَعْجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ، فَلَمَّا أَدْرَكَ زَوَّجُوهُ امْرَأَةً مِنْهُمْ، وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ(١). فَلَمْ يَجِدْ إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ(٢).

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ. فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلامَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلامَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ العَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ. ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ جَاءَ بَعْدَ ذَلِكَ، وَإِسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا(٣) لَهُ تَحْتَ دَوْحَةٍ قَرِيبًا مِنْ زَمْزَمَ، فَلَمَّا رَآهُ قَامَ إِلَيْهِ، فَصَنَعَا كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ، ثُمَّ قَالَ: يَا إِسْمَاعِيلُ، إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي بِأَمْرٍ. قَالَ فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ. قَالَ: وَتُعِينُنِي؟ قَالَ: وَأُعِينُكَ. قَالَ: فَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَبْنِيَ

---

(١) ما تركه هناك.

(٢) يغير عتبة بابه: كناية عن المرأة، أي يطلقها.

(٣) يبري نبلًا: النَّبل: السَّهم قبل أن يركّب فيه نصله وريشه، وهو السهم العربي.

هَا هُنَا بَيْتًا. وَأَشَارَ إِلَى أَكَمَةٍ[(١)] مُرْتَفِعَةٍ عَلَى مَا حَوْلَهَا. قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ رَفَعَا القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ، فَجَعَلَ إِسْمَاعِيلُ يَأْتِي بِالحِجَارَةِ، وَإِبْرَاهِيمُ يَبْنِي، حَتَّى إِذَا ارْتَفَعَ البِنَاءُ جَاءَ بِهَذَا الحَجَرِ فَوَضَعَهُ لَهُ، فَقَامَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَبْنِي، وَإِسْمَاعِيلُ يُنَاوِلُهُ الحِجَارَةَ، وَهُمَا يَقُولاَنِ ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾. قَالَ: فَجَعَلاَ يَبْنِيَانِ حَتَّى يَدُورَا حَوْلَ البَيْتِ، وَهُمَا يَقُولاَنِ: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]»[(٢)].

عباد الله...

يحكي لنا رسولُ الله ﷺ وهو الصادق المصدوق في هذا الحديث ثلاث قصص؛ نقتصر اليوم على القصة الأولى وهي «**قصة السعي بين الصفا والمروة**» لنستخرج منها بعض الدروس والعظات، والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

وملخص هذه القصة:

أن إبراهيم عليه السلام جاء بأُم إسماعيل «هاجر» وبابنها «إسماعيل» وهي تُرضعه، من بلاد بيت المقدس حتى وضعهما عند البيت المحرّم، عند دَوحَةٍ - شجرة كبيرة - فوق زمزم - وكان قد رُدِم - في أعلى المسجد، أي مكان المسجد لأنه لم يكن حينئذٍ بُنِي.

وليس بمكة يومئذٍ أحدٌ، وليس بها ماءٌ، فوضعهما هناك، ووضع عندهما جِرابًا فيه تَمرٌ وسِقاءً فيه ماء[(٣)].

ثم وَلَّى إبراهيم عليه السلام راجعًا إلى الشام، فتبعته هاجر فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركُنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيسٌ ولا شيءٌ؟! فقالت له ذَلِكَ مِرارًا، [وفي رواية أنها نادته ثلاثًا فأجابها في الثالثة]. قالت له: آلله أمركَ بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذًا لا يُضيِّعنا. ثم رجعت.

وهذا الموقف يكشف لنا عن شيئين:

---

(١) **الأكمة**: المكان المرتفع من الأرض.

(٢) رواه البخاري (٣٣٦٤، ٣٣٦٥).

(٣) **السّقاء**: القربة الصغيرة.

الأول: أن إبراهيم عليه السلام هاجر بأُمّ إسماعيل وولدها بإذنٍ من ربِّه، وهذا يَرُدّ قولُ بعض الرواة: وكان السبب في ذَلِكَ أن سارة كانت وهبت هاجر لإبراهيم فحملت منه بإسماعيل، فلما ولدته غارت منها فحلفت لتقطعنَّ منها ثلاثة أعضاء فاتخذت هاجر مِنطقًا[١] فشدّت به وسطها وهربت وجرّت ذيلها لتخفي أثرها على سارة، ويقال: إن إبراهيم شفع فيها وقال لسارة: حلّلي يمينك بأن تثقبي أُذنيها وتخفضيها[٢]، وكانت أوّل من فعل ذَلِكَ، ويقال: إن سارة اشتدت بها الغيرة فخرج إبراهيم بإسماعيل وأُمّه إلى مكّة لذلك.

ونحن لا ننكر الغيرة التي تقع بين الضرائر، فهذا حدث مع أُمهات المؤمنين كما في الصحيح.

ولكن كون سارة تأمر بالظلم، وتحلف لتقطعن من هاجر ثلاثة أعضاء، فهذا من الإسرائيليات المنكرة.

قال الدكتور **محمد بكر إسماعيل** - رحمه الله -: «الحقُّ أنَّ سارة لم تأمر زوجها بذلك مهما اشتدت غيرتُها، لأنها كانت صالحة قانتة تقيّة[٣]. قالت عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -: «لِلَّـه دَرُّ التقوى ما تركت لذي غيظٍ شِفَاءً»، وقد أثنى الله عَزَّ وَجَلَّ عليها في قوله: ﴿ **رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ** ﴾ [هود: ٧٣]».

إن هذا العمل لو نُسب إلى امرأة عادية لكانت موضع ذمّ عند العقلاء من خير الناس، فكيف بامرأة نبيّ آمنت به وهاجرت معه، وتخلّقت بأخلاقه؟!!

ومن أقوى الأدلة على أن الغيرة لم تحملها على ذلك ما ورد في صحيح البخاري من أن هاجر سألته حين تركها: «آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم».

إذًا هو أمر الله، لم يكن إبراهيم عليه السلام ليفعل ذلك عن أمره أو أمرها...» ا.هـ[٤].

---

(١) المنطق: ما يُشدّ به الوسط.

(٢) الخفاض: الختان.

(٣) وهي التي وهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام، كما تقدم.

(٤) «قصص القرآن» (٧٤) باختصار. ط. دار المنار.

ثُمَّ هل مِن المعقول أن يسمع خليل الله كلامها ويقوم بِنفي هاجر وولدها؟!! اللهم لا.

الشيء الثاني: حُسن ظن هاجر بربِّها، وتوكّلها عليه، يدلّ على ذَلِكَ قولها: «إذًا لا يُضيِّعُنا». وفي رواية: «فقالت: رضيتُ بالله».

والتوكل: هو اعتماد القلب على الوكيل وحده.

تــوكلتُ في رزقــي علــى الله خالقــي	وأيقَــنتُ أن الله لا شــكَ رَازِقــي
ومــا يــكُ مِــن رزقــي فلــيس يَفُــوتَني	ولــو كــان في قــاعِ الــبحار العَوَامِــق
ســيأتي بــه الله العظــيمُ بفــضله	ولــو لم يكــن مِنِّــي اللــسانُ بــناطقِ
ففــي أي شــيءٍ تــذهب الــنفسُ حَــسرةً	وقَــد قَــسَّمَ الــرحمنُ رزقَ الخلائــق[١]

ثم رجعت هاجر إلى ولدها الرضيع، وانطلق إبراهيم عليه السلام، حتى إذا كان عند الثّنية حيث لا يَرونه، استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات، فرفع يديه فقال: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ثم انطلق عائدًا إلى الشام.

جعلت هاجر تُرضع إسماعيل، وتشرب من ذَلِكَ الماء، حتى إذا نَفِدَ ما في السِّقاء عطشت فانقطع لَبَنُها[٢].

وعَطش إسماعيل، وجعلت تنظر إليه يتلوّى ويتمرّغ ويضرب بنفسه الأرض كأنه يَنشَغ[٣] للموت[٤].

فانطلقت هاجر كراهية أن تنظر إليه وهو يموت أمام عينيها، فوجدت جبل الصفا

(١) «ديوان الشافعي» (٨٦).
(٢) كما في رواية.
(٣) ينشغ: يشهق ويعلو صوته وينخفض كالذي ينازع.
(٤) كما في رواية.

أقرب جبل منها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي - وفي رواية: تستغيث ربها - وتنظر هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا.

فهبطت من الصفا حتى بلغت الوادي، ورفعت طَرف دِرعها، ثم سَعت سَعي الإنسان المجهود - أي الذي أصابه الجهد وهو الأمر المُشِقّ - حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحدًا، فلم تر أحدًا.

ففعلت ذَلِكَ سبع مرات.

وفي رواية أنها كانت في كل مرة تتفقّد إسماعيل وتنظر ما حدث له بعدها، قال ﷺ: «**فذلك سَعي الناس بينهما**».

وبينهما هي على المروة في المرة الأخيرة سمعت صوتًا فقالت: صَه - تريد نفسها، كأنها خاطبت نفسها فقالت لها: اسكتي.

ثم تسمّعت فسمعت أيضًا، فقالت: قد أسْمَعت إن كان عندك غِواثٌ - يعني فأغثني.

فإذا هي بالمَلَك عند موضع زمزم. [وروى الطبري بإسناد حسن عن عليّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ قال: «**فناداها جبريل فقال: مَن أنتِ؟ قالت: أنا هاجر أو أُم ولد إبراهيم، قال: فإلى مَن وَكَلَكُما؟ قالت: إلى الله. قال: وَكَلَكُما إلى كَافٍ**».

فبحث بعقبه - أو قال بجناحه - شك الراوي - أي: غَمز عقبه على الأرض، وفي رواية «فَرَكَض[1] جبريلُ بِرِجله» فنبعت زمزم وفاض ماؤها، فجعلت تُحوِّضه - أي تجعله مثل الحوض، وتقول بيدها هكذا، وهو حكاية فعلها.

وجعلت تغرف الماء في قِربتها، وهو يفور بعدما تَغرِف.

قال النبيُّ ﷺ: «**رحم الله أُمّ إسماعيل، لو تركت زمزم لكانت عَينًا مَعينًا**» أي ظاهرًا جاريًا على وجه الأرض.

قال الإمام ابن الجوزي رحمه الله: «كان ظهور زمزم نعمة من الله محضة بغير عمل

---

(١) ركض: ضرب.

عامل، فلما خالطها تحويط هاجر داخلها كسب البشر فقصرت على ذَلِكَ». ا.هـ[١].

فشربت هاجر وأرضعت ولدها، فقال لها جبريل: لا تخافوا الضيعة - يعني الهلاك - فإن هاهنا بيتًا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يُضيِّع أهله.

وكان البيت مُرتفعًا من الأرض كالرّابية، روى ابن أبي حاتم من حديث عبد الله ابن عمرو مرفوعًا قال: **«لما كان زمن الطوفان رُفع البيت، وكان الأنبياء يحجّونه ولا يعلمون مكانه حتى بوّأه الله لإبراهيم وأعلمه مكانه»**.

وروى البيهقي في «الدلائل» عن عبد الله بن عمرو - أيضًا - مرفوعًا: **«بعث الله جبريلَ إلى آدم فأمره ببناء البيت فبناه آدم، ثم أمره بالطواف به، وقيل له: أنت أول الناس وهذا أول بيت وضع للناس»**.

فكانت هاجر كذلك - أي على الحال الموصوفة.

قال الحافظ ابن حجر: «وفيه إشعار بأنها كانت تتغذّى بماء زمزم فيكفيها عن الطعام والشراب» ا.هـ[٢].

حتى مرّت بها رُفقة - جماعة - من جُرهم - قبيلة كانت تسكن بواد قريب من مكة، وكانت تتكلم العربية - مُقبلين من طريق كَدَاءَ - وهو الموضع الذي دخل النبيُّ ﷺ مكة منه وهو معروف.

فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرًا عائفًا - يعني يحوم على الماء - فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء لَعَهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماءٌ، فأرسلوا جَرِّيًا - أي رسولًا - أو جَرِيَّين، شك من الراوي - فإذا هم بالماء، فرجعوا فأخبروهم، فأقبلوا وأُم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟ قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء. قالوا: نعم.

قال رسول الله ﷺ: **«فألفَى ذَلِكَ أُمَّ إسماعيل[٣] وهي تُحبُّ الأُنس»**.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٣).
(٢) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٣).
(٣) **ألفى**: وجد.

فنزلوا، فأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات، شبّ إسماعيل وتعلّم منهم العربية.

قال الحافظ ابن حجر: «فيه إشعار بأن لسان أُمّه وأبيه لم يكن عربيًّا، وفيه تضعيف لقول من روى أنَّهُ أول مَن تكلم بالعربية» ا.هـ[(١)].

فأحبّوه وتعلّقوا به، ورغبوا فيه، وزوّجوه امرأةً منهم، وفي خلال ذَلِكَ ماتت هاجر، وانتقلت إلى جوار ربِّها؛ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا.

عباد الله...

هذه هي أحداث القصّة الأولى من الحديث، **وفيها من الدروس والعظات غير ما ذُكر**:

أولا: جعل الله سعي هاجر عليها السلام من شعائر الله، بل هو من الواجبات في الحجّ والعمرة، بل عدّه جماهير أهل العلم رُكنًا.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٥٨].

قال العلَّامة القاسميّ - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية:

قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾.

الصفا والمروة: علمان لجبلين بمكة. ومعنى كونهما من شعائر الله: من أعلام مناسكه ومتعبداته.

قال الرازي[(٢)]: كل شيء جعل علمًا من أعلام طاعة الله، فهو من شعائر الله. قال الله تعالى: ﴿ **وَالْـبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾ [الحج: ٣٦] أي: علامة للقربة. وقال: ﴿ **ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ** ﴾ [الحج: ٣٢] وشعائر الحج معالم نسكه. ومنه المشعر الحرام. ومنه إشعار السنام - وهو أن يعلم بالمدية - فيكون ذلك علمًا على إحرام

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٤).

(٢) «تفسير الرازي» (٤/ ١٧٤).

صاحبها، وعلى أنه قد جعله هديًا لبيت الله. والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة، مأخوذ من الإشعار الذي هو الإعلام، ومنه قولك: شعرت بكذا أي علمت. انتهى.

والحج: في اللغة القصد. والاعتمار: الزيارة. غُلِبَا في الشريعة على قصد البيت وزيارته، على الوجهين المعروفين في النسك. والجُناح: بالضم: الإثم والتضييق والمؤاخذة. وأصل الطواف: المشي حول الشيء. والمراد: السعي بينهما.

وقد روي في سبب نزول الآية عدّة روايات:

ولفظ البخاريّ عن عروة قال: سألت عائشة - رضي الله عنها - فقلت لها: أرأيت قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا**﴾ فوالله! ما على أحد جناح ألا يطوف بالصفا والمروة! قالت: بئسما قلت يا ابن أختي! إنّ هذه لو كانت كما أوّلتَها عليه، كانت: لا جناح عليه ألا يتطوف بهما، ولكنها أنزلت في الأنصار، كانوا قبل أن يسلموا يهلّون لمناة الطاغية، التي كانوا يعبدونها عند المشلَّل. فكان مَن أهلّ يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة. فلمّا أسلموا سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك؟ قالوا: يا رسول الله! إنّا كنّا نتحرج أن نطوف بين الصفا والمروة، فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ الآية. قالت عائشة - رضي الله عنها - وقد سنّ رسول الله ﷺ الطواف بينهما. فليس لأحد أن يترك الطواف بينهما.

ثم أخبرتُ أبا بكر بن عبد الرحمن فقال: أن هذا لَعِلْمٌ ما كنت سمعته، ولقد سمعت رجالاً من أهل العلم يذكرون أن الناس - إلا من ذكرت عائشة ممن كان يهلّ بمناة - كانوا يطوفون كلهم بالصفا والمروة، فلما ذكر الله تعالى الطواف بالبيت، ولم يذكر الصفا والمروة في القرآن، قالوا: يا رسول الله! كنا نطوف بالصفا والمروة. وإن الله أنزل الطواف بالبيت فلم يذكر الصفا. فهل علينا من حرج أن نطَّوَّف بالصفا والمروة؟ فأنزل الله تعالى: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ**﴾ الآية. قال أبو بكر: فأسمعُ هذه الآية نزلت في الفريقين كليهما: في الذين كانوا يتحرجون أن يطوفوا في الجاهلية بالصفا والمروة. والذين يطوفون ثمّ تحرّجوا أن يطوفوا بهما في الإسلام. من أجل أن الله تعالى أمر بالطواف بالبيت ولم يذكر الصفا، حتى ذكر ذلك بعدما ذكر الطواف بالبيت[1].

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٦١)، ومسلم (١٢٧٧)، وغيرهما.

وفي[1] رواية معمر عن الزهريّ: إنا كنا لا نطوف بين الصفا والمروة تعظيمًا لمناة، أخرجه البخاري تعليقًا، ووصله أحمد وغيره[2].

وأخرج مسلم في رواية يونس عن الزهريّ عن عروة بن الزبير أن عائشة أخبرته أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا، هم وغَسَّانُ، يهلّون لمناة، فتحرّجوا أن يطوفوا بين الصفا والمروة، وكان ذلك سنّةً في آبائهم: من أحرم لمناةَ لم يطف بين الصفا والمروة، وإنهم سألوا رسول الله ﷺ عن ذلك حين أسلموا، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾[3].

وروى النسائي بإسناد قويّ عن زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنمان من نحاس يقال لهما: «إساف ونائلة» كان المشركون إذا طافوا تمسّحوا بهما.. الحديث[4].

وروى الطبراني وابن أبي حاتم في التفسير بإسناد حسن من حديث ابن عباس قال: قالت الأنصار: إن السعي بين الصفا والمروة من أمر الجاهلية، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية[5].

وروى الفاكهيّ وإسماعيل القاضي في «الأحكام» بإسناد صحيح عن الشعبي قال: كان صنم بالصفا يدعى «إساف» ووثن بالمروة يدعى «نائلة» فكان أهل الجاهلية يسعون بينهما، فلما جاء الإسلام رمى بهما؛ وقالوا: إنما كان ذلك يصنعه أهل الجاهلية من أجل أوثانهم، فأمسكوا عن السعي بينهما، قال: فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ الآية[6].

وقد استفيد من مجموع هذه الروايات أنه تحرّج طوائف من السعي بين الصفا والمروة لأسباب متعددة فنزلت في الكلّ. والله أعلم.

(١) نقل المصنّف بداية من هنا عن «فتح الباري» لابن حجر حديث رقم (١٦٤٣).
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٠)، وأحمد (٢٤٧٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٢٧٧).
(٤) أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨١٨٨)، والحاكم (٤٩٥٦)، وصححه وأقره الذهبي.
(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٢٣).
(٦) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢/ ٢٤١).

وجواب عائشة - رضي الله عنها - لعروة هو من دقيق علمها وفهمها الثاقب وكبير معرفتها بدقائق الألفاظ؛ لأنّ الآية الكريمة إنما دلّ لفظها على رفع الجناح عمّن يطوف بهما، وليس فيه دلالة على عدم وجوب السعي ولا على وجوبه. ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾ أي: من فعل خيرًا فإنّ الله يشكره عليه ويثيبه به.

ومعنى ﴿ تَطَوَّعَ ﴾ أتى بها في طوعه أو بالطاعة، وإطلاقه على ما لا يجب عرفٌ فقهيّ لا لغويّ. والشكر من الله تعالى المجازاة والثناء الجميل.

قال الراغب: الشكر، كما يكون بالقول، يكون بالفعل، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ﴾ [سبأ: ١٣]؛ قال: وليس شكر الرفيع للوضيع إلا الإفضال عليه وقبول حمدٍ منه.

تنبيهات:

الأول: تمسَّك بعضهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا ﴾ على أنّ السعي سنّة، وأن من تركه لا شيء عليه. فإن كان مأخذه منها: إنّ التطوع بها لا يلزم فَقَدْ قدّمنا أنه عرفٌ فقهيّ لا لغويّ، فلا حجة فيه. وإن كان نفي الجناح، فقد علمت المراد منه.

وممن ذهب إلى أنه سنّة، لا يجبر بتركه شيء، أنسٌ فيما نقله ابن المنذر وعطاء. نقله ابن حجر في الفتح[١].

وقال الرازي[٢]: روي عن ابن الزبير ومجاهد وعطاء، أنّ من تركه فلا شيء عليه. وأما حديث: «**اسعوا فإنّ الله كتب عليكم السعي**» رواه أحمد وغيره، ففي إسناده عبد الله بن المؤمل، وفيه ضعف[٣].

ومنْ ثَمّ قال ابن المنذر: إنْ ثبت فهو حجة في الوجوب[٤].

---

(١) تحت حديث رقم (١٦٤٣).

(٢) انظر «تفسير الرازي» (٤/ ١٧٧).

(٣) بل هو صحيح بطرقه، أخرجه أحمد (٦/ ٤٢١)، والحاكم (٤/ ٧٠).

(٤) ثبت الحديث فهو حجّة في الوجوب، بل قال صاحب كتاب «صحيح فقه السنة» (٢/ ٢٣٤): «السعي بين الصفا والمروة ركن من أركان الحج في أصح أقوال العلماء، وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد - في إحدى الروايتين - وإسحاق وأبي ثور... وذهب أبو حنيفة والثوري

ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح.

الثاني: صحّ أنه ﷺ طاف بين الصفا والمروة سبعًا، رواه الشيخان وغيرهما عن ابن عمر. وأخرج مسلم وغيره من حديث أبي هريرة: أنّ النبي ﷺ لما فرغ من طوافه أتى بالصفا فَعَلا عليه حتى نظر إلى البيت ورفع يديه، فجعل يحمد الله ويدعو بها شاء أن يدعو. وأخرج أيضًا من حديث جابر: أنّ النبي ﷺ لّما دنا من الصفا قرأ: ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْـمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾. «**أبدأ بما بدأ الله به**» فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة، فوحّد الله وكبّره وقال: «**لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده**» ثم دعا بين ذلك، فقال مثل هذا ثلاث مرات، ثمّ نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا. اهـ.

وظاهر هذا أنه كان ماشيًا.

وقد روى مسلم في صحيحه عن أبي الزبير: أنه سمع جابر بن عبد الله يقول: طاف النبي ﷺ في حجة الوداع على راحلته بالبيت؛ وبين الصفا والمروة، ليراه الناس، وليشرف وليسألوه، فإن الناس غشُوه[1].

ولم يطف رسول الله ﷺ ولا أصحابه بين الصفا والمروة إلا طوافًا واحدًا.

قال ابن حزم[2]: لا تعارض بينهما، لأن الراكب إذا انصبّ به بعيره فقد انصبّ كلّه وانصبّت قدماه أيضًا مع سائر جسده.

وعندي - في الجمع بينهما - وجه آخر أحسن من هذا وهو: أنه سعى ماشيًا أولاً، ثمّ أتمّ سعيه راكبًا، وقد جاء ذلك مصرحًا به.

ففي صحيح مسلم عن أبي الطفيل قال: قلت لابن عباس: أخبرني عن الطواف بين الصفا والمروة راكبًا؛ أسنّة هو؟ فإن قومك يزعمون أنه سنّة! قال: صدقوا

= والحسن البصري إلى أن السعي واجب، وليس بركن...» ا.هـ.

(١) أخرجه مسلم (١٢٧٣)، وأبو داود (١٨٨) وغيرهما.

(٢) انظر «حجة الوداع» (ص١٥٧).

وكذبوا..! – قال: قلت: ما قولك: صدقوا وكذبوا؟ قال: إنّ رسول الله ﷺ كثر عليه الناس. يقولون: هذا محمد...! حتى خرج عليه العواتق من البيوت – قال: وكان رسول الله ﷺ لا يُضْرَبُ الناس بين يديه – فلمّا كثر عليه ركب. والمشي والسعي أفضل(١).

وفي الصحيحين عن عطاء عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: إنما سعى رسول الله ﷺ بالبيت وبين الصفا والمروة ليُرِيَ المشركين قوته...!(٢).

وعن كريب مولى ابن عباس: أنّ ابن عباس قال: ليس السعي ببطن الوادي بين الصفا والمروة بسنّة، إنما كان أهل الجاهلية يسعونها ويقولون: لا نُجِيزُ البطحاء إلا شدًّا..! رواه البخاري تعليقا(٣)، ووصله أبو نعيم في مستخرجه. قال شرّاح الصحيح: المراد بالسعي المنفيّ هو شدّة المشي والعَدْو. فهو ﷺ، لم ينف سنية السعي المجرد، بل مجاوزة الوادي بقوّةٍ وعَدْوٍ شديد، إذ أصل السعي هديه ﷺ، والله أعلم.

الثالث: في البخاريّ عن ابن عباس في قصّة هاجر أم إسماعيل: إنّ الطواف بينهما مأخوذ من طوافها وترددها في طلب الماء. ولفظه: «**وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوىّ** – أو قال: يتلبط – **فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها، ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، ثم أتت المروة، فقامت عليها، ونظرت هل ترى أحدًا؟ فلم تر أحدًا. ففعلت ذلك سبع مرات**».

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فذلك سعي الناس بينهما، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا**».. الحديث(٤)» ا.هـ(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (١٢٦٤)، وأبو داود (١٨٨٥)، وغيرهما.

(٢) أخرجه البخاري (١٥٦٦)، ومسلم (١٢٦٦)، وغيرهما.

(٣) حديث رقم (٣٦٣٤).

(٤) أخرجه البخاري «أحاديث الأنبياء» (٣٣٦٤).

(٥) «تفسير القاسمي» (٢/٥-١٠).

ثانيًا: أنَّ السعي مع الثقة بالله تعالى لا ينافي التوكّل، بل توكل القلب وثقته بالله تعالى مع تحريك الأعضاء في طلب الرزق يفجّر الصّخر.

وهذا ما حدث لهاجر عليها السلام، فمع يقينها بأن الله لن يضيِّعها وولدها سعت باحثة عن سبب من أسباب الرزق.

ولله درّ القائل:

وكـن بالـذي خُـطَّ باللَّـوح راضـيًا	**فـلا مَهـربُ مِمَّـا قَـضاهُ وخَطَّـهُ**
وإن مـع الـرزق اشـتراطُ التماسـه	**وقـد يـتعدَّى إن تعـدَّيت شـرطَهُ**
لـو شـاء ألقَـى في فَـمِ الطَّـير قـوتَهُ	**ولكـنَّه أوحـى إلى الطـير لَقطَـهُ**

عباد الله...

إن السَّعي بين الصفا والمروة ليس من رواسب الجاهلية - كما يزعم بعض جُهَّال العصر.

إن السعي بين الصفا والمروة كما قال ربّ العزة ﴿ **مِن شَعَائِرِ اللَّهِ** ﴾، وهو ركن من أركان الحج والعمرة - على الراجح - كما تقدم.

والله تعالى له حكمته البالغة في أمره ونهيه، قد تظهر هذه الحكمة، وقد تخفى، فهل يتوقف المسلم عن تنفيذ الأمر واجتناب النهي حتى تظهر حكمةُ الله؟! بالطبع لا.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ [النور: ٥١].

وقال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُّبِينًا** ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ثم إن السَّعي بين الصفا والمروة تذكيرٌ للإنسان بفضل السَّعي والثقة بالله تعالى، وبيان ما يترتب على ذَلِكَ من ثمرات مباركات؛ كتفجير الأرض وحلول البركات، وجلب الخيرات، وتفريج الهموم والكربات؛ ﴿ **فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ** ﴾؟.

ثالثًا: بيان فضل الانكسار لله، والتبرؤ من حول الإنسان وقوته إلى حول الله وقوته:

قال ابن كثير: «لما ترددت هاجر في هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة، تطلب

الغَوث من الله تعالى، متذللة، خائفة، وجلة مضطرةً، فقيرة إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، كشف الله كربتها، وآنس غربتها، وفرج شدتها، وأنبع لها زمزم التي ماؤها طعام طعم، وشفاء سقم، فالساعي بينهما ينبغي له أن يستحضر فقره وذله وحاجته إلى الله في هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه، وأن يلتجئ إلى الله عز وجل،ليُزيح ما هو به من النقائص والعيوب، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم وأن يثبته عليه إلى مماته، وأن يحوّله من حاله الذي هو عليه من الذنوب والمعاصي، إلى حال الكمال والغُفران والسداد والاستقامة، كما فعل بهاجر -عليها السلام» ا.هـ. [١].

عباد الله...

هذه بعض الدروس والعظات المستفادة من السعي بين الصفا والمروة، فلتكن منا على بال.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلا يخفى أن جبابرة العالم اليوم - ممَّن يدينون بغير الإسلام - يستخدمون ضد أمّتنا سياسية التجويع، ويلوّحون بين الحين والآخر بقطع المعونات عنها، وهذه سياسية التركيع التي يريدونها لهذه الأمة المرحومة.

والمخرج لنا من هذه السياسة: تعميق الثقة بالله عز وجل، وترسيخ التوكّل، وتحريك الأعضاء في طلب الرزق، والبحث في خبايا الأرض، والالتفاف حول الكتاب والسُّنة.

إذا فعلت الأمة ذلك خرجت من عنق الزجاجة، ومُكِّن لها في الأرض.

إن الأمة لن تسترد عافيتها إلَّا إذا حملت قلبًا كقلب هاجر، وسعيًا محفوظًا بالتوكل

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ١٩٩ - ٢٠٠).

كسعي هاجر وتوكلها، هنا لن يضيعها الله، لأن الله لا يُضيِّع أهله.

عباد الله...

وأختم خطبة اليوم بهذه القصّة، عسى أن تكون لنا نبراسًا نهتدي به إلى الطريق الأقوم والمنهج الأرشد.

قيل: إن حاتم الأصم قال لأولاده: إني أريد الحج، فبكوا، وقالوا: إلى من تكِلُنَا؟[(١)]

فقالت ابنته: لهم اسكتوا، دعوه فليس هو برزَّاق، هو الرزَّاق -- وأشارت إلى السماء.

فباتوا جياعًا وجعلوا يوبخون البنت، فقالت: اللهم لا تُخجلني بينهم.

فمرَّ أميرُ البلد وطلب ماءً فناوله أهلُ حاتم كُوزًا جديدًا فيه ماء بارد فشرب، وقال: دارُ من هذه؟ فقالوا: دارُ حاتمِ الأصَمِ فرمَى فيها منطقةً من ذهب، وقال لأصحابه: من أحبني فعل مثلي، فرمى من حوله كُلُهم مثله.

فجعلت بنت حاتم تبكي، فقالت لها أمها: ما يُبكيك وقد وسَّعَ الله علينا؟

فقالت: مخلُوقٌ نظر إلينا فاستغنينا - أي فما ظنك بالخالق جل وعلا الذي سخر لنا هذا المخلوق فعطفه علينا[(٢)].

عباد الله...

قارنوا بين ما سمعتموه الآن، وما نراه في واقع المسلمين، هناك من المسلمين من يملكون الزاد والراحلة، بل يملكون أطيانًا وأموالًا لتجهيز مائة حاجّ، ومع ذلك يموتون ولا يحجّون!! نسأل الله العافية.

۞۞۞۞۞

---

(١) إذا كان هذا الأداء حجّة الإسلام، وترك حاتم ما يكفي أولاده - ولو على قدر الضرورة فَفِعله هذا حسن، وإن كان خرج حجًا تطوعًا تاركًا أولاده بلا نفقة، فهذا ليس بحسن، والله أعلم.

(٢) انظر «إيقاظ أولي الهمم العالية» لعبد العزيز السلمان (٣٤).

الخطبة الخامسة والخمسون:

دروس وعظات من قصة إبراهيم عليه السلام

المرأة عتبة البيت

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدم في الخطبة الماضية أن إسماعيل عليه السلام شبّ وتعلم العربية من جُرهم، فلما أدرك زوّجوه امرأة منهم.

وَمَاتَتْ أُمُّ إِسْمَاعِيلَ، فَجَاءَ إِبْرَاهِيمُ، بَعْدَ مَا تَزَوَّجَ إِسْمَاعِيلُ يُطَالِعُ تَرِكَتَهُ(١)، فَلَمْ يَجِدْ

(١) ما تركه هناك.

إِسْمَاعِيلَ، فَسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. ثُمَّ سَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ وَهَيْئَتِهِمْ، فَقَالَتْ: نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ. فَشَكَتْ إِلَيْهِ. قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ، كَأَنَّهُ آنَسَ شَيْئًا، فَقَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا، فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ. قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى، فَلَبِثَ عَنْهُمْ إِبْرَاهِيمُ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ، فَلَمْ يَجِدْهُ، فَدَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ، فَسَأَلَهَا عَنْهُ. فَقَالَتْ: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا. قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ. فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ. فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ، قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ حَبٌّ، وَلَوْ كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فِيهِ». قَالَ: فَهُمَا لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ.

وفي رواية:

قَالَ: فَجَاءَ فَقَالَ: أَيْنَ إِسْمَاعِيلُ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ: ذَهَبَ يَصِيدُ، فَقَالَتْ: أَلاَ تَنْزِلُ فَتَطْعَمَ وَتَشْرَبَ؟ فَقَالَ: وَمَا طَعَامُكُمْ وَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتْ: طَعَامُنَا اللَّحْمُ، وَشَرَابُنَا المَاءُ. قَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ.

قَالَ: فَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ: «بَرَكَةٌ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ».

قَالَ: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ، فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ. قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ. قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ».

عباد الله...

وخلاصة هذه القصّة:

أنَّ إبراهيم عليه السلام جاء مكة بعدما تزوّج إسماعيلُ وماتت هاجر، يُطالع تركته - أي يتفقّد حال ما تركه هناك - فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت: «خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا» أي يطلب لنا الرزق، وكان إسماعيل عليه السلام يرعى ماشية له، ويخرج متنكّبًا قوسه فيرمي الصَّيد.

ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت - وهي لم تَعرفه -: «نَحْنُ بِشَرٍّ، نَحْنُ فِي ضِيقٍ وَشِدَّةٍ» وشكت إليه.

فقال لها: «إِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَقُولِي لَهُ: يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ».

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ جَاءَكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذَا وَكَذَا - كالمستخفّة به - فَسَأَلَنَا عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، وَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا؟ فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا فِي جَهْدٍ وَشِدَّةٍ.

قَالَ: فَهَلْ أَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ، أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَقُولُ: غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ.

قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَقَدْ أَمَرَنِي أَنْ أُفَارِقَكِ، الحَقِي بِأَهْلِكِ، فَطَلَّقَهَا.

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «قوله: «**عَتَبَةَ بَابِكَ**» كناية عن المرأة، وسمّاها بذلك لما فيها من الصفات الموافقة لها وهو حفظ الباب، وصون ما هو بداخله، وكونها محل الوطء، ويستفاد منه أن تغيير عتبة الباب يصح أن يكون من كنايات الطلاق كأن يقول مثلًا: غيّرتُ عتبة بابي، أو عتبة بابي مُغيّرة، وينوي بذلك الطلاق، فيقع» ا.هـ[(١)].

وتزوّج إسماعيل من جُرهم امرأة أخرى، فلبث عنهم إبراهيم عليه السلام ما شاء الله ثم أتاهم بعدُ، فلم يجده أيضًا فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت: خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا.

قَالَ: كَيْفَ أَنْتُمْ؟ وَسَأَلَهَا عَنْ عَيْشِهِمْ، وَهَيْئَتِهِمْ.

فَقَالَتْ: نَحْنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ. وَأَثْنَتْ عَلَى اللَّهِ.

فَقَالَ: مَا طَعَامُكُمْ؟ قَالَتِ: اللَّحْمُ.

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٦٥).

قَالَ: فَمَا شَرَابُكُمْ؟ قَالَتِ: المَاءُ.

فَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي اللَّحْمِ وَالمَاءِ.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَهُمَا** - يعني اللحم والماء - **لاَ يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بِغَيْرِ مَكَّةَ إِلاَّ لَمْ يُوَافِقَاهُ**». أي: ليس أحدٌ يخلو على اللحم والماء بغير مكة - يعني يكثر الأكل والشرب - إلا اشتكى بطنه.

قال إبراهيم عليه السلام: فَإِذَا جَاءَ زَوْجُكِ فَاقْرَئِي عَلَيْهِ السَّلاَمَ، وَمُرِيهِ يُثْبِتُ عَتَبَةَ بَابِهِ.

فَلَمَّا جَاءَ إِسْمَاعِيلُ قَالَ: هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الْهَيْئَةِ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ، فَسَأَلَنِي عَنْكَ فَأَخْبَرْتُهُ، فَسَأَلَنِي كَيْفَ عَيْشُنَا فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ.

قَالَ: فَأَوْصَاكِ بِشَيْءٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، هُوَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلاَمَ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثْبِتَ عَتَبَةَ بَابِكَ.

قَالَ: ذَاكِ أَبِي، وَأَنْتِ الْعَتَبَةُ، أَمَرَنِي أَنْ أُمْسِكَكِ.

عباد الله...

وفوائد هذه القصة كثيرة، نذكر منها ثلاث فوائد:

الفائدة الأولى: برّ إسماعيل بأبيه:

يدل على ذَلِكَ: طاعته لأبيه في طلاق زوجه الأولى، وإمساكه للثانية.

وهذا من البر بالوالدين، فالوالد أوسط أبواب الجنة، وقد جاء في السنة ما يدلّ على ذَلِكَ.

فعن أبي الدرداء - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - أنَّ رجلًا أتاه فقال: إن لي امرأة، وإن أمي تأمرني بطلاقها؟ قال سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**الوالد أوسطُ أبوابِ الجنَّة، فإن شئت فأضِع هذا الباب أو احفظَه**»(١).

---

(١) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٩٥٥)، و«صحيح سنن الترمذي» (١٥٤٨)، وفيه: =

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كان تحتي امرأة أحبها، وكان عُمر يكرهها، فقال لي: طلقها. فأبيت، فأتى عمر رسول الله ﷺ فذكر ذَلِكَ له، فقال لي رسول الله ﷺ: «طَلِّقها»[1].

وللعلماء في هذه المسألة أقوال، **ملخصها**:

إذا كان الوالد عالمًا عادلًا، يرى أن في طلاق زوجة ابنه مصلحة شرعية، يجب على الولد السَّمع له والطاعة، أما إذا كان جاهلًا، ظالمًا، يرى في طلاق زوجة ابنه إرضاء هوى نفسه الخبيثة، أو اتباعًا لوسواس الشيطان - مع أنها صالحة - فلا سمع له ولا طاعة، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**».

الفائدة الثانية: أن المرأة السَّيِّئة الخُلُق لا تستحق البقاء في بيت محترم:

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ الله عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ فَلَمْ يُطَلِّقْهَا، وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٍ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْه، وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا مَالَهُ وَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾** [النساء: ٥]»[2].

قال العلَّامة المُناويُّ - رحمه الله - في شرحه هذا الحديث: «قوله ﷺ: «**ثَلاَثَةٌ يَدْعُونَ اللَّهَ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ رَجُلٌ كَانَتْ تَحْتَهُ امْرَأَةٌ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ**» بالضم «**فَلَمْ يُطَلِّقْهَا**» فإذا دعا عليها لا يستجيب الله له لأنه المعذّب نفسه بمعاشرتها وهو في سعة من فراقها.

«**وَرَجُلٌ كَانَ لَهُ عَلَى رَجُلٍ مَالٍ فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْه**»، فأنكره فإذا دعا لا يُستجاب له لأنه المفرّط المقصّر بعدم امتثال قوله تعالى: ﴿**وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٨٢].

«**وَرَجُلٌ آتَى سَفِيهًا**» أي: محجورًا عليه بسفه «**مَالَهُ**» أي: شيئًا من ماله مع علمه بالحجر عليه، فإذا دعا عليه لا يستجاب له لأنه المضيّع لماله فلا عذر له، «**وَقَدْ قَالَ الله**

= وربما قال سفيان: إن أُميَّ، وربما قال: أبي.

(١) **صحيح**: «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٨٤).

(٢) **صحيح**: رواه الحاكم، وانظر «صحيح الجامع» (٣٠٧٥).

عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ﴾»[(١)] ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

وقد يسأل سائل: وهل يجب على كلّ مَن ابتُلي بامرأة سيئة الخُلُق أن يُطلِّقها؟

الجواب: قال صاحب كتاب «صحيح فقه السنة» - حفظه الله - تحت عنوان «**الحكم التكليفي للطلاق**»: «بعد إجماع المسلمين من زمن النبي ﷺ على مشروعية الطلاق، اختلف أهل العلم في الحكم التكليفي للطلاق فذهب الجمهور إلى أن الأصل في الطلاق الإباحة، والأولى عدم ارتكابه - لما فيه من قطع الألفة - إلا لعارض، وقد يخرج عن هذا الأصل في أحوال.

وذهب آخرون إلى أن الأصل فيه الحظر، ويخرج عن الحظر في أحوال، والعمدة عندهم حديث: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[(٣)]، وهو حديث ضعيف.

وعلى كلٍّ؛ فالفقهاء متفقون في النهاية على أن الطلاق تعتريه الأحكام التكليفية الخمسة بحسب الظروف والأحوال:

١- فيكون محرَّمًا كطلاق المرأة في الحيض، أو في طهر جامعها فيه، وهو طلاق البدعة، وهو مجمع على تحريمه، وكذلك إذا خشي بطلاقه على نفسه الزنا.

٢- ويكون مكروهًا وهو عند عدم الحاجة إليه مع استقامة الزوجين، وربما يكون هذا محرمًا عند بعضهم.

---

(١) قال البيضاوي في تفسيره لهذه الآية: «نهيٌ للأولياء عن أن يؤتوا الذين لا رشد لهم أموالهم فيضيعوها، وإنما أضاف الأموال إلى الأولياء لأنها في تصرفهم وتحت ولايتهم وهو الملائم للآيات المتقدمة والمتأخرة، وقيل: نهيٌ لكل أحد أن يعمد إلى ما خوَّله الله تعالى من المال فيعطي امرأته وأولاده ثم ينظر إلى أيديهم، وإنما سماهم سفهاء استخفافا بعقولهم وهو أوفق لقوله: ﴿**التي جعل الله لكم قيامًا**﴾ أي تقومون بها وتنتفعون، وعلى الأول يؤول بأنها التي من جنس ما جعل الله لكم قيامًا» ا.هـ.

(٢) «فيض القدير» (٣/ ٤٤١، ٤٤٢).

(٣) **ضعيف**: أخرجه أبو داود (٢١٧٧، ٢١٧٨)، والبيهقي (٧/ ٣٢٢)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢٥٣) وغيرهم. وضعفه الألباني، وانظر «الإرواء» (٢٥٢).

قلت: قد يُستدل للكراهة أو التحريم بحديث جابر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُمْ فِتْنَةً فَيَجِيءُ، أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا، قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ - قَالَ -: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ**»(١).

وعن عمرو بن دينار قال: «طلَّق ابن عمر امرأة له، فقالت له: هل رأيت مني شيئًا تكرهه؟ قال: لا، قالت: ففيم تطلق المرأة العفيفة المسلمة؟ قال: فارتجعها»(٢).

٣- ويكون مباحًا عند الحاجة إليه لسوء خلق المرأة وسوء عشرتها والتضرر بها من غير حصول الغرض منها.

٤- ويكون مستحبًّا عند تفريط المرأة في حقوق الله - تعالى- الواجبة عليها كالصلاة ونحوها، ولا يمكنه إجبارها عليها، أو تكون امرأته غير عفيفة، لأن في إمساكها نقصًا لدينه، ولا يأمن إفسادها لفراشه، وإلحاقها به ولدًا ليس هو منه، ولا بأس بعضلها في هذه الحال والتضييق عليها لتفتدي منه، قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَن يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ** ﴾ [النساء: ١٩]. وقد يكون الطلاق في هذا الموضع واجبًا.

٥- ويكون واجبًا كالمُولِي إذا أبى الفيئة إلى زوجته بعد التربُّص. على قول الجمهور.

وكطلاق الحكمين في الشقاق إذا تعذَّر عليهما التوفيق بين الزوجين ورأيا الطلاق» ا.هـ(٣).

عباد الله...

وخلاصة الكلام؛ أن المرأة الصالحة لها صفات تُعرف بها، من هذه الصفات:

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم.

(٢) **إسناده صحيح**: أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (١٠٩٩).

(٣) «صحيح فقه السنة» لأبي مالك كمال سالم (٣/ ٢٣٤، ٢٣٥).

- قيامها بحق ربِّها سُبْحَانَهُ وتعالى.
- حفظها لنفسها ومال زوجها.

قال تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ٣٤].

قال **العلامة القاسمي** - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «﴿ فَالصَّالِحَاتُ ﴾ أي: من النساء ﴿قَانِتَاتٌ ﴾ أي: مطيعات لله في أزواجهن، ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ قال الزمخشري: الغيب خلافًا للشهادة، أي حافظات لمواجب الغيب، إذا كان الأزواج غير شاهدين لهن حفظن ما يجب عليهن حفظه في حال الغيبة، من الفروج والأموال والبيوت.

﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ أي: بحفظ الله إياهن وعصمتهن بالتوفيق لحفظ الغيب، فالمحفوظ مَن حفظه الله، أي لا يتيسر لهن حفظ إلا بتوفيق الله.

أو المعنى: بما حفظ الله لهن من إيجاب حقوقهن على الرجال، أي عليهن أن يحفظن حقوق الزوج في مقابلة ما حفظ الله حقوقهن على أزواجهن، حيث أمرهم بالعدل عليهن وإمساكهن بالمعروف وإعطائهن أجورهن، فقوله: ﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ يجري مجرى ما يقال: هذا بذاك، أي في مقابلته.

وجعل المهايميّ الباء للاستعانة حيث قال: مستعينات بحفظه مخافة أن يغلب عليهن نفوسهن وإن بلغن من الصلاح ما بلغن. انتهى.

وروى ابن أبي حاتم[١] عن أبي هريرة مرفوعًا: «**خير النساء امرأة إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت حفظتك في نفسها ومالك**» قال: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ إلى آخرها.

وروى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن عوف قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا صلَّت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحفظت فرجها، وأطاعت زوجها قيل لها: ادخلي الجنة من أي الأبواب شئت**»[٢] ا.هـ[٣].

---

(١) في «تفسيره» (٣/ ٩٤١)، (٥٢٥٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦٦٤)، والطبراني في «الأوسط» (٨٨٠٥) وغيرهما.

(٣) «محاسن التأويل» (٣/ ١٠٢).

عباد الله...

وفي هذه القصة درس عظيم أيضًا للزوجين، ودرس عظيم في طاعة الوالدين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والفائدة الثالثة: بركة دعاء إبراهيم عليه السلام:

فلقد دعا في هذه القصة بدعوات منها:

قوله كما أخبر القرآن: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

ومنها قوله: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ فِي طَعَامِهِمْ وَشَرَابِهِمْ»، فاستجاب الله لدعائه، ولذلك قال النبي ﷺ: «بَرَكَةُ بِدَعْوَةِ إِبْرَاهِيمَ».

قال العلَّامة الآلوسي - رحمه الله -: قوله: ﴿ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ ﴾ أي: من أنواعها بأن تجعل بقربهم قرى يحصل فيها ذلك أو تجبى إليهم من الأقطار الشاسعة، وقد حصل كلا الأمرين حتى أنه يجتمع في مكة المكرمة البواكير والفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد» ا.هـ[١].

عباد الله...

هذه دروس وعظات فاجعلوها نصب أعينكم، ففي فقهها الفلاح والنجاح.

---

(١) «روح المعاني» (٧/ ٦٧٧، ٦٧٨).

وها هو رب العزة سُبْحَانَهُ يقول: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف: ١١١].

اللَّهُمَّ إِنَّا نسألك علمًا نافعًا، ورزقًا واسعًا

وعملًا متقبلًا، وشفاءً من كلِّ داء

الخطبة السادسة والخمسون:

قصة الذبيح... دروس وعبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعنوان خطبة اليوم «قصة الذبيح... دروس وعبر».

عباد الله...

مَن هو الذبيح؟

الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

وذهب بعضهم إلى أنه إسحاق، وهذا قول يردّه القرآن.

قال العلامة **محمد الأمين الشنقيطي** - رحمه الله -: «اعلم - وفّقني الله وإياك - أن

القرآن العظيم قد دلّ في موضعين، على أن الذبيح هو إسماعيل لا إسحاق؛ **أحدهما**: في «الصافّات»، **والثاني**: في «هود».

أمّا دلالة آيات «الصافّات» على ذلك، فهي واضحة جدًّا من سياق الآيات، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال عن نبيّه إبراهيم: ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ**﴾، قال بعد ذلك عاطفًا على البشارة الأولى: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، فدلّ ذلك على أن البشارة الأولى شيء غير المبشّر به في الثانية؛ لأنه لا يجوز حمل كتاب الله على أن معناه: فبشرناه بإسحاق، ثم بعد انتهاء قصة ذبحه يقول أيضًا: ﴿**وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ**﴾، فهو تكرار لا فائدة فيه ينزّه عنه كلام الله، وهو واضح في أن الغلام المبشر به أوّلاً الذي فدي بالذبح العظيم، هو إسماعيل، وأن البشارة بإسحاق نصّ الله عليها مستقلّة بعد ذلك.

والمقرّر في الأصول: أن النص من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، إذا احتمل التأسيس والتأكيد معًا وجب حمله على التأسيس، ولا يجوز حمله على التأكيد، إلا لدليل يجب الرجوع إليه.

ومعلوم في اللغة العربية، أن العطف يقتضي المغايرة، فآية «الصافّات» هذه، دليل واضح للمنصف على أن الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ويستأنس لهذا بأن المواضع التي ذكر فيها إسحاق يقينًا عبّر عنه في كلّها بالعلم لا الحلم، وهذا الغلام الذبيح وصفه بالحلم لا العلم.

وأمّا **الموضع الثاني** الدالّ على ذلك الذي ذكرنا أنه في سورة «هود»، فهو قوله تعالى: ﴿**وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ**﴾؛ لأن رسل الله من الملائكة بشّرتها بإسحاق، وأن إسحاق يلد يعقوب، فكيف يعقل أن يؤمر إبراهيم بذبحه، وهو صغير، وهو عنده علم يقين بأنه يعيش حتى يلد يعقوب.

فهذه الآية أيضًا دليل واضح على ما ذكرنا، فلا ينبغي للمنصف الخلاف في ذلك بعد دلالة هذه الأدلّة القرآنية على ذلك، والعلم عند الله تعالى» ا.هـ[١].

عباد الله...

إن الولد عند الأنبياء والصالحين لا يُراد لذاته، ولكن لصلاحه.

فها هو زكريا عليه السلام يقول كما أخبر القرآن: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ [مريم: ٤ - ٦].

ويخبرنا ربُّ العزّة سُبْحَانَهُ عن عباده الصَّالحين أنهم يقولون: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان: ٧٤].

وفي القصة التي معنا - اليوم - «قصة الذبيح»، يخبرنا رب العزة عن نبيِّه إبراهيم أنه قال: ﴿ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات: ٩٩- ١٠١].

قال ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسيره هاتين الآيتين: «يَقُولُ تعالى مُخبرًا عن خَليلهِ إبراهيم عليه السلام: إنَّهُ بَعدمَا نَصَرهُ الله على قَومِهِ وأَيِسَ مِن إيمَانِهِم بَعْدَمَا شَاهَدُوا مِن الآيَاتِ العَظيمَةِ، هَاجَرَ مِن بَيْن أظْهُرِهِم، وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ يعني: أولادًا مُطِيعينَ عِوَضًا مِن قَومِهِ وعَشِيرتِهِ الَّذينَ فَارَقَهُم. ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ﴾ وهَذَا الغُلامُ هُوَ إسْمَاعيلُ عليه السَّلام، فإنَّهُ أوَّلُ وَلَدٍ بُشِّر بِهِ إبراهيم عليه السلامُ، وهُوَ أكْبَرُ مِن إسْحَاقَ باتِّفَاق المُسلمِينَ وأهْلِ الكِتَاب، بَل في نَصِّ كِتَابِهِم: أنَّ إسْمَاعيل وُلِدَ ولإبراهيم عليه السلام ستٌّ وثَمانون سنة، ووُلد إسْحَاق وعُمْر إبراهيم تِسعٌ وتِسعُون سنة. وعندهم أنَّ الله تَبارك وتعالى أمَرَ إبراهيم أن يَذبَحَ ابنه وحِيدَهُ، وفي نسخة: بَكْرهُ، فَأَقْحَمُوا هَاهُنا كَذِبًا وبُهتانًا «إسحاق»، ولا يَجُوزُ هَذَا لأنَّهُ مُخالفٌ لِنَصِّ كِتَابِهم، وإنَّما أقْحَمُوا «إسحاق» لأنَّهُ أبُوهُم، وإسْمَاعيلُ

(١) «أضواء البيان» (٤/ ٣٣٧، ٣٣٨).

أَبُو العَرَب، فَحَسدُوهُم، فَزَادُوا ذَلِكَ وَحَرَّفُوا «وَحِيدك»، بِمَعنَى الَّذي ليس عِنْدك غيره، فإنَّ إسْمَاعِيل كَانَ ذَهَبَ بِهِ وبأُمّه إلى مَكَّة وهَذَا تأويلٌ وتحريفٌ بَاطِلٌ، فإنَّهُ لا يُقَالُ: «وَحِيدُكَ» إلَّا لِمَن ليس لَهُ غَيرُهُ، وأيضًا فإنَّ أوَّل وَلَدٍ لَهُ مَعزَّةٌ مَا لَيسَ لمن بَعدَهُ مِن الأولاد، فَالأمر بِذَبحِهِ أبْلَغُ فِي الابْتِلاء والاخْتِبَار.

وقَدْ ذَهَبَ جَماعَةٌ مِنْ أهْلِ العِلم إلى أنَّ الذَّبيحَ هُوَ إسْحَاقُ، وحُكِي ذَلِكَ عَنْ طَائفَةٍ مِنْ السَّلفِ، حتَّى نُقِل عَنْ بَعْضِ الصَّحابةِ رضي الله عنهم أيضًا، ولَيْسَ ذَلِكَ فِي كِتابٍ ولا سُنَّة، ومَا أظُنُّ ذَلِكَ تُلقِّى إلَّا عن أخْبَار أهلِ الكِتَابِ، وأُخِذَ ذَلِكَ مُسَلَّمًا مِن غَيرِ حُجةٍ. وهذا كِتابُ الله شَاهدٌ ومُرشدٌ إلى أنَّهُ إسْمَاعِيلُ، فإنَّهُ ذَكَرَ البِشَارَة بِغُلامٍ حَلِيمٍ، وذَكَرَ أنَّهُ الذَّبيحُ، ثُمَّ قَالَ بعد ذَلِكَ: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. ولَمَّا بَشَّرَت الملائكة إبْرَاهيم بِإسْحَاق قَالُوا: ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣]. وقال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، أي: يُولَدُ لَهُ فِي حَيَاتِهما وَلَدٌ يُسَمَّى يَعْقُوب، فَيكُون مِن ذُرِّيَّته عَقِبٌ ونَسلٌ. وقَدْ قَدَّمنا هُنَاك أنَّهُ لا يَجُوز بَعْدَ هَذَا أنْ يُؤْمَرَ بِذَبْحِهِ وهُوَ صَغيرٌ؛ لأنَّ الله تَعَالى قَدْ وَعَدَهُما بِأنَّهُ سَيُعقِبُ، ويَكُونُ لَهُ نَسلٌ، فَكَيفَ يُمكِنُ بَعْدَ هَذَا أن يُؤْمَرَ بِذَبحِهِ صَغِيرًا، وإسْمَاعيلُ وُصِفَ هَاهُنا بِالحَلِيمِ؛ لأنَّهُ مُناسِبٌ لِهَذَا المَقَام» ا.هـ[1].

وهكذا يلتقي كلام العلَّامة الشنقيطي المتقدّم مع كلام الإمام ابن كثير رحمهما الله تعالى.

والمقصود أنَّ الله تعالى ابتلى خليله إبراهيم بذبح ولده الوحيد إسماعيل عليهما السلام، ويحكي القرآن الكريم هذا المشهد فيقول ربُّ العزّة سُبْحَانَهُ: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٩١، ٦٩٢).

عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الـمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الـمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ٩٩ - ١١١].

قال ابن كثير - رحمه الله -:

وقوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي: كَبِرَ وترَعرعَ وصَارَ يَذْهَبُ مَعَ أَبِيهِ وَيَمشي مَعَهُ. وقَدْ كَانَ إبْرَاهِيم عليه السلام يَذهَبُ فِي كُلِّ وقتٍ يَتَفقَّدُ وَلَدَهُ وأُمَّ وَلَدِهِ بِبلادِ «فَارَان» ويَنْظُرُ في أمْرِهِمَا، وقَدْ ذُكِرَ أنَّهُ كَانَ يَركَبُ عَلَى البُراق سَريعًا إلى هناك، فالله أعلم.

وقال عَددٌ مِن العُلَماءِ: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ يعني: شَبَّ وارْتَحَل وأطَاقَ مَا يَفعَلُهُ أَبُوهُ مِن السَّعي وَالعَمَلِ، ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾ قال عُبَيدُ بن عُمَيرٍ: رُؤْيَا الأنْبِيَاءِ وَحْي، ثُمَّ تَلا هَذِه الآية: ﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى﴾.

وإنَّما أعْلَمَ ابْنَهُ بِذَلك لِيَكُون أَهْوَنَ عَلَيهِ، ولِيَختَبِرَ صَبْرَهُ وجَلَدَهُ وعَزْمَهُ فِي صِغَرِهِ على طَاعةِ الله تَعَالى وطَاعَةِ أبِيهِ.

﴿قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أي: امْضِ لِمَا أَمَرَكَ الله مِن ذَبْحِي، ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ أي: سَأصْبِرُ وأحْتَسِب ذَلِكَ عِنْدَ الله عَزَّ وَجَلَّ. وصَدَقَ - صَلَواتُ الله وسَلَامه عليه - فِيمَا وَعَدَ؛ ولِهَذا قَالَ الله تَعَالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: فَلَمَّا تَشَهَّدَا وذَكَرَا الله تَعَالَى، إبْرَاهِيم على الذَّبح والوَلد على شَهَادة المَوتِ. وقيل: ﴿أَسْلَمَا﴾ اسْتَسلما وانْقَادَا؛ إبْرَاهِيم امْتَثَل أمْرَ الله، وإسْمَاعيل طَاعَة الله وأَبيه. قاله عددٌ مِن العُلَمَاء.

ومعنى ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ أي: صَرَعَهُ على وَجْهِه لِيَذْبَحَهُ مِن قَفَاهُ، وَلا يُشَاهِدُ وَجْهَهُ عِند ذَبْحِهِ، لِيَكُون أَهْوَن عَلَيْه.

﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي: قَد حَصَلَ المَقصُودُ مِن رُؤيَاكَ بإضْجَاعِكَ وَلَدَكَ للذَّبح.

وقوله: ﴿إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي: هَكَذَا نَصرِفُ عَمَّن أطَاعَنَا المَكَارِهَ والشَّدَائِدَ، ونَجْعَلُ لَهُم مِنْ أَمرِهِم فَرَجًا ومَخْرَجًا، كَقَولِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق:٢، ٣].

وقوله: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ الصَّحيحُ الَّذي عليه الأكثرُونَ أَنَّهُ فُديَ بِكَبشٍ.

وقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لَمَّا تَقَدَّمَتِ البِشَارَةُ بِالذَّبِيحِ -وهُو إسْمَاعيل- عُطِفَ بِذِكْرِ البِشَارَةِ بِأَخِيهِ إسْحَاقَ، وقَدْ ذُكِرَت في سُورَتي «هود» و«الحِجْر».

وقوله: ﴿نَبِيًّا﴾ حَالٌ مُقَدَّرةٌ، أي: سَيَصيرُ مِنْهُ نَبيٌّ مِنْ الصَّالِحِينَ» ا.هـ[(١)].

عباد الله...

ومن فوائد القصة:

الفائدة الأولى: أن رؤيا الأنبياء وحي:

فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم تنام أعينُهم ولا تنام قلوبُهم، ففي «الصحيحين» في حديث الإسراء من رواية أنس: «... **وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبُهم**».

قال ابن عبد البرّ - رحمه الله -: «وهذا من علياء مراتب الأنبياء صلوات الله عليهم، يفارقون سائر البشر في نوم القلب ويساوونهم في نوم العين، فلو سلِّط النوم على قلوبهم كما يصنع بغيرهم لم تكن رؤياهم إلَّا كرؤيا من سواهم» ا.هـ[(٢)].

الفائدة الثانية: تقديم محبّة الله تعالى على كلّ محبّة:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٣/ ٦٩٣).

(٢) «اللفظ المكرَّم بخصائص النبي المعظَّم ﷺ» للشيخ الحافظ/ قطب الدين محمد بن محمد الخضري الشافعي (ص١٨٥).

قال الحسن: ﴿ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ﴾ بعقوبة عاجلة أو آجلة.

فلا ينبغي لمؤمن أن يقدّم محبّة غير الله على محبّة الله تعالى.

والذين قدَّموا حُبّ أولادهم على حُبّ دينهم أكلوا الحرام، ماتوا ولم يحجّوا مع قدرتهم عليه، شهدوا الزور، انكسروا لغير مولاهم، لم يقيموا دينًا، ولم ينصروا شريعة، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٤].

قال القرطبيُّ رحمه الله تعالى: «قوله تعالى: ﴿ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ معناه: على أنفسكم. والحذر على النفس يكون بوجهين: إما لضرر في البدن، وإما لضرر في الدين.

وضرر البدن يتعلق بالدنيا، وضرر الدين يتعلق بالآخرة. فحذر الله سبحانه العبد من ذلك وأنذره به.

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ ﴾ قال: ما عادوهم في الدنيا ولكن حملتهم مودتهم على أن أخذوا لهم الحرام فأعطوه إياهم.

والآية عامة في كل معصية يرتكبها الإنسان بسبب الأهل والولد. وخصوص السبب لا يمنع عموم الحكم» ا.هـ[1].

وعن أبي سعيد الخدريّ – رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ – عن النبيّ ﷺ قال: «**الولدُ ثمرةُ القَلبِ، وإنَّهُ مَجبنَةٌ مَبخَلَةٌ مَحزنَةٌ**».

قال العلامة المناويّ – رحمه الله –: قوله: «**الولدُ ثمرةُ القَلبِ**» قيل للولد ثمرة لأن الثمرة ما تنتجه الشجرة والولد ينتجه الأب، «**وإنَّهُ مَجبنَةٌ مَبخَلَةٌ مَحزنَةٌ**» أي يجبن أباه عن الجهاد خشية ضيعته، وعن الإنفاق في الطاعة خوف فقره، فكأنه أشار إلى التحذير من النكول عن الجهاد والنفقة بسبب الأولاد بل يكتفى بحسن خلافة الله فيقدم ولا يحجم، فمن طلب الولد للهوى عصى مولاه ودخل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ ﴾ فالكامل لا يطلب الولد إلّا لله فيربيه على طاعته ويمتثل فيه

(١) «تفسير القرطبي» (١٨/ ١٣٢) باختصار.

أمر ربه، ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]، وسُئل حكيم عن ولده فقال: ما أصنع بمن إن عاش كدّني وإن مات هدَّني» ا.هـ[1].

عباد الله...

ولا يظنّ ظانّ أن ما ذكرناه دعوة لكراهية الأزواج والأولاد! لا؛ فالمحبة الطبيعية لا بأس بها، بل هي زينة الحياة الدنيا، ولكن مكمن الخطر أن تتحول هذه المحبّة إلى محبة عبودية، ولكي يزداد الأمر وضوحًا نذكر كلامًا للإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - بهذا الصّدد:

قال رحمه الله: «هُنا أربعة أنواع من المحبةِ يجب التفريقُ بينهما، وإنما ضلَّ مَن ضلَّ بعدم التمييز بينهما:

أحدهما: محبة الله، ولا تكفي وحدها في النَّجاة من عذابِ الله.

الثاني: محبة ما يحبُّ الله، وهذه هي التي تُدخله في الإسلام وتُخرجُه مِن الكُفرِ.

الثالث: المحبة لله وفيه، وهي من لوازم محبّة ما يحب

الرابع: المحبة مع الله، وهي المحبة الشركية.

وبقى **قسم خامس** ليس ممَّا نحن فيه، وهى المحبَّة الطبيعيَّةُ، وهي ميلُ الإنسانِ إلى ما يلائم طبعه، كمحبّة العطشان للماء، والجائع للطعام، ومحبّة النوم، والزوجة، والولد، فتلك لا تُذَمُّ إلَّا إذا ألهت عن ذكر الله وشغلت عن محبَّتِه.

ثُمَّ الخُلَّةُ وهي تتضمَّنُ كمال المحبَّةِ ونهايتها، بحيث لا يَبقَى في قَلبِ المحبِّ سِعةٌ لغيرِ محبوبِه، كما قال ﷺ: «إنَّ الله اتَّخذني خليلًا كَمَا اتَّخذَ إبراهيم خليلًا»[2].

والمحبوبُ قسمان؛ محبوبٌ لنفسِهِ ومحبوبٌ لغيره، والمَحبوب لغيره لابدَّ أن ينتهي إلى المحبوبِ لنفسه دفعًا للتسلسل المحَالِ، وكُلّ ما سِوى المحبوبِ الحقِّ فهو محبوبٌ لغيره، وليس شيءٌ يُحبُّ لنفسِه إلَّا الله وحدَه، وكُلُّ ما سواهُ مما يحب فإنَّما محبَّته تبعٌ لمحبَّة الرب

---

(١) «فيض القدير» (٦/ ٤٩٠).

(٢) رواه مسلم (٥٣٢).

تبارك وتعالى، كمحبَّةِ ملائكتِهِ وأنبيائِهِ وأوليائِهِ، فإنها تبعٌ لمحبَّته سُبْحَانَهُ، وهي من لوازِم محبَّته، فإنَّ محبَّةَ المحبوبِ تُوجبُ محبَّةَ ما يحبُّه، وهذا موضِعٌ يجبُ الاعتناءُ به.

والمحبوب لغيره قسمان أيضًا:

أحدهما: ما يلتَذُّ المحب بإدراكه وحصوله.

والثاني: ما يتألم به ولكن يحتملُه لافضائِه إلى محبُوبه، كَشُربِ الدَّواء الكريه، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢١٦].

فأخبر سُبْحَانَهُ أنَّ القِتالَ مكروهٌ لهم مع أنَّهُ خيرٌ لهم، لإفضَائِه إلى أعظم محبُوبٍ وأنفعِه.

فالأمور أربعة:

- مكروه يوصل إلى مكروهٍ.
- ومكروهٌ يُوصلُ إلى محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلى محبوبٍ.
- ومحبوبٌ يوصل إلى مكروه.

فالمحبوبُ الموصلُ إلى محبُوبٍ قد اجتمع فيه دَاعي الفعلِ مِن وجهينِ، والمكروهُ الموصلُ إلى مكروهٍ قد اجتمعَ فيه دَاعي التَرْكِ مِن وجهين.

بَقي القسمان الآخرانِ يتجاذبُهما الداعيان – وهما معترك الابتلاء والامتحان – فالنفسُ تُوثرُ أقربَهُما جِوارًا منها، وهُو العاجِلُ، والعقلُ والإيمان يؤثرُ أنفعَهُما وأبقَاهما، والقلبُ بين الداعيينِ، وهو إلى هذا مرَّةً، وإلى هذا مرة، وهَهُنا محلُّ الابتلاءِ شَرعًا وقَدرًا.

وإذَا كان الحبُّ أصل كلِّ عملٍ من حقٍّ وباطلٍ، فأصلُ الأعمالِ الدينية حبُّ الله ورسولِهِ ﷺ، كما أنَّ أصل الأقوالِ الدينيَّةِ تصديقُ الله ورسوله ﷺ.

ولا شيء على الاطلاق أنفع للعبد من إقباله على الله واشتغاله بذكره وتنعمه بحبّه وإيثاره لمرضاته.

مِـن كـلِّ شـيءٍ إذا ضـيعتَه عِـوَضٌ   ومـا مِـنَ الله إنْ ضَـيعتَهُ عِـوضُ

ولما كانتِ المحبَّةُ جنسًا تحته أنواعٌ متفاوتةٌ في القدرِ والوصفِ، كَانَ أغلبُ ما يُذكَرُ فيها في حقِّ الله تعالى ما يختصُّ به ويليقُ به من أنواعِها.

وأعظم أنْواع المحبَّة المذمُومة؛ المحبَّةُ مع الله التي يُسوِّى فيها المحبُّ بين محبَّته لله ومحبّته للندِّ الذي اتخذه من دون الله.

وأعظمُ أنواعها المحمودة؛ محبَّة الله وحده، ومحبَّةُ مَا أحبَّ، وهذه المحبَّة هي أصلُ السَّعادة ورأسها التي لا يَنُجو أحدٌ مِن العذابِ إلا بها.

والمحبَّةُ المذمومة الشركيَّةُ هي أصلُ الشَّقاوةِ ورأسُها التي لا يبقَي في العذاب إلَّا أهلها، فأهلُ المحبَّة الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يدخلون النار، ومَن دخلها منهم بذنوبه فإنه لا يَبْقَى فيها منهم أحد.

وأصلُ دعوة جميعِ الرُّسُل عليهم السَّلام، مِن أولهم الى آخرهم إنما هو عبادةُ الله وحده لا شريك له، المتضمنةُ لكمال حُبِّه، وكمال الخضوع والذل له والإجلال والتعظِيم، ولوازم ذَلِكَ مِن الطاعة والتقوى.

وقد جاء في «الصحيحين» من حديثِ أنسٍ - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُ - عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال: «**والذي نَفسي بِيدِهِ لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ**».

وفي «صحيح البخاري» أنَّ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إلاَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**لاَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ**». فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: والَّذي بَعثَك بِالحَقِّ لأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**الآنَ يَا عُمَرُ**»[(١)].

عباد الله...

والمحبَّةُ لها آثار وتوابعُ ولوازمُ وأحكامٌ، سواءً كانت محمودةً أو مذمومةً، نافعةً أو ضارَّةً.

---

(١) يعني: كَمُل إيمانُك.

والمحبَّةُ المحمودةُ هي المحبَّةُ النافعةُ الَّتي تجلِبُ لصاحبِها ما ينفعُه في دُنياهُ وآخرَتِه، وهذه المحبَّةُ هي عُنوانُ سَعادَته، والضَّارَّةُ هي الَّتي تجلِبُ لصاحِبِها ما يضرُّه في دنياه وآخرته، وهي عُنوان شَقاوتِه.

والمحبَّة الضَّارَّةُ المذمومة توابعها وآثارها كُلُّها ضَارَّةٌ لصاحِبها مُبعدةٌ له من ربِّه، كيفما تقلَّبَ في آثارِها ونزلَ في منازِلها فَهُو في خَسارةٍ وبُعدٍ.

وكما أنَّ المحبَّة والإرادةَ أصلُ كُلِّ فعلٍ - كما تقدَّم - فهي أصل كلِّ دينٍ سَواء أكانَ حقًّا أم باطلًا، فإن الدين مِن الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبَّة والإرادةُ أصلُ ذلك كله، والدينُ هو الطاعةُ والعبادةُ والخُلُقُ، فهو الطَّاعةُ اللازمة الدَّائمةُ الَّتي صَارت خُلقًا وعادةً، ولهذا فُسِّر الخُلُق بالدِّين في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم: ٤]، قال الإمام أحمد عن ابن عيينة قال ابن عباس: «لَعلَى دينٍ عَظيمٍ» ا.هـ[١].

عباد الله...

والفائدة الثالثة: التسليم المطلق لله من أسباب تفريج الكروب وإزالة الهموم والغموم:

وهذا واضح جدًّا في القصة، لذا قال ابن كثير - رحمه الله - عقب قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴾، قال: «أي هكذا نصرف عمَّن أطاعنا المكاره والشدائد، ونجعل لهم من أمرهم فَرجًا ومَخرجًا» ا.هـ.

فسلِّم - يا عبد الله - نفسك بالكامل لسيِّدك ومولاك، يجعل لك من أمرك يسرًا، ويرزقك من حيث لا تحتسب.

هذا، والأمة الإسلامية لن تخرج من الهوان الذي انحدرت إليه إلَّا إذا سلَّمت نفسها بالكامل لله.

عباد الله...

وهناك بعض الروايات التي لا تصحّ ذكرها بعضُ المفسّرين عند ورود هذه القصّة «قصّة الذبيح» منها قول بعضهم: «لما أخذ إبراهيم السكين فمرَّها على حَلق إسماعيل

---

(١) «مختصر الداء والدواء» (٨٢ - ٨٧).

انقلبت!!».

وقول بعضهم: «كان كلما قطع جزءًا التأم!!».

قال القرطبيُّ - معلِّقا على هذا الكلام -: «هذا كله جائز في القدرة الإلهية، لكنه يفتقر إلى نقل صحيح» ا.هـ.

ومن الروايات التي لا تصحّ أيضًا؛ ما رواه ابن قدامة المقدسيّ - رحمه الله - في كتابه «الرقة والبكاء» (ح٢٨) عن عبد الرحمن بن قبيصة عن أبيه، قال: رأى إبراهيم عليه السلام في المنام: أن يا إبراهيم قم فقرّب ابنك قربانًا، وكانت الرؤيا بمكة، فقال إبراهيم: أخزى الله إبليس، يريد أن يفتنني، فقام يصلِّي حتى أصبح، فلما كانت الليلة القابلة رأى مثلها، فقال مثل مقالته، حتى كانت الليلة الثالثة أتاه نداء وهو قائم: أن يا إبراهيم ما كان إبليس بالطاعة لربّك، قم فامض لما أُمرت.

قال إسحاق عن أبي إلياس عن وهب: فانطلقا حتى انتهيا إلى الشِّعب من منى، فانتهيا إلى أصل يثرب، فقال: انزل يا بني، فقال: يا بنيّ، إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال: فتهلل وجهه واضطربت مفاصله، ثم قال: وابتدر أباه فقال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

قال له إبراهيم: يا بنيّ إني أراك قد تهلّل وجهُك، واضطربت مفاصلك ولم تنكسر، ولم يدخلك شيء.

قال: يا أبت إن ربِّي لي عوض عنك، والجنَّة عوض من الدنيا، وما أمرك ربِّي بهذا إلَّا لَمَّا رضى لي أن ما عنده خير لي، فامض لأمر ربِّك، ولكن يا أبت شدّ يديّ ورجليّ لا أجتذب من حرّ المدية فتنتضح بدمي.

يا أبت كَفِّنِّي في ثوبك، وردّ ثوبي إلى أُمِّي تستنشق من ريحي يكون أسلى لها.

قال: فشدّ يده ورجله، ثم شحذ مُديته، وجلس عند رأسه فقال: إلهي لك الحمد في الدَّهر الباقي، رزقتني الولد على كبر السِّنّ، ووعدتني وأنت لا تخلف الميعاد، فابتليتني بهذا البلاء، فإن كان هذا رضى لك فأسلِّم لأمرك، وإن كان من غضب منك عليَّ فأستغفرك وأتوب إليك.

قال: فبكت الملائكة وقالت: نبيًّا منكبًّا لوجهه، والآخر يريد أن يذبحه.

قال: فدنا من ابنه وتلّه للجبين أي: لوجهه - لئلا ينظر إلى وجهه فيجزع.

قال: ثم أدخل شفرته من تحت حنكه، ثم أمرّها فنبت السِّكين - يعني لم تقطع - وانثنت السكين، وشحذه، واتقى النظر إلى وجهه ثم أدخل الشفرة لحلقه، فنبت الشفرة وكلَّت، وقلبها الله في يده، ثم اجتذبها ليفرغ منه، ونودي: «أن يا إبراهيم قد صدَّقت الرؤيا، عليك بالذي خَلفَك فاذبحه دونه».

عباد الله...

وعلامات بطلان الحديث ظاهرة على صفحات متن هذه القصّة، ففي إسنادها إسحاق بن بشر، قال الدارقطني: كذاب متروك.

وقال ابن حبان عنه: لا يحلّ حديثه إلَّا على وجه التعجب[١].

فعلى الدعاة الحذر والتحذير من مثل هذه الروايات الموضوعة، وفي الآيات الواردة في القصة الكفاية، لمن أراد الهداية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلقد ورد في فضائل العشر الأوئل من ذي الحجة أحاديث، منها:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ**». يَعْنِى أَيَّامَ الْعَشْرِ.

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلاَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ الله؟

(١) انظر حلقات: «تحذير الداعية من القصص الواهية» للشيخ/ علي حشيش، مجلة التوحيد، عدد ذي الحجة ١٤٢٩هـ. ص (٥٣).

قَالَ: «وَلاَ الْجِهَادُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَىْءٍ». رواه البخاري وغيره.

لقد أشاع البعضُ أنَّ النبيَّ ﷺ لم يَثبُت عنه أنه صام التِّسع الأُول من ذي الحِجّة!

وهذا كلام لا يصحّ، بل يخالف الثّابت، فقد ثبت عن بعض أزواج النبيّ ﷺ أنّها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصُومُ تِسْعَ ذِى الْحِجَّةِ وَيَوْمَ عَاشُورَاءَ، وَثَلاَثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ: أَوَّلَ اثْنَيْنِ مِنَ الشَّهْرِ وَالْخَمِيسَ»[(١)].

قال العلامة **أبو الطيِّب محمد شمس الحق العظيم آبادي** - رحمه الله -: «أَوَّلَ اثْنَيْنِ» بالنصب بدل من قوله: وثلاثة أيام، و«الخَميس» بالإفراد، هكذا في رواية المؤلف[(٢)]، وكذا في رواية للنسائي.

وفي رواية للنسائي: «**وثلاثة أيام من كل شهر، أول اثنين من الشهر وخميسين**» بالتثنية، وكذا في رواية لأحمد، قاله النووي[(٣)]» ا.هـ[(٤)].

وقد يُردّ على هذا الكلام بما ثبت عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنها قالت: «مَا رأيتُ رسول الله ﷺ صائمًا العَشر قَطُّ»[(٥)].

ولا تعارض بين الحديثين.

قال العلَّامة **أبو الطيِّب محمد شمس الحق العظيم آبادي** - رحمه الله - عقب ذكره لهذا الحديث: «قال العلماء: هذا الحديث مما يوهم كراهة صوم العشر، والمراد بالعشر ههنا: الأيام التسعة من أوّل ذي الحجّة، قالوا: وهذا مما يتأوّل، فليس في صوم هذه التسعة كراهة، بل هي مستحبة استحبابًا شديدًا، لا سيما التاسع منها وهو يوم عرفة، وقد جاءت الأحاديث في فضله.

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد وأبو داود والنسائي، وانظر «صحيح سنن أبي داود» (٢١٢٩).
(٢) يعني رواية أبي داود.
(٣) يراجع فقه صيام الثلاثة أيام من كل شهر بتوسّع في كتب الفقه.
(٤) «عون المعبود» (٧/ ٧٤).
(٥) رواه مسلم وأبو داود والترمذي وغيرهم.

وثبت في «صحيح البخاري» أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَا من أيَّام العمل الصَّالح فيها أفضل منه في هذا**» يعني العشر الأوائل من ذي الحجّة.

فيتأوّل قولها: «لم يصم العشر» أنه لم يصمه لعارض مرض أو سفر أو غيرهما، أو أنها لم تره صائمًا فيه، ولا يلزم من ذلك عدم صيامه في نفس الأمر» ا.هـ[1].

۞۞۞۞۞

(١) «عون المعبود» (٧/ ٧٥).

الخطبة السابعة والخمسون:

فضلُ عَشر ذي الحِجّة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد أخرج البخاري[١] من حديث ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما عَن النَّبيِّ ﷺ قال: «مَا مِنْ أَيَّامٍ الْعَمَلُ الصَّالِحُ فِيهَا أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ». يَعْنِي أَيَّامَ الْعَشْرِ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلاَّ رَجُلٌ خَرَجَ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فَلَمْ يَرْجِعْ مِنْ ذَلِكَ بِشَيْءٍ».

---

(١) برقم (٩٦٩).

عباد الله...

قال الإمام ابن رجب الحنبلي - رحمه الله - عقب هذا الحديث ما مختصره: «وقد دلَّ هذا الحديث على أنَّ العمل في أيَّامه أحبُّ إلى الله من العمل في أيَّام الدنيا من غير استثناء شيء منها، وإذا كان أحبَّ إلى الله فهو أفضلُ عنده، وقد ورَدَ هذا الحديث بلفظ: «**مَا مِنْ أَيَّامِ الْعَمَلُ فِيهَا أفضَلُ مِن أَيَّام العَشْر**» وروي بالشك في لفظة «**أحبُّ**» أو «**أفضلُ**» وإذا كان العَملُ في أيَّام العَشر أفضَل وأحبَّ إلى الله مِن العمل في غيره من أيام السَّنة كُلِّها، صار العملُ فيه وإن كان مفضولًا أفضل مِن العمل في غيره وإن كان فاضِلًا، ولهذا قالوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ الله؟ قَالَ: «**وَلاَ الْجِهَادُ**» ثم استثنى جهادًا واحدًا هو أفضلُ الجهادِ، فإنَّه ﷺ سُئل أيُّ الجهاد أفضلُ؟ قال: «**مَن عُقِر جَوادُه وأُهريقَ دَمُهُ**»[1]، وصاحِبهُ أفضلُ الناس دَرجة عندَ الله.

وأمَّا بقيةُ أنواع الجِهاد فإنَّ العمل في عشرِ ذي الحِجَّة أفضلُ وأحبُّ إلى الله عز وجل منها، وكذلك سائر الأعمال، وهذا يدلُّ على أنَّ العمَل المفضولَ في الوقت الفاضل يلتحقُ بالعمل الفاضِلِ في غيره، ويزيدُ عليه لمضاعفة ثوابه وأجره، وقد رُوي في حديث ابن عبَّاسٍ رضيَ الله عنهما هذه الزيادة: «**والعَمَلُ فيهن يُضاعفُ بسبعمائة**». وفي إسنادها ضعفٌ.

وفي «المسند» و«السُّنن» عن حفصة أنَّ النَّبيّ ﷺ «كان لا يَدعُ صيامَ عاشوراء والعَشر، وثلاثةِ أيام من كُلِّ شهرٍ»[2]، وفي إسناده اختلاف، ورُوي عن بعض أزواج النبي ﷺ أن النبي ﷺ «كان لا يَدعُ صِيامِ تسع ذي الحجَّة»[3]، وممن كان يصومُ العَشر عَبدُ الله بنُ عُمر رضي الله عنهما، وقد تقدَّم عن الحسن وابن سيرين وقَتادة ذِكرُ فَضل صيامه، وهو قول أكثر العلماء أو كثيرٍ منهم.

وفي «صحيح مسلم»[4] عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - قالت: «ما رأيتُ رسولَ الله

---

(١) جزء من حديث ذكره ابن رجب بالمعنى، وأخرجه أبو داود (١٤٤٩).

(٢) حديث صحيح.

(٣) حديث صحيح.

(٤) برقم (١١٧٦).

ﷺ صائمًا العَشرَ قَطُّ»، وفي رواية «في العَشر قطُّ»، وقد اختلف جوابُ الإمام أحمد عن هذا الحديث، فأجابَ مرَّةً بأنَّه قد رُوي خلافُه، وذَكَر حديثَ حَفصَة، وأشار إلى أنه اختُلِف في إسناد حديث عائشة، فأسنَدهُ الأعمشُ، ورواه منصورُ عن إبراهيم مرسلًا، وكذلك أجاب غيرُه من العلماء بأنَّه إذا اختلَفت عائشة وحَفصةُ في النفي والإثبات أُخِذَ بقول المثبت، لأن معه عِلمًا خفِي على النَّافي. وأجاب أحمد مرَّةً أخرى بأنَّ عائشة أرادت أنه لم يَصُم العَشر كاملًا، يعني وحَفصَة أرادت أنه كان يصوم غالبَه، فينبغي أن يُصامَ بعضُه ويُفطَرَ بَعضُه، وهذا الجمع يصحُّ في رواية مَن رَوَى «مَا رأيتُه صائمًا العَشرَ» وأما مَن روى: «مَا رأيتُه صائمًا في العشر» فيبعدُ أو يتعذَّر هذا الجَمعُ فيه.

وكان ابن سيرين يكرَهُ أن يُقالَ: صَامَ العَشر، لأنه يُوهِم دخُول يوم النَّحر فيه، وإنما يقال: صَامَ التِّسعَ، ولكنَّ الصِّيام إذا أضيفَ إلى العَشر فالمرادُ صيامُ ما يجوزُ صومُهُ منه، وقد سبق حديث أنَّ النبي ﷺ كان يصوم العَشر، ولو نذر صيام العَشر فينبغي أن ينصرف إلى التسع أيضًا، فلا يَلزَمُ بفِطر يومِ النَّحر قضاءٌ ولا كفَّارةٌ، فإنَّه غلب استعمالُه عُرفًا في التسع، ويحتمل أن يُخَرَّج في لزومِ القضاءِ والكفَّارة خلافٌ، فإنَّ أحمد قال فيمن نَذَر صَوم شوَّال فأفطر يوم الفِطر وصَامَ باقيهُ: أنَّه يلزمه قضاءُ يوم وكفَّارةُ، وقال القاضي أبو يَعلى: هذا إذا نوي صومَ جميعه، فأمَّا إن أطلق لم يلزمهُ شيءٌ، لأنَّ يوم الفِطر مستثنًى شرعًا، وهذه قاعدةٌ مِن قواعد الفقه، وهي أنَّ العموم هل يُخَصُّ بالشرعِ أم لا؟ ففي المسألة خلافٌ مشهور(١).

وأمَّا قيامِ ليالي العَشر فمستحبٌّ، وقد سَبَق الحديثُ في ذلك، وقد ورد في خصوص إحياء ليلتي العيدين أحاديثُ لا تصحُّ، ووردَ إجابة الدُّعاء فيهما، واستحبَّه الشافعيُّ وغيرهُ من العلماء، وكان سعيدُ بن جُبير، وهو الذي رَوَى هذا الحديث عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما إذا دَخَلَ العَشرُ اجتهَدَ اجتهادًا حتَّى ما يكاد يُقدَرُ عليه. ورُوي عنه أنه قال: لا تطفئوا سُرجَكم ليالي العَشر - تعجبُه العبادة.

وأمَّا استحبابُ الإكثار مِن الذكر فيها فقد دَلَّ عليه قولُ الله عز وجل: ﴿ وَيَذْكُرُوا

---

(١) راجع للأهمية خطبة «قصة الذبيح»، الخطبة الثانية، فهناك مزيد بيان.

اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ﴾ [الحج: ٢٨]، فإنَّ الأيام المعلومات هي أيام العشر عند جُمهور العلماء.

وفي مسند الإمام أحمد عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ أَيَّامٍ أَعْظَمَ عِنْدَ اللَّهِ وَلاَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الْعَمَلِ فِيهِنَّ مِنْ هَذِهِ الأَيَّامِ الْعَشْرِ، فَأَكْثِرُوا فِيهِنَّ مِنَ التَّهْلِيلِ وَالتَّكْبِيرِ وَالتَّحْمِيدِ».

فإن قيل: فإذا كان العملُ في أيام العَشرِ أفضَلَ مِن العملِ في غيرها، وإن كان ذلك العملُ أفضَلَ في نفسه ممَّا عُمِلَ في العشر، لفضيلةِ العَشر في نفسه، فيصيرُ العملُ المفضولُ فيه فاضلًا حتى يفضُلَ على الجهاد الذي هو أفضلُ الأعمال، كما دَلَّت على ذلك النُّصوصُ الكثيرة، وهو قولُ الإمام أحمد وغيره من العلماء، فينبغي أن يكون الحجُّ أفضَل من الجهاد، لأنَّ الحجَّ مخصوصٌ بالعَشر، وهو من أفضل ما عُمِلَ في العشر، أو أفضل ما عمل فيه، فكيف كان الجهادُ أفضلَ مِن الحج؟ فإنه ثبت في «الصحيحين» عن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أنَّ رجلًا قال: يا رسول الله أيُّ الأعمال أفضلُ؟ قال: «إيمان بالله ورسوله» قال: ثم ماذا؟ قال: «جهادٌ في سبيل الله» قال: ثم ماذا؟ قال: «حجٌّ مبرورٌ»[(١)].

قيل: التطوُّع بالجهاد أفضلُ من التطوُّع بالحجِّ عند جمهور العلماء، وقد نَصَّ عليه الإمام أحمد، وهو مروي عن عبد الله بن عمرو بن العاص، ورُوي فيه أحاديث مرفوعة، في أسانيدها مقالٌ، وحديثُ أبي هريرة هذا صريحٌ في ذَلِكَ.

ويمكن الجمع بينه وبين حديث ابن عبَّاسٍ بوجهين:

أحدهما: أنَّ حديث ابن عبَّاسٍ قد صرَّح فيه بأنَّ جهادَ مَن لا يرجعُ من نفسه ومالِه بشيءٍ يفضُلُ على العَمل في العَشر، فيمكن أن يُقال: الحجُّ أفضلُ من الجهاد، إلَّا جهادَ مَن لم يرجع من نفسِه ومالِه بشيء، ويكون هو المراد من حديث أبي هريرة، ويجتمع حينئذٍ الحديثان.

والثاني وهو الأظهر: أنَّ العَملَ المفضُولَ قد يقترِنُ به ما يصيرُ أفضل من الفاضِل في

(١) أخرجه البخاري (٢٦٩، ومسلم (٨٣)، وغيرهما.

نفسه، كما تقدم، وحينئذٍ فقد يقترن بالحَجّ ما يصيرُ به أفضلَ من الجهاد، وقد يتجرَّدُ عن ذَلِكَ فيكون الجهادُ حينئذٍ أفضل منه، فإن كان الحَجُّ مفروضًا فهو أفضَلُ من التطوُّع بالجهاد، فإنَّ فروضَ الأعيان أفضَلُ من فُروض الكفاياتِ عند جمهور العلماء، وقد رُوي هذا في الحجّ والجهاد بخُصُوصهما عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وروي مرفوعًا من وجوهٍ متعدِّدةٍ في أسانيدها لين، وقد دَلَّ على ذَلِكَ ما حكاهُ النبي ﷺ عن ربِّه عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ قال: «مَا تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداءِ ما افترَضتُ عليه»[1].

وإن كان الحاج ليس من أهل الجهاد فحجُّه أفضَلُ من جهاده، كالمرأة.

وفي «صحيح البخاري»[2] عَنْ عَائِشَةَ - رضي الله عنها - أَنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ الله، نَرَى الْجِهَادَ أَفْضَلَ الْعَمَلِ، أَفَلاَ نُجَاهِدُ؟ قَالَ: «لاَ، لَكِنَّ أَفْضَلَ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ».

وفي رواية له: «جهادُكُنَّ الحجُّ». وفي رواية له أيضًا: «نِعم الجهادُ الحجُّ».

وكذلك إذا استغرق العَشرُ كلُّه عملَ الحَجّ وأتى به على أكمل وجه البرِّ من أداءِ الواجبات واجتناب المحرَّمات، وانضَمَّ إلى ذَلِكَ الإحسانُ إلى الناس ببذلِ السَّلام وإطعام الطعام، وضَمَّ إليه كثرةَ ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ، والعجَّ والثَّجَّ، وهو رَفعُ الصوت بالتلبية وَسَوقُ الهَدي، فإنَّ هذا الحجَّ على هذا الوَجه قد يفضُلُ على الجهاد، وإن وَقَعَ عملُ الحَجّ في جزءٍ يسيرٍ من العَشر ولم يؤتَ به على الوجهِ المبرور، فالجهادُ أفضَلُ منه.

وقد رُوي عن عُمَر وابن عمر وأبي موسى الأشعري ومجاهدٍ ما يدلُّ على تفضيل الحجّ على الجهاد وسائر الأعمال.

وينبغي حملُه على الحَجّ المبرور الذي كَمُل بِرُّه واستوعَب فَعلُه أيّام العَشر، والله أعلم.

فإن قيل: قوله ﷺ: «مَا مِن أيام العَمَلُ الصَّالحُ فيها أحبُّ إلى الله من هذه الأيّام»، هل يقتضي تفضيل كُلِّ عملٍ صالح وقَعَ في شيء من أيام العَشر على جميع ما يقعُ في غيرها، وإن طالت مدته أم لا؟

(١) جزء من حديث طويل أخرجه البخاري (١١/ ٣٤٠).
(٢) برقم (١٥٢٠).

قيل: الظاهر - والله أعلم - أنَّ المراد أنَّ العَملَ في هذه الأيام العَشر أفضَلُ من العمل في أيام عشرٍ غيرها، فكُلُّ عَملٍ صالحٍ يقعُ في هذا العشر فهو أفضل من عملٍ في عشرة أيام سواها من أي شَهرٍ كان، فيكونُ تفضيلًا للعمل في كُلِّ يوم منه على العَمل في كُلِّ يومٍ من أيَّام السنة غيره.

وقد قيل: إنما يفضُلُ العَمَلُ فيها على الجهاد إذا كان العَملُ فيها مستغرقًا لأيام العَشر، فيفضُلُ على جهادٍ في عدد تلك الأيام مِن غير العَشر، وإن كان العمل مستغرقًا لبعض أيَّام العشر، فهو أفضل من جهادٍ في نظير ذَلِكَ الزمان من غير العَشر.

واستُدِلَّ على ذَلِكَ بأنَّ النبيَّ ﷺ جَعَل العَمَل الدَّائم الذي لا يفتُرُ من صيامٍ وصلاةٍ معادلًا للجهاد في أيِّ وقتٍ كان، فإذا وقَعَ ذَلِكَ العَملُ الدَّائم في العشر، كانَ أفضل من الجهاد في مثل أيامه، لفضل العَشرِ وشَرَفه، ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله ﷺ فقال: دُلَّني على عملٍ يَعدلُ الجهادَ، قال: **«لا أجِدُه»** قال: **«هل تستطيعُ إذا خَرَج المجاهِدُ أن تَدخُلَ مسجَد فتقومَ ولا تَفتُرَ، وتَصوم ولا تُفطر؟»** قال: ومَن يَستطيعُ ذَلِكَ؟ ولفظه للبخاري ولمسلمٍ معناه وزاد: ثم قال: **«مثلُ المجاهد في سبيل الله كمثل الصَّائم القائم القانت بآيات الله، الذي لا يَفتُرُ من صلاةٍ ولا صيامٍ، حتَّى يرجعَ المجاهدُ في سبيل الله»**. وللبخاري: **«مثل المجاهد في سبيل الله - والله أعلم بمن يجاهدُ في سبيله - كمثل الصائم القائم»**. وللنسائي: **«كمثل الصائم القائم الخاشع الراكع السَّاجد»**.

ويدُلُّ على أنَّ المراد تفضيلُهُ على جهادٍ في مثل أيَّامه خاصَّة ما في «صحيح ابن حِبَّان» عن جابر عن النبي ﷺ قال: **«مَا مِن أيام أفضلُ عند الله من أيام عَشر ذي الحجة»** فقال رجل: يا رسول الله هو أفضلُ أم عِدَّتُهن جهادًا في سبيل الله؟ قال: **«هو أفضلُ من عدتهنَّ جهادًا في سبيل الله»** فلم يُفضل العمل في العَشر إلَّا على الجهاد في عدَّة أيام العَشر لا مطلقًا.

ثم إنَّ أكثر ما ورد ذَلِكَ في صيامها، والصيامُ له خُصُوصيَّة في المضاعَفة، فإنَّه لله والله يجزي به.

فإن قيل: إنه لا يختص بالصَّوم، بل يعمُّ سائرَ الأعمال، فإنَّما يدلُّ على تفضيل كُلِّ عَملٍ في العَشر على مثل ذَلِكَ العمل في غيره سنةً، فلا يدخُل فيه إلَّا تفضيل مَن جاهد

في العَشر على مَن جاهد في غيره سنةً.

وإذا قيل: يلزم من تفضيل العمل في هذا العشر على كُلِّ عَشر غيرِهِ أن يكون صيامُ هذا العَشر أفضلَ من صَومِ عَشر رمضانَ، وقيامُ لياليه أفضَلَ من قيام لياليه.

قيل: أمّا صيامُ رمضان فأفضَلُ مِن صيامِهِ بلا شكٍّ، فإنَّ صَومَ الفَرض أفضَلُ من النَّفَل بلا تردُّدٍ، وحينئذٍ يكونُ المراد أنَّ ما فُعِل في العشر من فرضٍ فهو أفضلُ مما فُعِل في عشر غيره من فرضٍ، فقد تضاعف صلواته المكتوبة على صلوات عشر رمضان، وما فُعِل فيه من نفلٍ فهو أفضلُ مما فُعِلَ في غيره من نفلٍ، وقد اختلف عُمرُ وعلي رضي الله عنهما في قضاء رمضان في عَشر ذي الحجَّة، فكان عمر يستحبه لفضل أيامه، فيكون قضاءُ رمضان فيه أفضَل من غيره، وهذا يدُلُّ على مضاعَفةِ الفرض فيه على النَّفل، وكان عليٌّ ينهَى عنه، وعن أحمد في ذَلِكَ روايتان، وقد عُلِّل قول عليّ بأنَّ القضاء فيه يفوتُ به فَضلُ صيامِه تطوُّعًا، وبهذا علَّله الأمامُ أحمدُ وغيره» ا.هـ[1].

عباد الله...

وتحت عنوان «فضل عشر ذي الحجة على غيره من أعشار الشهور» قال الإمام ابن رجب الحنبليّ - رحمه الله - ما مختصره: «قد سبق حديث ابن عمر المرفوع: «**ما مِن أيَّامٍ أعظمُ عند الله ولا أحبُّ إليه العملُ فيهنَّ مِن هذه الأيام العَشر**»، وفي «صحيح ابن حبان»: «عن جابر عن النبي ﷺ قال: «**ما مِن أيَّام أفضل عند الله مِن أيَّام عَشر ذي الحجَّة**» وقد تقدَّم، ورويناه من وجهٍ آخر بزيادةٍ وهي: «**ولا ليالي أفضل من لياليهن**»، قيل: يا رسول الله هي أفضل من عدتِهِنَّ جِهادًا في سبيل الله؟ قال: «**هي أفضل من عدتهن جهادًا في سبيل الله إلَّا مَن عُفِّر وجهُه تعفِيرًا، ومَا مِن يوم أفضل من يوم عرفة**» خرجه الحافظ أبو موسى المديني من جهة أبي نعيم الحافظ بالإسناد الذي خرجه به ابن حبان.

وخرج البزار[2] وغيره من حديث جابر أيضًا عن النبي ﷺ قال: «**أفضل أيام الدنيا**

---

(١) «لطائف المعارف» (٤٥٨ - ٤٦٦) باختصار.

(٢) (٣/ ٢٥٣)، وزوائده (٢/ ٢٨)، إلَّا أنه قال: «أفضل أيام الدنيا أيام العشر» وقال الهيثمي في «كتاب الأضاحي» (ص١٢): إسناد البزار حسن، ورجاله ثقات.

أيام العشر» قالوا: يا رسول الله ولا مثلهن في سبيل الله؟ قال: «**ولا مثلهن في سبيل الله إلا من عُفِّر وجهه بالتراب**». ورُوي مُرسلا وقيل: إنه أصحُّ. وقد سَبَقَ ما رُوي عن ابن عمر قال: ليس يوم أعظم عند الله من يوم الجُمُعة، ليس العَشر. ويدُلُّ على أن أيام العشر أفضلُ من أيام الجُمُعة الذي هو أفضل الأيام.

وأيضا فأيام هذا العشر يشتمل على يوم عرفة، وقد رُوي أنه أفضل أيَّام الدنيا، كما جاء في حديث جابر الذي ذكرناه، وفيه يوم النَّحر، وفي حديث عبد الله بن قُرطٍ عن النبي ﷺ أنَّهُ قال: «**أعظم الأيام عند الله يوم النَّحر ثم يوم القَرِّ**»[(١)]، خرجه الإمام أحمد وأبو دواد وغيرهما[(٢)]، وهذا كله يدُلُّ على أن عَشر ذي الحِجَّة أفضلُ من غيره من الأيام من غير استثناءٍ، هذا في أيامه؛ فأما لياليه فمن المتأخرين من زَعَم أنَّ ليالي عَشر رمضان أفضلُ من لياليه؛ لاشتمالها على ليلة القدر وهذا بعيد جدًّا.

ولو صحَّ حديثُ أبي هريرة «قيام كُلِّ ليلةٍ منها بقيام ليلةِ القَدر»[(٣)]، لكان صريحًا في تفضيل لياليه على ليالي عَشر رمضان، فإنَّ عَشر رمضان فُضِّل بليلةٍ واحدة فيه، وهذا جميعُ لياليهِ متساويةٌ لها في القيام على هذا الحديث، ولكن حديث جابر الذي خرَّجه أبو موسى صريح في تفضيل لياليه كتفضيل أيَّامه أيضًا، والأيام إذا أُطلِقَت دخلت فيها الليالي تبعًا، وكذلك الليالي تدخُلُ أيَّامُها تبعًا.

وقد أقسَم الله تعالى بلياليه، فقال: ﴿**وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾ [الفجر: ١، ٢]، وهذا يدلُّ على فضيلة لياليه أيضًا، لكن لم يثبُت أنَّ لياليه ولا شيئًا منها يعدِل ليلةَ القَدر.

وقد زعم طوائفُ من أصحابنا أنَّ ليلة الجمعة أفضَلُ من ليلة القدر، ولكن لا يصحُّ ذَلِكَ عن أحمد، فعلى قولِ هؤلاء لا يُستبعَدُ تفضيلُ ليالي هذا العَشر على ليلة القدر.

والتحقيق؛ ما قاله بعضُ أعيان المتأخِّرين من العلماء، أن يقال: مجموعُ هذا العَشر

---

(١) القرّ: هو الغد من يوم النحر، وهو حادي عشر ذي الحجة، لأن الناس يقرون فيه بمنى.

(٢) انظر «صحيح الجامع» (١٠٦٤).

(٣) لا يصح.

أفضلُ من مجموع عَشر رمضان، وإن كان في عَشر رمضان ليلة لا يفضَل عليها غيرها، والله أعلم.

وما تقدَّم عن كعبٍ يدُلُّ على أنَّ شهر ذي الحجة أفضلُ الأشهر الحُرم الأربعة، وكذا قال سعيدُ بن جُبير، راوي هذا الحديث عن ابن عبَّاسٍ: «ما مِن الشهور شهرٌ أعظمُ حُرمة مِن ذي الحجة».

وفي «مسند» الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري أيضًا: أنَّ النبي ﷺ قال في حجَة الوداع في خطبته يوم النَّحر: «**ألا إنَّ أحرمَ الأيام يومُكم هذا، ألا وإنَّ أحرَمَ الشُّهور شهرُكُم هذا، ألا وإنَّ أحرَمَ البلادِ بلدُكُم هذا**».

وروي ذَلِكَ أيضًا عن جابرٍ، ووابصَة بن مَعبدٍ، ونُبيط بن شَريطٍ، وغيرهم، عن النبي ﷺ، وهذا كلُّه يدلُّ على أنَّ شهر ذي الحجَّة أفضَلُ الأشهر الحُرُم، حيثُ كان أشدَّها حُرمة، وقد رُوي عن الحسن أنَّ أفضلها المحرَّم» ا.هـ[1].

عباد الله...

«ولعشر ذي الحِجَّة فضائل أُخَر غير ما تقدَّم، فمن فضائله: أنَّ الله تعالى أقسَمَ به جملةً، وببعضِه خصوصًا، قال تعالى: ﴿والفَجْرِ * ولَيالٍ عَشر﴾ [الفجر: ١، ٢]، فأمَّا الفجر فقيل: إنَّه أراد جنس الفجر، وقيل: المرادُ طُلوع الفجر، أو صلاة الفجر، أو النَّهار كلّه، فيه اختلاف بين المفسرين، وقيل: إنه أُريد به فجرٌ معيّنٌ، ثم قيل: إنه أُريد به فجرُ أوّل يومٍ من عَشر ذي الحجّة، وقيل: بل أُريد به فجرُ آخر يومٍ منه، وهو يومُ النَّحر، وعلى جميع هذه الأقوال، فالعَشر يشتمل على الفجر الذي أقسم الله به.

وأما «الليالي العشر» فهي عشر ذي الحجّة، هذا الصحيحُ الذي عليه جمهور المفسرين من السَّلف وغيرهم، وهو الصحيح عن ابن عباسٍ، روي عنه من غير وجهٍ، والرواية عنه «أنَّهُ عَشرُ رمضان» إسنادُها ضعيف.

وفيه حديثٌ مرفوعٌ خرَّجه الإمام أحمد، والنَّسائي في التفسير، من رواية زيد بن الحُباب، حدَّثنا عيَّاش بن عقبة، حدثنا خيرُ بن نُعيم، عن أبي الزُّبير، عن جابرٍ، عن

---

(١) «لطائف المعارف» (٤٦٧- ٤٦٩) باختصار.

النبي ﷺ قال: «العَشرُ عَشْرُ الأضحى، والوَتر يومُ عَرَفة، والشَّفعُ يومُ النَّحر» وهو إسناد حسن[١].

وكذا فسَّر «الشَّفعَ» و«الوَتْرَ» ابنُ عبَّاسٍ في رواية عكرمة وغيره، وفسَّرهما أيضًا بذلك عِكرمة والضحاك وغيرُ واحدٍ، وقد قيل في «الشَّفع» و«الوتر» أقوالٌ كثيرة، وأكثرها لا يخرج عن أن يكون العشرُ أو بعضُه مشتملًا على «الشفع» و«الوتر» أو أحدهما، كقول مَن قال: «هي الصَّلاة، منها شفعٌ ومنها وترٌ». وقد خرَّجه الإمام أحمد والترمذي[٢] من حديث عمران بن حُصين عن النَّبيِّ ﷺ. وقول مَن قال: هي المخلوقات، منها شفع ومنها وَتر، يدخل فيها أيام العشر، وقول مَن قال: الشَّفع الخَلقُ كله، والوترُ الله، فإنَّ أيام العشر من جملة المخلوقات.

ومن فضائله أيضًا: أنَّهُ من جملة الأربعين التي واعدها الله عَزَّ وَجَلَّ لموسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿ **وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً** ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، لكن هل عَشرُ ذي الحِجَّة خاتمة الأربعين، فيكون هو العَشْر الذي أُتمَّ به الثلاثون، أم هو أوَّل الأربعين، فيكون من جملة الثلاثين التي أُتمَّت بعَشرٍ، فيه اختلافٌ بين المفسرين.

روى عبد الرزَّاق عن مَعمر، عن يزيد بن أبي زيادٍ، عن مجاهدٍ، قال: «**مَا مِن عملٍ في أيَّام السَّنة أفضلُ منه في العَشر من ذي الحِجَّة، وهي العَشر التي أتمَّها الله لموسى عليه السلام**».

ومن فضائله: أنَّهُ خاتمة الأشهر المعلومات، أشهر الحجّ التي قال الله فيها: ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ** ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وهي شوالٌ وذو القَعدَة، وعَشر مِن ذي الحِجَّة. وروي ذَلِكَ عن عمر، وابنه عبد الله، وعليٍّ، وابن مسعودٍ، وابن عبَّاسٍ، وابن الزُّبير، وغيرهم. وهو قولُ أكثر التابعين، ومذهب الشافعي وأحمد، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، وأبي ثور وغيرهم. لكن الشافعي وطائفة أخرجوا منه يومَ النَّحر، وأدخلَهُ فيه الأكثرون، لأنه يومُ الحجّ الأكبر، وفيه يقع أكثر أفعال مناسِك الحج.

---

(١) أورده الألباني في «ضعيف الجامع» (١٥٠٨).

(٢) وقال: هذا حديث غريب.

وقالت طائفة: ذو الحجة كلُّه من أشهر الحج، وهو قولُ مالك، والشافعي في القديم، ورواه عن ابن عمر أيضًا، وروي عن طائفة من السَّلف، وفيه حديث مرفوع خرَّجه الطبراني، لكنه لا يصح، والكلامُ في هذه المسألة يطولُ، وليس هذا موضعه.

ومن فضائله: أنَّهُ الأيَّام المعلومات التي شَرَع الله ذِكره فيها على ما رزَق من بهيمة الأنعام، قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

وجمهور العلماء على أنَّ هذه الأيام المعلومات هي عَشر ذي الحجّة، منهم ابنُ عمر، وابن عبَّاس، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وعِكرمة، وقَتادة، والنَّخعي، وهو قولُ أبي حنيفة، والشافعي، وأحمد في المشهور عنه.

ورُوي عن أبي موسى الأشعري أنَّ الأيَّام المعلومات هي تسعُ ذي الحِجَّة غير يوم النَّحر، وأنَّه قال: لا يُردُّ فيهنَّ الدُّعاءُ. خرَّجه جعفر الفريابي وغيره.

وقالت طائفة: هي أيَّام الذَّبح، وروي عن طائفةٍ من السَّلف، وهو قول مالكٍ، وأبي يوسُف، وجعلوا ذِكر الله فيها ذكرَه على الذَّبح، وهو قول ابن عمر رضي الله عنهما، ونقل المرُّوذيّ عن أحمد أنَّهُ استحسنه، والقولُ الأول أظهر.

وذِكرُ الله على بَهيمة الأنعام لا يختصُّ بحال ذبحها، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ [الحج: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٣٤]، وأيضًا فقد قال الله تعالى: ﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ * ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٨، ٢٩].

فجعل هذا كلَّه بعد ذِكره في الأيَّام المعلوماتِ وقضاءِ التَّفثِ، وهو شَعَثُ الحَجّ وغبارُه ونصبُهُ، والطَّوافُ بالبيت إنَّما يكون في يوم النَّحر وما بعده، ولا يكون قبله، وقد جعل الله سُبْحَانَهُ هذا مرتبًا على ذكره في الأيام المعلومات بلفظة ﴿ثُمَّ﴾ فدلَّ على أن المراد بالأيام المعلومات ما قبلَ يوم النَّحر، وهو عَشر ذي الحجّة.

وأما قوله تعالى: ﴿ **وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ** ﴾ [الحج: ٢٨]، فقيل: إنَّ المراد ذكرُهُ عند ذبحها، وهو حاصلٌ بذكره في يوم النَّحر، فإنه أفضَل أيَّام النَّحر، والأصحُّ أنَّهُ إنما أُريد ذكرُه شكرًا على نعمةِ تسخير بهيمة الأنعام لعباده، فإنَّ لله تعالى على عبادهِ في بهيمة الأنعام نِعمًا كثيرةً قد عدَّد بعضَها في مواضعَ من القرآن، والحاجّ لهم خصوصيةٌ في ذَلِكَ عن غيرهم، فإنَّهم يسيرون عليها إلى الحَرم لقضاء نُسكهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ** ﴾ [الحج: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ **وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ** ﴾ [النحل: ٧]، ويأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها.

ويختصُّ عَشرُ ذي الحِجّة في حقّ الحاجّ بأنه زمَنُ سَوقهم للهَدي الذي به يكمُلُ فَضلُ الحجّ، ويأكلون من لحومِهِ في آخرِ العَشر، وهو يومُ النَّحر، وأفضَل سَوقِ الهَدي مِن الميقات، ويُشعر ويُقلِّد[١] عند الإحرام، وتقارِنُهُ التلبية، وهي من الذِّكر لله في الأيام المعلومات.

وفي الحديث: «**أفضلُ الحَجِّ العَجُّ والثَّجُّ**»[٢].

فيكون كثرةُ ذِكر الله في أيامِ العَشر شكرًا على هذه النِّعمة المختصّة ببهيمة الأنعام، التي بعضُها يتعلَّق بدين الحاج، وبعضُها بدنياهم، وأفضلُ الأعمال ما كثُر ذِكرُ الله تعالى فيها، منها خصوصًا الحجُّ، وقد أمر الله تعالى بذكره كثيرًا في أيام الحج، قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ * ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ١٩٨، ١٩٩]. فهذا الذِّكرُ يكون في عَشر ذي الحجَّة، ثم قال تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا** ﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وهذا يقع في يوم النَّحر، وهو خاتمة العَشر أيضًا، ثم أمر بذكره بعد العَشر في الأيام

---

(١) تقليد البدنة: أن يعلّق في عنقها شيء ليُعلم أنها هَدي.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٨٢٧)، وابن ماجه (٢٨٩٦).

المعدودات، وهي أيام التشريق.

وفي «السُّنن» عن النبي ﷺ قال: «**إنَّما جُعِل الطَّوافُ بالبيت، والسَّعيُ بين الصَّفا والمروة، ورميُ الجمار؛ لإقامة ذِكر الله عَزَّ وَجَلَّ**»(١).

فأمَّا أهلُ الأمصار فإنَّهم يشاركون الحاج في عَشر ذي الحجة، في الذِّكر، وإعداد الهَدي، فأمَّا إعدادُ الهَدي فإنَّ العَشر تُعدُّ فيه الأضاحي، كما يَسوق أهلُ الموسم الهَدي، ويشاركونهم في بعض إحرامهم؛ فإنَّ مَن دخل عليه العَشرُ وأراد أن يضحي فلا يأخُذ من شَعره ولا من أظفاره شيئًا، كما زوت ذَلِكَ أُم سلمة عن النبي ﷺ، خرَّج حديثها مسلم(٢)، وأخذ بذلك الشافعي، وأحمد، وعامَّة فقهاء الحديث.

ومنهم مَن شرط أن يكون قد اشترى هَديَه قبلَ العَشر، وأكثرهم لم يشترطوا ذَلِكَ.

وخالف فيه مالك، وأبو حنيفة، وكثيرٌ من الفقهاء، وقالوا: لا يُكره شيء من ذَلِكَ، واستدلوا بحديث عائشة: «**كُنتُ أفتلُ قلائدَ الهَدي لرسول الله ﷺ فلا يحرّم عليه شيء أحلَّه الله له**»(٣).

وأجاب كثيرٌ من أهل القول الأول: بأنه يجمع بين الحديثين، فيؤخذ بحديث أُم سلَمة فيمن يريد أن يضحي في مِصره، وبحديث عائشة فيمن أرسَل بهديه مع غيره وأقام في بلده.

وكان ابن عُمر إذا ضحَّى يومَ النَّحر حَلَق رأسَه، ونصَّ أحمد على ذَلِكَ.

واختلف العلماء في التعريف بالأمصار عشيَّة عرفة، وكان الإمام أحمد لا يفعله ولا ينكِرُ على مَن فَعله، لأنه رُوي عن ابن عباسٍ وغيره من الصحابة، وأما مشاركتهم لهم في الذِّكر في الأيام المعلومات، فإنه يُشرعُ للناس كلِّهم الإكثارُ من ذِكر الله في أيام العشر خصوصًا، وقد سَبَق حديثُ ابن عمر المرفوع «**فأكثروا فيهن من التهليل والتكبير والتحميد**».

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٩٠٢)، وأبو داود (١٨٨٨).

(٢) برقم (١٩٧٧).

(٣) رواه أحمد، وبنحوه أخرجه مسلم (١٣٢١).

واختلف العلماء: هل يُشرع إظهارُ التكبير والجهرُ به في الأسواق في العَشر، فأنكَرَهُ طائفة، واستحبَّه أحمدُ والشافعي، لكنَّ الشافعيَّ خصَّهُ بحالِ رؤية بهيمة الأنعام، وأحمدُ يستحبُّه مطلقًا.

وقد ذكر البخاري في «صحيحه» عن ابن عمر وأبي هريرة أنهما كانا يخرجان إلى السُّوق في العَشر، فيكبِّران ويكبِّرُ الناس بتكبيرهما، ورواه عفان: حدثنا سلَّام أبو المنذر، عن حُميد الأعرج، عن مجاهدٍ، قال: كان أبو هريرة وابنُ عمر يأتيان السُّوق أيَّام العَشر فيكبِّران ويكبِّر الناسُ معهما، ولا يأتيان لشيء إلَّا لذلك.

وروى جعفر الفريابي في «كتاب العيدين» حدثنا إسحاق بن رَاهَويه، أخبرنا جرير، عن يزيد بن أبي زياد، قال: رأيت سعيد بن جبير ومجاهدًا وعبد الرحمن بن أبي ليلى، أو اثنين من هؤلاء الثلاثة، ومن رأينا من فقهاء الناس، يقولون في أيام العَشر: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، والله أكبر ولله الحمد»[1].

عباد الله...

هذه فضائل عَشر من ذي الحِجة، فاغتنموا هذه الأيام، فإن لربكم في أيام دهركم لنفحات، ألا فتعرضوا لها.

وفقني الله وإيَّاكم لطاعته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

«لما كان الله سُبْحَانَهُ وتعالى قد وضع في نفوس المؤمنين حنينًا إلى مشاهدة بيته الحرام وليس كل أحد قادرًا على مشاهدته في كُل عام، فَرَضَ على المستطيع الحجّ مرَّة واحدةً في عمره وجَعَل موسم العَشر مشتركًا بين السائرين والقاعدين، فمن عَجَزَ عن الحجّ

(١) «لطائف المعارف» (٤٦٩ - ٤٧٦) باختصار.

في عامٍ قَدَرَ في العَشرِ على عَمَلٍ يَعمَلُه في بيته، يكونُ أفضَلَ مِن الجهاد الذي هو أفضلُ مِن الحَجِّ.

لياليـي العَـشر أوقـات الإجابـه ... فـبادِر رغـبةً تَلحـق ثـوابَه
ألا لا وقـتَ للعمَّـال فـيهِ ... ثـوابُ الخَـير أقـربُ للإصـابه
مِـن أوقـات الليالـي العَـشر حقًّـا ... فَـشَمِّر واطلُـبَن فِـيها الإنابـه

احذروا المعاصي، فإنَّها تحرم المغفرة في مواسم الرَّحمة، وروى المروذي في «كتاب الورع» بإسناده عن عبد الملك بن عمير عن رجل ـ إمَّا مِن الصحابة أو من التابعين ـ: أنَّ آتيًا أتاه في منامه في العَشر من ذي الحِجّة فقال: مَا مِن مُسلم إلَّا يُغفَر له في هذه الأيام كُلّ يوم خمس مرارٍ، إلَّا أصحاب الشاهِ يقولون: مات، ما موته؟ يعني أصحابَ الشطرنج، فإذا كان اللعب بالشطرنج مانعًا مِن المغفرة فما الظن بالإصرار على الكبائر المجمع عليها؟!

طاعـةُ الله خَـيرُ مـا لَـزِم العَـبـ ... ـد فَكُـن طائعًـا ولا تعـصينَّه
مـا هَـلاكُ الـنُّفوس إلاَّ المعاصـي ... فاجْتَـنِب مـا نَهـاكَ لا تقـرَبَنَّه
إنَّ شـيئًا هـلاكُ نفـسِكَ فـيهِ ... ينبغـي أن تـصونَ نفـسَكَ عَـنْه

المعاصي سببُ البُعد والطَّرد، كما أن الطاعاتِ أسبابُ القُرب والودّ.

أيـضمنُ لـي فتًـى تـركَ المعاصِـي ... وأرهـنهُ الكَفَالـة بـالخَـلاصِ
أطـاعَ الله قـومٌ فاسْـتَراحُوا ... وَلم يتجـرَّعوا غُـصَصَ المعاصـي

إخوانكم في هذه الأيام قد عَقَدُوا الإحرام وقَصَدُوا البيت الحرام، وملؤا الفضاء بالتَّلبية والتكبير والتهليل والتحميد والإعظام، لقد ساروا وقَعَدنا، وقَرُبُوا وبَعُدنا، فإن كان لنا معهم نصيبٌ سَعِدنا.

أتـراكم في الـنَّقا والمنحنـى ... أهـلَ سـلعٍ تذكـرُونا ذكـرنا
انقطعـنا ووصَـلتم فاعلَمُـوا ... واشـكُروا المُـنْعِم يـا أهـلَ مِنـى
قـد خَـسِرنا وربحـتُم فَـصِلُوا ... بفُـضُول الـرِّبح مَـن قـد غُبِـنا

سار قلبي خلف أحمالكُمُ غير أنَّ العُذر عاقَ البَدَنا
ما قطعتم واديًا إلا وقد جئته أسعى بأقدامِ المُنى
أنا مذ غبتم على تذكاركُم أترى عندكُمُ ما عندنا

القاعدُ لعذرٍ شريك للسَّائر، وربما سبق السائرُ بقلبه السَّائرين بأبدانهم. رأى بعضُهم في المنام عشيَّةَ عرفة في الموقف قائلا يقول له: أترى هذا الزِّحام على هذا الموقف؟ فإنه لم يحجّ منهم أحد إلَّا رجل تخلَّف عن الموقف، فحجّ بهمَّته فوُهِبَ له أهلُ الموقف.

يا سائرين إلى البيتِ العتيق لقد سِرتُم جُسومًا وسِرنا نحنُ أرْواحا
إنَّا أقمنا على عُذرٍ وقد رَحَلُوا ومَن أقام على عُذرٍ كمَن راحا

الغنيمة الغنيمة بانتهاز الفرصة في هذه الأيام العظيمة، فما منها عِوضٌ ولا لها قيمة، المبادرة المبادرة بالعمل، والعجَل العجَلَ قبل هُجُوم الأجل، قبل أن يندم المفرّط على ما فعل قبل أن يسأل الرجعة فيعمل صالحا فلا يجاب إلى ما سأل، قبلَ أن يحولَ الموتُ بين المؤمِّل وبلوغ الأمل، قبلَ أن يصير المرء مُرتهنًا في حفرته بما قدّم من عمل.

ليس للميت في قبره فِطرٌ ولا أضحَى ولا عَشْرُ
ناءٍ عن الأهل على قُربه كذاك مَن مسكنُه القَبرُ

يا من طلع فَجْرُ شيبِه بعد بلوغ الأربعين.

يا مَن مضى عليه بعد ذلك ليالي عَشر سنين حتى بلغ الخمسين.

يا مَن هو في معترك المنايا ما بين الستين والسبعين.

ما تنتظر بعد هذا الخبر إلَّا أن يأتيك اليقين.

يا من ذنوبه بعدد الشَّفع والوتر.

أما تستحي من الكرام الكاتبين؟ أم أنت ممن يكذِّب بيوم الدين؟

يا من ظلمة قلبه كالليل إذا يسري أما آن لقلبك أن يستنير أو يلين.

تعرَّض لنفحات مولاك في هذا العَشر فإنَّ فيه لله نفحات يُصيب بها مَن يشاء، فَمَنْ أصابته سَعِدَ بها آخر الدهر.

جَـنَحَت شمـسُ حياتـي ... وتَـذَلَّت للغـروبِ

وتولَّـى لـيلُ رأسـي ... وبَـدَا فجـرُ المـشيبِ

ربِّ خلِّـصني فقـد لججـ ... ـت في بحـر الـذُّنـوب

وأنلـني العَفـو يـا أقـ ... ـرب مِـن كـلِّ قـريبِ

ا.هـ(١).

❀❀❀❀❀

(١) «لطائف المعارف» (٤٧٦ - ٤٧٨) باختصار.

الخطبة الثامنة والخمسون:

فضل يوم عرفة مع عيد النَّحر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد جاء في «الصحيحين»[1] عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكُمْ تَقْرَءُونَ آيَةً فِي كِتَابِكُمْ لَوْ عَلَيْنَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ نَزَلَتْ لاَتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ هِيَ؟ قَالَ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة: ٣].

فَقَالَ عُمَرُ: وَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَالسَّاعَةَ الَّتِي

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧)، وغيرهما.

نَزَلَتْ فِيهِا، نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ عَشِيَّةَ عَرَفَةَ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ.

عباد الله...

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي - رحمه الله تعالى -: «العيد هو موسم الفرح والسرور، وأفراحُ المؤمنين وسرورُهم في الدنيا إنَّما هو بمولاهم، إذا فازوا بإكمال طاعته وحازوا ثواب أعمالهم بوثوقهم بوعده لهم عليها بفضله ومغفرته، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٥٨].

قال بعض العارفين: ما فرح أحد بغير الله إلا بغفلته عن الله، فالغافل يفرح بلهوه وهواه، والعاقل يفرح بمولاه وأنشد سمنون[١] في هذا المعنى:

وكان فُؤادي خاليًا قَبْلَ حُبِّكُم ... وكان بذِكْرِ الخَلْقِ يَلهُو ويمرَحُ
فلمَّا دعا قلبي هواكَ أجابَهُ ... فَلستُ أراهُ عن فِنائِكَ يَبرَحُ
رُمِيتُ ببعدٍ منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرَحُ
وإن كان شيء في البلاد بأسرها ... إذا غبت عن عيني لعينيَ يَملُحُ
فإن شئت واصِلني وإن شئتَ لا تصِل ... فلستُ أرى قلبي لغيرك يصلُحُ

لما قدم النبي ﷺ المدينة كان لهم يومان يلعبون فيهما فقال: «**إنَّ الله قد أبدلكم يومين خيرًا منهما: يوم الفطر والأضحى**»[٢]، فأبدل الله هذه الأمة بيومي اللعب واللهو يومي الذِّكر والشُّكر والمغفرة والعفو، ففي الدنيا للمؤمنين ثلاثة أعيادٍ: عيدٌ يتكرَّر كُلَّ أسبوعٍ، وعيدان يأتيان في كُلِّ عامٍ مرَّةً مرَّةً من غير تكررٍ في السُّنَّة، فأمَّا العيدُ المتكررُ: فهو يوم الجمعة، وهو عيدُ الأسبوع، وهو مترتب على إكمال الصَّلوات المكتوبات، فإن الله عز وجل فَرَض على المؤمنين في كُلِّ يومٍ وليلة خمسَ صلواتٍ، وأيامُ الدنيا تدورُ على سبعة أيامٍ، فكلَّما كَمُلَ دورُ أسبوعٍ من أيَّام الدنيا واستكمل المسلمون صلواتهم فيه،

---

(١) صحب سرِّيًا السَّقطي وغيره.

(٢) أخرجه النسائي (٣/ ١٧٩)، وأحمد (٣/ ١٠٣)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٢٩٤)، وصححه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

شُرِع لهم في يوم استكمالهم، وهو اليوم الذي كَمُل فيه الخَلْقُ، وفيه خُلِقَ آدمُ وأُدخل الجَنَّة وأُخرج منها، وفيه ينتهي أمدُ الدنيا فتزول وتقوم الساعة، فالجمعة من الإجتماع على سماع الذِّكر والموعظة وصلاة الجمعة، وجُعِل ذلك لهم عيدًا، ولهذا نُهي عن إفراده بالصِّيام.

وفي شهود الجمعة شبَهٌ من الحجَّ. قال سعيد بن المسيّب: شهودُ الجمعة أحبُّ إليَّ من حجة نافلةٍ، والتبكير إليها يقومُ مقام الهَدي على قدر السَّبق، فأوّلهم كالمُهدي بَدَنة ثم بَقَرة، ثم كَبْشًا، ثم دَجَاجةً، ثم بَيضةٌ.

وشهودُ الجمعة يوجب تكفيرَ الذُّنوب إلى الجمعة الأخرى إذا سَلِم ما بين الجمعتين مِن الكبائر، كما أنَّ الحج المبرور يكفر ذنوب تلك السنة إلى الحجة الأخرى.

و في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما طلعت الشمس ولا غربت على يوم أفضل من يوم الجمعة**»[1]، وفي المسند عنه ﷺ أنه قال في يوم الجمعة: «**هو أفضل عند الله من يوم الفطر ويوم الأضحى**». فهذا عيد الأسبوع، وهو متعلق بإكمال الصلوات المكتوبة، وهي أعظم أركان الإسلام ومبانيه بعد الشهادتين.

وأمَّا العيدان اللذان لا يتكرران في كل عام وإنما يأتي كُل واحدٍ منهما في العام مرة واحدة:

فأحدهما: عيدُ الفطر مِن صوم رمضان، وهو مترتب على إكمال صيام رمضان، وهو الرُّكن الثالث من أركان الإسلام ومَبَانيه، فإذا استكمل المسلمون صيام شهرهم المفروض عليهم، واستوجبوا من الله المغفرة والعِتق من النار، فإنَّ صيامَه يوجبُ مغفرةَ ما تقدَّم من الذنوب، وآخره عِتق مِن النار؛ يُعتق فيه مِن النار مَن استحقها بذنوبه، فشرع الله تعالى لهم عقب إكمالهم لصيامهم عيدًا يجتمعون فيه على شكر الله وذكره وتكبيره على ما هداهم له، وشرع لهم في ذلك العيد الصلاة والصدقة، وهو يوم الجوائز يستوفي الصائمون فيه أجر صيامهم ويرجعون من عيدهم بالمغفرة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٦)، وإسناده ضعيف، لكن ثبت في «صحيح مسلم» برقم (٨٥٤) من حديث أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة**».

والعيد الثاني: عيدُ النَّحر، وهو أكبرُ العيدين وأفضلُهما، وهو مترتب على إكمال الحجّ، وهو الركن الرابع من أركان الإسلام ومبانيه، فإذا أكمَلَ المسلمون حجّهم غُفِر لهم، وإنما يكمُلُ الحجُّ بيوم عرفة والوقوف فيه بعرفة، فإنه ركنُ الحجّ الأعظم، كما قال ﷺ: «**الحج عرفة**»، ويوم عرفة هو يوم العتق من النار، فيعتقُ الله مِن النار مَن وقف بعرفة ومَن لم يقف بها مِن أهل الأمصار مِن المسلمين، فلذلك صار اليوم الذي يليه عيدًا لجميع المسلمين في جميع أمصارهم مَن شهد الموسم منهم ومَن لم يشهده، لاشتراكهم في العتق والمغفرة يوم عرفة، وإنما لم يشترك المسلمون كُلّهم في الحج كل عام رحمة من الله وتخفيفًا على عباده، فإنه جعل الحج فريضة العمر لا فريضة كل عام، وإنما هو في كل عام فرض كفاية، بخلاف الصيام فإنه فريضة كل عام على كل مسلم فإذا كمل يوم عرفة وأعتق الله عباده المؤمنين من النار اشترك المسلمون كلهم في العيد عقب ذلك، وشرع للجميع التقرّب إليه بالنُّسك، وهو إراقة دماء القرابين.

فأهل الموسم يرمون الجمرة فيشرعون في التحلُّل من إحرامهم بالحجّ ويقضون تفَثَهُم(١)، ويوفون نذورهم، ويقرِّبون قرابينهم من الهدايا، ثم يطوفون بالبيت العتيق وأهل الأمصار يجتمعون على ذكر الله وتكبيره والصلاة له.

قال مخنف بن سليم وهو معدود من الصحابة: الخروج يوم الفطر يعدل عمرة، والخروج يوم الأضحى يَعدُل حجّة.

ثم ينسكون عقب ذلك نسكهم ويقربون قرابينهم بإراقة دماء ضحاياهم، فيكون ذلك شكرًا منهم لهذه النِّعم.

والصَّلاة والنَّحر الذي يجتمع في عيد النحر أفضل مِن الصلاة والصدقة الذي في عيد الفطر، لهذا أمر رسول الله ﷺ أن يجعل شكره لربه على إعطائه الكوثر أن يصلي لربه وينحر، وقيل له: ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ** ﴾ [الأنعام: ١٦٢]، ولهذا ورد الأمر بتلاوة هذه الآية عند ذبح الأضاحي، والأضاحي سُنَّة إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ، فإن الله شرعها لإبراهيم حين فدى ولده الذي أمره بذبحه بذبح عظيم.

---

(١) **التفث**: ما كان من نحو قصّ الأظفار والشارب وحلق الرأس ونحر البُدن وأشباه ذلك.

فهذه أعياد المسلمين في الدنيا، وكلُّها عند إكمال طاعة مولاهم الملك الوهاب، وحيازتهم لما وعدَهم من الأجر والثواب.

عباد الله...

ليس العيد لمن لبس الجديد إنما العيد لمن طاعاته تزيد ليس العيد لمن تجمل باللباس والركوب إنما العيد لمن غفرت له الذنوب في ليلة العيد تفرق خلق العتق والمغفرة على العبيد فمن ناله منها شيء فله عيد وإلا فهو مطرود بعيد.

أيها المسلمون...

وأمَّا أعياد المؤمنين في الجنة فهي أيام زيارتهم لربِّهم عز وجل، فيزورونه ويكرمهم غاية الكرامة، ويتجلَّى لهم وينظرون إليه، فما أعطاهم شيئًا هو أحبُّ إليهم من ذلك، وهو الزِّيادة التي قال الله تعالى فيها: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].
ليس للمحبِّ عيد سوى قرب محبوبه

إن يومًا جامعًا شملي بهم ذاك عيد ليس لي عيد سواه

كُلُّ يوم كان للمسلمين عيدًا في الدنيا فإنَّه عيد لهم في الجنة، يجتمعون فيه على زيارة ربهم ويتجلى لهم فيه، ويوم الجمعة يدعى في الجنة: يوم المزيد، ويوم الفطر، والأضحى، يجتمع أهل الجنة فيهما للزيارة.

ورُوي أنه يشارك النساءُ الرجال فيهما كما كُن يشهدن العيدين مع الرجال دون الجمعة، فهذا لعموم أهل الجنة، فأما خواصُّهُم فكُلّ يومٍ لهم عيد يزورون ربَّهم كُلّ يوم مرتين؛ بُكرة وعشيًا.

الخواصُّ كانت أيامُ الدنيا كلُّها لهم أعيادًا، فصارت أيامهم في الآخرة كلها أعيادًا.

قال الحسن: كُلُّ يومٍ لا يُعصَى الله فيه فهو عيد، كُلُّ يومٍ يقطعه المؤمن في طاعة مولاه وذِكرِه وشكره فهو له عيد.

أركان الإسلام التي بُني الإسلام عليها خمسة: الشهادتان، والصلاة، والزكاة، وصِيام رمضان، والحجُّ. فأعياد عموم المسلمين في الدنيا عند إكمال دور الصلاة، وإكمال الصيام، والحج، يجتمعون عند ذلك اجتماعًا عامًّا، فأما الزكاة فليس لها وقتٌ

معين ليُتَّخذَ عيدًا، بل كُلُّ مَن ملك نصابًا فَحَولُه بحسب مُلكِه، وأمَّا الشهادتان فإكمالهُما يحصل بتحقيقهما والقيام بحقوقهما؛ وخواصُّ المؤمنين يجتهدون على ذلك في كُلِّ وقتٍ، فلذلك كانت أوقاتهم كُلُّها أعيادًا لهم في الدنيا والآخرة.

ولما كان عيد النَّحر أكبر العيدين وأفضلهما، ويجتمع فيه شرفُ المكان والزمان لأهل الموسم، كانت لهم فيه معه أعيادٌ قبلَه وبعده، فقبله يوم عرفة، وبعده أيام التشريق، وكل هذه الأعياد أعيادٌ لأهل الموسم، كما في حديث عقبة بن عامر عن النبي ﷺ قال: «**يَومُ عرفة ويوم النَّحر وأيام التشريق عيدُنا أهلَ الإسلام، وهي أيام أكلٍ وشُربٍ**» خرَّجه أهل السنن(١) وصححه الترمذي، ولهذا لا يُشرَعُ لأهل الموسم صومُ يوم عرفة؛ لأنه أولُ أعيادهم وأكبرُ مجامعهم، وقد أفطره النبي ﷺ بعرفة والناسُ ينظرون إليه، ورُوي أنه نهى عن صوم يوم عرفة بعرفة، ورُوي عن سفيان بن عُيينة: أنه سُئل عن النَّهي عن صِيام يوم عرفة بعرفة؟ فقال: لأنهم زوَّار الله وأضيافه ولا ينبغي للكريم أن يجوّع أضيافه. وهذا المعنى يوجد في العيدين وأيام التشريق أيضًا فإن الناس كلهم فيها في ضيافة الله عز وجل، لا سيما عيد النحر، فإن الناس يأكلون مِن لحوم نُسُكهم، أهل الموقف وغيرهم.

وأيام التشريق الثلاثة هي أيام عيدٍ أيضًا، ولهذا بعث النبي ﷺ مَن يُنادي بمكة: «**أنَّها أيَّام أكل وشرب وذِكر الله عز وجل، فلا يصومنَّ أحدٌ**»، وقد يجتمع في يوم واحدٍ عيدان، كما إذا اجتمع يوم الجمعة مع يوم عرفة، أو يوم النحر، فيزداد ذلك اليومُ حُرمةً وفضلًا؛ لاجتماع عيدين فيه، وقد كان ذلك؛ اجتمع للنبي ﷺ في حجته يوم عرفة فكان يوم الجمعة وفيه نزلت هذه الآية: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣].

عباد الله...

وإكمال الدين في ذلك اليوم حصل من وجوه:

منها: أنَّ المسلمين لم يكونوا حجُّوا حجَّة الإسلام بعد فرض الحجّ قبل ذلك،

---

(١) حسن: رواه أبو داود (٢٤١٩)، والترمذي (٧٧٣)، وغيرهما.

ولا أحد منهم؛ هذا قولُ أكثر العلماء أو كثيرٌ منهم، فيكمُل بذلك دينُهم لاستكمالهم عَمَلَ أركان الإسلام كلِّها.

ومنها: أنَّ الله تعالى أعاد الحجَّ على قواعِدِ إبراهيم عليه السلام، ونفَى الشرك وأهله، فلم يختلط بالمسلمين في ذلك الموقف منهم أحدٌ.

قال الشعبي: نزلت هذه الآية على النبي ﷺ وهو واقف بعرفة حين وقف موقف إبراهيم، واضمحل الشرك وهدمت منار الجاهلية، ولم يَطُف بالبيت عريان، وكذا قال قتادة وغيره. وقد قيل: إنه لم ينزل بعدها تحليل ولا تحريم؛ قاله أبو بكر بن عياش.

وأما إتمام النعمة فإنما حصل بالمغفرة فلا تتم النعمة بدونها كما قال لنبيه ﷺ: ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا** ﴾ [الفتح: ٢]، وقال تعالى في آية الوضوء: ﴿ **وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ** ﴾ [المائدة: ٦].

ومن هنا استنبط محمد بن كعب القرظيُّ بأن الوضوء يكفِّر الذنوب، كما وردت السُّنَّة بذلك صريحًا، ويشهد له أيضًا: أن النبي ﷺ سمع رجلًا يدعو ويقول: اللهم إني أسألك تمام النعمة، فقال له: «**تمام النِّعمة النَّجاة مِن النَّار ودخُول الجنَّة**»[1]، فهذه الآية تشهدُ لما رُوي في يوم عرفة أنه يوم المغفرة والعِتق مِن النار.

فيوم عرفة له فضائل متعددة:

منها: أنه يوم إكمال الدِّين وإتمام النعمة.

ومنها: أنه عيد لأهل الإسلام، كما قاله عمر بن الخطاب وابن عباس فإن ابن عباس قال: نزلت في يوم عيدين يوم الجمعة ويوم عرفة، وروي عن عمر أنه قال: «وكلاهما بحمد الله لنا عيد»، خرَّجه ابن جرير في «تفسيره»، ويشهد له حديث عقبة بن عامر المتقدم، لكنه عيد لأهل الموقف خاصة ويشرع صيامه لأهل الأمصار، عند جمهور العلماء، وإن خالف فيه بعض السلف.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٢٧)، بلفظ: «فإن من تمام النعمة: دخول الجنة، والفوز من النار»، وفي سنده أبو الورد بن ثمامة بن حزن القشيري البصري، لم يوثقه غير ابن حبان، وباقي رجاله ثقات.

ومنها: أنها قد قيل: إنَّهُ الشَّفع الذي أقسم الله به في كتابه، وأن الوتر يوم النَّحر، وقد روي هذا عن النبي ﷺ من حديث جابر خرَّجه الإمام أحمد والنسائي في «تفسيره»، وقيل: إنه الشاهد الذي أقسم الله به في كتابه فقال تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣]، وفي «المسند» عن أبي هريرة مرفوعًا وموقوفًا: «الشَّاهد: يوم عرفة، والمشهود: يوم الجمعة»، وخرَّجه الترمذي مرفوعًا. ورُوي ذلك عن عليّ مِن قوله، وخرَّج الطبراني مِن حديث أبي مالك الأشعري مرفوعًا: «**الشاهد يوم الجمعة والمشهود يومُ عَرَفَة**»، وعلى هذا فإذا وقع يوم عرفة في يومُ الجمعة فقد اجتمع في ذلك اليوم شاهدٌ ومشهودٌ.

ومنها: أَنَّهُ روي أنه أفضل الأيام؛ خرَّجه ابن حبان في صحيحه من حديث جابر عن النبي ﷺ قال: «**أفضل الأيام يوم عرفة**»، وذهب إلى ذلك طائفة من العلماء ومنهم من قال: يوم النحر أفضل الأيام لحديث عبد الله بن قرط عن النبي ﷺ قال: «**أعظم الأيام عند الله يوم النحر ثم يوم القَرّ**»، خرَّجه الإمام أحمد وأبو دواد والنسائي وابن حبان في صحيحه ولفظه: «**أفضل الأيام**».

ومنها: أنَّه يومُ الحجّ الأكبر عند جماعة من السلف، منهم عُمَرُ وغيرهُ، وخالفهم آخرون وقالوا: يوم الحج الأكبر يومُ النَّحر.

ومنها: أنَّ صيامه كفَّارة سنتين.

ومنها: أَنَّهُ يومُ مغفرةِ الذنوب والتجاوز عنها، والعِتق من النار، والمباهاةِ بأهل الموقف، كما في «صحيح مسلم» عن عائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - عن النبي ﷺ قال: «**ما مِن يوم أكثر مِن أن يعتق الله فيه عبيدًا مِن النار مِن يوم عرفة، وإنَّهُ ليدنو ثُمَّ يُبَاهي بهم الملائكة فيقول: ما أراد هؤلاء؟**» وفي «المسند»[1] عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله يُبَاهي ملائكته عشيّة عرفة بأهل عرفة فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شُعثًا غُبرًا**»، وفيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إنَّ الله يُبَاهي بأهل عرفات يقول: انظروا**

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٣/ ٢٢٤)، وقال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٢/ ٢٠٤): رواه أحمد والطبراني في «الكبير» و«الصغير» وإسناد أحمد لا بأس به.

إلى عبادي أتوني شُعثًا غُبرًا»، وخرَّجه ابن حبانُ في «صحيحه» [(١)].

ومنها: صيام ذلك اليوم، ففي «صحيح مسلم» عن أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: «صيام يَوم عرفة أحتسبُ على الله أن يكفّر السَّنَةَ الَّتي قبله والَّتي بعده».

ومنها: حفظُ جوارحه عن المحرّمات في ذاك اليوم ففي مسند الإمام أحمد[(٢)]، عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «يومُ عرفة، هذا يومٌ مَن مَلَكَ فيه سَمعَهُ وبَصَرَه ولِسَانَه غُفِرَ لَهُ».

ومنها: الإكثار مِن شهادة التوحيد بإخلاص وصدقٍ، فإنها أصلُ دين الإسلام الذي أكلمه الله تعالى في ذلك اليوم وأساسُهُ.

وفي «سنن الترمذي»: «خَيْرُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْم عَرَفَةَ وَخَيْرُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [(٣)].

ومنها: أن يُعتق رقبة إن أمكنه، فإنَّ مَن أعتق رقبة مُؤمنة أعتَقَ الله بكُلِّ عضوٍ مِنْهَا عضوًا مِنْهُ مِن النار.

كان حكيم بن حزام - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقف بعرفة ومعه مائة بدنة مقلدة، ومائة رقبة، فيعتق رقيقه فيضج الناس بالبكاء والدعاء ويقولون: ربنا هذا عبدك قد أعتق عبيده ونحن عبيدك فاعتقنا. وجَرَى للناس مرَّة مع الرشيد نحو هذا، وكان أبو قلابة يُعتِقُ جاريةً في عيد الفطر، يرجو أن يُعتق بذلك من النار.

ومنها: كثرة الدعاء بالمغفرة والعِتق، فإنه يرجى إجابة الدُّعاء فيه.

روى ابن أبي الدنيا بإسناده عن علي قال: ليس في الأرض يوم إلَّا لله فيه عُتقاء مِن النار، وليس يوم أكثر فيه عتقًا للرقاب مِن يوم عرفة، فأكثر فيه أن تقول: «اللَّهُمَّ أعتق رقبتي مِن النار، وأوسع لي مِن الرِّزق الحلال، واصرف عنِّي فسقة الجن والإنس»، فإنه

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٥)، و«صحيح ابن حبان» (٦/ ٦١)، والحاكم، وقال: صحيح على شرطهما.

(٢) رجاله ثقات.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣٥٨٥)، وحسنه ووافقه الألباني.

عامة دعائي اليوم.

وليحذر من الذنوب التي تمنع المغفرة فيه والعتق:

فمنها: الاختيال، والمُختال هو المُتعَاظِم في نفسه المتكبِّر، قال الله تعالى: ﴿ **وَاللَّـهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾ [الحديد: ٢٣]، وقال النبي ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنْظُر إلى مَن جرّ ثوبه خُيلاء**»[1].

ومنها: الإصرار على الكبائر:

يا مَن يطمَعُ في العِتق مِن النار ثُمَّ يَمنعُ نفسَه الرَّحمة بالإصرار على كَبَائِر الإثم والأوزار، تالله نصحتَ نَفْسَكَ ولا وقَفَ في طَريقك غيرُك، توبقُ نفسك بالمعاصي، فإذا حُرمت المغفرة قُلت: ﴿ **أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ** ﴾.

فنفسك لم ولا تلم المطايا ... ومت كمدًا فليس لك اعتذارُ

إن كنت تطمع في العِتق فاشترِ نفسك مِن الله؛ فـ ﴿ **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ** ﴾ [التوبة: ١١١].

مَن كَرُمَت عليه نفسُه هَانَ عليه كُلّ مَا يبذُل في افتكاكِها مِن النار.

اشترى بعضُ السَّلف نفسه مِن الله ثلاث مرار أو أربعًا؛ يتصدَّق كُلّ مرة بوزن نَفْسِه فضة.

واشترى عامر بن عبد الله بن الزُّبير نفسه مِن الله بديّة ست مرات تصدَّق بها.

واشترى حبيب نفسه مِن الله بأربعين ألف درهم، تصدَّق بها.

وكان أبو هريرة يسبِّح كُلّ يوم اثني عشر ألف تسبيحة، بقدر دِيته يَفْتَكُّ بذلك نفسه.

بدم الحبيب يباع وصلهم ... فمن الذي يبتاع في الثمن

مَن عرف مَا يطلُب؛ هَانَ عليه كُلّ مَا يبذُل.

---

(١) أخرجه البخاري (١٠/ ٢٥٨)، بلفظ: «مَن جَرَّ ثوبه خُيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة».

ويحك! قد رضينا منك في فكاك نفسك بالنَّدم، وقَنعنَا مِنك في ثمنها بالتوبة والحزن.

وفي هذا الموسم قد رَخُصَ السِّعر، مَن مَلَكَ سمعَه وبَصرَه ولسانَه؛ غُفِرَ له، مُدّ إليه يدَ الإعتذار، وقُم على بابه بالذُّلِّ والإنكسار، وارفع قصَّة ندمِك مرقومة على صحيفة خدِّك بمداد الدُّموع الغِزار وقل: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٣].

قال يحيى بن معاذ: العبدُ يوحِشُ ما بينه وبين سيده بالمخالفات، ولا يُفارق بابه بحالٍ؛ لعلمه بأنَّ عِزَّ العبد في ظِلِّ مواليهم، وأنشأ يقول:

قُـرَّة عـيني لا بـدَّ لـي مـنك وإن ... أوْحَـشَ بـيني وبيـنك الـزَّلَلُ

قـرة عـيني أنـا الغـريقُ فخُـذ ... كـفَّ غـريقٍ علـيكَ يـتَّكِلُ[1]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

«كانت أحوال الصَّادقين في الموقف بعرفة تتنوَّع:

فمنهم: مَن كان يغلب عليه الخوف أو الحياء. وقف مطرف بن عبد الله بن الشخير وبكر المزني بعرفة فقال أحدهم: اللَّهُمَّ لا تَرُدَّ أهل الموقف مِن أجلي، وقال الآخر: ما أشرفه مِن موقف وأرجاه لأهله، لولا أني فيهم!

وقف الفضيل بعرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثَّكلى المحترقة، قد حال البكاءُ بينه وبين الدعاء، فلما كادت الشمس أن تغرب رفع رأسه إلى السماء وقال: واسوأتاه منك وإن عفوت.

---

(١) «لطائف المعارف» (٤٨٠ – ٤٩٥) باختصار شديد.

وقال الفضيل أيضًا لشعيب بن حرب بالموسم: إن كنت تظن أنه شهد الموقف أحد شرًّا منِّي ومنك فبئس ما ظننت.

دعا بعض العارفين بعرفة فقال: اللَّهُمَّ إن كنت لم تقبل حجِّي وتعبي ونصبي فلا تحرمني أجر المصيبة على تركك القبول منِّي.

وقف بعض الخائفين بعرفة إلى أن قرب غروب الشمس فنادى: الأمان الأمان، فقد دنا الانصراف، فليت شعري ما صنعت في حاجة المساكين.

وإنـــي مـــن خـــوفكم والــــرجا أرى المـــوت والعـــيش مـــنكم عـــيانا

فمـــنوا علـــى تائـــب خائـــف أتـــاكم يـــنادي الأمـــان الأمانـــا

إذا طلب الأسيرُ الأمان مِن الملك الكريم أمَّنَه.

الأمـــانَ الأمـــانَ وزْري ثقـــيلُ وذُنُوبـــي إذا عُـــدِدن تَطُـــولُ

أوبقـــتني وأوثقتنِـــي ذنُوبـــي فـــترى لـــي إلى الخـــلاص ســـبيلُ؟

وقف بعضُ العارفين الخائفين بعرفة فمنعه الحياء مِن الدعاء، فقيل له: لِمَ لا تدعو؟ فقال: ثَمَّ وحشة، فقيل له: هذا يوم العفو عن الذنوب، فبسط يديه ووقع ميتًا.

حَـــدَا[1] أيهـــا الحـــادي إلى نعمـــانِ فاســـتذكرَت عَهْـــدًا لهـــا بالـــبَانِ

فـــسالَتِ الـــروح مِـــن الأجفـــانِ تـــــشوُّقًا إلى الـــــزَّمان الفانـــــي

غيره:

قـــد لجّ بـــي الغَـــرَام حتـــى قالـــوا قـــد جُـــنَّ بهـــم وهكـــذا البَلْـــبَالُ

المـــــوت إذا رضـــــيته ســـلـــــسالُ في مـــثل هَـــوَاك تـــرخُصُ الآجـــالُ

وقف بعضُ الخائفين بعرفات وقال: إلهي؛ النَّاس يتقرَّبون إليك بالبُدن، وأنا أتقرَّب إليك بنفسي، ثم خرَّ ميتًا.

للـــناس حـــجٌ ولـــي حَـــجٌ إلى سَـــكَني تُهـدي الأضاحي وأهدِي مهجتي ودمي

---

(١) حدا الإبل: زجرها خلفها وساقها.

ما يرضَى المحبُّون لمحبوبهم بإراقة دماء الهدايا، وإنما يهدون له الأرواحا.

أرى مَوسِمَ الأعـياد أنـسَ الحـبائب ... وما العيدُ عندي غير قُرب الحبائِب

إذا قـرَّبوا بُـدنًا فقرباني الهَـوى ... فـإن قَـبلوا قَلـبي وإلا فقالَـبِ

ومَا بـدَمِ الأنعـام أقْـضِي حُقُـوقَهُم ... ولكـن بمـا بـين الحَـشا والتَّـرائبِ

كان أبو عُبيدة الخوَّاص قد غلَب عليه الشوقُ والقلقُ حتى يضربَ على صدره في الطريق ويقول: واشوقَاه إلى مَن يراني ولا أراه. وكان بعد ما كَبُر يأخذ بلحيته ويقول: يا رب قد كَبُرتُ فاعتقني.

ورؤي بعرفة وقد وَلِعَ به الولَهُ وهو يقول:

سُبحانَ مَن لو سجدنا بالعيون لَـهُ ... علـى حمـى الشَّوك والمُحْمَى من الإبـر

لم نـبلغ العُـشْرَ مِـن مِعـشَارِ نِعمـتِه ... ولا العُـشَير ولا عُـشرًا مِـن العُـشَر

هـو الـرفيع فـلا الأبـصارُ تدركُـه ... سُـبْحَانَهُ مِـن ملـيكٍ نافـذِ القَـدَرِ

سُبحان مَن هو أُنسي إذا خَلوتُ به ... في جـوف ليلـي وفي الظلمـاء والسَّحَرِ

أنت الحبيب وأنت الحِبُّ[(١)] يا أملي ... مـن لـي سِواك ومـن أرجـوه يـا ذُخـرِ

ومِن العارفين مَن كان في الموقف يتعلّق بأذيال الرَّجاء، قال ابن المبارك: جئت إلى سفيان الثوري عشيَّة عَرَفة وهو جاثٍ على ركبتيه وعيناه تهملان، فقلت له: مَن أسوأُ هذا الجمع حالًا؟ قال: الذي يظنُّ أنَّ الله لا يغفر لهم.

ورُوي عن الفضيل أنه نظر إلى تسبيح الناس وبكائهم عشيّة عرفة فقال: أرأيتم لو أنَّ هؤلاء ساروا إلى رجل فسألوه دانقًا ـ يعني سُدس درهم ـ أكان يردُّهم؟ قالوا: لا، قال: والله؛ للمغفرة عند الله أهون مِن إجابة رجل لهم بدانقٍ.

وإنِّـي لأدعـو الله أسـألُ عفـوه ... وأعلـمُ أنَّ الله يعفُـو ويغفِـرُ

لَـئِن أعظَـمَ الـناس الذُّنـوب فإنهـا ... وإن عظمـت في رحمـة الله تـصْغُر

---

(١) الحِبّ: المحبوب.

أيها المسلمون...

وعمّا قليلٍ يقف إخوانكم بعرفة في ذلك الموقف فهنيئًا لمن رُزِقَهُ، يجأرون إلى الله بقلوب محترقة ودموع مستبقة، فكم فيهم مِن خائف أزعجَهُ الخوف وأقلقه، ومحبٍّ ألهبه الشّوق وأحرقه، وراجٍ أحسن الظّن بوعد الله وصدّقه، وتائبٍ نصح لله في التوبة وصَدَقَه، وهاربٍ لجأ إلى باب الله وطرقه، فكم هنالكِ مِن مستوجبٍ للنار أنقذَه الله وأعتقه، ومِن أسيرٍ للأوزار فكّه وأطلَقَه، وحينئذ يطّلع عليهم أرحَمُ الرُّحماء، ويُبَاهي بجمعهم أهلَ السّماء، ويدنو ثم يقول: ما أراد هؤلاء؟ لقد قطعنا عندَ وصولهم الحرمان، وأعطاهم نهاية سؤلهم الرحمن، وهو الذي أعطى ومنع، ووصَلَ وقَطَع.

مـا أصـنع هكـذا جَـرَى المقـدور	**الجـبر لغـيري وأنـا المكـسور**
أسـير ذنـبٍ مقـيد مأسـور	**هـل يمكـن أن يُـبْدَل المـسطور**

مَن فاته في هذا العام القيام بعرفَةَ فليقُم لله بحقه الذي عَرفَه.

مَن عجز عن المبيت بمزدلفة فليبتَّ عزمه على طاعة الله، وقد قرّبه وأزْلَفه.

مَن لم يمكنه القيامِ بأرجاء الخَيْفِ، فليقم لله بحقِّ الرجاءِ والخوف.

مَنَ لم يقدر على نَحر هديه بمنًى، فليذبح هواه هنا وقد بلغ المنى.

مَن لم يصل إلى البيت لأنه منه بعيد فليقصد ربَّ البيت، فإنَّهُ أقرب إلى من دعاه ورجاه مِن حَبلِ الوريد.

نفحت في هذه اليام نَفْحَةٌ من نَفَحات الأُنس مِن رياض القدس على كُلّ قلبٍ أجاب إلى ما دُعى. يا هممَ العارفين بغير الله لا تقنعي.

يا عزائم الناسكين لجميع أَنْساك السالكين أجمعي لحب مولاك أفردي، وبين خوفِهِ ورجائه اقرني، وبذكره تمتعي.

عباد الله...

لقد وضح اليوم الطريق، ولكن قلَّ السَّالك على التحقيق، وكثر المدَّعِي[1].

اللَّهُمَّ ارزقنا حجًّا مبرورًا، وذنبًا مغفورًا، وسعيًا مشكورًا

---

(١) «لطائف المعارف» (٤٩٥ - ٤٩٩) باختصار.

الخطبة التاسعة والخمسون:

أدب الزيارة في الإسلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بن مالكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ اسْتَأْذَنَ عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ الله**». فَقَالَ سَعْدٌ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ الله. وَلَمْ يُسْمِعِ النَّبِيَّ ﷺ حَتَّى سَلَّمَ ثَلَاثًا، وَرَدَّ عَلَيْهِ سَعْدٌ ثَلَاثًا وَلَمْ يُسْمِعْهُ، فَرَجَعَ النَّبِيُّ ﷺ وَاتَّبَعَهُ سَعْدٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي مَا سَلَّمْتَ تَسْلِيمَةً إِلاَّ هِيَ بِأُذُنِي وَلَقَدْ رَدَدْتُ عَلَيْكَ وَلَمْ أُسْمِعْكَ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتَكْثِرَ مِنْ سَلَامِكَ وَمِنَ الْبَرَكَةِ. ثُمَّ أَدْخَلَهُ الْبَيْتَ فَقَرَّبَ لَهُ زَبِيبًا فَأَكَلَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا فَرَغَ قَالَ: «**أَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ وَصَلَّتْ عَلَيْكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَأَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائِمُونَ**»[1].

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد في «المسند» برقم (١٢٣٤٦)، وصححه العراقي.

عباد الله...

إنَّ البيت كالحرم الآمن لأهله؛ لا يستبيحه أحدٌ إلَّا بعلم أهله وإذنهم، في الوقت الذي يريدون، وعلى الحالة التي يحبّون أن يلقوا عليها الناس، ولا يحلّ لأحد أن يتطفّل على الحياة الخاصّة للأفراد، بالاستنصات، أو التجسس، أو اقتحام الدور، ولو بالنّظر من قريب أو بعيد، بمنظار أو بدونه(١).

ولقد أشار الله تعالى إلى حُرمة البيت ومكانته في القرآن الكريم فقال: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ﴾ [النحل: ٨٠].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى - في تفسير هذه الآية: «يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضًا ﴿مِنْ جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر ولهذا قال: ﴿تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا﴾ أي: الغنم، ﴿وَأَوْبَارِهَا﴾ أي: الإبل، ﴿وَأَشْعَارِهَا﴾ أي: المعز، والضمير عائد على الأنعام، ﴿أَثَاثًا﴾ أي: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالًا وتجارة.

وقال ابن عباس: الأثاث: المتاع.

وقوله: ﴿إِلَى حِينٍ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم» ا.هـ(٢).

ولقد أشار النبيُّ ﷺ إلى حرمة البيت في أحاديث كثيرة، منها:

(١) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنِ اطَّلَعَ فِي بَيْتِ قَوْمٍ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ فَقَدْ حَلَّ لَهُمْ أَنْ يَفْقَئُوا عَيْنَهُ»(٣).

---

(١) «الأدب الضائع» لمحمد بن إسماعيل (ص٦).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٩٠٠).
(٣) رواه مسلم (٢١٥٨).

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه هذا الحديث: «قال العلماء: محمولٌ على ما إذا نظر في بيت الرجل فرماه بحصاة ففقأ عينه، وهل يجوز رميه قبل إ نذاره؟ فيه وجهان لأصحابنا[١]: أصحّهما جوازه لظاهر هذا الحديث، والله أعلم» ا.هـ[٢].

(٢) عَنِ سَهْلِ بْنَ سَعْدٍ الأَنْصَارِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: أَنَّ رَجُلاً اطَّلَعَ مِنْ جُحْرٍ[٣] فِي بَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَمَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِدْرًى[٤] يُرَجِّلُ بِهِ رَأْسَهُ[٥]، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ تَنْظُرُ طَعَنْتُ بِهِ فِي عَيْنِكَ إِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ الإِذْنَ مِنْ أَجْلِ الْبَصَرِ»**[٦].

قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه هذا الحديث: قوله ﷺ: «**إنما جَعَل الله الإذن من أجل البصر**»، معناه: أن الاستئذان مشروع ومأمور به، وإنما جعل لئلا يقع البصر على الحرم، فلا يحلّ لأحد أن ينظر في جُحر باب ولا غيره مما هو متعرّض فيه لوقوع بصره على امرأة أجنبيّة.

وفي هذا الحديث: جواز رمي عين المتطلّع بشيء خفيف، فلو رماه بخفيف ففقأها فلا ضمان إذا كان قد نظر في بيت ليس فيه امرأة محرم. والله أعلم» ا.هـ[٧].

(٣) وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن اطَّلع في بَيت قومٍ بغير إذنِهم ففقأوا عَينه فلا ديّة ولا قصاص**»[٨].

وعن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ أعرابيًّا أتى باب النبي ﷺ فألقم عينه خصاصة الباب، فبصر به النبيُّ ﷺ فتوخّاه بحديدة أو عود ليفقأ عينه، فلما أبصره انقمع، فقال

---

(١) يعني الشافعية.
(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٤/ ٣١٥).
(٣) جحر: خرق.
(٤) مدري: حديدة يسوّى بها شعر الرأس.
(٥) يُرجّل: يُسرح.
(٦) رواه مسلم (٢١٥٧).
(٧) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٤/ ٣١٤).
(٨) **صحيح**: أخرجه النسائي (٨/ ٦١)، وانظر «صحيح الجامع» (٦٠٤٦).

له النبيُّ ﷺ «**أما إنك لو ثَبَت لفقأت عَينك**»(١).

قال الإمام ابنُ حجر الهيتمي - رحمه الله - بعد أن عدّ هذا الفعل كبيرة: «عَدُّ هَذَا - يعني كبيرة - هُوَ صَرِيحُ هَذِهِ الْأَحَادِيثِ وَهُوَ ظَاهِرٌ وَإِنْ لَمْ أَرَ مَنْ ذَكَرَهُ؛ لِأَنَّ هَدْرَ الْعَيْنِ صَرِيحٌ فِي أَنَّ ذَلِكَ الْفِعْلَ فِسْقٌ، لِأَنَّ قَلْعَهَا كَالْحَدِّ لِنَظَرِهَا، وَالْحَدُّ مِنْ أَمَارَاتِ الْكَبِيرَةِ اتِّفَاقًا فَكَذَا مَا هُوَ بِمَنْزِلَتِهِ، عَلَى أَنَّهُ لَا مَانِعَ مِنْ تَسْمِيَتِهِ حَدًّا لِكَوْنِ الشَّارِعِ، رَتَّبَ جَوَازَ فِعْلِهِ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ وَلَمْ يَتَجَاوَزْ بِهِ إلَى غَيْرِهِ مِنْ بَقِيَّةِ الْأَعْضَاءِ، وَهَذَا شَأْنُ الْحُدُودِ دُونَ التَّعَازِيرِ إذْ لَا مَحَلَّ لَهَا مَخْصُوصٌ مِنْ الْبَدَنِ، وَلَا يُنَافِي ذَلِكَ أَنَّ لِصَاحِبِ الدَّارِ تَرْكُ رَمْيِهِ لِأَنَّ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ حَدِّ الْقَذْفِ فِي جَوَازِ الْعَفْوِ عَنْهُ» ا.هـ(٢).

عباد الله...

من أجل ما تقدَّم وغيره وضع الإسلامُ للزيارة آدابًا، وألزم أهلَه بها:

أوَل هذه الآداب: اختيار الوقت المناسب للزِّيارة:

وكلّ وقتٍ مناسب للزيارة ما عدا وقتين:

الأول: عند الطعام:

فلا يجوز لمسلم أن يَقُوم بزيارة أخيه في وقت طعامه إلَّا بإذن مسبق، أو رغبة صادقة من صاحب البيت، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: ٥٣].

قال الإمام القرطبي - رحمه الله - «وهذه الآية تضمنت قصّتين: إحداهما: الأدب في

---

(١) **صحيح**: أخرجه النسائي (٨/ ٦٠)، وقال الألباني: صحيح.

(٢) «الزواجر» (٢/ ٣٥٦).

أمر الطعام والجلوس. **والثانية**: أمر الحجاب» ا.هـ[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «نزلت في ناس من المؤمنين كانوا يتحيّنون طعام النبيّ ﷺ فيدخلون قبل أن يدرِك الطعام، فيقعدون إلى أن يدرك، ثم يأكلون ولا يخرجون».

والجمهور من المفسّرين على أن سبب نزولها: أنَّ رسول الله ﷺ لما تزوّج زينب بنت جحشٍ أولم عليها، فدعا الناس، فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجه زينب مُولِّية وجهها إلى الحائط[٢]، فثقلوا على رسول الله ﷺ.

قال أنس: فما أدري أأنا أخبرتُ النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني قال: فانطلق حتى دخل البيت، فذهبتُ أدخل معه فألقِي السّتر بيني وبينه ونزل الحجاب.

قال: وَوَعظ القوم بما وُعِظوا به، وأنزل الله عز وجل: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ** ﴾ إلى قوله: ﴿ **إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا** ﴾. أخرجه البخاري ومسلم والترمذي.

إن إطالة المكث في الزيارة بغير موجب لذلك يورث سوء الخُلُق، ويُحدث اضطرابًا في المزاج.

عن هشيم قال: «كان إسماعيل بن أبي خالد من أحسن الناس خُلُقًا، فلم يزالوا به - يعني الثقلاء - حتى ساء خُلُقه!»[٣].

وعن إسماعيل بن موسى قال: «دخلنا إلى مالك بن أنس ونحن جميعًا مِن أهل الكوفة، فحدَّثنا بسبعة أحاديث، فاستزدناه، فقال: من كان له دين فلينصرف، فانصرفت جماعة، وبقيت جماعة أنا فيهم، ثم قال: من كان له حياء فلينصرف، فانصرفت جماعة، وبقيت جماعة أنا فيهم.

ثم قال: من كانت له مروءة فلينصرف، فانصرفت جماعة، وبقيت جماعة أنا فيهم،

(١) «تفسير القرطبي» (١٤/ ٢٠٢).
(٢) كان لكل زوج من أزواجه ﷺ حُجرةٌ واحدة.
(٣) «الجامع» للخطيب البغدادي (١/ ٢١٨).

فقال: يا غلمان افقئوهم[١]، فإنه لا بُقيا[٢] على قوم لا دين لهم، ولا حياء، ولا مروءة»[٣].

إن هذه ليست زيارة إنما هو احتلال!!

الوقت الثاني: عند النوم:

فلا يجوز لمسلم أن يقوم بزيارة أخيه في وقت نومه ووضع ثيابه إلا بإذن مسبق.

عن عطاء قال: سألت ابن عباس، فقلت: أستأذن على أختي؟ فقال: نعم. فأعدتُ، فقلتُ: أُختان في حجري، وأنا أَمَوِّنُهُما، وأنفق عليهما، أستأذن عليهما؟ قال: نعم، أتحب أن تراهما عريانتين؟! ثم قرأ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلاثَ مَرَّاتٍ مِّن قَبْلِ صَلاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلاةِ الْعِشَاءِ ثَلاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ﴾ [النور: ٥٨]، قال: فلم يؤمر هؤلاء بالإذن إلا في هذه العورات الثلاث. قال: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [النور: ٥٩].

قال ابن عباس: فالإذن واجب، على الناس كلهم»[٤].

وعنَ ابن عمر رضي الله عنهما: «أَنَّهُ كان إذا بلغ بعضُ ولده الحُلُم عزله، فلم يدخل عليه إلا بإذن»[٥].

هذا، ولا يجب استئذان الرجل على زوجته؛ فعن ابن جريج قال: قلت لعطاء: أيستأذن الرجل على امرأته؟ قال: لا.

ولكن يُندب له ذَلِكَ، فعن زينب - امرأة ابن مسعود - قالت: «كان عبدُ الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تَنَحنح، وبَزَقَ، كراهة أن يَهجم منّا على أمر يكرهه»[٦].

---

(١) افقئوهم: يعني أخرجوهم.

(٢) لابقيا: لا بقاء.

(٣) المرجع السابق (١/ ٢١٥).

(٤) «صحيح الأدب المفرد» (٨٨١).

(٥) «صحيح الأدب المفرد» (٤٠٧).

(٦) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٤١)، وصحح ابن كثير إسناده.

الأدب الثاني: عدم استقبال باب البيت بالوجه:

ولكن ينبغي للزائر أن يقف عن يمين الباب أو شماله، حتى لا يسبق نظرُهُ إلى عورة داخل البيت، وقد مضى التحذير من ذَلِكَ قريبًا.

الأدب الثالث: دَقّ الباب أو الجرس ثلاث مرات:

ويستحب أن يكون دقّ الباب خفيفًا.

قال الحافظ **ابن حجر**: «وقد أخرج البخاري في «الأدب المفرد» من حديث أنس: «أن أبواب رسول الله ﷺ كانت تقرع بالأظافير». وأخرجه الحاكم في علوم الحديث من حديث المغيرة بن شعبة، وهذا محمول منهم على المبالغة في الأدب وهو حسن لمن قَرُب محَلّه من بابه، أما مَن بَعُد عن الباب بحيث لا يبلغه صوت القرع بالظفر فيُستحب أن يُقرع بما فوق ذَلِكَ، بحسبه». ا.هـ[1].

قلت: لكن لا يصل القرعُ إلى درجة تروّع الآمنين. قال ﷺ: «**لا يَحِلّ لمسلمٍ أن يُروِّع مُسلمًا**»[2].

فإن أجابه أهل البيت: «مَن» فعليه أن يكشف عن اسمه، ولا يكتفي بقول: «أنا»، ففي «الصحيحين» عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: استأذنتُ على النبيِّ ﷺ فقال: «**مَن هذا؟**» فقلتُ: أنا، فقال النبيُّ ﷺ: «**أنا أنا**» كأنه كَرِهَ ذَلِكَ.

قال الإمام القرطبيُّ: «قال علماؤنا: إنما كَرِه النبيُّ ﷺ ذَلِكَ لأن قوله: «أنا» لا يحصل بها تعريف، وإنما الحكم في ذَلِكَ أن يذكر اسمه» ا.هـ[3].

وإن لم يُجيبوه، فلينصرف.

وهذا الدَّقُّ يقوم مقام الاستئذان، لكن الأصل في الاستئذان أن يكون باللفظ، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** ﴾ [النور: ٢٧].

---

(١) «فتح الباري» (١١/ ٣٦).

(٢) **صحيح**: رواه أحمد.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٢/ ٢٠٠).

وقال قتادة في تفسير قوله: ﴿حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا﴾ قال: «هو الاستئذان ثلاثًا، فمن لم يؤذن له فيهن، فليرجع. أما الأولى: فليسمع الحي، وأما الثانية: فليأخذوا حذرهم، وأما الثالثة: فإن شاءوا أذنوا وإن شاءوا رَدّوا. ولا تَقِفَنَّ على باب قوم ردُّوك عن بابهم؛ فإن للناس حاجات وهم أشغال، والله أولى بالعذر»[(١)].

وصُورة الاستئذان باللّفظ أن يقول الرّجلُ: «السَّلام عليكم أأدخل؟» فإن أُذِن له دَخَل، وإن أُمِر بالرجوع انصرف، وإن سُكِت عنه استأذن ثلاثًا، ثم ينصرف بعد الثلاث[(٢)].

وقد مرَّ بنا في زيارة النبي ﷺ لسعد بن عبادة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - كيف أَنَّهُ ﷺ قال: «**السلام عليكم ورحمة الله**» ثلاث مرات، ولما لم يسمع صوت مجيب رجع، وهذا أدب رفيع -أيها المسلمون- فعضّوا عليه بالنواجذ.

هذا، وقد فصَّل الحنفيّة دون غيرهم في مدّة الانتظار بين كل استئذانين، فقالوا: يمكث بعد كل مرة مقدار ما يفرغ الآكل والمتوضي، والمصّلي بأربع ركعات[(٣)].

الأدب الرابع: غضّ البصر عن العورات:

فإذا أَذِنَ لك صاحبُ البيت بالدخول، فغُضّ بَصَرك عن عورات البيت، ولا تكن لحّاظًا لما يَضُرّك.

قال ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - في قوله تعالى: ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾ [غافر: ١٩]: هو الرجل يكون جالسًا مع القوم فتمر المرأة فيسارقهم النظر إليها.

وعنه أيضًا قال: هو الرجل ينظر إلى المرأة فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، فإذا رأى منهم غفلة تدسس بالنظر، فإذا نظر إليه أصحابه غض بصره، وقد علم الله عَزَّ وَجَلَّ منه أنه يودّ لو نَظَر إلى عورتها[(٤)].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٤٩).
(٢) «تفسير القرطبي» (١٢/ ١٩٨).
(٣) «حاشية ابن عابدين» (٥/ ٢٦٥) نقلًا عن «الأدب الضائع» (٤٣).
(٤) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٢٧٠).

وقال مجاهد: هي مسارقة نظر الأعين إلى ما نهى الله عنه[١].

الأدب الخامس: الجلوس في المكان الذي يُحبه صاحب البيت:

فصاحب البيت أدرى بالمكان الذي يصون حُرمة بيته، فإن سمح باختيار المكان، ولا تتَعمد الجلوس في مكان يكشف نساء البيت، فتصبح كبرج المراقبة، واعلم أن الحياء شعبة من الدِّين.

الأدب السادس: لا تتدخل في شئون بيت غيرك:

لأن هذا من التطفّل المذموم، ويتأذّى أهلُ البيت به، اللهم إلا إذا طُلب منك ذَلِكَ.

الأدب السابع: لا تُطِل الجلوس:

فقد مَّر بك التحذير من ذَلِكَ، اللهم إلَّا إذا رغب أهلُ البيت في ذَلِكَ، واعلم أن الضرورة تُقَدّر بِقَدرها.

الأدب الثامن: مُراعاة الاعتداء فيها:

فلا تقارب مرات الزيارة تقاربًا يؤذي أهل البيت، ولا تباعد بينها تباعدًا يقطع الرحم.

عن أبي هريرة - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قال:

قال رسول الله ﷺ: **«زُر غبًّا تَزدد حُبًّا»**[٢].

الأدب التاسع: لا تدخل البيت إلا في وجود أحد مَحارمه:

لورود النَّهي عن ذَلِكَ، فعن عبد الله بن عمرو قال:

قال رسول الله ﷺ: **«مَثَلُ الذي يَجلس على فِراشِ الْمُغِيبةِ[٣] مثلُ الذي يَنهشُهُ أَسْوَدُ من أَسَاوِدِ[٤] يوم القِيامة»**[٥].

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) **صحيح**: رواه البزار وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٣٥٦٨).

(٣) **الْمُغِيبة** - بضم الميم وكسر الغين -: هي التي غاب عنها زوجها.

(٤) **الأساود**: الحيّات، واحدها: أسود.

(٥) قال المنذري: رواه الطبراني، ورواته ثقات، «الترغيب» (٣٥٦٥).

الأدب العاشر: لا تجلس مع المتبرجات:

وهذا البلاء عمّ في زيارات اليوم، تحت مسمى رفع الحرج، أو الإخوة، أو الثقة المتبادلة، أو الحرية الشخصية.... إلخ.

ولا يخفى أن هذا التساهل يجرّ إلى كثير من الذنوب، أعلاها الزنا، ويليها خراب البيوت.

عباد الله...

هذه بعض الآداب التي ينبغي للزائر أن يتحلَّى بها في زيارته، وهذه قيود وضوابط شرعيِّة، ليس فيها شيء من التعقيد والتخلّف والرجعيّة، كما يزعم المنفلتون من الأخلاق الإسلامية، بل وضعها الإسلام الحنيف وقاية للأعراض، وصيانة للأخلاق، وحفاظًا على الدِّين.

فالحمد لله على نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فالزيارة في الله تعالى لها ثواب عظيم وأجرٌ كبير.

فعَنْ أَبِى هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - عَنِ النَّبِىِّ ﷺ: «أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِى قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ[١] مَلَكًا، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَخًا لِى فِى هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا[٢]؟ قَالَ: لاَ، غَيْرَ أَنِّى أَحْبَبْتُهُ فِى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. قَالَ: فَإِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ»[٣].

(١) المدرجة: الطريق.
(٢) تربها: أي تقوم بها وتسعى في صلاحها.
(٣) رواه مسلم.

وعنه رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً»(١).

وعن أنس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عن النبيّ ﷺ قال: «ألا أخبرُكم برجالِكم من الجنَّة؟» قلنا: بلى يا رسول الله. قال: «النبيُّ في الجَنَّة، والصِّدِّيق في الجنَّة، والرجلُ يزور أخاه في ناحية المِصر لا يزورُه إلَّا لله في الجنَّة»(٢).

وعن معاذ بن جبلٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «قال الله تبارك وتعالى: وجبت محبَّتي للمتحابِّين فيَّ، وللمتجالسين فيَّ، وللمتزاورين فيَّ، وللمتباذلين فيَّ»(٣).

عباد الله...

ثوابٌ كبير، وفضلٌ عظيم لمن زار أخًا له في الله، وللزيارة في الله ثمرات أخرى، منها:

- توطيد العلاقات الأخوية.
- التقارب بين القلوب.
- التعاون على البر والتقوى.
- حلّ المشكلات الأسرية وغيرها.
- التعاون البنَّاء الهادف على الخير - الخير بجميع صوره وأشكاله.
- صلة الأرحام العامّة والخاصّة.

وغير ذلك من الثمرات، وهذه الثمرات لن تتحقق إلَّا إذا كانت الزيارة في الله، وبالضوابط التي تقدَّمت.

اللَّهُمَّ ارزقنا حُبّك، وحُبَّ مَن أحبَّك، وحُبَّ كُلّ عملٍ يُقرِّبُنا من حُبّك

آمين... آمين... آمين

---

(١) **حسن**: رواه الترمذي وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٣٨٧).

(٢) **حسن**: رواه الطبراني في «الأوسط»، و«الصغير»، وانظر «صحيح الجامع» (٢٦٠٤).

(٣) **صحيح**: رواه مالك بإسناد صحيح، كذا قال المنذري في «الترغيب والترهيب»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

الخطبة الستون:

ضوابط شرعية للألعاب الرياضية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَن عُروة بن الزُّبير عَنْ عَائِشَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أنها كانَت مَع رسول الله ﷺ فِي سَفرٍ وهي جارية، قالت: لَمْ أَحْمِلِ اللَّحْمَ وَلَمْ أَبْدُنْ، فَقَالَ لأصحابه: «تَقَدَّمُوا». فَتَقَدَّمُوا، ثُمَّ قَالَ لِي: «تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ». فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقْتُهُ عَلَى رِجلي، فلما كان بَعدُ - وفي رواية: فَسَكَتَ عَنِّى حَتَّى إِذَا حَمَلْتُ اللَّحْمَ وَبَدُنْتُ وَنَسِيتُ- خَرَجْتُ مَعَهُ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ فَقَالَ لأصحابه: «تَقَدَّمُوا». فَتَقَدَّمُوا ثُمَّ قَالَ: «تَعَالَيْ أُسَابِقْكِ». ونَسيتُ الذي كانَ، وقد حَملتُ اللَّحمَ، فقُلتُ: كَيفَ أُسَابِقُكَ يا رسول الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: «لَتفعلِنَّ». فَسَابَقْتُهُ فَسَبَقَنِى، فَجَعَلَ يَضْحَكُ وَهُوَ يقول: «هَذِهِ بِتِلْكَ السَّبَقَة»[(١)].

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٥٧٨)، والنسائي في «عشرة النساء»، والسياق له، وغيرهما، وصححه =

عباد الله...

قال الإمام الشوكاني - رحمه الله تعالى - في شرحه هذا الحديث: «وفي الحديث دليلٌ على مشروعيّة المُسابقة على الأرجُل بين الرِّجال والنِّساء والمحارم، وأنَّ مثل ذَلِكَ لا يُنافي الوقار والشَّرف والعِلم والفَضل وعُلُوّ السِّن، فإنه ﷺ لم يتزوّج عائشة إلَّا بعد الخمسين من عُمره، لا فرق بين الخلاء و الملأ» ا.هـ[1].

وأقول: مع مراعاة الضوابط الشرعية، فقد كانت عائشة في ثيابها الشرعيَّة، وبعيدة عن أنظار الرجال، بدليل قول النبيّ ﷺ لأصحابه: «تقدَّموا»، لقد كانت حياة النبي ﷺ مثلًا رائعًا للحياة الإنسانية المتكاملة.

ففي خلواته؛ يُصلِّي ويبكي، ويضرع إلى ربِّه.

وفي ساحة القتال، يقول بعضُ أصحابه: كنا إذا اشتدّ البأس اتَّقينا برسول الله ﷺ.

وفي الحق؛ لا يُبالي بأحد في جنب الله، ولا يخشى في الله لومة لائم.

وفي وسط أصحابه وأهله؛ يبتسم، ويداعب، ويمزح، ولا يقول إلَّا حقًّا، بل ويشجع أصحابه على ألوان من الرياضة - كما سيأتي.

إن الإسلام لم يخاصم الرياضة المنضبطة، إنما خاصم اللَّهو الذي يصدّ عن الحق، والرياضة المنفلتة من الضوابط الشرعيَّة.

ومن ألوان الرياضة التي سمح بها الإسلام:

١- مسابقة العَدْو (الجري على الأقدام):

وقد تقدَّم معنا مسابقة النبي ﷺ لعائشة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا -.

وكان سلمة بن الأكوع - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يسابق الخيل فيسبقها، وقد أثنى عليه النبي ﷺ يومًا فقال: **«خَيرُ فُرسانِنا أبو قتادة، وخَيرُ رَجَّالَتِنا سَلَمَةُ»**[2].

= العراقي في «تخريجه لأحاديث الإحياء» (٢/ ٤٠)، والألباني في «الصحيحة».

(١) «نيل الأوطار» (٨/ ١٠٥).

(٢) رواه مسلم.

لكن لا يجوز للمرأة أن تجري أمام الرجال، وقد أظهرت معالم بدنها، لأن ذلك فيه من الفتنة ما لا يخفى.

٢- المصارعة:

وهي نوعان:

الأول: مصارعة حُرَّة: وهي مُحَرَّمة لِما فيها من إيذاء وأضرار(١)، فضلًا عن كشف عورات المتصارعين.

النوع الثاني: مصارعة رومانية: هكذا تُوصف لِتُميّز عن سابقتها، وهذا النوع يجوز إن خلا من المحاذير السابقة.

فعن سعيد بن جبير قال: كان رسول الله ﷺ بالبطحاء فأتى عليه ركانة بن يزيد ومعه عنز له، فقال له: يا مُحمد هل لك أن تُصارعني؟ قال: «ما تَسبقني»، قال: شاة من غنم، فصارعه فصرعه، وأخذه شاة، فقال ركانة: هَل لك في العَود؟ ففعل ذَلِكَ مرارًا، فقال: يا محمد، والله ما وضع جنبي أحدٌ إلى الأرض، وما أنت بالذي تصرعني(٢)، يعني فأسلم، فَرَدّ عليه النبيُّ ﷺ غَنَمه(٣).

ورواه عبد الرزاق بسند ضعيف عن عبد الله بن الحارث، قال: صارع النبيُّ أبا ركانة(٤) في الجاهلية، وكان شديدًا، فقال: شاة بشاة، فصرعه النبيُّ ﷺ، فقال: عاودني في أخرى، فصرعه النبيُّ ﷺ، فقال: عاودني، فصرعه الثالثة، فقال أبو ركانة: ماذا أقول لأهلي؟ شاة أكلها الذئب، وشاة نشزت، فما أقول في الثالثة؟ فقال النبي ﷺ: «**مَا كُنَّا لِنَجمع عليك أن نصرعك ونغرمك غَنَمك، خُذ غَنَمك**»(٥).

قال الإمام ابن حَجَر الهيتميّ - رحمه الله - مُعلِّقًا على هذه القصة: «أخذُه ﷺ المال منه لا يقتضي جواز أخذه في المصارعة، ويوجّه بوجهين:

---

(١) تصل إلى حدّ العمى، وكسر العظام، وأحيانًا إلى الموت.

(٢) لعله يقصد أن مَلَكًا أعانه.

(٣) **رجاله ثقات**: رواه أبو داود في «المراسيل» (٣٠٠٨)، والبيهقي وقال: هو مُرسل جيد.

(٤) الصّواب: رُكانة.

(٥) انظر «أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ الأصفهاني، (باب شجاعته ﷺ وقوته).

أحدهما: أن الظاهر أَنَّهُ ﷺ إنما أراد أن يبيِّن عجزه من وجهين: صرعه، وأخذ ماله، فلما ظهر ذَلِكَ ردّه إليه.

وثانيهما: لو سلّمنا خلاف هذا الظاهر؛ لم يكن فيه حجّة أيضًا، لأن ركانة إذ ذاك كان كافرًا فهو حربيّ يجوز أخذ ماله مُطلقًا، ومن ثُمَّ لما أسلم تفضّل عليه النبي ﷺ وردّ إليه غنمه» ا.هـ[١].

٣- اللعب بالسهام (التصويب):

وهو هُو مشروع في إطاره الشرعي، فعن عقبة بن عامر - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قال: سمعتُ رسول الله ﷺ وهو على المِنبر يقول: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ** ﴾ [الأنفال: ٦٠]، **ألا إنَّ القوّة الرَّميُ، ألا إنَّ القوّة الرَّميُ، ألا إنَّ القوّة الرَّميُ**»[٢].

لكن لا يجوز أن نحبس البهائم ولا أي حيوان حَيّ ليُقتل بالرَّمْي ونحوه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ النبي ﷺ قال: «**لا تتخذوا شيئًا فيه الرُّوح غَرَضًا**»[٣].

وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: مَرَّ ابْنُ عُمَرَ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا[٤] وَهُمْ يَرْمُونَهُ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّيْرِ كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ[٥]، فَلَمَّا رَأَوْا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: مَنْ فَعَلَ هَذَا؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هَذَا، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نهى أن يُقتل شيءٌ مِن الدَّواب صَبرًا[٦].

قال الإمام النووي: «قال العلماء: صبر البهائم أن تُحبس وهى حيَّة لِتُقتل بالرمى ونحوه، وهو معنى «**لا تتخذوا شيئًا فيه الرُّوح غَرَضًا**» أى لا تتخذوا الحيوان الحى غرضًا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها، وهذا النَّهى للتحريم، ولهذا قال ﷺ فى رواية ابن عمر التى بعد هذه: «**لعن الله من فعل هذا**»، ولأنه تعذيب للحيوان واتلاف لنفسه

---

(١) «كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع» لابن حجر الهيتمي (١٢٢).

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم (١٩٥٧).

(٤) وفي رواية: «دجاجة».

(٥) أي ما لم يصب المرمى.

(٦) رواه مسلم (١٩٥٨).

وتضييع لماليته، وتفويت لذكاته[١]، إن كان مذكى، ولمنفعته إن لم يكن مُذكّى» ا.هـ[٢].

٤- سلاح الشّيش (اللعب بالحراب):

وهذا النوع من اللهو جائز، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: بَيْنَا الْحَبَشَةُ يَلْعَبُونَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ بِحِرَابِهِمْ دَخَلَ عُمَرُ، فَأَهْوَى إِلَى الْحَصَى فَحَصَبَهُمْ بِهَا. فَقَالَ رسول الله ﷺ: «**دَعْهُمْ يَا عُمَرُ**»[٣].

٥- الفروسية:

وهو أيضًا مباح؛ ففي «مسند أحمد» عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «سبق النبي ﷺ بين الخيل وأعطى السّابق»[٤].

٦- السِّباحة:

وهذا نوع آخر من الممارسات الترويحية، التي كانت موجودة في العصر الإسلامي الأوّل، فقد كتب عُمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إلى أمير الشام: «... وعلموا صبيانكم الكتابة والسِّباحة».

ولقد ألّف السيوطي - رحمه الله - كتابًا في فضل السباحة أسماه «الباحة في فضل السباحة».

أما سباحة المرأة شبه عارية؛ يراها الرجال، فهو إثمٌ عظيم، وعمل قبيح، تحت أي مُسمى، كما أن سباحة الرجل بادي العورة لا تجوز لورود النَّهي عن كشف العورة في مثل قول النبي ﷺ: «**لا ينظر الرجلُ إلى عَورة الرَّجل، ولا تَنظُر المرأةُ إلى عَورة المرأة**»[٥].

والأدلة في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) **الذكاة**: الذبح الشرعي للحيوان.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢٣/ ٩٣).

(٣) متفق عليه.

(٤) يأتي الحديث عن الرهان بعد قليل إن شاء الله تعالى.

(٥) رواه مسلم.

٧- رفع الأثقال:

وهذه الرياضة لها دور كبير في تقوية عضلات الساقين واليدين والفخذين والبطن، ولم يُنكر الرسول ﷺ على مَن يمارس هذا النوع من النشاط لما فيه من جوانب ترويحية، إضافة إلى دورها في تقوية البدن لملاقاة الأعداء، والشعور بالهمّة عند تأدية الفرائض وتحصيل لقمة العيش، ولقد رأى النبيُّ ﷺ شبابًا يرفعون حَجرًا لِيَروا الأشدّ منهم، فلم يُنكر عليهم[١].

لكن إبداء العورة أمام النساء والرجال لا يجوز.

٨- كرة القدم[٢]:

لا بأس بها، لكنها تحرم إذا زاحمها مُنكر ككشف العورات، واختلاط الرجال بالنساء، والتعصّب الأعمى، وإضاعة الصلوات، وتعطيل المصالح، وإطلاق اللسان بعبارات تخدش الحياء، والميل القلبي إلى مشاهير النجوم الكفار، وتقليدهم في طريقة حلق رءوسهم ونحو ذَلِكَ.

٩- الكاراتيه، وما شابهه:

لا بأس بتعلمه بقصد الدفاع عن النفس، وإذلال الكفار المحاربين، أمَّا تعلمه بقصد إذلال المسلمين، والتعدّي عليهم، فلا يجوز

١٠ - لعب الأطفال:

مثل المراجيح، والعرائس، ونحو ذَلِكَ، فلا بأس بها. ففي «مسند أحمد» [٣]، أنَّ عائشة - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهَا - قالت: تزوّجني رسول الله ﷺ مُتوفَّى خديجة، قبل مخرجه إلى المدينة بسنتين أو ثلاث وأنا بنت سبع سنين، فلما قدمنا المدينة جاءتني نسوة وأنا ألعب في أُرجوحَة[٤] وأنا مجمّمة[٥]، فذهبن بي فهيأنني وصنعنني، ثم أتَين بي رسول الله

---

(١) «الفروسية» للإمام ابن القيم (ص٣٧).

(٢) وما يشبهها ككرة السلة والطائرة والتنس.

(٣) رواه مسلم.

(٤) **الأرجوحة**: خشبة يلعب عليها الصبيان والجواري الصِّغار، يكون وسطها على مكان مرتفع، ويجلسون على طرفيها ويحركونها فيرتفع جانب منها وينزل جانب.

(٥) **الجُمة**: الشعر النازل إلى الأذنين ونحوهما.

ﷺ ، فَبَنَى بِي وأنا بنت تِسع سنين».

وعن عائشة أيضًا قالت: «قَدِمَ رسولُ الله ﷺ من غزوة تبوك أو خيبر وفي سهوتها[1] ستر، فهبّت ريح فكشفت ناحية السّتر عن بنات - لُعَب - لعائشة، فقال: «**مَا هذا يا عائشة؟**» قالت: بناتي، ورأى بينهن فرسًا له جناحان من رقاع، فقال: «**ما هذا الذي أرى وَسَطهن؟**» قالت: فَرسٌ، قال: «**وما هذا الذي عليه؟**». قالت: جناحان. قال: «**فرسٌ له جناحان؟**» قالت: أما سمعت أن لسليمان عليه السلام خَيلًا لها أجنحة؟ قالت: فضَحِكَ حتى رأيتُ نواجذه»[2].

حكم الرهان:

روى الإمام أحمد: قيل لأنس: أكنتم تراهنون على عهد رسول الله ﷺ؟ أكان رسول الله ﷺ يراهن؟ قال: نعم، والله راهن على فرسٍ يقال له: سبحة، فسبق الناس، فهشّ لذلك وأعجبه.

والرهان المباح أن يكون الجُعل[3] الذي يبذل من غير المتسابقين أو من أحدهما فقط، فأما إذا بذل كلّ منهما جعلًا على أن مَن يسبق منهما أخذ الجُعلين معًا فهو القمار المنهيّ عنه»[4].

١١- الصَّيد:

وهو أيضًا من اللّهو النافع الذي أقرّه الإسلام، وهو في الواقع متعة ورياضة واكتساب، سواء أكان عن طريق الآلة كالنبال والرماح أو عن طريق الجوارح المعلّمة كالكلاب والصّقور[5].

ولم يمنع الإسلامُ الصّيد إلا في حالتين:

الأولى: حالة المُحرم بالحج والعمرة.

---

(١) **السهوة**: خزانة صغيرة يكون فيها المتاع.

(٢) **صحيح**: رواه أبو داود.

(٣) **الجُعل**: ما يُجعل على العمل من أجر.

(٤) «الحلال والحرام» (٢٨٦).

(٥) وله شروط مهمّة راجعها في كتب الفقه.

الثانية: حالة الحرم في مكة، فقد جعلها الإسلام منقطة سلام وأمن لكل كائن حيّ ينتقل في أرجائها، أو يطير في سمائها، أو ينبت في أرضها فهي كما قال النبي ﷺ: «**لا يُصاد صيدُها، ولا يُقطع شَجرُها، ولا يُختلى خَلاها**»[1] اهـ[2].

قلت: ويدخل في هذا النوع «صيد الأسماك»، فهو أيضًا متعة واكتساب.

عباد الله...

كل ما سبق، هُوَ مباحٌ ومشروعٌ بشرط خُلُوِّه من المناهي الآتية:

١- كشف العورة.

٢- القمار المحرّم.

٣- التبرّج والسّفور.

٤- اختلاط الرجال بالنساء.

٥- ضياع الأوقات وتعطيل المصالح.

٦- ضياع أوقات الصلاة.

٧- الألفاظ البذيئة.

٨- الخلوة بالنساء.

٩- التشبّه بالكفار والميل القلبي لهم.

١٠- التعصب الأعمى.

١١- إزهاق أرواح اللاعبين أو تشويه أبدانهم أو إيقاع الضرّر بهم.

أرجو أن تكون الأمور قد بانت، والله الموفّق لما يُحبّ ويرضى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه البخاري ومسلم، وقوله: «ولا يختلي خلاها» أي لا يُقطع رَطْبُها - الحشيش ونحوه.

(٢) «الحلال والحرام» (٢٨٦، ٢٨٧) بتصرف وإضافة.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

أمَّا اللَّهو المحرّم الذي ورد النَّهيُ عنه، منه:

١- الرَّقص:

سُئل الشيخ محمد بن صالح العثيمين - رحمه الله -: هل يجوز للنساء أن يرقصن في حفلات الزفات لاسيّما أنّهن أمام النساء فقط؟

الجواب: الرقص مكروه - يعني بين النساء[١] - وكنت في أوّل الأمر أتساهل فيه، ولكن سُئلت عدّة أسئلة عن حوادث تقع في حال رقص المرأة فرأيت المنع منه؛ لأن بعض الفتيات تكون رشيقة وجميلة وخفيفة ورقصها يفتن النساء بها، حتى إنه بلغني أن بعض النساء إذا حصل مثل هذا تقوم تُقبّل المرأة التي ترقص، وربما تضمّها إلى صدرها، ويحصل من هذا فتنة ظاهرة» ا.هـ[٢].

أما رقص المرأة أمام زوجها، فقد سُئل الشيخ الألباني - رحمه الله تعالى - عن حُكمه، فقال: «إن كان رقصًا فطريًا ليس مهنيًّا أي: أنها لم تتعلم الرقص، كما هو موضة العصر[٣] ولو حرّك شهوة الرجل، فهذا لا يجود نصّ بتحريمه، شريطة أن يكون ذلك بينها وبينه» ا.هـ[٤].

٢- الغناء:

ونقصد به هنا الغناء الذي يحرّك الغرائز، ويهيّج الشوات، ويدعو إلى الإلحاد، والكفر والفسوق والعصيان، ويصاحبه عَزفٌ.

---

(١) أما أمام الرجال فمعصية كبرى، وطامة عظمى، وبلاؤها يتناسل.

(٢) «جريدة المسلمون» عدد (٦٥١).

(٣) وأصول تعلّم الرقص خبيثة كما هو معلوم.

(٤) «فتاوى مهمّة لنساء الأمة» إعداد عمرو بن عبد المنعم سليم (٢٩٥).

وقد وردت أدلة كثيرة تحرّمه، وتذّم أهله، منها:

(١) عن عمران بن حُصين - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**يكون في أُمَّتي قَذفٌ ومَسخٌ، وخَسفٌ**»، قيل: يا رسول الله ومتى ذاك؟ قال «**إذا ظهرت المعازفُ، وكَثُرت القِيان**[١]**، وشُرِبت الخمور**»[٢].

(٢) وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» والبيهقي بسند صحيح: أَنَّ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مرَّت بمُغَنٍ فَرَأَتْهُ يَتَغَنَّى وَيُحَرِّكُ رَأْسَهُ طَرَبًا فِي البَيْتِ، وَكَانَ ذَا شَعْرٍ كَثِيرٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أُفٍّ شَيْطَانٌ أَخْرِجُوهُ، أَخرِجُوهُ، فَأَخْرَجُوهُ.

قلت: ولا يخفى أن أكثر المشتغلين بالغناء من الشباب يَغلب عليهم طابع الخنوثة، كما هو مشاهد اليوم.

٣- التمثيل:

وجذور التمثيل ليست إسلامية، فقد رجّح بعضُ الباحثين أن نواة التمثيل من شعائر العبادات الوثنية لدى اليونان[٣].

وهذا يكفي في ذمّه والتحذير منه.

أضف لما سبق: ما يشتمل عليه من مفاسد ومضارّ كاختلاط الرجال بالنساء، ورفع جلباب الحياء، والسخرية، والاستهزاء، وتقليد الأموات والأحياء، والدعوة إلى ممارسة الرذيلة دون وجل ولا حياء.. إلخ. القاموس المشئوم الذي لا يتردد عاقل محترم ذو فطرة سليمة في رفضه ونبذه والإنكار على فاعليه[٤].

٤- اللعب بالنَّرد (الطاولة):

وهذه اللعبة من جملة الألعاب المحرّمة، وإن خلت من المقامرة، لورود النَّهي **عنها**:

---

(١) **القِيان**: المغنيّات.

(٢) **صحيح**: رواه الترمذي وغيره، وصححه الألباني في «تحريم آلات الطرب» (٦٦).

(٣) «المعجم المفصل» (٢/ ١١٤٩، ١١٥٠).

(٤) للشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله - رسالة مهمة بعنوان «التمثيل، حقيقته، تاريخه، حكمه» فراجعها إن شئت.

ففي «صحيح مسلم» وغيره عن بُريدة - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ قال: «**مَن لَعِب بالنَّردشير فكأنَّما صَبَغَ يده في لحم خِنزير**».

وعن أبي موسى الأشعري - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُ - عن النبي ﷺ قال: «**مَن لَعِبَ بالنَّرد فقد عَصَى الله ورسوله**»(١).

٥- الشطرنج:

مذهب الإمام أحمد ومالك أنه حرام، وقاسوه على النّرد.

قال مالك: هو شرٌّ من النرد، ويُلهي عن الخير.

وقال الإمام أحمد: لا يُسلِّم الإنسان على مَن يلعب النّرد أو الشطرنج.

وقد أيَّد شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - القول بتحريمه سواء تمّ بِعوض أو بغيرِ عوض، وله فتوى مطوّلة في ذلك في «الفتاوى الكبرى» الجزء الثاني، فراجعها إن شئت.

هذا؛ ولم يصح حديثٌ في تحريم الشطرنج.

أمَّا الصحابة الكرام، فقد اختلفوا في شأنه، فمنهم مَن ذهب إلى التحريم، ومنهم مَن ذهب إلى الكراهة، كما أن بعضهم ذهب إلى إباحته شريطة ألَّا يؤخّر فرضًا من فرائض الله، وألا يخالطه قمار، وألا يكون سببًا في الإساءة إلى الغير، فإذا فرَّط اللاعب به في هذه الشروط أو بعضها كان لعبه به محرَّمًا بالإجماع(٢).

قلت: اللعب به يجُر إلى هذه المناهي حَتمًا، فترك اللعب به واجب، والله أعلم.

٦- رقص البالية:

لعبة سخيفة تحدّد معالم بدن المرأة، وتُؤدي بطريقة بهلوانية شيطانية، ويزداد القبح فيها عندما يعاون الرجلُ الأجنبي فيها المرأة، باسم التدريب والإبداع!!

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وأبو داود، وغيرهما.

(٢) «هامش كفّ الرعاع عن محرمات اللهو والسماع» لابن حجر الهيتمي (١٠١)، تحقيق عادل أبو العباس.

فمن البلاء الذي عمّ: رقص المرأة مع الرجل، ولا أدري كيف يسمح المسلم لابنته أو لزوجته بهذا؟!

قال الإمام الغزاليّ رحمه الله تعالى: إن الأمة إذا فقدت الغيرة في رجالها، فقدت العفّة في نسائها. ا.هـ.

وأختم خطبة اليوم بهذه الفتوى:

سُئل فضيلة الأستاذ الشيخ/ عبد المجيد سليم مفتي الديار المصرية الأسبق: هل الرقص الإفرنجي الذى يشترك فيه الرجل والمرأة يخالف الدين الإسلامى؟

وما حكم الإسلام فى الرجل الذي يرقص مع امرأته على مرأى من الناس؟

الجواب:

«اطلعنا على هذا السؤال، ونفيد: أنه لا يشتبه مسلم فى دار الإسلام فى أن الرقص الإفرنجى المعروف الذى يشترك فيه الرجل والمرأة محرم شرعًا، وأن كلا من المرأة التى ترقص مع أجنبى عنها والرجل الذى يرقص مع أجنبية عنه آثم بارتكابه لهذا الفعل ومستحق لما أعده الله للفاسقين الظالمين لأنفسهم المجترئين على ربهم فى العقوبة فى الدنيا والآخرة.

كما أن الرجل الذى يرقص مع امرأته على مرأى من الناس مرتكب لهذا الأثم ولهذه المعصية وفاسق بذلك ظالم لنفسه مجترئ على ربه مستحق للعقوبة المذكورة.

وهذه قضايا معلومة بداهة من الدين لا تحتاج إلى إقامة برهان عليها ومن يرضى

ومن قدر على تغيير هذا المنكر وإزالته ولم يغيره فهو آثم. وقد حرَّم الله سُبْحَانَهُ وتعالى ما هو أقلّ من ذلك فسادًا، وأقلّ منه فُحشًا وقُبحًا.

ولاشكّ أن هذا العمل من الدياثة التي لا يدخل صاحبها الجنة...» ا.هـ[1].

---

(١) «مختصر فتاوى دار الإفتاء المصرية» جمع وترتيب الشيخ/ صفوت الشوادفي (٣٨٠، ٣٨١) باختصار.

عباد الله...

أرجو أن أكون قد وُفقتُ في بيان المشروع والممنوع في هذا الموضوع، وعلى الله قصد السبيل.

اللَّهُمَّ وفِّقنا لأحسَن الأعمال، لا يُوفِّق لأحسنها إلَّا أنت
واصِرف عنَّا سَيِّئها، لا يصرف عنَّا سيئها إلَّا أنت

✧✧✧✧✧

الخطبة الحادية والستون:

من دلائل قدرة الله في خلق الإنسان

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

قال قَتَادة: «مَن تفكّر في خَلقِ نفسِه عَرَفَ أَنَّهُ إِنَّما خُلِقَ، ولُيِّنت مَفَاصِلُهُ للعِبَادَةِ»(١).

وعن بُسْر بْنِ جَحَّاشٍ الْقُرَشِيِّ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَزَقَ يَوْماً فِي كَفِّهِ فَوَضَعَ عَلَيْهِ أُصْبُعَهُ السَّبابة ثُمَّ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ: ابْنَ آدَمَ أَنَّى تُعْجِزُنِي وقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ مِثْلِ هَذِهِ، حَتَّى إِذَا سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بَيْنَ بُرْدَيْنِ، وَلِلأَرْضِ مِنْكَ وَئِيدٌ، فَجَمَعْتَ

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٩١).

وَمَنَعْتَ، حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ قُلْتَ: أَتَصَدَّقُ، وَأَنَّى أَوَانُ الصَّدَقَةِ؟!»[١].

إنَّ مَن تأمّل قدرة الله في النَّفس والآفاق يخرّ ساجدًا لعظمة الخالق سُبْحَانَهُ.

سبحانك اللهم أنت الواحدُ ... كُلّ الوجود على وجودك شاهدُ

يا حَيُّ يا قيّوم أنت المُرتَجَى ... وإلى عُلاك عَنَا الجبينُ السَّاجدُ

قال أحد العارفين بالله وهو يناجي ربه: «سبحانك ربي! آمن بك المؤمن ولم ير ذاتك، وجحدك الجاحد ووجوده في ملكك دليل وجودك وعظمة ذاتك».

قيل للإمام عليّ رضي الله: «متى كان الله؟».

فقال: «ومتى لم يكن؟».

قيل له: «فما الدليل على وجوده؟».فقال: «ومتى غاب؟ سبحانه! هو الأول فلا شيء قبله والآخر فلا شيء بعده والظاهر فلا شيء فوقه، والباطن فلا شيء دونه، سبحانه! علا، فقهر، وبطن، فخبر، وملك، فقهر!».

وفي كتاب «الطاقة الإنسانية» للأستاذ أحمد حسين، «فصل مهم»، تحدث فيه عن نشأةَ الإنسان، وعن الأسرار الإلهية البالغة التي احتوى عليها خلقه.

عباد الله...

من نحن؟

إليك ما قاله العلم الحديث في الإجابة عن هذا السؤال:

نشأة الإنسان:

ينشأ الإنسان منذ كان إنسانًا كأي حيوان آخر: من بويضة يفرزها مبيض الأنثى الذي يوجد به حوالي (٣٠٠,٠٠٠) بويضة، تصل منها أربعمائة إلى مرحلة النضج، وتتناهى هذه البويضة في الصغر إلى حد أن عشرين مليون بويضة لا يزيد وزنها على أوقية!!

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢١٠)، وابن ماجه (٢٧٠٧)، وغيرهما.

أما الحيوان اللازم لإخصاب البويضة فإن حجمه لا يزيد على (١/ ٨٥٠٠) من البويضة، وقد قرب لنا عالم بيولوجي أمريكي وهو (هـ. مولر) نسبة حجم الحيوان المنوي إلى البويضة، ونسبة الاثنين إلى الأحجام المألوفة على الوجه التالي:

لو أنك جمعت بويضات جميع البشر البالغ عددها (وقت كتابة العالم لكتابه) بليونا ومائتي ألف بويضة، لما شغلت أكثر من (٨/ ٥) من الجالون.

أما نفس العدد من الحيوانات المنوية فحجمها لا يزيد على نصف قرص من الأسبرين!! والمعروف أن البليون: ألف مليون.

التلقيح:

ويمضي العلم في كشف هذه الأسرار فيقول:

«وتبدأ البويضة رحلتها من مبيض الأنثى لتقابل الحيوان المنوي المنتظر لإخصابها في وقت الحيض، حيث ينفجر الكيس المشتمل على البويضة، ثم تبرز البويضة في غشاء بوق فالوب، فتنقلها الأهداب المتحركة للغشاء (السيليا) إلى داخل الرحم».

في هذه المرحلة تكون نواة البويضة قد تعرضت لتغير هام، إذ تكون قد قذفت بنصف مادتها، أو بعبارة أخرى كل كروموزوم، وعندئذ يخترق الحيوان المنوي - الذي يكون بدوره قد فقد نصف كروموزوماته - أسطح البويضة، ويتحد القسم الباقي من كروموزوماته بما بقي من كروموزومات، مكونين بذلك مخلوقا جديدًا مؤلفًا من خلية واحدة، طفحت فوق مخاط المهبل، وليست هذه الخلية الجديدة سوى نقطة من الهلام، كأي خلية أخرى ومع ذلك، فإنها تختلف كل الاختلاف عن أبويها.

إن فيها صفات الأم وفيها صفات الأب، بل فيها كل الأمراض الوراثية للزوجين وأسلافهما، ومع ذلك فهي شيء مستقل الشخصية كل الاستقلال عن الأبوين.

هذه الخلية الميكروسكوبية الأولى: هي الإنسان الخلية، إنها كتاب الكون بكل ما خط في هذا الكتاب من أقسام وأبواب وفصول وصفحات وسطور وكلمات وحروف.

وحسبنا أن نتابع تطور هذه الخلية حتى تكون بشرًا سويًّا، ليتحقق لنا مصداق ذلك. إذ أن من الخلية الأولى تبدأ رحلة الإنسان.

رحلة الإنسان في الخلايا:

إن هذه الخلية الواحدة لا تلبث أن تنقسم إلى خليتين متلاصقتين، تنقسمان بدورهما إلى أربع، فثمان، فست عشرة، فاثنتين وثلاثين.

وعند هذا القدر من الانقسام، ينتهي الدور الأول من أطوار الجنين، الذي يؤلف من نفسه في هذه المرحلة كرة مجوفة مملوءة بالماء من داخلها، ومغمورة بالماء من الخارج، فهو الحياة على صورة النقطة العائمة في الماء.

وتستأنف عملية الانقسام نشاطها طورًا بعد طور، ومرحلة إثر أخرى، فإذا الجنين تارة وقد أصبح تكوينه أكثر ما يكون شبهًا بالدودة (العلقة) وتارة أقرب منها إلى السمكة.

والذي يهمنا أن نشير إليه أن الجنين في ختام الشهر الثاني يكون حجمه قد تضاعف ملايين من المرات، لقد أصبح طول حجمه يناهز البويضة، وقد بدأ خلق الأعضاء وسائر الأجهزة، وأصبح أقرب ما يكون في التكوين إلى الضفدعة.

وفي الشهر الثالث: وإذ نكون قد وصلنا الآن إلى الشهر الثالث، فقد أصبح وزن الجنين أكثر من أوقية، وطوله أكثر من ثلاث بوصات، وكل الأعضاء والأجهزة والأنسجة موجودة، حتى الأعضاء التناسلية والأذرع والأرجل والأظافر قد تكاملت.

وفي الشهر الرابع: وفي الشهر الرابع يهز الجنين الأم بحركاته الأولى التي تتزايد بعد ذلك في اطراد.

وفي الشهر السادس حتى الخروج: فإذا كان الشهر السادس، فقد أصبح طول الجنين (٣٠ سنتيمترا) ووزنه ثلثي كيلو جرام، وبعد (٢٥٢) يومًا، أي: في أواخر التاسع: يكمل نمو الجنين، ويصبح مهيأ للخروج من الجنة التي كان يعيش فيها، حيث يأتيه رزقه رغدًا في كل وقت وآن، بدون جهد أو آلام.

ويقذفه الرحم خارج الجسم!! إنه لم يعد بعد الآن جنينا. إنه طفل الإنسان.

ولما كان الطفل يخرج لأول مرة من المائع الذي كان يعيش فيه، يتغير المحيط من حوله، ويصطدم بالهواء الجوي لأول مرة، وهو ينفذ إلى رئتيه، فيصرخ الطفل من الألم صرخة الحياة، وإعلانا عن بدء مرحلة جديدة من معارك الحياة الظاهرة بعد انتهاء المعركة الباطنة بالانتصار.

مولد الجنين:

وعندما يولد الجنين، فإن وزنه في العادة (٢.٧٥) أو (٣) كيلو جرامات وطوله حوالي (٤٨) سنتيمترا.

وقد حان الآن أن أذكرك أن هذا الحجم الضخم، قد بدأ من هذه البويضة التي كانت (٢٠.٠٠٠.٠٠٠/١) من الأوقية. أي: أنها تضاعفت ألوف الملايين من المرات، ولكي تعرف مدى هذه النسبة التي كانت خلايا الجنين تنمو بها وتتكاثر نقول: «لو فرضنا أن هذا النمو استمر بهذه النسبة عشرين سنة أخرى، لأنتج حجمًا أضخم من المجموعة الشمسية، أي: جسما قطره ملايين الأميال، ولو ظل يتكاثر بنفس النسبة بضع عشرات أخرى من السنين لزاد على المجرات حجما، ولزحم الكون الذي نعرفه، ولكن الحياة لا تمضي في النمو على هذه الوتيرة، فهي لا تلبث أن تقف بمجرد وصولها إلى حد وصورة معينين».

أشكال الخلايا المختلفة:

انقسمت هذه الخلية الأولى لتكون (٢٦) مليون خلية، وكل خلية من هذه الخلايا تقوم بدور يختلف عن دور كل خلية أخرى، وتتشكل تبعًا لذلك تشكلًا خاصًا يمكنها من أداء دورها الخاص.

كيف أن هذه الخلية الأولى التي لا يستطيع الفحص الدقيق أن يفرق بينها وبين خلية السمكة الأولى، أو الخلية الأولى لأي حيوان، تبدأ عند مرحلة معينة في سلم النمو، فيتحول شكلها بحيث تصبح مثمنة أو نجمية أو خيطية أو مستديرة، أو على شكل البسكويت، أو المكعبات أو العصى أو العناكب، أو على شكل القوس أو متفرعة كالشجرة.

فكيف تفرز هذه الخلايا اسمنتا لتربط، أو سائلًا ليتجول فيه بحرية أو تغير مادتها لتصبح غضروفية، أو جيرية لتكون عظامًا، أو تمعن في الصلابة لتكون ميناء الأسنان، ويتحول بعضها إلى زجاج شفاف، والبعض يصبح معتمًا كالحجر، بعضها لا لون له، ونوع أحمر وآخر أسود، خلايا تغص بالتفاعلات الكيميائية الناثرة، كما لو كانت

مصانع وخلايا خامدة، كما لو كانت ميتة، خلايا تمثل آلات الجر الميكانيكي، وخلايا تقوم بدور الدعائم التي تدعم أي بنيان، البعض يصبح نظاما لإعطاء الإشارات الكهربائية، والبعض جهاز للإسعاف والنجدة، وما من خلية من ملايين الملايين هذه إلا وتعد نفسها بالحجم المطلوب في الوقت المحدد، والمكان الواجب أن تكون فيه لأداء الوظيفة المقررة في العضو الذي لن يستعمل إلا بعد فترة معينة، وفي ظروف معينة.

إنها تعمل في الظلام لإنتاج الإبصار الذي يعمل في النور.

إنها تعمل في صمت جهاز السمع الذي يتأثر بالأمواج الصوتية.

إنها خلايا عمياء لا تعرف فوقا ولا تحتًا.

ومع ذلك، فإن خلية الأعصاب تعرف طريقها نحو خلية اللمس في نهاية الأصبع لتتصل بها!! إن كل شيء يبدو كما لو كانت كل خلية تنطوي على مبدأ يلهمها المعرفة اللازمة لتنفيذ تصميم معين على ما يقول (شرنجتون).

بقاء الجسم عند (كاريل):

أما (كَاريل) فيقرب لنا صورة ما يحدث في بناء الجسم، بأن يطلب منا أن نتخيل (طوبة) واحدة تسرع في بناء منزل بمفردها، فتكون من نفسها قوالب أخرى من الطين بالألوف والملايين، وهذه القوالب لا تنتظر رسومات المهندس المعماري، أو مجيء البنائين والفعلة، ولكنها ترص نفسها بنفسها صانعة البلاط، ومكونة الجدران، ومتحولة إلى أبواب ونوافذ وزجاج لهذه النوافذ، وألواح للسقف، وفحم للتدفئة، وبناء المطبخ والحمام.

وينمو العضو بوسائل أشبه بتلك، إنه يوجد بواسطة خلايا عالمة سلفا بالبناء الذي يجب أن تنسقه في المستقبل، فتصنع من المواد الموجودة في بلازما الدم، مواد البناء، بل وتصنع العمال أنفسهم، واستطرد حديث العلم حتى وصل بنا إلى تكوين العين، فما هو ذلك الجهاز الدقيق الذي يبصر به الإنسان الكائنات المرئية؟!

اسمع يا أخي - إلى هذا العجب العجيب، واسجد لله في محراب الشكر والعرفان والخضوع والولاء، هو الذي أحسن كل شيء خلقه، إنه صنع الله وإتقانه.

تكوين العين:

يقول العلماء الكونيون: من مخ الجنين ينشأ برعم صغير، هو الذي يتكون منه الجزء الأكبر من العين، ومن الجلد الذي يغطي هذا البراعم، ينشأ القسم الثاني، هكذا تتعاون خلايا المخ والجلد لتكوين كرة العين المقبلة!

وكرة العين ليست في طبيعتها إلا آلة تصوير صغيرة (إذا جاز لنا أن نعكس التشبيه)، وصغر آلة تصوير العين، هو آية كمالها ودقتها، والدقة التشريحية هنا ضرورية لإمكان أداء وظيفة الإبصار بأكثر من ضرورتها في أي عضو آخر.

إن العين تكون في الظلام، ومع ذلك فكل شيء فيها معد لاستقبال النور، ويوم أن تتعرض للنور، فإن أشعته سوف تخترق عدسة أعدت لذلك في المكان الذي يجب أن تكون فيه، وبالشكل اللازم لتحقيق الغرض المطلوب، وهو الإبصار، فهي (أي العدسة) محدبة من الوجهين، وهي معدة بمنتهى الدقة لجمع أشعة الضوء في البعد الواجب عن لوح الخلايا الحساسة للصورة شبكية العين في المؤخرة.

تدرج عدسة العين:

وقد صنعت هذه العدسة المحدبة الوجهين من خلايا الجلد، ولكن بعد أن تحورت لتكون زجاجًا شفافًا، وأعدت بحيث يكون بقدرتها أن تركز الضوء عبر بؤرتها، هذا الضوء الذي لن تتعرض له العين إلا بعد بضعة أشهر!

وأمام هذه العدسة يقوم حاجز على شكل قرص مستدير للضبط (القزحية) كما هو الشأن في أي آلة تصوير أو ميكرسكوب، وذلك ليضبط اتساع حزمة الضوء الواجبة لإتمام عملية الإبصار، فحيث يقل الضوء، يجب أن تتسع هذه الحدقة لتسمح بمرور حزمة ضوئية أكبر، إما إذا زاد الضوء واشتد فإن حزمة صغيرة منه تكفي لأداء الغرض، ومن هنا تضيق الحدقة.

وفي آلة التصوير أو المجهر، يتم ضبط هذا القرص بواسطة المراقب أو العامل على الآلة؟ أما في العين البشرية، فإن ذلك يتم بطريقة آلية بحتة كأثر مباشر لشدة ضوء الشيء المراد رؤيته.

ولأمر ما، شاء الله أن يجعل هذه القزحية العينية ذات ألوان مختلفة تتدرج من الأسود إلى الأزرق، فالعسلي، تبعا للون قزحية الأبوين، وكلاهما مليء بسائل شفاف لا يعدو أن يكون ماء، ولكنه محفوظ في درجة ضغط معينة، ليحفظ على كرة العين شكلها الذي يجب أن تكون فيه.

وتكمل الغرفة الأمامية بطبقة من الجلد التي تحولت بدورها إلى زجاج شفاف، لتكون نافذة للعين، وهي ما نطلق عليها اسم القرنية، وهذه القرنية خالية تماما من الأوعية الدموية، حتى لا يلقى الدم ظله داخل العين، فتحجب بعض عناصر الصورة.

ويغطي هذا اللوح من الزجاج الشفاف الحي، بطبقة من الدموع المائية التي تتميز بقوة كيمائية خاصة لقتل أي جرثومة يمكن أن تلهب العين أو تؤذيها.

وإذا كان من خصائص جلد الإنسان أن ينطوي على مظاهر الإحساس الأربعة، (من حرارة، وبرودة، وضغط، وألم) فإن هذه القطعة من الجلد الشفاف التي تكون نافذة العين، ليس فيها إلا وجه واحد من وجوه الإحساس، ذلك هو الإحساس بالألم، فلمسها يحدث الألم، لأنها يجب ألا تلمس بحال من الأحوال.

ويتجمع الجلد فوق النافذة وتحتها مؤلفًا أجفانًا متحركة، وهي جافة من الخارج كأي جلد عادي، ولكنها رطبة من الداخل، لكي يكون باستطاعتها دائمًا أن تنظف النافذة من ذرات الأتربة، أو أي جسم غريب قد يقع عليها، وذلك بإمرار طبقة من الدموع المائية فوقها.

صنع الله الذي أتقن كل شيء:

كل ذلك ونحن لم نصل بعد للبناء الرئيسي للعين الذي يقع في مؤخرتها ونعني به شبكية العين، هذه اللوحة الحساسة للضوء، والتي يسجل على صفحتها ملايين الملايين من الصور مدى الحياة كلها بدون حاجة إلى تغيير اللوح كل صباح أو مساء، بل بدون تغيير على الإطلاق، فقد يبدأ الطفل عملية البصر، إلى أن يكون شيخًا هرمًا قادرًا على الإبصار.

ومع ذلك، فهذه اللوحة الحساسة لا تنفك تقوم بعملها ليلاً ونهارًا بغير انقطاع،

فتتلقى مختلف الصور من كل لون وطراز، وتبرق بها إلى المخ، وتنظم هذه الآلة التصوير بطريقة آلية أبعاد بؤرتها تبعا للصورة التي يهمها التقاطها، فتارة تكون العدسات أقوى أو أضعف حسب الحاجة فضلا عن أنها تحرك نفسها بطريقة تلقائية في اتجاه المنظور، فإن أجهزة العين تلاحقه لتقع الصورة دائما على أحسن نقطة للرؤية في الشبكية.

سبحان المبدع:

وأخيرًا فإن آلة التصوير هذه تصمم نفسها كما لو كانت تعمل مقدمًا على حفظ ذاتها، فلو هددها أي خطر، ففي أقل من جزء من الثانية تنطبق الأجفان على بعضها، لتحمي نافذة العين الشفافة!! وفي نفس الوقت الذي تكون فيه كرة العين آخذة في التكوين، فإن أجزاء أخرى من المخ والجلد تكون منشغلة بإعداد العين الذي ستستقر فيه، ولا يكاد البناءان يتكاملان حتى تنفصل كرة العين من الأصل الذي تكونت منه لتستقر في كأسها البصري الجديد.

وفي غضون بضعة أسابيع ينشأ في قاع هذا الكأس البصري: حبل مؤلف من ملايين الألياف العصبية، التي تربط بين المخ والخلايا العصبية في العين.

وينتشر على شبكية العين (٣٧) مليون عنصر مستقل، تعمل كلها لجعل عملية الإبصار ممكنة، وتظل هذه العناصر والأعصاب التي تنقل المؤثرات المختلفة إلى المخ تتركز وتتركز حتى يصبح عددها لا يتجاوز المليون إلا بقليل، وما من عصب في هذا المليون إلا ويعرف مكانه إلى مجمع الأعصاب المناسب، وهي هذه المحطات التي توصل كل منها إلى محطة أبعد منها.

والمخ في حقيقته هو غابة كثيفة متشابكة في محطات التبادل والخطوط الفرعية الذاهبة إلى هنا وهناك؟!

وليست العين في نهاية الأمر سوى حشد من هذه الخلايا الهلامية بتأليف باقي أجزاء الجسم الأخرى، ولكنها نظمت نفسها كما لو كانت هي التي تعمل متعاونة باتفاق مشترك على تنفيذ الخطة الموضوعة، حتى إذا تم تكوين العين فإن هذه الخلايا

التي ظلت تعمل وتنقسم وتتخصص. تقف فجأة عند حد ما أنجزته، فلا تزيد عليه، وتقع في سبات نسبي، فلا تزيد أو تتكاثر أو تتغير.

وقد يتصور القارئ ذلك الذي وصفناه ضربًا من الخيال الفج، أو القصص البارع، ومع ذلك فإن هذا الذي قلناه هو حق لا مرية فيه، إنه الواقع العجيب الذي يحدث إبان تكوين أعضاء الإنسان وأجهزته المختلفة.

فسبحان ربي العظيم!!

القلب ووظيفته:

يحدثنا القرآن الكريم، عن القلب على أنه مركز الوعي والإدراك والفهم العميق، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق: ٣٧].

وقوله جل شأنه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج: ٤٦].

وهناك حديث مادي للعلم يشرح لنا فيه (القلب) على أنه مضخة ماصة كابسة، ومع ذلك فلا يكاد العلم يصف لنا هذه المضخة حتى يتملكنا العجب مما يتملكنا، لو نصفه بمستودع الإلهام والحكمة والعواطف، إجلالا وإكبارا وتعظيما لله، الذي أحسن كل شيء خلقه، إنه صنع الله الذي خلق كل شيء فقدره تقديرًا.

فقد ثبت بالتشريح ووصف الدور الذي يؤديه القلب للإبقاء على الحياة ما يفوق كل تصور وإدراك.

إن القلب يمثل الحركة الدائمة، ما بقي الإنسان حيًّا، فهو الذي يدق، يدق في النوم مثل ما في اليقظة، وفي المرض مثل ما في الصحة وهذه (الدقة) تعني: أن القلب ذلك الجهاز العجيب يقوم بوظيفته الكبرى للإبقاء على حياة الإنسان، فيضخ الدم في الشرايين ويستجلبه من الأوردة.

فلو عاش الإنسان ستين عامًا أو تسعين - أو أكثر من ذلك أو أقل - فإن قلبه لا يتوقف عن الضخ دقيقة واحدة، بل ولا لبضع ثوان، ومعنى ذلك فإن القلب إذا كان يضخ في المتوسط سبعين ضخة، (أو دقة) في الدقيقة فإن ما يضخه (أو يدقه) في العام (٣٧) مليون دقة، فلو أن رجلاً عاش إلى السبعين من عمره، فإن ذلك يعني أن قلبه قد

دق، أو بالأحرى قد ضخ الدم (٢٥٩٠) مليون مرة في اتصال عجيب عبر هذا الزمان الطويل!

فإذا علمت أن أية آلة لا تستطيع العمل بدون انقطاع إلا بضعة أيام على الأكثر ولابد دائما من تعهدا بالصيانة والإصلاح والرعاية، استطعت أن تدرك أي إعجاز آلي يعنيه قلب الإنسان!!

والقلب يضخ في الضخة الواحدة ستين سنتيمترا مكعبًا من الدم، أي يملأ فنجان شاي في كل دقيقة، ومعنى ذلك أنه يضخ (٣٠٠) لتر من الدم في الساعة، أي نحو (٨) آلاف لتر في اليوم، وهو ما يساوي (٨) أمتار مكعبة أو ما يساوي (١٥) طنا من الدم في اليوم الواحد، لا يستهلك منها لنفسه إلا شيئًا يسيرًا جدًّا، ومع ذلك فإن هذا القلب لا يزيد وزنه على نصف رطل في المتوسط ولا يزيد عرضه على (٣.٥) بوصة وطوله خمس بوصات، وسمكه بوصتان ونصف!

فأي سر إلهي عظيم اشتملت عليه هذه الكتلة التي تقوم بهذه الأعمال الحادة، والتي تعجز آلات في حجم الجبال أن تقوم بها؟!!

إنه صنع الله الذي أتقن كل شيء!!

الجهاز العصبي

وينتقل بنا حديث العلم إلى الجهاز العصبي، ذلك الذي تحار فيه عقول المفكرين، وتقف واجمة حياله عبقريات البارعين، فسبحانك اللهم!

يـا مـن يحـار الفهـم في قـدرتك وتطلـب الـنفس حمـى طاعـتك

تخفـى عـن الـناس سـنا صـنعتك وكـل مـا في الكـون مـن صـنعتك!

ماذا يقول العلم عن هذا الجهاز الدقيق المعجز؟

يقول العلم: «إذا كان القلب والدورة الدموية يوحدان الجسم ويربطانه برباط واحد بهذا الدم السائل، فإن الجهاز العصبي هو الوسيط الكهربي الذي يدعم هذه الوحدة ويصونها، بما لا يقل في الأهمية عن دورة الدورة الدموية».

فالإنسان يناضل في سبيل بقائه عن طريق عقله ومخه وأعصابه بأكثر مما يفعل ذلك بجسمه والجهاز العصبي يتألف من جهازين يكمل كل منهما الآخر.

أحدهما: واع موجه تتمثل فيه الإرادة الإنسانية، وأهم أجزائه المخ.

الثاني: لا شعوري آلي ذاتي الحركة يعمل على ضبط مختلف أعضاء الجسم، وهو ما يسمى (الجهاز السمبتاوي)!!

الجهاز المركزي:

يتكون الجهاز الرئيسي أو المركزي من المخ والمخيخ والنخاع المستطيل ويطلق على هذه الثلاثة اسم: الدماغ الذي يحتل الجمجمة، ويبلغ وزنه في الإنسان حوالي ثلاثة أرطال، ثم النخاع الشوكي أو العمود الفقري.

المخ

يقع المخ في أعلى الدماخ ومقدمه، ويشبه في شكله نصف الكرة، وينقسم المخ إلى قسمين: أيمن وأيسر، بكل منها أربع قطع، أو فصوص، واحد مقدمي، وآخر جانبي من الخارج، وثالث: جانبي من الداخل ورابع مؤخري.

وتتكون مادة المخ من مادة ناعمة هشة تتألف من طبقتين:

إحداها: عليا سمراء اللون، عمقها نحو (٤) ملليمترات، وتسمى اللحاء، وتكثر بها الخلايا العصبية والتلافيف والحفر التي يبلغ عمق إحداها بوصة.

الطبقة الثانية: داخلية بيضاء، وتكثر بها الألياف العصبية التي توصل خلايا اللحاء بعضها ببعض، وتحتوي المادة المخية - على ما يقال - على أكثر من (١٢.٠٠٠) مليون خلية وتتصل هذه الخلايا إحداها بالأخرى بواسطة ليف عصبي، ولكل ليف عدة فروع.

وتتصل الخلايا ببعضها عدة آلاف الملايين من المرات بواسطة هذه الألياف.

وهذه الكومة الهائلة من الخلايا الدقيقة والألياف غير المنظورة، تعمل بدقة متناهية، كما لو كانت خلية واحدة، برغم تعقدها الذي لا يمكن تصوره.

والمخ هو المسيطر على المراكز الفعلية، والمسئول عن الأعمال العقلية العليا، ومصدر الأعمال الإرادية، فهو الذي يتسلم الرسائل الحسية من جميع أجزاء الجلد، ومن أعضاء الحس.

وبهذه الطريقة تظل الأوساط العصبية على اتصال دائم بالعالم الخارجي، والمخ هو الذي يرسل الإشارات الحركية إلى العضلات عن طريق الأعصاب المحركة وتسمى الألياف العصبية التي تحمل الرسائل من الحواس إلى المخ، أعصاب الحس أو الأعصاب المرسلة، أما الألياف التي تنقل الرسائل منه إلى العضلات، فتسمى، أعصاب الحركة، أو الأعصاب المرجعة، وهناك ألياف أخرى توصل المراكز والخلايا العصبية بعضها ببعض وتسمى (الروابط).

وتقدر سرعة التيار الذي يحمل الرسائل من المخ وإليه - عن طريق الأعصاب - بنحو ثلاثين مترًا في الثانية الواحدة.

وإذا قورن المخ البشري بالمخ الالكتروني، فإنه يوازي مخًا يحتوي على الأقل (١٥.٠٠٠) مليون أنبوبة الكترونية.

وقد أجرى هذه المقارنة الدكتور/ (جوهانس شالريه) عالم الأبحاث البيولوجية في معهد كاليفورنيا التكنولوجي، الذي يؤكد أن المخ البشري يحتوي على (١٥.٠٠٠) ألف مليون خلية عصبية كل خلية منها تعمل بقوة واحد على ألف مليون من (الوات) وعندما يؤدي المخ عمله ويولد تيارات كهربائية مباشرة ومتغيرة، فإنه يعمل بقوة تتراوح بين واحد على ألفين، وواحدَ على (٢٠٠) ألف من الفولت، بذبذبة تتراوح بين (٨) إلى (١٤) سيكل في الثانية!!

مراكز الإحساس والحركة بالمخ:

واللحاء، أو قشرة المخ وسطحه، هو مركز الأعمال الفكرية، كما أسلفنا، وقد توصل العلماء منذ أوائل القرن العشرين إلى تحديد مناطق خاصة في اللحاء يتحقق بها الإدراك لمختلف الحواس، وتنبعث منها الحركة إلى سائر أنحاء الجسم.

أقسام مراكز المخ:

وقد قسمت مراكز المخ ومناطقه إلى ثلاث:

١- حسية.

٢- حركية.

٣- مشتركة.

فأما الحسية: فتشمل مراكز السمع، والبصر، والذوق والشم والحس.

وأما الحركية: فهي التي تصدر منها أعصاب الحركة الموصلة للأعضاء، كاليد والرجل، والوجه، والعنق، واللسان.

ويدخل في هذه: مراكز للشعور بحركة الجسم.

وأما المراكز المشتركة: فهي التي تحتفظ بآثار المراكز السابقة، وتنتفع بها في الفكر والتخيل والتذكر.

ويقع مركز البصر في مؤخر اللحاء من أسفل، وخلف مركز الذوق يقع مركز السمع، ويقع فوق الأذن تقريبًا.

وبين مركزي البصر والسمع، مركز الكلمات المرئية، والكلمات المسموعة: كل بجانب المركز الذي يلائمه.

ومركز الأفكار السامية في أعلى المقدم إلى الإمام ويقع خلفه مركز الكتابة، فمركز الكلام.

وفي الجهات الباقية من أعلى اللحاء وأوسطه. تقع مراكز الحركة والإحساس العضلي، والشعور بحركات الجسم، على هذا الترتيب، من الأمام إلى الخلف.

ويقع مركز حركات الرأس إلى الأمام، وخلفه مركز حركات الرجل واليد والوجه، على الترتيب من أعلى إلى أسفل.

وتحت مركزي حركات الرأس والوجه، يقع مركز حركات اللسان والشفتين.

وهذه المراكز تقع في كل من جانبي المخ.

ولكن مراكز الجانب الأيسر هي مراكز الحس والحركة للقسم الأيمن من الجسم

وبالعكس.

وقد أمكن التوصل لمعرفة هذه المراكز عن طريق التجارب التي دلت على أن أي خلل يحصل لأحد هذه المراكز: يستتبعه - على الفور - حدوث شلل في العضو المتصل به، وضربة شديدة على مركز الكلام مثلًا، تسبب تعقدًا دمويًا قد يمنع المريض عن الكلام حتى يذهب هذا التعقد.

ومع عدم القدرة على الكلام يظل الشخص المصاب يسمع ويرى ويكتب ما يريد، إذا لم تكن مراكز السمع أو البصر أو الكتابة قد أصيبت بأذى.

المخيخ

يقع المخيخ: تحت المخ. وفوق النخاع المستطيل وخلفه. وفي أسفل مؤخرة الجمجمة، ويتكون - مثل المخ - من طبقتين:

- طبقة سطحية سمراء اللون تكثر بها الخلايا، وبها قليل من التلافيف.
- وطبقة داخلية بيضاء اللون، وتكثر بها الألياف العصبية.

وينقسم (المخيخ) إلى ثلاثة فصوص، واحد في كل جانب والثالث في الوسط، وهو أصغر من الأولين ويسمى بالدودة.

ومهمة المخيخ أن يقوم بمساعدة المخ: بضبط العضلات وتنظيم حركاتها لكي تحفظ توازن الجسم.

فإذا حصل خلل في المخيخ: اضطربت حركات الشخص وسكناته، وراح يتمايل تمايل الثمل ويؤدي المخيخ عمله بطريقة آلية بحتة. ولا يتدخل المخ في شئونه إلا عند الحركات الإرادية الشعورية: كتعلم المشي للطفل.

النخاع المستطيل

ثم يأتي النخاع المستطيل، وهو في الحقيقة امتداد للنخاع الشوكي بحيث يمكن اعتباره جزءًا منه.

ويملأ الجزء الواقع أمام المخيخ وتحته في أسفل الجمجمة وتحت المخ.

ويتكون - على عكس المخ والمخيخ - من مادة بيضاء اللون بداخله، أما الألياف فتكثر في طبقته الخارجية.

ويقوم النخاع المستطيل بتنظيم الحركات الآلية الداخلية، كالدورة الدموية، وعملية التنفس، والهضم، ويساعد النخاع المستطيل: (العصب السمبتاوي) في القيام بوظيفته.

النخاع الشوكي

يملأ القناة الشوكية التي في العمود الفقري، ويتألف من مادة تسمى (النخاع الشوكي) ومن الممكن اعتباره أغلظ عصب في الجسم ويبلغ طوله نصف متر.

ويتكون مثل النخاع المستطيل - من مادة بيضاء سطحية، وأخرى سمراء داخلية، فخلاياه العصبية في الداخل وأليافه في الخارج، إلا أن المادة السمراء الداخلية تقل بالتدريج حتى تنعدم في الثلث الأسفل.

وتخرج من كل من جانبي النخاع الشوكي: أعصاب تذهب إلى جميع أجزاء الجسم فتوصله بالمخ والحواس والعضلات، ووظيفة النخاع الشوكي: هي القيام بالأعمال المنعكسة، مما سنتحدث عنه في الفصل التالي إن شاء الله.

الأعصاب

وتكون الأعصاب: الجهاز الدائري للجسم، والعصب: مجموعة من الألياف العصبية المتفرعة من خلايا مختلفة.

وتنقسم الأعصاب إلى ثلاثة أقسام، هي:

١- **أعصاب حس**: أو أعصاب مرسلة: وهي التي تحمل الآثار من الحواس وباقي الجسم إلى المراكز العصبية العليا أو السفلى.

٢- **أعصاب الحركة**: أو أعصاب مرجعة: وهي تنقل الرسائل من المراكز العصبية إلى العضلات، فتقوم هذه بعملها حسب إشارة المراكز العصبية.

٣- **أعصاب مشتركة**: أو وصلية: وهي التي توصل المراكز العصبية بعضها ببعض، أو

تقوم مقام أعصاب الحس والحركة، وقد تكون الرسالة التي عملها: رسالة من مركز إحساس وقد تكون من مركز حركة.

وهذه الأعصاب كلها متصلة بالمجموعة المركزية، أي: الدماغ والنخاع الشوكيّ؛ ولذلك: فهي تنقسم إلى قسمين:

- قسم دماغي.
- وقسم شوكي.

أما الأعصاب الدماغية: فيخرج بعضها من المخ، والبعض الآخر من النخاع المستطيل، ثم تذهب إلى الحواس والعضلات.

وأما الأعصاب الشوكية فتخرج من النخاع الشوكي خلال ثقوب على جانبيه واقعة بين الفقرات.

وهذه الأعصاب تذهب إلى الجلد والحواس والعضلات: ففروع الحس تذهب إلى الجلد والحواس، وفروع الحركة تذهب إلى العضلات لتأمرها بالحركة عند الطلب.

الجهاز العصبي الآلي.. أو السمبتاوي

وإلى جوار الجهاز العصبي الرئيسي أو المركزي، يقوم الجهاز العصبي الآلي، وهو الذي يمكن كل عضو من أعضاء الجسم الداخلية من التعاون مع الجسم كل في معاملاته مع العالم الخارجي.

ويتكون هذا الجهاز من عقد عصبية ممتدة على جانبي العمود الفقري، وكل عقدة تتصل بما فوقها وبما تحتها من أعصاب، بحيث تكون هذه العقد والأعصاب ما يشبه حبلين معقدين ممتدين على جانبي العمود الفقري، ثم يلتقيان على مقربة من أسفل العمود الفقري، ويكونان حبلًا واحدًا أو سلسلة واحدة، وتتصل الأعصاب الشوكية بهذه العقد بعد خروجها من النخاع الشوكي بقليل، وترسل هذه العقد خيوطها وأليافها إلى الأعضاء الباطنية: كالقلب والرئتين والكبد والكليتين.

ويطلق على الأعصاب السمبتاوية أو الآلية لمناطق الرأس والحوض: اسم

(بارا سمبتاوية) أما تلك الخاصة بالظهر فتسمى (السمبتاوية).

ويتلقى كل عضو من أعضاء الجسم تأثيرين مختلفين من هذين النوعين من الأعصاب في وقت واحد.

(فالباراسمبتاوية) تبطئ القلب، في حين أن السمبتاوية تزيد من سرعته، والأولى تمدد حدقة العين، بينما تسبب الأخيرة تقلصها، وهكذا، وتبعا لسيطرة أحد هذين الجهازين والآخر، تكتسب المخلوقات الحية أمزجتها المختلفة.

ودورة كل عضو خاضعة لتنظيم هذه الأعضاء.

فالأعصاب (السمبتاوية) تحدث ضيق الشرايين واصفرار الوجه، كما يلاحظ عند الانفعال وعند الإصابة بأمراض معينة.

سيطرة الجهاز العصبي على الجسم:

بهذين الجهازين العصبيين: (المركزي، والسمبتاوي) تتحقق للإنسان - بإذن الله تعالى وإرادته - سيطرته الكاملة على جسده.

عبادَ الله...

هذا هو الإنسان، الذي إن دل خلقه على شيء، فإنما يدل على وجود الله ووحدانيته وعلمه وإرادته وقدرته!

تباركت ربنا وتعاليت!!

يا من قلت وقولك الحق: ﴿**وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الـمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا العِظَامَ لَـحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الخَالِقِينَ**﴾ [المؤمنون: ١٢- ١٤]» ا.هـ[١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «في رحاب التفسير» (٢٧٦٤ - ٢٧٧٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفي حديث بسر بن جحّاش الذي مرّ بنا في بداية هذه الخطبة دعوةٌ إلى الإنفاق في سبيل الله قبل حضور الموت، أو قبل بلوغ الروح الحلقوم.

وفيه تحذير من البخل والإمساك.

وفضائل الصدقة يضيق المقام عن ذكرها وحصرها، لكن يكفي أن نذكر هنا حديثين:

الأول: عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا بَقِيَ مِنْهَا». قَالَتْ: مَا بَقِيَ مِنْهَا إِلاَّ كَتِفُهَا. قَالَ: «بَقِيَ كُلُّهَا غَيْرَ كَتِفِهَا»[1].

الحديث الثاني: عن أبي بَرزَة الأسلميّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ العَبدَ ليتصدَّق بالكِسرة تربو عند الله عز وجل حتى تكون مثل أُحُد»[2].

اللَّهُمَّ وفِّقنا لأحسنِ الأعمال، لا يُوفِّق لأحسَنِها إلَّا أنت

❁❁❁❁❁

---

(١) **صحيح:** رواه الترمذي، ومعناه: أنهم تصدّقوا بها إلّا كتفها.

(٢) **حسن:** رواه الطبراني في «الكبير».

الخطبة الثانية والستون:

سعة رحمة الله تعالى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن من رحمة الله بعباده: أن شرع لهم التوبة من الذنوب، كبيرها وصغيرها.

ومن رحمته أيضًا: أن وفّق عباده لها.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا﴾ [التوبة: ١١٨].

وقد كان بعض الصَّالحين يقول: «اللهم تُب علينا لِنتوب».

ومن رحمته كذلك: أن قَبِلَها منهم، إذا توفّرت شروطها(١):

---

(١) شروط التوبة: الندم، الإقلاع عن الذنب، الإصرار على عدم العودة، ردّ المظالم.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومن رحمته أيضًا: أَنَّهُ يفرح بتوبة التائب أكثر مِن الظمآن الوارد، ومن الضالّ الواجد، ومن العقيم الوالد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حَيْثُ يَذْكُرُنِي، وَاللَّهِ للهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ يَجِدُ ضَالَّتَهُ بِالْفَلَاةِ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِذَا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشِي أَقْبَلْتُ إِلَيْهِ أُهَرْوِلُ[(١)]»[(٢)].

وعَن أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلَاةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ. أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»[(٣)].

عباد الله...

ونحن اليوم على موعد مع قصّة صحيحة تفتح باب الأمل أمام العُصاة مهما بلغت جرائمهم، شريطة أن يتوبوا توبةً نصوحًا.

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنَ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: لاَ. فَقَتَلَهُ، فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟! انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ

(١) مذهب أهل السُّنَّة والجماعة في هذه الصفة وغيرها: أن نثبتها لله حقيقة، ونفوض كيفيتها، مع الإيمان بأنها كيفية تليق بجلاله ولا تماثل مخلوقاته.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ.

فَانْطَلَقَ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله. وَقَالَتْ مَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ.

فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهُوَ لَهُ. فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ».

قَالَ قَتَادَةُ: فَقَالَ الْحَسَنُ: ذُكِرَ لَنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ(١).

وفي رواية: «فَلَمَّا كَانَ فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَأَى بِصَدْرِهِ(٢)، ثُمَّ مَاتَ فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلاَئِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلاَئِكَةُ الْعَذَابِ فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَبَ مِنْهَا بِشِبْرٍ فَجُعِلَ مِنْ أَهْلِهَا»(٣).

عباد الله...

وقعت أحداث هذه القصّة بعدَ رفعِ عيسى عليه السلام(٤)، ومُلخَّصُها:

أنَّ رجلًا من بني إسرائيل(٥) قتل تسعة وتسعين نفسًا ولكنه ندم، فهاهو يستجيب لنداء الفطرة ويبحث عن أعلم أهل الأرض لعله يطمعه في رحمة الله تعالى ومغفرته ولا يجعله ييأس، فدلّوه على راهبٍ، وليس الراهب على قدر من العلم ولكن عكوفه على العبادة في صومعته جعله في نظرهم أقرب إلى العلماء، يا لها من مشكلة عظيمة حين سدّ الراهب في وجهه باب التوبة فقتله وأكمل به المائة.

إنه مريضٌ يحتاج إلى طبيب ماهر، وعالمٍ ذي حكمة، لقد ظلّ يسأل عن أعلم أهل الأرض فدلّوه هذه المرة على عالمٍ أحيا الأمل في نفسه ولم يُقنِّطه من رحمة ربه، وإنما قال

---

(١) رواه مسلم (٢٧٦٦).

(٢) ناء: بَعُد، أو المعنى مَالَ أو نَهَض مع تَثَاقل.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٤) يدل على ذلك قول النبي ﷺ: «فدُلَّ على رَاهب»، والرهبانية ابتدعها أتباعُ عيسى عليه السلام.

(٥) جاء في «صحيح البخاري»: «كان في بني إسرائيل رجل...».

له: «ومَن يحولُ بَينك وبَين التَّوبة؟!». إنه لا أحدٌ يحول بينك وبين التوبة، نعم فالتائب حَبيب الرَّحمن، ولكن علاجه لا يَكمُل إلا بالابتعاد عن هذه القرية التي عَصَى الله فيها بهذه الكبيرة المتكررة، لقد أشار عليه أن يذهب إلى قرية صالحة (نَصْرَة)(١) يَعبُد الله فيها مع قوم صالحين، فتاب الرجل، وحَسُنت توبته، وعزم على الطاعة، وسار في طريقه، وقد صحّح نيّته، وأحسّ بميلاده من جديد.

وفي الطريق أتاه مَلَكُ الموت لقبض روحه، فلما أحسّ بِدنُو أجَلِه، نَهَض مُتثاقِلًا ومَالَ بِصَدره إلى الأرض التي نَوَى الطَّاعة والإقامة فيها(٢).

فلما قبض مَلَك الموت روحه، اختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، «فَقَالَتْ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلاً بِقَلْبِهِ إِلَى الله. وَقَالَتْ مَلائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ. فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ(٣) فَقَالَ: قِيسُوا مَا بَيْنَ الأَرْضَيْنِ فَإِلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى(٤) فَهُوَ لَهُ، فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فَقَبَضَتْهُ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ».

وفي رواية: «فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلائِكَةُ الْعَذَابِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي. وَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي. وَقَالَ قِيسُوا مَا بَيْنَهُمَا. فَوُجِدَ إِلَى هَذِهِ(٥) أَقْرَبُ بِشِبْرٍ، فَغُفِرَ لَهُ».

سُبحانك رَبِّي.

نَظْرة مِن فَيض جُودِك تَملأ الأرض رِيًّا، ونَظرة بِعَين رِضاك تجعل الكافر وَليًّا!

سُبحانك رَبِّي ما أكرَمَك.

ما أحلمك! ما أرحمك!

تَهب الكثير وتَجبر القلبَ الكسير.

---

(١) كذا اسم القرية في «فتح الباري» (٦/ ٥٩٧).

(٢) مع «قصص البخاري» (٢٥) د. حلمي السيد أبو الحسن، مع إضافة.

(٣) أي: حَكَمًا بينهم.

(٤) أدنى: أقرب.

(٥) إلى الأرض التي أراد.

لو يعلم الُمدبِرون عَنْكَ، كيف انتظارك لهم ورِفقك بهم وشَوقك لِتَرك ذنوبهم، لماتوا شوقًا إليك، ولتقطعت أوصالهم من محبَّتك.

إذا كان هذا شأنك بالمدبرين عنك، فكيف يكون شأنك بالُمقبلين عليك؟!

سُبْحانَك من خلق الأشياء مُقتدرًا ... ومَن يَجُود على العاصي ويَستُره

يُخفي القَبيح ويُبدي كُل صالحه ... ويَغمر العَبد إحسانًا ويشكره

ويغفر الذنب للعاصي ويَقبله ... إذا أناب وبالغفران يَجبره

ومَن يَلُوذُ به في دَفع نائبة ... يُعطيه من فضله عِزًّا ويَنصره

ولا يُضِيع مِثقالاً لمجتهد ... بل في المآل يُربِّيه ويدّخره

ومَن يكن قلبُه بالذنب قد دنا ... فبالمدامع والتقوى يُطهّره

وليس للعبد تصريف وإن له ... مَولاه إن شاء يُغنيه ويفقره

فلا حَذَر يُنجِّي لِعَبدَ مِن قَدرٍ ... يُريده الله أو أمر يُدبّره

فنسأل الله حقًّا حُسن خاتمة ... عند الممات وصَفوًا لا يكدّره

أيها المسلمون...

إنها حقًّا رحمة الله الواسعة، التي امتدت إلى إنسان أغواه شيطانُه، وأضلّه هواه، وأعماه طيشه، وأعانه على الإفساد قرناءُ سوء.

قتل تسعة وتسعين نفسًا، ثم أكمل بالرَّاهب الجاهل مائة.

وكان عددُ القتلى يزداد ويتضاعف، فالرجل أحسّ بعد فتوى الرّاهب أن عذاب الله ينتظره، وأن رحمة الله لن تناله.

ولكن الله تعالى برحمته قيّض له أحد العلماء، فكسر له حاجز اليأس، وفتح له باب الأمل، وبيّن له أن رحمة الله أوسع من ذنوبه، فكان هذا العالِمُ أحد مفاتيح الخير.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ هَذَا الخَيْرَ خَزَائِنُ وَلِتِلْكَ الْخَزَائِنِ، مَفَاتِيحُ فَطُوبَى لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا لِلْخَيْرِ مِغْلاَقًا لِلشَّرِّ، وَوَيْلٌ لِعَبْدٍ جَعَلَهُ اللَّهُ مِفْتَاحًا

لِلشَّرِّ مِغْلاَقًا لِلْخَيْرِ»[١].

ولما علم الرجل المسرف على نفسه أنَّ حبل الرحمة ممدود، وأن الأمل موجود، وأن باب التوبة لم يُغلق، انتفض تائبًا، وشدّ رحاله تاركًا أرضه إلى أرض الصالحين، مُنيبًا إلى ربِّه بِقلبه.

وبينما هو في الطريق يحدوه الأمل في نيل رحمة واسِعَ المغفرة، مات، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب - كما تقدم - وفي النهاية نال حُسن الخاتمة، وجاءت نهايته كما بيَّنها النبي ﷺ بقوله: «فَغُفِرَ لَهُ».

﴿ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠].

إنها ضربة قاسية، قَصَم الله بها ظهر إبليس.

عن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ لاَ أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلاَلِي لاَ أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي»[٢].

يا ربِّي إن عَظُمت ذُنوبي كَثْرة ... فلقد علمتُ بأنَّ فَضلك أعظَمُ

إن كان لا يَدعُوك إلا مُحسنٌ ... فَبمن يلوذ ويستجِير المجرمُ

أدعوك رَبِّي كما أمَرتَ تَضرّعًا ... فإذا رددتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ؟!

ما لي إليك وسيلة إلا الرَّجا ... وجميل عفوك ثم إني مُسلِم

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) حسن: انظر «صحيح سنن ابن ماجه» (١٩٦).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وغيره، وانظر «السلسلة الصحيحة» برقم (٢٠٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعض الناس يظن أن عرض هذه القصة يقوّي ظهر الفُجَّار، ويطيل الحبل للأشرار، ويساعد على اتِّساع رقعة الفساد.

وهذا ظن خاطئ، فالعيب ليس في عرض القصة، وإنما العيب فيمن أساء عرضها دون إلمامٍ بمعانيها، وإيضاحٍ لمراميها، فالهدف من القصّة ظاهر وهو:

أولاً: بيان سعة رحمة الله:

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا** ﴾ [الزمر: ٥٣]، قال: «قد دعا الله تعالى إلى مغفرته مَن زعم أن المسيح هو الله، ومَن زعم أن المسيح هو ابن الله، ومَن زعم أن عُزيرًا ابن الله، ومَن زعم أن الله فقير، ومَن زعم أن يد الله مغلولة، ومَن زعم أن الله ثالث ثلاثة، ليقول الله تعالى لهؤلاء: ﴿ **أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [المائدة: ٧٤]، ثم دعا إلى التوبة مَن هو أعظم قولًا من هؤلاء، مَن قال: ﴿ **أَنَا رَبُّكُم الأَعْلَى** ﴾ [النازعات: ٢٤]، وقال: ﴿ **مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي** ﴾ [القصص: ٣٨].

قال ابن عباس: «مَن آيس عباد الله من التوبة بعد هذا، فقد جحد كتاب الله عز وجل»[١].

ثانيًا: بيان قبول التوبة من جميع الكبائر بما فيه القتل:

وهذه القصّة أصل عظيم في الدِّلالة على قبول التوبة من المذنب، وإن تفاحش ذَنبهُ، وتعاظم إثمهُ، طالما حَسُنت سريرته، وصَلُحت علانيته.

وها هو الله تعالى يقول: ﴿ **وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي**

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٨٩ - ٩٠).

حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان: ٦٨- ٧٠].

قال الإمام النووي - رحمه الله تعالى -: قوله ﷺ: «إنَّ رجلًا قتل تسعًا وتسعين نفسًا، ثم قتل تمام المائة، ثم أفتاه العالم بأن له توبة» هذا مذهب أهل العلم وإجماعهم على صحة توبة القاتل عمدًا، ولم يخالف أحد منهم إلا ابن عباس.

وأما ما نُقل عن بعض السَّلف من خلاف هذا فمراد قائله الزَّجر عن سبب التوبة، لا أنه يعتقد بطلان توبته، وهذا الحديث ظاهر فيه وهو وان كان شرعًا لمن قبلنا وفى الاحتجاج به خلاف، فليس موضع الخلاف، وانما موضعه اذا لم يرد شرعنا بموافقته وتقريره فإن ورد كان شرعًا لنا بلاشك وهذا قد ورد شرعنا به وهو قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ ﴾ الآية [الفرقان: ٦٨ - ٧٠].

وأما قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا ﴾ [النساء: ٩٣]، فالصواب فى معناها: أنَّ جزاءه جهنم، وقد يُجازى به وقد يجازى بغيره وقد لا يجازى بل يعفى عنه، فإن قتل عمدًا مستحلًا له بغير حق، ولا تأويل، فهو كافر مرتد يخلد به فى جهنم بالإجماع.

وإن كان غير مُستحلّ، بل معتقدًا تحريمه، فهو فاسق عاص مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدًا فيها، لكن بفضل الله تعالى أخبر أنه لا يخلد مَن مات موحِّدًا فيها، فلا يخلد هذا ولكن قد يُعفى عنه فلا يدخل النار أصلًا، وقد لا يُعفى عنه بل يُعذَّب كسائر العُصاة الموحِّدين ثم يخرج معهم إلى الجنة ولا يخلد فى النار. فهذا هو الصواب فى معنى الآية» ا.هـ[1].

فإن قيل: وكيف تُقبل توبة العبد القاتل وفي عُنقه حقوق لبني آدم، وشرط التوبة ردّ المظالم إلى أهلها؟

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢٣٦).

ويجاب عن هذا: بأن الله تعالى إذا رضي عن العبد وقَبِل توبته أرضى عنه خصومه(١).

ثالثًا: فتح باب الأمل أمام العُصاة:

عن أبي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**كَانَ رَجُلاَنِ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مُتَآخِيَيْنِ فَكَانَ أَحَدُهُمَا يُذْنِبُ وَالآخَرُ مُجْتَهِدٌ فِي الْعِبَادَةِ، فَكَانَ لاَ يَزَالُ الْمُجْتَهِدُ يَرَى الآخَرَ عَلَى الذَّنْبِ فَيَقُولُ: أَقْصِرْ. فَوَجَدَهُ يَوْمًا عَلَى ذَنْبٍ فَقَالَ لَهُ: أَقْصِرْ، فَقَالَ: خَلِّنِي وَرَبِّي أَبُعِثْتَ عَلَيَّ رَقِيبًا؟! فَقَالَ: وَاللَّهِ لاَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ أَوْ لاَ يُدْخِلُكَ اللَّهُ الْجَنَّةَ.**

فَقُبِضَ أَرْوَاحُهُمَا، فَاجْتَمَعَا عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ فَقَالَ لِهَذَا الْمُجْتَهِدِ: أَكُنْتَ بِي عَالِمًا أَوْ كُنْتَ عَلَى مَا فِي يَدِي قَادِرًا؟ وَقَالَ لِلْمُذْنِبِ: اذْهَبْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ بِرَحْمَتِي، وَقَالَ لِلآخَرِ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى النَّارِ».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْبَقَتْ(٢) دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ(٣).

رابعًا: الحدّ من انتشار الجريمة، وتضييق رُقعة الفساد:

وهذا سرٌّ عظيم من أسرار قبول التوبة، فالتوبة النصوح تَكبَح جِماح النفس، وتقتل نوازعَ الشر فيها، فهي بمثابة الحَجر الصِّحي الذي يُبنى للحدِّ من انتشار المرض الفتَّاك.

خامسًا: تحذير الناس من الإفتاء بغير علم:

كما فعل الراهب الجاهل مع القاتل، حين أفتاه بعدم قبول توبته، فكانت فتواه المشئومة سببًا في إنهاء حياته، ليصل عددُ القتلى به إلى مائة.

سادسًا: الحث على ملازمة الأخيار، والتحذير من مصاحبة الأشرار:

يدلّ على ذلك قول العالِم للقاتل: «**انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ**

---

(١) انظر «الكرماني بشرح البخاري» (١٤/ ١٠٢).

(٢) أوبقت: أهلكت وأفسدت.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٣٢٣)، وأبو داود (٤٩٠١)، وغيرهما.

اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلاَ تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ».

سابعًا: بيان فضل العالِم على العابد:

قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «تَذَاكُرُ العِلم بَعض ليلة أحبّ إليَّ من إحيائها»[(١)].

عباد الله...

هذه بعض الأهداف المستفادة من القصة، فلتكن نصب أعيننا، ونسأل الله تعالى أن يغفر لنا ذنوبنا، ويكفِّر عنَّا سيئاتنا.

❁❁❁❁❁

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٨) لابن عبد البرّ.

الخطبة الثالثة والستون:

خطبة عيد الفطر المبارك

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلِل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمّا بعد...

الحمد لله ربّ العالمين، أحَقُّ مَنْ ذُكِر، وَأَحَقُّ مَنْ عُبِد، وأرأف مَنْ مَلَك، وأعدلُ مَنْ حَكَم، وأجودُ من سُئِل، وأوسع من أَعْطَى.

يارب...

القلوب لك مُفْضِية، والسِّرّ عندك علانية، الحلال ما أَحْلَلْتَ والحرام ما حَرّمت،

والدِّين ما شرعت، الخَلْق خَلْقك، والعبد عبدك، ولا إله إلاَّ أنت.

والله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله، فَتَحَ بَابَ الأَمَلِ أمام العاصين فقال في الحديث الْقُدْسِي: «**يا ابْن آدمَ، لو بَلَغَتْ ذنوبُك عَنَانَ السَّمَاءِ ثم اسْتَغْفَرْتَنِي غفرتُ لك. يا ابن آدمَ، إنّك لو أتيتني بِقُرابِ الأرضِ خطايا ثم لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بي شيئًا لأتيتُك بِقُرابها مَغْفِرَةً**»[١].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله...

الرحمةُ المهداة، والنّعمة المسداة، أرسله الله بالحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

اللهم صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، ومن سار على نهجه، واقتفى أثره واتبع هديه إلى يوم الدين.

أما بعد...

فعنوانُ خطبة اليوم: **السّعادة الحقيقية**.

عباد الله...

كل إنسان في هذه الحياة يبحث عن السّعادة والطريق إليها.. فمنهم من أصاب هَدَفَه، ومنهم من خاب سَعْيُه، وأخطأ هدفه. **فالناس في طلبهم للسعادة ينقسمون إلى قسمين:**

قسم: بحث عن السعادة في لذّةٍ مؤقتةٍ، وشهوةٍ حاضرة، كل همّه: إشباع بطنه، وإرواء فرجه، وإرضاء نزواته. يطئون على كُلِّ فضيلة، وَيُهْرَعُون إلى كل رذيلة. وهؤلاء أتعس عباد الله:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ، وَعَبْدُ الخَمِيصَةِ**[٢]**، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ**[٣]**، وَإِذَا شِيكَ فَلَا**

---

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) الخميصة: ثوب معلّم من خزّ، أو صوف.

(٣) انتكس: انقلب على رأسه خيبة، وخسارًا.

انْتَقَشَ[١]، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ، لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ»[٢].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي جَهَنَّم صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ له:

يَا ابْنَ آدَمَ، هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ.

وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ فِي الْجَنَّةِ صَبْغَةً، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَبِّ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»[٣].

وقرأ الحسنُ البصري - رحمه الله - قول الله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾ [الأحزاب: ٧٢].

ثم قال: «إن قومًا غَدَوا في المطارف العتاق[٤]، والعمائم الرِّقاق، يطلبون الإمارات، ويضيّعون الأمانات، يتعرّضون للبلاء وهم منه في عافية حتى إذا أخافوا مَنْ فوقهم من أهل العِفَّة، وظلموا مَنْ تحتهم من أهل الذِّمّة، أَهْزَلُوا دِينَهم وأسْمنوا بَراذِينَهم[٥]، ووسّعوا دورهم وضيّقوا قبورهم.

ألم ترهم قد جدَّدوا الثِّيابَ وأَخْلَقُوا الدِّين، يتكئُ أحدُهم على شماله فيأكل من غير ماله، يدعو بِحُلْوٍ بعد حَامِضٍ، وبحارٍّ بعد بارد، وَبِرَطْبٍ بَعْدَ يابس. حتى إذا أخذته الكظَّة[٦]، تجشّأ من الْبشم[٧] ثم قال: يا جاريتي، هاتي حُلْوًا ما يهضم الطعام.

---

(١) وإذا شيك فلا انتقش: إذا أصيب فلا انجبر.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه أحمد ومسلم وغيرهما.

(٤) **المطارف**: أثواب من خز.

(٥) **البراذين**: الخيول.

(٦) **الكظة**: الشّبع.

(٧) **البشم**: امتلاء البطن.

يا أُحَيْمَق: لا والله ما يُهْضمُ إلّا دينك، أين جارُك؟ أين يَتيمك؟ أين مِسْكينك؟ أين ما أَوْصَاكَ اللَّهُ ﷻ به؟

عباد الله...

هذا قسم: تلاعب الهوى برءوسهم، وضحك الشيطان عليهم، وغرتهم الحياةُ الدنيا، فخسروا الدارين، وذلك هو الخسران المبين.

أما القسم الثاني: فبحثوا عن السعادة الحقيقية، فوفقهم اللَّهُ تعالى برحمته إليها.

فرأوا السعادة في صيامهم لربهم، وقيامهم بين يديه، فأسهروا ليلهم وأظمئوا نهارهم. فشفع لهم الصيامُ، وشفع لهم القرآنُ.

فعن ابن عمر - رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «**الصِّيَامُ وَالْقُرْآنُ يَشْفَعَانِ لِلْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ الصِّيَامُ: أَيْ رَبِّ مَنَعْتُهُ الطَّعَامَ والشّهوةَ فَشَفِّعْنِي فِيهِ. وَيَقُولُ الْقُرْآنُ: مَنَعْتُهُ النَّوْمَ بِاللَّيْلِ فَشَفِّعْنِي فِيهِ، قَالَ: فَيُشَفَّعَانِ**»[1].

ورأَوْا السعادة في الإقبال على ربِّهم والطمأنينة إليه، وإفراده تعالى بالحبّ والخوف والرّجاء، والتوكّل والمعاملة، فأطالوا السجود بَين يديه، وأطلقوا الألْسنَ بِذِكْرِه والدّعْوةِ إليه: فجزاهم ربُّهم في الدنيا سعادةً وسرورًا، وزادهم في الآخرة جَنَّةً وحريرًا.

قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً**﴾ فهذا في الدنيا، ثم قال: ﴿**وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: ٩٧] فهذا في البرزخ والآخرة.

وقال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: ٤١].

وقال تعالى: ﴿**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ**﴾ [هود: ٣] فهذا في الآخرة.

وقال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ**

---

(١) صحيح: رواه أحمد والطبراني في «الكبير»، وغيرهما، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٧٣).

وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠].

قال الإمامُ ابن القيم - رحمه الله - عقب هذه الآيات: «فهذه أربعة مواضع ذكر الله تعالى فيها أنه يجزي المحسن بإحسانه جزاءين: جزاء في الدنيا وجزاء في الآخرة.

فالإحسان له جزاء معجل ولابد، والإساءة لها جزاء معجل ولابد. ولو لم يكن إلا ما يجازي به المحسن من انشراح صدره في انفساح قلبه وسروره ولذاته بمعاملة ربه ﷻ وطاعته وذكره ونعيم روحه بمحبته[1].

وذكره وفرحه بربه سبحانه وتعالى أعظم مما يفرح القريب من السلطان الكريم عليه بسلطانه. وما يجازي به المسيء من ضيق الصدر وقسوة القلب وتشتته وظلمته وحزازاته وغمه وهمه وحزنه وخوفه[2] وهذا أمر لا يكاد من له أدنى حس وحياة يرتاب فيه، بل الغموم والهموم والأحزان والضيق عقوبات عاجلة ونار دنيوية وجهنم حاضرة، والإقبال على الله تعالى والإنابة إليه والرضاء به وعنه وامتلاء القلب من محبته واللهج بذكره والفرح والسرور بمعرفته ثواب عاجل وجنة وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة.

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه - يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة. وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة.

وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة. أو قال: ما جزيتهم على ما تسببوا لي فيه من الخير ونحو هذا. وكان يقول في سجوده وهو محبوس: «اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك ما شاء الله» وقال لي مرة: المحبوس من حُبس قَلْبُه عن رَبِّه تعالى. والمأسور من أسره هواه. ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ

(١) قد سقط من هذا جواب لو.. وتقديره: لصار من ذلك الكفاية..

(٢) خبر قوله «وما يجازى به الحسّ» يعلم من القرينة في الجملة.

﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣] وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرَّهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه. وكنا إذا اشتد بنا الخوف وساءت منا الظنون وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه فيذهب ذلك كله وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة. فسبحان من أشهد عباده جنته قبل لقائه، وفتح لهم أبوابها في دار العمل، فآتاهم من روحها ونسيمها وطيبها ما استفرغ قواهم لطلبها والمسابقة إليها.

وكان بعض العارفين يقول: لو علم الملوكُ وأبناءُ الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسّيوف. وقال آخر: مساكين أهل الدنيا، خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها؟ قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله تعالى ومعرفته وذكره. أو نحو هذا. وقال آخر: إنه لتمرّ بالقلب أوقات يرقص فيها طربًا. وقال آخر: إنه لتمر بي أوقات أقول إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي عيش طيب.

فمحبة الله تعالى ومعرفته ودوام ذكره والسكون إليه والطمأنينة إليه وإفراده بالحب والخوف والرجاء والتوكل والمعاملة بحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته، هو جنة الدنيا والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين، وحياة العارفين. وإنما تقر عيون الناس به على حسب قرة أعينهم بالله ﷻ، فمن قرَّت عينه بالله قرت به كل عين، ومن لم تقر عينه بالله تقطعت نفسه على الدنيا حسرات.

وإنما يصدق هذا من في قلبه حياة» ا.هـ[1].

عباد الله...

وأصحاب القسم الثاني: رأَوْا السعادةَ في تفريج الْكُرَبِ عن المكروبين، والتيسير على المُعسِرين.

ففرّج اللهُ كروبَهم، ويسَّر لهم أمورَهم، وشرح لهم صدورَهم.

(١) «الوابل الصيب» (٦٨- ٧١).

﴿هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فحرّكوا أموالكم - عباد الله - في طاعة مولاكم، امسحوا بها دموع اليتامى، وخفّفوا به آلام الأرامل، وَصِلُوا به الأرحام، تدخلوا الجنة بسلام.

أيها المسلمون...

يقول قتادة - رحمه الله -: «من يتق الله يكن اللهُ معه، ومن يكن اللهُ معه فمعه الفِئةُ التي لا تغلب، والحارسُ الذي لا ينام، والهادي الذي لا يَضِلّ»(١).

وقال داود الطائي - رحمه الله -: «ما أَخْرَجَ اللهُ عَبْدًا من ذُلِّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلاّ أغناه اللهُ بلا مالٍ، وأعزّه بلا عشيرةٍ، وآنسه بلا بَشَرٍ».

هذا هو طريق السعادة الحقيقية. وهذا هو طريق السعادة الأبدية.

فالزموه، وسيروا عليه، ولا تحيدوا عنه.

عباد الله...

إن من عرف اللهَ تعالى فَرَّ إليه، ومن لم يَعْرِفْه فَرَّ منه. ومن فرّ إلى الله، أعطاه الله ما يرجو، وأَمّنه ممّا يحذر ويخاف. وها هو ذا **الإمام جعفر الصّادق** - رحمه الله تعالى - يقدّم لنا وصفَةً علاجية لكل أحوال المؤمن: يقول - رحمه الله -:

عجبتُ لمن خاف ولم يفزع إلى الله في قوله تعالى: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]

فإني سمعتُ قول الله بعدها: ﴿فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٤].

وعجبتُ لمن اغتم، ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وجاء قول الله يعقبها بقوله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي المُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

---

(١) «صفة الصفوة» لابن الجوزي (٣/ ١٧٤).

وعجبت لمن مُكِر به، ولم يَفْزَعْ إلى قوله تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤].

وأتبعها سبحانه بقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر: ٤٥].

وعجبتُ لمن طلب الدنيا وزينتها ولم يفزع إلى قول الله تعالى: ﴿مَا شَاءَ اللَّهُ لاَ قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩].

وعقَّبها بقوله: ﴿فَعَسَى رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْراً مِّن جَنَّتِكَ﴾ [الكهف: ٤٠].

وهكذا يجب على المؤمن أن يكون مطمئنًا، واثقًا من معية الله تعالى.

أيها المسلمون...

هذا يوم عيد، لا ينبغي لنا أن نجدد فيه الأحزان، فلا تذهبوا إلى المقابر، ولا تَجْلِسُوا لتلقّي العَزَاء. اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كُفِيتُم.

صِلُوا من قطعكم، واعْطُوا مَنْ حَرَمكم، واعْفُوا عَمَّن ظَلَمَكُم. دعوا الشقاقَ، والخلافَ والخِصَامَ، واعلموا أن خيركم الذي يبدأ بالسلام.

اللّهم اغْفِر لنا في هذه السّاعةِ أجمعين، وَهب المسيئين مِنّا للمحسنين.

اللهم اغْفِرْ ما عَلِمْتَ، ولا تَهْتِك ما سَتَرت.

اللهم إنّا نسأَلك رحمةً من عندك، تهدي بها قلوبَنَا.

وتجمعُ بها أَمْرَنا، وَتَلُمُّ بها شَعْثَنا، وتردُّ بها الفتن عَنّا.

الخطبة الرابعة والستون

خطبة عيد الأضحى المبارك

إن الحمد لله، نَحْمَدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِه اللَّهُ فلا مضلّ لَهُ، ومن يُضْلل فلا هادي لَهُ.

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ.

وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فإِنَّ أحسنَ الحديثِ كتابُ الله، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحْدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النّار.

أمّا بعد...

الحمد لله ربّ العالمين، أتمّ علينا النّعمة وأكمل لنا الدين، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ [المائدة: ٣].

فاللّهم لك الحمدُ.. أنت نورُ السموات والأرض ومن فيهنّ.

ولك الحمد.. أنت مَلكُ السموات والأرض ومن فيهنّ.

وأشهد أن لا إله إلاَّ الله.. أمر ألاَّ تعبدوا إلاَّ إياه مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

والله أكبر.. الله أكبر.. الله أكبر.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.. أرسله الله بالحق بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا.

اللّهم صلِّ وسلِّم وبارك على سَيِّدنا محمد، وعلى آله وصحبه وَسَلِّم أجمعين.

أما بعد...

فعنوان خطبة اليوم: **تَبْصِيرُ أَهْلِ الإِسْلاَمِ، بِخِصَالِ إبراهيمَ عليه السَّلام.**

عباد الله...

وصف الله تعالى إبراهيم الخليل - عليه السلام - بصفات جليلة، وخصال حميدة: قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِراً لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [النحل: ١٢٠ - ١٢٢].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً ﴾ أي: جامعًا لخصال الخير، إمامًا يقتدى به.

يقتدى به في حال طفولته: عندما جَابَه عُبَّادَ الأصنام، ومعهم أبوه! ثم حطَّم أصنامهم: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥١].

قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره هذه الآية: «يخبر تعالى عن خليله إبراهيم - عليه السلام - أنه آتاه رشده من قبل، أي: من صغره ألهمه الحق والحجّة على قومه.. وقوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴾ أي: وكان أهلاً لذلك» ا.هـ[١].

ثم تتوالى آياتُ الله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ

(١) «مختصر تفسير ابن كثير» (٢/ ٦٢٢) باختصار شديد.

اللاَّعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيرًا لَّـهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢- ٥٨].

جذاذًا: أي حُطامًا.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٧٤].

يقتدى به عندما جابه عُبّادَ الكواكب.. وأقام الحجة عليهم، وبيّن لهم وللدنيا أن الإله الحق لا يغيب، ثم قال بلسان اليقين ومنطق الحق المبين:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩].

وَيُقْتَدَى به في ثباتِهِ وَحُسْنِ يَقينه: لقد وقف أمام النَمروذِ مَوْقِفًا رائعًا، سُجّل في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة: قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

عباد الله...

وعندما حطّم الأصنامَ، اجتمع عليه عُبّادُها، وأرادوا التخلّص منه، ولكن الله غالبٌ على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلاَّ كَبِيرًا لَّـهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَيَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ * قَالُوا

حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَخْسَرِينَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨- ٧٠].

قال أهلُ السِّيَر: «عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغلبوا ولم تبق لهم حجّة ولا شبهة إلى استعمال قوتهم وسلطانهم، وذلك لمّا أعيتهم الحيلة فيه ووجدت موعظتهُ منهم قلوبًا غلفًا وآذانًا صُمًّا.

وذلك أنهم شرعوا يجمعون حطبًا من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدّة يجمعون له.

ثم عمدوا إلى حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار فاضطرمت وتأجّجت وعلاها شرر لم ير مثله قطّ، ثم وضعوا إبراهيم - عليه السلام - في كفّة منجنيق صنعه لهم رجلٌ يقال له: «هيزن» وكان أوّل من صنع المجانيق فخسف الله به الأرض.

فلمّا وُضع الخليل - عليه السلام - في كفّة المنجنيق مقيّدًا مكتوفًا ثم ألقوه في النار، قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل».

كما روى البخاري عن ابن عباس أنه قال: «**حسبنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم حين أُلقِيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قيل له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ** ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

عباد الله...

فماذا كانت النتيجة؟

قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾.

قال ابن عباس: «لو لم يتبع بردها سلامًا لمات إبراهيمُ من بَرْدها!!».

وعن كعب، قال: «ما أحرقت النارُ من إبراهيم إلاّ وثاقه».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم إذ قال لمّا رأى ولده على تلك الحال، نعم الرَّبُّ رَبُّك يا إبراهيم».

وخرج إبراهيم - عليه السلام - من وسط النار لم تمسّ النارُ منه شعرة، وأبطل الله كيد الكائدين ﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الأَسْفَلِينَ ﴾ [الصافات: ٩٨].

وأين يذهب كيد العباد إذا كان اللَّهُ يريد؟

وماذا يملك أولئك الضّعاف المهازيل إذ كانت رعايةُ الله تحوط عباده المخلصين؟

وصدق عليٌّ رضي الله عنه حين قال: «والله ما عزّ ذو باطل ولو طَلَع القَمَرُ بين عينيه، وما ذلّ ذو حَقٍّ ولو قامت الدنيا عليه».

عباد الله...

وَيُقْتدى بإبراهيم عليه السّلام في شِدَّةِ حُبِّه لِرَبِّه، وَحُسْنِ توكُّله عليه:

عندما ترك هاجر وولدها الرضيع «إسماعيل» - عليه السلام - في صحراء جرداء، لا أنيس فيها ولا جليس. فقالت له هاجر: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لن يضيّعنا.

الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر.

فماذا كانت النتيجة يا عباد الله؟

نَبَعَتْ زمزم، ببركة التوكل وحسن الظنّ بالله تعالى. والقصّة معروفة.

وعندما بلغ إسماعيلُ - عليه السلام - السّعي، وقد جاء إبراهيم على كِبَر، وكان - يومئذ - وَحِيده.

ماذا حدث؟

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ *فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴾ [الصافات: ١٠٢، ١٠٣].

﴿أَسْلَمَا﴾ الأمر لله، ﴿وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾ كبّه على وجهه، ورفع السكين..

فماذا حدث؟

يقول ربُّنا الرحيم: ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلامٌ عَلَى

إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصافات: ١٠٤-١١١].

عباد الله...

هذا هو التجرّد لله. هذا هو الإسلام المُصفّى. ثباتٌ، وتوكّل، وتجرّدٌ، وإخلاصٌ، وحسنُ يقين، ومجابهةٌ للباطل بكل صوره وأشكاله وألوانه.

هذه مِلَّةُ إبراهيم التي أَمَر اللَّهُ - تعالى - نَبيَّنا ﷺ باتباعها: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل: ١٢٣].

وهذا هو إبراهيم - عليه السلام - الذي أمرنا الله تعالى أن نقتدي به:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤].

فاحْذُوا - **عباد الله** - حَذْو أبي الأنبياء إبراهيم، واقْتَفُوا أَثَره.

اقتفوا أثره في إخلاصه.

واقتفوا أثره في كرمه.

واقتفوا أثره في ثباته.

واقتفوا أثره في حسن توكّله.

واقتفوا أثره في دعوته إلى الحق.

فلا سعادة لأمة الإسلام إلاّ بتصحيح عقيدتها، وتجريد إخلاصها، وحسن عملها.

أيها المسلمون...

خذوا من دواء الإسلام لعلاج أمراضكم الظاهرة والباطنة.

كونوا يدًا واحدة، تساندوا ولا تتعاندوا، صلوا الأرحام، وارحموا الأنام.

اللّهم اجعلنا من أحبِّ خَلْقِك إليك، وَمِنَ المقربين لديك.

الفهرس